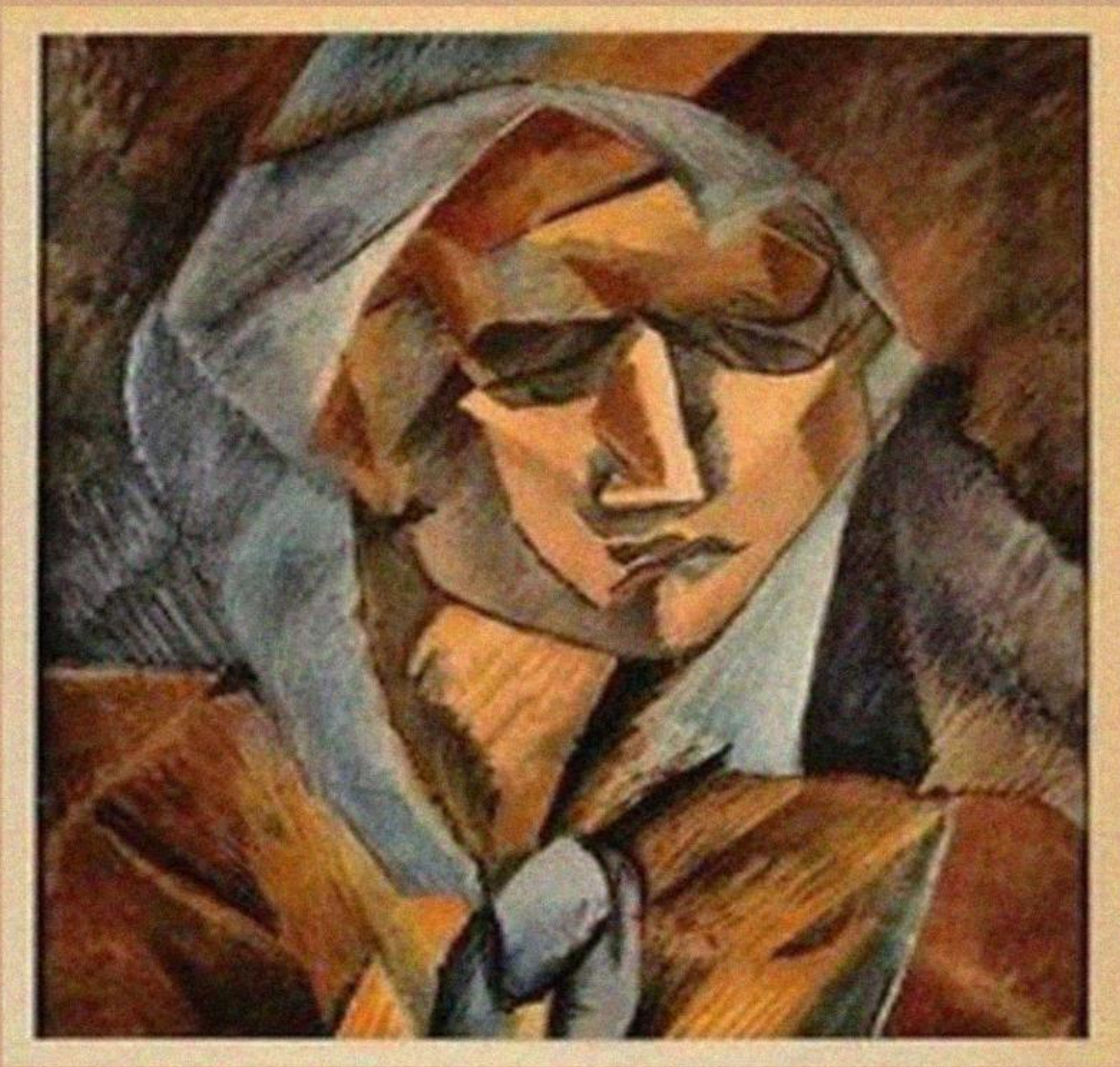
الاعمال الكاملة

يوسف إدريس



الروايات 1

تصميم غلاف: علي مولا

دار الشروق

يوسف إدريس

الروايات

الطبعة الأولى
١٩٨٧م - ١٤٠٧هـ

دار الشروق

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا : داشروق
تلكس : SHOROK 20175 LE

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا : شروق
تلكس : 93091 SHROK UN

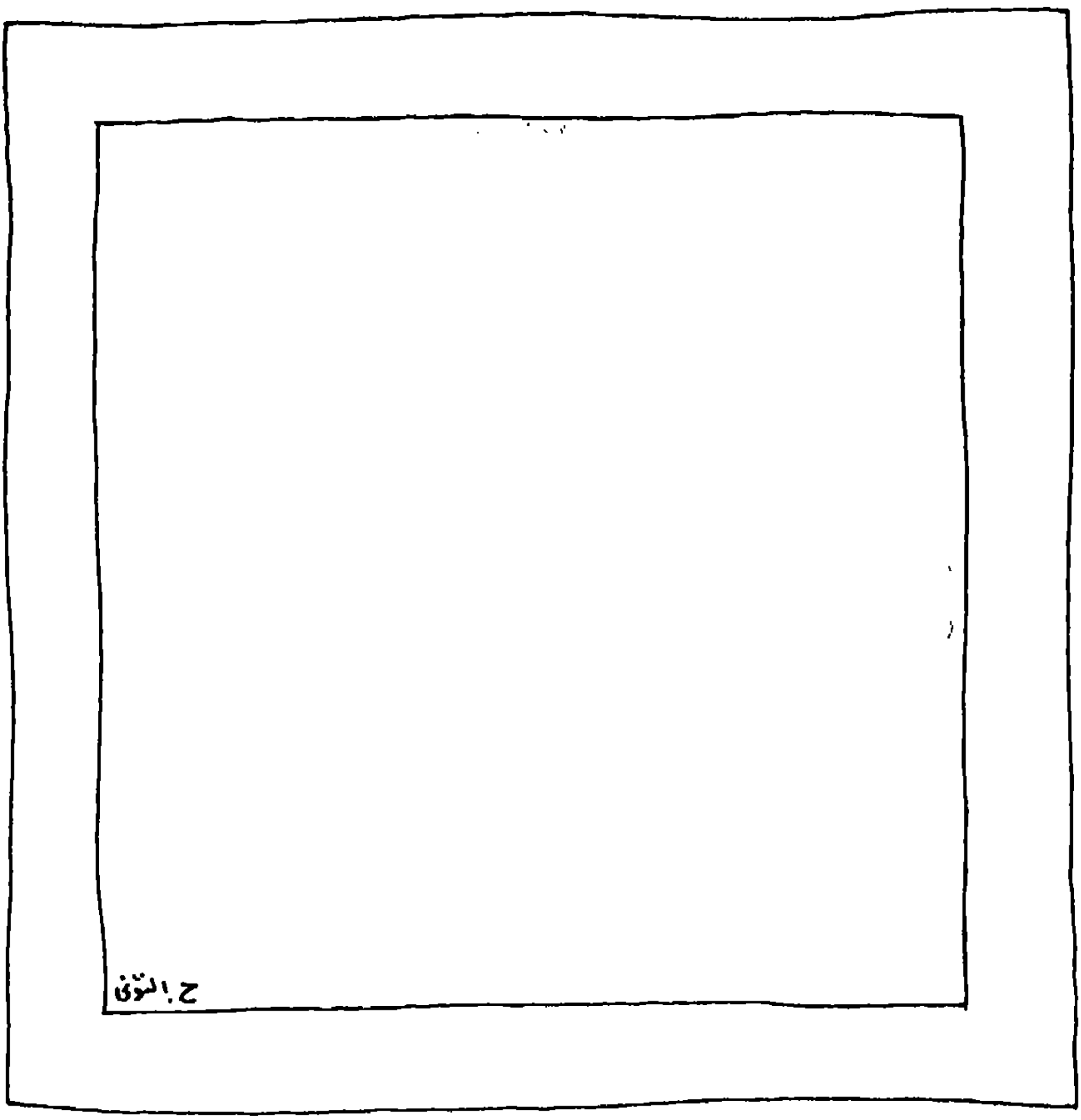
SHOROUK INTERNATIONAL; 316/318 REGENT STREET, LONDON W1, UK, TEL: 637 2743/4
TELEX: SHOROK 25779G

يوسف إدريس

الروايات

ح . التونى

نيويورك



نيويورك ٨٠ ـ فيينا ٦٠

١

هو: من فضلك يا مدام.. بالمناسبة.. أهذه هي الطريقة الصحيحة في الحديث الى السيدات. أم يجب أن اقول يا «مام»؟

(نظرة مفاجئة منها، ثم دهشة، ثم امتعاض قليل).

هي: ولماذا لا؟.. فليكن.. قلها سيدتي إن شئت أو «مام» إن شئت.. لم لا؟. هذه طريقة شائعة جداً هنا.

هو: سيدتي.. من الواضح أنك.. أنك..

هي: أجل.. أجل.. لأختصر وقتي ووقتك، أنا(Call Girl) أتعرف معنى هذا؟.. لأختصر وقتي أكثر. أنا ممن يسمونهم (المومسات).

رغم أن الاجابة لم تكن مفاجأة له.. إلا أن الطريقة كانت منقضة سريعة.. وعقله يعمل بسرعة البرق.. يردد السؤال أو الاجابة عدة مرات لا ليتأكد بل ليستوعب.. بعد ما استوعب وأنب نفسه على أنه هو الذي خجل.. رفع رأسه وواجهها.. كان وجهها يصنع زاوية ٤٥ أفقياً ورأسياً. أما عيناه فقد كانتا في محجريهما ،هذا صحيح ،ولكن زاويتهما كانت في وضع المسقط الرأسي حيث الحدقة إلى أعلى، ولكنه كان كمن أصبح يرى ببياض عينيه.

هو: (مونولوج داخلي) مومس؟!.. لماذا يسمى كل شيء هنا باسمه تماماً على حقيقته؟ ألا يخجلون؟.. على أية حال نحن أكثر أدباً، سموه نفاقاً أوادعاء، ولكنه أرحم من الحقيقة الصارخة، والأسماء التي بالضبط على مسماها. مومس!. الكلمة بشعة بأية لغة تقال حتى لو كانت الفرنسية ومومس سارترها الفاضلة، مومس. وابل من «التابوهـات» والتابلوهـات والمناظر يتساقط متوحشاً كمطر نيويورك.

ولكن هناك حقاً.

والحق يجب أن يقال.

سيدته تلك التي خاطبها لا تمت الى البغـي شكلاً أو موضوعـاً بأية صلة، ترتدي منظاراً غيرشمسي (نظارة نظر) على آخر صيحة، وهو يعبد مرتديات النظارات. عيون مرتدياتها في العادة تتضح وتدق وتفصح عن مكنونها من اخمص القدم الى أدق شعيرات النوازع التي غالباً ما تتعلق بنيتها نحو الرجل.

مومس!.

جديدة في الكار حتماً، يبدو وكأنها لم تبدأ احترافها إلاّ منذ الأمس فقط. ولكن المحدد والمؤكد أن هذه فتاة داخلهـا مغنـاطيس قوي غير محترف يشدها الى جنس الرجل، حتى قبل أن يشد الرجل اليها.

هو: (مونولوج خارجي) سيدتي.. أو ما تنطقونـه بالأميركية «مـام»؟ اريد أن أقول لك شيئاً واضحاً قوياً ومنذ الآن. أنا جالس هنا قبلك. وقد لاحظت أنك حين جئت فتشت المـكان بناظـريك ورغـم خلـو معظـم المقاعد اخترت الكنبة التي اجلس على طرف منها لتجلسي على الطرف الآخر. ثم لاحظت ثلاثة رجال على التوالي تركوا جلساتهم الانفـرادية على البار وحاولوا التودد اليك. عن عمد كنت ألاحظـك، بل بلـغ من

ملاحظتي أني رثيت لك وحمدت الله أنه لم يخلقني أنثى، ولم أختر من أنوثتي أن أكون نديمةرجال،فقد كان الرجل الأخير سميناً مجعلصاً، لا يصلح الا للضرب على القفا، وقد لاحظت ايضاً انه يغريك ويذكر اسم الشركة ذات السمعة العالمية الرهيبة التيْ يعمل بها.

هي: (مقاطعة) وكانت له رائحة.

هو: شيء مؤسف ومقزز. ولكنك حرة، وأنت اخترت أن يختارك الرجال أو يفرضون عليك اختيارهم. وأنت أيضاً حرة، ولكن حريتك لابد أن تتوقف هنا حيث أقول لك. إني ايضاً لاحظت أنك رفضت الرجال وكان أغلبهم منتفخي المحافظ والأوداج لأنك وضعت عينك عليّ. بل اختلست أكثر من نظرة لي أو ناحيتي. وأنا أحب أن أكون صريحاً معك الى آخر حدود الصراحة. أنا أحتقر تماماً نوعك.. ولا أستطيع أن أتصور أن إنسانة تبيع جسدها مهما بلغت حاجتها الى النقود، وأنت لا يبدو أنك تتضورين جوعاً، بالعكس في أصبعك خاتم من البلاتين لا يقل ثمنه عن الألف دولار. نوعك أشمئز منه، أحتقره، أتقيؤه وأنا أنظر اليه. وبصراحة أكثر أنا لا أنتظر أحداً، لا صديقاً ولا صديقة، ولكني متعب تماماً وجلستي على طرف الكنبة مريحة وغير مستعد أبداً لتغييرها.

(عجيب أمرها.. تسمع.. تستوعب.. لا تغضب، وكأن الكلام تماماً غير موجه إليها.. خذي إذن).

هو: (مواصلاً) أحتقر نوعك إلى الحد الذي لا يمكن أن يتصوره عقل كعقلك لا ينفعل حتى بالشتائم. وبلا لف أو دوران، لقد رفضت المتقدمين السابقين لك لأنك ـ لا أعرف لماذا؟ ـ واضعة عينك علي. وبكل وضوح أقول لك إني مستعد أن أصحب غوريللا ولا أصحبك أو حتى أكلمك فالمسألة عندي مسألة مبدأ،وأنت ومثيلاتك أعتبرهن أعداء.

لو كنت مجرماً بالسليقة لقتلتهن. لست زبونك اذن ولن أكون، فإما أن تغادري المكان، وإما ابحثي عن زبون، فأنا يضايقني أن أكون السبب في خديعة حتى ولو كانت لمخلوقة مثلك.

استدارت ناحيته تماماً. . شده. . المحترفات عنده كائنات ملطخات الوجوه بالماكياج المبالغ فيه، والشعر لابد باروكة أو مصفف بطريقة تلفت النظر، هكذا كان يراهن ومن على بعد كيلو يتعرف على سحناتهن في القاهرة أو في أي عاصمة دنيوية اخرى. هذه الجالسة بجواره لا تضع إلاّ القليل جداً من الماكياج. وجهها طبيعي تماماً أو يكاد. منظارها في استدارة أنثوية صارخة، ولكنها غير مقصودة. لو صادفتها في مكان آخر لحسبتها نائبة رئيس العلاقات العامة في هيئة الأمم المتحدة (نائبة وليست رئيسة. فهي أبداً لا يمكن أن تكون إلا بين الخامسة والعشرين والثلاثين). لا ابتسامة دعوة صريحة لزبون. لا اهتمام صارخ بما يفعل أو يقول، أنفة وكبرياء دون افتعال. محترمة وكأنها تقدس عملها المحترم.

بشبح ابتسامة ارجوانية تتواءم تواؤماً أنيقاً مع (روجها) غير اللامع. تقول:

هي: أفهم من هذا أنك تريدني أن أغادر مكاني؟
هو: أبداً أنا لم أقل هذا.
هي: اذن لماذا لا تغادر أنت كنبتي؟
هو: هذه ليست لك وليست لي، إنها ملك الكافتيريا البار، وليس في نيتي أن أغير أبداً مقعدي.

هي: المسألة إذن أنك لا تحب البغايا.

نيويورك

هو: لا هن ولا شبيهاتهن ولا حتى التي تقبل الحب لقاء عشاء أو هدية. إنه لشيء بغيض بغيض وحتى لا يمت إلى الحيوانة نفسها.

أدرك أنها تستعمل طرف لسانها الناعم. لا. لا يمكن أن تكون قد بدأت الاحتراف من أمس. إنها أستاذة احتراف. الجملة التالية ستسحب الاجابة من لسانه مهما قاوم وعصلج. ماذا يفعل؟ هذه أول مرة في حياته يجلس فيها كتفاً في كتف الى محترفة، بله يبادلها الحديث. في اقامته في عاصمته وأسفاره تعرض للكثيرات، للهاويات بهدايا وللمحترفات بنقود ولكنهن كن دائماً خجولات، حساسات، ما أن يشيح بوجهه، أو تبدو عليه سيماء الامتعاض حتى ينصرفن عنه، إما بالنظر الى الجهة الأخرى أو البحث بقرون الاستشعار الخفية عن زبون آخر، أو في أحيان بمغادرة الجلسة أو المكان، هذه نوع جديد. إما أنها واثقة من نفسها ولا ثقة (نيرون)، وإما أنه النوع الذي لايخجل، ولكنه يخفف وطء التحايل. أو ربما لديها وقت تريد ازجاءه.. أو.. هذا هو الاحتمال الذي يرضي الغرور حقيقة، فضلته أو تريد تفضيله. لا تداعب غرورك (أنت وليست هي) يا ولد.

هي: حقيقة لماذا لا تحب المحترفات؟!

هو: لأني أومن أن الحب.. حتى الجسدي.. لا يشترى بمقابل.

ضحكة طويلة.. فورية جداً.. لا تشبه أبداً حتى ضحكات نساء نادي الجزيرة.. أكثر تحفظاً بكثير.. على الأقل نابعة من القلب. يعقبها مباشرة، نفس جملته السابقة:

هو: لأني أومن أن الحب.. حتى الجسدي.. لا يشترى بمقابل.

ضحكة اخرى.. كمية السخرية فيها أوضح، وموضوع تحتها خطمن رموش عينيها، وكأنها تضحك على عبيط.. أو على الأقل كلام عبيط.

هو: أفندم. (بالعربي)؟
هي: نعم. . ماذا تقول؟
هو: أفندم؟
هي: أية لغة هذه؟
هو: لغة.
هي: جريكي؟
هو: لا.
هي: بولندي؟
هو: لا.
هي: من أي بلد أنت؟

(لا أريد أن أنساق. . طرف لسانهايتندى،وكأنما بسائل معطر منزلق. . خشونة لسانه بدأ ريقها يزداد تمهيداً لما هو أخطر وأفدح. . أن يجف تماماً. لا يمكن أن يحدث هذا. . تلك امرأة تبيع أعز ما تملك المرأة بنقود. . تعامل جسدها على أنه كومة بطاطس. أو حزمة فجل. الاحتقار يتصاعد من جوفه ليملأ حلقه. . حتى رائحتها «برفانها» ورائحته استحالتا الى رائحة كرائحة سوق الخضار واللحمة في باريس «معدة باريس»، بل تهدد بأن تتحول الى رائحة كرائحة رصيف الجلود على امتداد الطريق الخلفي لميناء الاسكندرية).

هو: أفندم؟
هي: من أي بلد أنت؟
(جاوبها يا خجول بغلظة لكي تجلو).
هو: من مكان ما من العالم.
هي: وماذا تعمل؟

نيويورك

هو: أي عمل.

هي: ماذا تعني أي عمل؟ كل انسان لابـد له من عمـل. ما عملك أنت؟

هو: عمل من الأعمـال التـي يقـوم بهـا هؤلاء الأنيقـون الحليقـون المكومون أمامك على مناضد الكافتيريا البار.

هي: بزنس مان؟

هو: مان من غير بزنس.

هي: تحاول أن تبدو غامضاً لماذا؟

هو: لأني لا أأتمنك.

هي: حتى على نوع عملك؟

هو: حتى على نوع عملي.

واجهته تماماً. . يا ألطاف الله! أجمل أنثى. ليس في الكافتيريا البار فقط ، ولكن منذ وقت طويل لم يلمح (بله أن يتحدث ويجاور ويحاور ويترازل على فتاة بهذا الجمال)، لا ليست عيوناًخضراءوشعراً ذهبياً وفما كفم برجيت باردو. . لونها قمحي فاتح أحمر. . ملامحها. . صاغها عقل حساس قاذف لاقط. ذلك الجمال الذي صاغـه الله بحـلاوة، وصاغتـه صاحبته وشكلـت ملامحـه بأحـد ما يكون الـذكاء بحيث مغنطتـه. تراه فتتجذب عيناك ولا تريم. فتاة كان تماماً لابد يحبها، بل من أجلها يترك أدق مهامه، فمن أجلها وأجل مثيلاتها يستضاع العمل ويضيع الرجل.

ولكنها تبيع جسدها. هذه التحفة معروضة للبيع.

فجـأة ينبثـق من داخلـه حب استطـلاع ذئبـي تاجـر، كالسيدات

المصريات المتجولات في أكسفورد استريت يحببن في التو أن يعرفن كم الثمن، وآخر ما يفكرن فيه الشراء.

هو: كم ثمنك؟!

هي: لمرة أو لساعة أو لليلة أو لشهر؟

هو: يا نهار أبوك أسود!

هي: أنت تتكلم الانجليزية بطلاقة، فلماذا هذه اللغة الغريبة؟ أأنت خائف أن تواجهني أيها.. الـ.. رجل الذي لا يحتمل فكرة أن تعرض عليه سيدة نفسها بمنتهى الصراحة والمواجهة والوضوح.

هو: كنت أسبك.

(بمنتهى بذل الجهد قالها).

هي: (بمنتهى البساطة والتفتح): أي نوع من السباب. لدينا في نيويورك أشهر أنواع السباب. (بول شيت) ـ أي ـ تبويلة الثور ـ، الى كافة انواع الافرازات والفتحات والنتوءات.

هو: (مكملا): وأجساد الأمهات والاباء والأخوات.

هي: لا أفهمك.

هو: (مهاجماً): وهل تبويلة الثور مفهومة.. كل الشتائم أصلها غير مفهوم.. وحبذا لو لم تكن مفهومة لأنها حينئذ تصبح أقذع أنواع الشتائم.

هي: وهل كنت تشتمني؟

هو: كنت أندهش شاتماً.

وقرر أن يصمت، مهما حاولت لن يتكلم، استدار الى الكافتيريا البار. معظم النساء الحاضرات لا تعرف إن كن محترفات أو غير

محترفات. (لم يعد ثمة فارق على الأقل في هذا المكان الغاص). احتقر النساء الحاضرات والغائبات والجميلات والقبيحات.

كل منهن استعار منها (أو أعارها هو) **قناعاً** منها، فقد كان من الواضح أنها تملك سبعين قناعاً.

(نظرت ناحيته. أطالت النظر. الابتسامة تحولت الى ابتسامة (شغل) أو (شبه شغل).

هي: كنت تسأل عن ثمني؟

احتار.. يجيب ويفتح باب حديث واربه تمهيداً لاغلاقه؟! شيطان داخلي صغير جداً من حب الاستطلاع ينقركتكوتاً قشرة ارادته التي لا تزال رقيقة كقشرة بيضة نيئة).

(صمت).

(أجابت بابتسامة أدركت بذكائها أنها حملتها أكثر مما ينبغي الموقف من (بيزنس). رغم النور الخافت والمخفت والمصوب لمح في عينيها شيئاً دقيقاً جداً. واهناًجداً،ولكنه قطعاً وبالتأكيد يمت اليه).

رئيس الجرسونات.. بدلة سوداء أنيقة خليقة بسير مايلز لامبسون آخر مندوب سام لبريطانيا في مصر، ولكنه أكثر منه وسامة ونحافة واستقامة. وجهه صخري وكأنه كبير القضاة في محكمة نقض. جاد. أقبل عليها. ظنه على طريقة زملائه في عواصمنا جاء يطردها أو يستدعيها، فقد لمح أجمل شعر فضي ـ أجمل من شعر عمر الشريف ـ يهمس له من مقعده العالي في زاوية البار البعيدة. كان قفاه وشعره الخلفي المفضض المفلفل هو الذي يواجهه إذ بعد همسته (للميتر دي بلاس) استدار مواجهاً رجلاً سميناً بيضاوياً أسمر يضع فوق رأسه غطاء أسيوياً).

جاء الكونت جرسون، بوجهه الجاد الدءوب .انحنى على أذنها. بضع كلمات. استمعت. ابتسمت. هزت رأسها رافضة ببطء، ونظرات موجهة الى مقعد الداعي البعيد ومؤدبة أيضاً ومبتسمة رفضت.

(من الواضح أن اختيارها تم، وأنها استقرت عليه ـ نقبك على شونه ـ يا سيدتي المومس المحترمة).

ناحيته.. بلا ابتسام.

هي: كنت تسأل عن ثمني؟

(كسر الكتكوت المستطلع قشر البيضة وأطل برأسه اطلالة مرعوبة اطلالة أول مرة تتفتح عليها عين كتكوت ما رأى العالم ولا أرى شيئاً أبداً وفجأة عليه أن يسأل ويعرف ثمن البغي الجالسة في بار الكافتيريا النيويوركية احتراماً واحتشاماً من ـ على الأقل ـ جاكلين أوناسيس، بل وأكثر جاذبية وجمالاً. من ذلك النوع يتحول فيه كتكوته المدهوش الى ذئب كازانوفي جيجولي مستعد لكسر القشرة الأرضية كلها، والدخول في الحال الى منطقة فقدان الوزن والجاذبية الأرضية والشمسية والقمرية والمجربة حتى).

هو: نعم.. كم ثمنك؟

هي: للمرة مائة دولار.. لليلة ثلاثمائة.

هو: (مواصلا وكأنه عادل امام أو فؤاد المهندس، فالريحاني رحمه الله كانت ستفر من عينه دموع المسكنة). وثمنك لشهر بأكمله؟

هي: إذا أعجبتك ثلاثة آلاف (السعر هنا مخفض لأنه كما ترى بمعدل مائة دولار في الليلة الكاملة الواحدة).

هو: واذا لم تعجبيني؟

هي: أعتقد أني أتحدث الى رجل ذكي.. كيف لا أعجبك لليلة وتريد السؤال عن ثمن شهر؟

(نبتت نقطة عرق باردة واحدة في أخدود رقبته من الخلف، وكأن شعر قفاه أمطرها رذة صيف).

(إنه أمام ذكية جداً.. هذا ليس حوار بغايا. أول مرة رآهن كان طالباً في الجامعة، وكان زميله في الشقة يغواهن مثل أبيه، بل أحياناً كان الأب والابن يشتركان معاً. واشتهر هو بحجرته واشتهرت كذلك شقتهم بين بغايا شارع قصر العيني والمنيرة وحتى المدبح، وكانت فتيات آخر الليل على الأقل أولئك اللاتي لم يظفرن بزبائن. قصيرات نحيفات متواضعات الملابس والهيئة معظمهن فيما كان يعتقد يعانين من أمراض سرية، بل أنه عالج واحدة منهن من الجرب، وظلت الشقة تحفل برائحة الكبريت زمناً. كن يأتين.. ثلاثاً.. أربعاً وربما خمساً ينمن في الصالة.. على البلاط.. بلا غطاء.. على الأقل هذا مأوى أحسن من الشارع وعمود النور.. ما أن يضعن رءوسهن على البلاط حتى يذهبن في نوم عميق.. واحدة منهن كانت تستيقظ وتوقظهن فزعة تصرخ من كابوس مزعج.. فسرته لهم في لحظة رعب أنه عمها الذي رباها واعتاد أن يضربها وينالها.. ولماذا الصراخ؟ لأني اعتدت على أن أنام مضروبة معتدى عليها، ولماذا الفزع؟ لأن النوم العادي يسبب لي الكوابيس؟ أجل. كابوس أن أموت، فالضرب يشعرني أني حية، والاعتداء يجعلني أهفو وأحلم وأعيش على أمل ليلة اخرى).

لك الله يا عوض، دفعه حب الاستطلاع ذات مرة لتفتيش كيس نقود واحدة منهن (فلم يكن لأيهن سوى واحدة ـ اسمها تحية ـ حقيبة يد) في

الكيس خمسة قروش وتعويذة زرقاء.. وبضعة (بنسات شعر) وخطاب قديم جداً من أخيها ليس فيه سوى اهداء السلام، أما المحير فهو زجاجة صغيرة مملوءة لآخرها بصبغة يود مركزة، حسبها تستعملها للتطهير بعد مزاولة الشغل، ولكن، في الصباح كان حب الاستطلاع أقوى، فصبعة اليود كاوية لاهبة، اعترف لها بتفتيش الكيس، وسألها عن صبغة اليود الزجاجة. بلا دراما مستقاة من الأفلام، وبلا انفعال قالت:

- هذه لأشربها اذا أمسكوني.
- من؟!
- بوليس الآداب.
- ولماذا تشربينها؟ ان هي الا بضعة أيام حبس ولا تستدعي الانتحار.

قالت:

- معظمنا لدينا زجاجات مثلها، ومن علمتني الكار علمتني احتياطياً حمل الزجاجة.
- لتنتحري؟
- وايه يعني؟
- تموتين؟!

- انـي اعيش كالكلبة، ولا يجري ورائي سوى كلاب الصائدين (تقصد أفقر صائدين، أفقر من الكلاب الضالة).
- اذن لماذا لا تزالين تعيشين، ولماذا لم تشربيها الى الان؟
- الروح حلوة، وهذه آخر ملجأ.
- هل استعملتها؟
- لا.. واحدة زميلتي عملتها.
- وأفاقت؟!

ـ لا تزال بالمستشفى. وعلى العموم ماذا يحدث؟ . سيحدث واحد من اثنين اذا انزنقت . . إما أن أشربها وأموت وأستريح من لف الشوارع ونوم البلاط والكي بأعقاب السجائر جلباً للمتع الجنسية الشاذة، وإما ألا أموت ويأخذوني إلى المستشفى ـ بوليس آداب القسم غصب عنه يأخذني إلى المستشفى ـ ورغم ما يصورونه من دخول أنبوبة غسيل المعدة فهو كله أنابيب وكله سوائل وإدخال وغسيل، إنما المهم أني سأضمن أن أقضي عدة أيام بالمستشفى، أكل وشرب ونوم، ولا توجد رائحة رجال.

ـ ولكنك ستخرجين مرة اخرى للكلاب الصائدين.

ـ أي نعم ولكني أنتهز فرصة وجودي بالمستشفى وأعبيء زجاجة أخرى من صبغة اليوم المركزة.

ـ من يعبئها لك؟

ـ التومرجي.

ـ ببلاش؟

ـ لا شيء ببلاش خمس دقائق مع التومرجي في مرحاض من مراحيض قصر العيني الكثيرة.

* * *

هي: انك تبدو ذكياً جداً. فراستك لم ارها في انسان. ولكنك احياناً تقول أشياء. . آه. . أشياء لا تتفق مع ذكائك. . آه فهمت، أنت عالم أستاذ جامعة انت. لا. أنت أصغر من أستاذ. مخرج مسرح. . كنت سأقول انك ممثل. ولكني لم ألحظ أنك أديت معي لحظة واحدة من التمثيل. من أنت بالضبط؟ ومن أي بلد ؟ وماذا تعمل ؟

(مصرة هي أن ينزلق).

هو: وماذا يهمك يا سيدتي من أكون أو ماذا أعمل؟ لم أصبح بعد ولن أصبح زبوناً ينزلق فماذا يفيدك أن تعرفي من أكون؟

هي: لأننا نتحدث.. اننا تحدثنا الآن نصف ساعة بأكملها، ولقد عرفت أنت من أنا.. وللآن أنا لم اعرف من أنت.. وهذا.. وهذا..

هو: قلة ذوق.

هي: لا. اسمح لي هناك كلمة أليق.. الخوف.. أنت خائف مني الى غضاريف مفاصلك. أشعر بمشدات ركبك الداخلية ترتجف.. ماذا يرعبك؟

هو: صيغة اليود المركزة.

هي: صبغة اليود المركزة؟

هو: نعم. في حقيبة مومس مثلك.

حقيبتي ليس فيها من سوائل غير رائحة (الاستيلويدر) أحدث وأروع بارفان في العالم اليوم. شم.

(فتحت الحقيبة.. أخرجت زجاجة البارفان.. فتحتها. أمسكت يده فجأة صبت على ظهر يده نقطة. اشتعلت النار في الجلد. كان يطلق صرخة تعبر الأطلنطي على متن كونكورد.. بدا الألم المروع واضحاً على معالمه).

هي: شمها، انها أعظم بارفان اكتشفته سونيا ماجدلينا.. شم.

شم رائحة تحت الأبطلسيدة لم تعتد النظافة، ورغم هذا فالجو يحفل خارج ـ نقطة جلده ـ ببارفان تسكر رائحته وتعم جو الكافتيريا البار، وتحيل رائحة المشروبات (وفواكه البحر) والدخان المتصاعد من

السجائر والسيجار الى بخور في معبد هندي لا يدخله إلا الرهبان ليستعينوا بما تشيعه الرائحة من قدم ضارب في أعماق الكهنوت والأسرار القدم جنباً الى جنب مع حداثة حملت الانسان الى القمر وأطلقته أثيراً في أثير، ولكن بقعة جلده يعيد شمها (مصدر هذا كله) فلا يجد سوى رائحة تحت الأبط الحامض بالعرق، وينتقل البواخ المتصاعد منه يجعد ملامح وجهه ويغلق طاقتي أنفه ويحس بالمعدة وصلت للهاة اللسان.

تنظر هي الى ملامحه مرة، تتحسس بفمها شماً رائحة المكان تضعه على ظهر يدها وتستسلم للرائحة تدغدغ وتخدر خياشيمها الفراشية يستحيل وجهها هو الآخر الى أثير، ثم يندك فجأة الى سابع أرض أثر لمحة الى ملامحه.

هي: انه أغلى عطر في العالم. ألا تعرف هذا؟

هو: أعرف.

هي: اتعرف كم ثمنه؟

هو: أجل.

هي: كم؟

هو: خمس دقائق في مرحاض من مراحيض قصر العيني.

٢

هي: أنت «معقد» يا عزيزي عقدة خطيرة، أتعرف لماذا تكره تماماً أن تزاول الحب مع امرأة محترفة؟

(أن تتحدث مع شخص، حتى لو كنت تكرهه، وتمضي في الحديث فانه يحدث رغماً عنك وعنه نوع من المعرفة، والمعرفة تقلل رغماً عنكما العداوة، أو بالأصح تدفع بها الى مناطق عدم الانفعال المباشر. يعرف لماذ يكره المحترفات ولا حاجة به أن يعرف المزيد).

هو: لأني أقدس الجسم البشري وبالتالي روح الانسان.

هي: ماذا تعني بتقديس الجسم البشري؟ أم تقصد الجنس البشري.

هو: (لنفسه) يا بنت الحرام وربيبة الحرام. كفى عن تدقيق المعاني فلا أنت برتراند رسل، ولا رئيس المجمع اللغوي للتعبيرات السكس جسدية. نعم لأني أقدس الجنس البشري، وبالتالي أقدس الجسم نفسه والعقل نفسه والاحساس البشري نفسه فأنا لست ثوراً، والمرأة ليست معزة أو بقرة، ولأني لست كلباً ضالاً والمرأة ليست كلبة مصابة بسعار.

هو: (لها) أفهمت ما لم أنطقه؟

هي: أنت نصف مثقف. رغم أني أعرف الان عنك على الأقل ثلاثة أشياء!

أولاً: أنت كاتب.
ثانياً: أنت ما زلت طفلاً عاطفياً ونفسياً.
ثالثاً: ويبدو أن السبب الحقيقي أنك استكثرت ثمني.

هو: تريدين أن تزاولي طريقتكم المحببة: الهجوم والاتهام لأقف أنا موقف المدافع قليل الحيلة.

هي: لا أريد أن أثبت لك أني أنا المرأة المحترفة أفهم في الطبيعة البشرية أضعاف ما فهمت أنت بكل خبرتك ودراستك وموهبتك.

هو: أنت المرأة المحترفة بيع جسدها.

(قالها باشمئزاز من تخيل أنها تعرض لحمها الحي في فترينة (ديب فريزر) في سوبر ماركت حديث، ولحمها ملفوف في ورق نايلون ومقطع قطعاً، الساعة بمائة دولار والليلة بثلاثمائة وهكذا).

مرة اخرى أقول لك. المرأة المحترفة بيع جسدها.

هي: تسمونها هكذا في بلادكم. من أي البلاد أنت؟ ملامحك لا شرقية ولا غربية ولكنها مست في شيئاً.

هو: لن أقول لك أبداً من أنا وماذا أعمل، وحديثنا طال، ولكن الغريب أني لم أزهده، مع أني بصراحة محتقر مبدأ الحديث.

هي: أنت لم تزهده لأنك تحس أنه يقترب بسرعة كبيرة من تعريفك من تكون أنت بالضبط.

هو: أنا انسان هذا العالم وهذا العصر.

هي: أنت انسان أمك وأبيك وعائلتك ومجتمعك وتوقف نموك العاطفي والوجودي.

(أهو يحلم؟ «مومس» بكل معنى الكلمة تتكلم بكل معنى ومنطق وحتى مصطلحات، ليست مثقفة عادية، ولا حتى طبيبة نفسية، ولكن هذا فوق الاحتمال).

هو: (وكأنه أهين) تقولين توقف نموي العاطفي النفسي؟ (لم تقل هذا التعبير،ولكنه اضافة من عنده ليكون فوق كل ذي علم عليم).

هي: أجل أنت مكسح.

(علمه المجتمع الاوربي الامريكي الغربي، بل ربما كافة المجتمعات، انك اذا لم تهاجم هوجمت، واذا ملكت فصاحة وحدة الهجوم كسبت القضية. أدبنا الزائدومعاملتنا الدمثةاكتسبناهما من كثرة ما تحدثنا بصوت خافت جداً، لا نسمعه حتى لا يسمعه طغاتنا. في الحقيقة غاظته كلمة توقف نموك)..

هو: هل ترينني قزماً؟

هي: جسدك فارع، وقد لمست فخذك من غير قصد، عضلاتك ليست لينة يكسوها دهن الحياة اللينة التي يبدو أنك أصبحت تحياها. عضلاتك كل عضلاتك هي الرجل الناضج الوحيد فيك.

هو: أنا كاتب أيتها الـ..

(التردد هنا معناه أنه بدأ يشك في الوصف والصفة).

هي: قلها. أتحسب أني أخجل منها؟ الجميع هنا يعرفون اني مومس. أنا أقدم نفسي هكذا. ولماذا أخجل؟ أنا هكذا فعلا مومس. وهل يخجل أحد من وظيفته؟

هو: ولكن مهنتك مخجلة. فاللص يعمل لصاً،ولكنه لا يفخر بعمله الى درجة تقديمه لنفسه على أنه لص.

نيويورك

هي: لأن اللص كلمة لا يطلقها على نفسه، وانما الناس هم الذين يصفونه بها. ثم ان اللص يسرق ما لايملك،وأنا أعطي ما أملك. الحقيقة أن الناس هم الذين يسرقون مني وليس العكس. وحتى معظم الناس يعتبرونها أحياناً مجرد تعبير آخر لمهنة (رجل أعمال). وأنا أيضاً (سيدة أعمال) بطريقتي. وأنت الآخر (رجل أعمال).

(كالأمطار الهادرة الغزيرة تكاثرت عليه الخواطر. فجأة دوى في الخارج أعنف انفجار سمعه في حياته. خيل إليه أن الكرة الأرضية نفسها اصطدمت بكوكب ضال في الفضاء. ولم يكن الأمر سوى رعد نيويورك والساحل الشرقي. رعد يزلزل طبول الآذان فتدق دقات الرعب والهلع. رعد لم يسمع بمثله في حياته، وبرق حقيقي لم يره إلاّ في أفلام السينما. هو لأول مرة بخلفية وأمامية من رعد وبرق يقف مجرداً من كل هالاته أمام امرأة عملها أن تتعرى، ومع هذا فهي أمامه في كامل ملامحها وملابسها وهو الذي يرتجف برداً ورعداً، وبصراحة رعباً وخوفاً. في بلده يكفي أن يقول فلان حتى تنحني الأفكار وتنطق النظرات بآيات التمجيد والتسليم. خلال عشرات الأعوام تكونت له قلعة من أفكاره وشخصيته وعقله وفراسته وذكائه وموهبته. يخجل حين تنحني النظرات أمام قلعته، ولكن حين يصبح الخجل عادة والتسليم هو القاعدة يستحيل الى نوع من الجبروت المطلق والفرعنة، وفيه، وفي كل انسان فرعون محبوس ينتهز الفرصة ليتسيد.

هذه امرأة عرفته تماماً ولم تعرفه أبداً. حادثها وكان الحديث محاكمة واضح أنه فيها المتهم. هو دائماً حين يتكلم تنبع الكلمات من مصدر في داخله يعرفه تماماً. مصدر التلقائية والصدق. هذه المرة، الكلمات رداً على صراحتها، موضوعيتها، وقاحتها، تخرج كالعادة تلقائية وصادقة

ولكن المصدر المصدر ـ الذي كان دائماً متأكداً من صادق وجوده وصفاء صدقه، بدأ يهتز ايمانه به. اختلطت الكلمات بعروق الصدق والكذب لم يعد بالضبط يدرك. الارتباك يهدد بأن يصبح شبه تام.

فليمسح هذه المرأة من على ظهر الوجود، وجوده على الأقل، بل فليسمح المكان نفسه من الوجود).

هو: (بصوت مبحوح بالغيظ ومشروع جريمة) اسمعي يا بروفسيرة.

هي: نعم أيها. أيها الطالب. (ضحكة ذات ذيل).

هو: دعيك من هذا العبث الذي ضيع وقتي ووقتك. لقد جئت الى هذا المكان متعباً بعد يوم حافل شاق اريد ساندويتشاً و «جنجرايل». وقلت لك مراراً وتكراراً اني لست ولن أكون زبوناً لك أو لأي ممن هن على شاكلتك، حتى لو قالوا لي أنك في الأصل ملكة أو ابنة ملك، حتى لو قالوا ان لم تفعلها فستنتحرين. اسمعي. أنا بالتأكيد أعرف أنك أضعت وقتي، ولكنني لست متأكداً تماماً أني أضعت وقتك. ورغم هذا، ولوجود هذا الاحتمال فاني سأقدم لك مشروباً أعوضك به عن الوقت الضائع.

هي: أنت غير مضطر لهذا ابداً. وأنا أرفض، أنا لم أكن معك في «بيزنس» أو عمل، لقد كنت أزاول حديثاً مع صديق أو شبه صديق، لا ثمن له.

هو: تريدين أن تقنعيني أنه لا تزال لديكم بعض الاعتبارات؟ ان ما أزعجني في كلامك أني تبينت منه، بل وضعت أصبعي على نوع من التحلل المروع، لا أقول حضارتكم، ولكن أخطر ما في هذه الحضارة وأي حضارة، المرأة فيكم. أنتن نساء مخربات روحياً وعقلياً وفلسفة.

والذي يذهلني أنكن تستطعن وجود الزبائن من الرجال. رجال نشئوا في مجتمع مفروض أنه راق وأنه غادر تلك المراحل البدائية التجارية الحريمية من علاقة الرجل بالمرأة. . كيف يقبل رجل يعيش في أرقى بلاد العالم في النصف الثاني من القرن العشرين أن يحصل على امرأة، جسد امرأة، بصرف النظر عن أي احساس آخر لديها، مقابل بضعة دولارات ينقدها إياها ثمناً لأنها قبلت أن تتعرى له من داخلها وخارجها. إني لمشمئز من حضارة تصعد بسمو علمها الى القمر وما زالت تنحطبجسدها الى مدارك الرقيق الأبيض والأسود. مشمئز لامرأة مثلك. وأنت لست سوى واحدة من جيش عرموم، امرأة ذكية مثقفة، واسعة الاطلاع والخبرة، جميلة، أجمل من ممثلات أي سينما، أن تزاول عملاً يمكن أن تفعله أي متخلفة عقلياً، فهو لا يحتاج إلا. . . طبعاً أنت تدركين ما أعني. كيف تقبلين أنت التي تبدو حساسة ومرهفة الحس، أن يحتويك بكلكله وربما بكرشه وعرقه ولزوجته ورائحة فمه المخمور في مقابل، في مقابل ماذا؟ إن أي مبلغ من المال لا يساوي لحظة واحدة يسقطالانسان فيها روحه الى هذه المجاري الشعورية النتنة.

تتحدثين بمنطق وذكاء وخبرة، ولكنها أشياء جمعتها من فوق ملاءات الأسرة القذرة، جمعتها مما لحقك ولحق روحك من كدمات وجروح ذكاء من باع نفسه ليشتري عقلاً يقتل به البقية الباقية من روحه وجسده. . لقد بدأت حديثي معك مشمئزاً منك، والآن أحس أني مشمئز من نفسي مشمئز أني أضعت كل هذا الوقت مع انسانة نظيفة الخارج تماماً، موبوءة الداخل. وأقذر شيء ليس هو أن يبدو الانسان قذراً من خارجه، فربما نظافته الداخلية تضفي على روحه اشعاعاً يغفر له بقع الخارج.

هي: اسمع. . سأقضي معك الليلة كلها لقاء مائة دولار.

(دون أن يجيب وبوجه يعرف أنه إذا تجمد بدا قاسياً مرعباً في قسوته بدأ يجمع أشياءه وهو يحس باشمئزاز للجنس البشري كله، للصناعة والنهضة والفلاسفة والفن وصناع الأخلاق، فما فائدة هذا كله؟ وانسانة مثلها يبدو أنها قرأتهم جميعاً ومع هذا فلم يفلح أي منهم، وربما لم يكن أي منهم صادقاً الى الدرجة التي كان لابد أن تقنع انسانةمثلها .أن الانسان شيء آخر غير عربات الرش والمراحيض).

هو: أولاً إن كل ما معي عشرون دولاراً، ولو كان معي عشرون ألفاً أو عشرون مليوناً وطلبت أنت دولاراً واحداً لقاء الليلة لآثرت أن ألمع به حذائي، فعلى الأقل سأنظف به شيئاً ولو كان حذاء.

هي: اسمع، دعنا نتكلم «بيزنس». جرب. من أجلك سآخذ عشرين دولاراً فقط، على شرط اذا أمتعتك تعطيني مائة.

هو: أنت قطعاً متخلفة عقلياً.. ألم تفهمي بعد أن المسألة الجسدية المحضة لا تعني أية متعة بالنسبة لانسان مثلي.

هي: ولكنك لا تستمتع بها لأنك لم تنضج بعد للمتعة بها، وأنا التي سوف أنضجك.

هو: لم أنضج بعد للمتعة بها؟! إن الذي يستمتع بهذا الشيء الجسدي المحض هو المراهق وحده، ولكن إنساناً في قمة تفتحه العاطفي والوجداني والاحساسي لا يمكن أن تمتعه مجرد تجربة جسدية لا علاقة لها بالشعور المتبادل او الاحساس.

هي: ذلك لأنك كما قلت لك لم تنضج بعد، إن العاطفية والاحساس المتبادل وما تسمونه الحب قبل التلامس كلها أعراض طفولة الرجل أو

المرأة، والنضج الحقيقي هو لمزاولـة الحسية والاستمتـاع بهـا دون أي مقدمات.

هو: اسمعي أيتها البروفسيرة، أراؤك تلك احتفظي بها لنفسك. فأنت في رأيي إنسانة فعلاً محترفة لا علاقة لها بالاحساس أو بالشعور أو حتى بالانسانية.

هي: اسمح لي.

هو: لن أسمح أو أسمع لك. أنا صحيح أومن بمبدأ، ولكني إنسان عادل، وكان ممكناً أن تكسبي مع غيري في المـدة التـي استغرقهـا هذا الحديث، ولكن تقديري أنا لوقتك وما أضعتـه من وقتي، يجعلني أحس أن العشرين دولاراً كرم مني زائد عن الحد. ها هي ذي. والى غير لقاء.

٣

(في الفندق تعليمات تقضي بأن (تتربس) باب الحجرة جيداً ولا تفتح لطارق إلاّ بعد مكالمة تليفونية من الاستقبال، واذا فتحت الباب أن تبقيه (مشنكلاً) بحيث يسمح لك برؤية الطارق من خلال الباب الموارب، كل هذا لم يكن موجوداً في الستينات، في السبعينات والثمانينات، مع موجات العنف وجرائم العدوان حتى على رواد الفنادق، جاءت هذه التعليمات).

(طرق على باب حجرته).

هو: من الطارق؟

صوت: أنا.

هو: من أنت؟

صوت: المدير الليلي للفندق.

هو: ولكنك سيدة.

الصوت: أنا المديرة السيدة.

هو: لا يا سيدتي المديرة. أنت هي. ولا داعي للكذب الساذج.. أنا بملابس النوم وقد سئمت المطاردة، واذا لم تتركيني سأنادي المدير الليلي للفندق فعلاً. وسأستعين بالأمن وربما البوليس ايضاً.

هي: أرجوك.. أنا لم آت كمحترفة.. لقد جئت كصاحبة رسالة.. وانت رجل مهم، مسألة حيوية تماماً أن تقتنع برسالتي. أنا أخاطب وأرجو الفنان الذي فيك.

هو: لست فناناً.. أنا الآن حيوان غاضب، فاحذري غضبي.

هي: عليك أنت أن تحذر رضاي، فكما قلت لك أني صاحبة رسالة ورسالتي أهم لدي من أية كرامة شخصية..

هو: من فضلك.. صبري نفد.. ورسالتك مهما كانت فانها لا تهمني في شيء.

هي: بل تهمك جداً.

هو: قلت لك صبري نفد.

هي: بل شجاعتك هي التي نفدت. أتخاف من امرأة صاحبة رسالة!

هو: اذا كانت امرأة رسالتها التجارة في جسدها، فهي قطعاً تخيف.

هي: ولكني لست كذلك.. أنا رسالتي تضميد جروح الرجال.. أنا طبيبة.

هو: طبيبة بيطرية؟

هي: بل طبيبة ومعالجة نفسية. وأرجوك، هذه بطاقتي، اقرأها بسرعة فثمة أناس قادمون.. وأنا لا أريد مشاكل لي أو لك.

(تدفع بالبطاقة. البطاقة لا يمكن تزويرها. عليها صورتها بالألوان. مستشفى سنترال بارك. باميللا جراهام. سيكولوجست معالجة نفسية) المستشفى واحد من أكبر مستشفيات نيويورك، بل أمريكا، البطاقة حقيقية. المرأة هي امرأة الكافتيريا البار فعلاً. مجرد وجود البطاقة قلب

الأمور رأساً على عقب. ما كان يبدو تبذلاً خفياً في ملامحها أصبح له عمق ثقافي. الاحتقار الهائل توقف وانتفضت الحيرة كنافورة مياه ساخنة طال اختزانها تحت سطح الأرض.

أول خاطر داهمه أن حديثها معه الليلة لم يكن وليد الصدفة المحضة، وأنها مسائل مرتبة. ووجود انسان من العالم الثالث في مثل تلك المجتمعات المتقدمة، حتى في جرائمها متقدمة، يجعله طوال الوقت يعيش حالة التوجس القصوى.

إذن هي مسلطة عليه، أو ربما اختيرت خصيصاً لاغتياله، فهم بارعون حقاً يعرفون أن نصف عقل الرجل الشرقي يطير لمجرد أن هذه امرأة وأن النصف الآخر من السهل الغاؤه إذا داعبت، حتى باصبعها الخنصر جلده.

أما أن كونها امرأة فيعني أنها وسيلة غير مضمونة للقتل أو لما هو أدهى، فتلك أيضاً خدعة أخرى. فالمرأة، في مثل هذا المجتمع الشرس المتقدم تعلمت من الرجل الشراسة، بل أصبحت هي التي تسقيه إياها.

(فجأة يضحك ضحكة، نصفها حقيقي صادر من القلب، ونصفها كذب مبالغ فيه يغطي به خوفه).

هو: (محدثاً نفسه) ولماذا يفكر أحد في قتلي هنا؟ ولماذا يلجئون الى طبيبة نفسية متنكرة على هيئة فتاة ليل، أو فتاة ليل متنكرة على هيئة طبيبة نفسية، لتنفيذ مؤامرة اغتياله، وقد كان هناك ما هو أبسط؟
ثم لماذا يقتلونه اصلاً؟!
ومن هم الذين يهمهم قتله؟

بل حتى اذا كان السبب السرقة فهو لا يملك الآن سوى سبعة دولارات وبعض أرباع الدولار، ثم «شيكات سياحية» لا يستطيع أحد صرفها سواه.

فعلاً.. انسان قادم من العالم الثالث بكل هواجسه ووساوسه، وله كل الحق، تجاه عالم أول متقدم، وأكثر وأعظم علامات تقدمه سهولة ارتكاب الجرائم فيه، رغم كل احتياطات الأمن ونعيق بوم عربات البوليس والاسعاف والمطافي. كلما نعق البوليس ازدادت المطاوي والمسدسات وكثر قطاع الطرق، الانسان العادي، والغريب بالذات، مشدود العقل والأعصاب بين بوليس ينعق بلا فائدة، وجرائم ترتكب في صمت وبيد مجهول، وهكذا المهزلة، البوليس معروف ينعق، والمجرم كامن ينقض لا يعرف أحد متى ولا كيف يظهر.

أو أحياناً إذا ظهر، ظهر على هيئة.. هيئة بطاقة.. تنكر آخر. لم لا يكون طبيباً أو طبيبة.. أو امعاناً في التنكر معالجة سيكولوجية؟!

لحظة، جزء من لحظة، فاصل حاد كنصل الموسى، بين طفل كان مدرس العربي يخبطه على رأسه المحلوقة ويقول له: اقعد يا أصفر يابو علة. ومدرس الرسم يعلق رسوماته في الفصل شهراً ليسخر من بشاعتها التلامذة والمدرسون وحتى عم رجب الفراش. تلميذ كانت تقول عنه امرأة أبيه: لو نفعت أبقى أحلق مقصوصي. من بذور حشائشه تنمو هلعاً ورعباً وخوفاً من الأشجار العالية المنقبة الباسقة فتتسلل متخفية تحت الأرض، واذا واتتها نوبة جرأة عاتية وتغلبت على خجلها وترددها تظل ترتعش من الحشرات والديدان «وأبو» قردان، وإذا كبرت حصدها الموت المبكر أو حفر قنال السويس، أو حرب يساقون اليها بلا محاولة واحدة

لشرح كنهها أو أحياناً بمجرد الجري وراء الأوتوبيس، حشائش كانت أجياله وأجيالنا، مجرد مرعى للثيران، مزود للأحصنة والحمير، وطعام للخرفان والديكة التركية المنفوخة.

وهو، وحده، مع امرأة كهذه من (حضارات متقدمة كونية) تفخر أنها بغي. لا ذرة واحدة من الخجل أو التأنيب. هو الخجول لأنها لا تخجل لا منه ولا من مهنتها ولا مما فعلته معه، ولا حتى لكونها في النهاية تفعل هذا كله وهي طبيبة معالجة، يسمونها في بلاده قلة أدب، وعيب وعيون فاجرة ينذب فيها الرصاص. . . يسمونها كذا وكذا وكذا. . .

ولكن للقواعد شواذها، وهو الذي بدأ حشيشاً متخفياً في الأرض تجاسر ورفع ذرات التراب وأكوام الطين، وشق برأسه السطح. قاوم الشجر السامق واعتلى جذوره ثم سيقانه ثم استقل لتصبح له أساساته ويستقيم وتستطيل جذوعه، ولا يمضي طويل وقت حتى يصبح أطول من الكافور وأشداستقامة،وأوراقه أحد من أوراق الصنوبر.

وفي الرحلة من تحت الأرض الى فوقها، الى متسع السماء، الى الهيمنة على الغابة ركبته الأمراض والعلل، وكادت الجذوع الضخمة تقتلعه خنقاً. فإذا نجا منها نالته الأعشاب المحليةالمتطفلة،وهزم السامق والمتطفل والزاحف والقاهر والظافر، وحفر الأرض وشق الهواء وأصبح أطول سار لأكبر سفينة، وعدى البحر وخاض المعارك وأفرج عن الأسرى واحتجز السبايا من الملكات الى الجاريات ليصبحن حريمه. . بقوة خارقة كامنة فيه فعل هذا كله، بساعده الأيسر والأيمن والأوسط والأعلى واسفل، أتخيفه بعد هذا امرأة؟

ولكنه فعلاً خائف، لأول مرة خائف.

حتى لو كانت مومساً بكارنيه طبيبة، أو طبيبة بكارنيه ضابط بوليس آداب.

فهو خائف.

فهم لم يأتوه هذه المرة بمن على شاكلته أو هواه.

ولكنهم جاءوا له بنقيض.

بنقيضته.

نقيضة تشمله من أول الرجل الشرقي الكامن فيه يسحره البنطلون الطويل والقصير والبنطلون الأقصر الساخن. يسحره المايوه ترتديه أنثى بيضاء، ذات جسد، وكأنما عبقري المقاييس، تلبس قبقاب الزحلقة على العجلات، وبرقصات باليرينا تتأرجح وسط الشارع الخامس والسادس والثالث. تتراقص ذات اليمين وذات اليسار، تتمايل مع موسيقى لا يسمعها احد فهي تتلقاها من راديو ترانزستور خفي لا تظهر منه سوى سماعات ستريو فونيك تضعها فوق أذنيها، تمنع عنها ضجيج الشارع وتسرى بموسيقاها خلال (القد الملبني المياس) فترى أنت المار أو الواقف الموسيقى، تراها معزوفة فوق الجسد ذي المايوه والقبقاب الراقص. تراها واقفاً فتسير، وسائراً فتقف، فالجسد الراقص قد تحول الى اشارات مرور حمراء وصفراء وخضراء توقف المرور وتسير المرور وتوقف شعر الرأس وتدير الرأس. ويل للأعين وهي ترى السيقان تتباعد وتتسع لتعود تنحسر وتضيق، تراها تتقدم باليمين وتتأخر باليسار، ويميل الجذع الى الأمام ليعود يتقوس الى الخلف ليتقوس العالم حتى لا تفوته انحناءة من انحناءات قوس الجسد..

وبكامل خوفه ورغبته فتح الباب. ودخلت.

هي: أممكن أن أخلع معطفي؟!

حتى لو كانت قاتلة، وسلطوها عليك لتقتلك، أليس هناك ميتة أبدع وأروع من هذه؟ هذا إذا كنت ستموت، والتي أمامك ليست قاتلة، بل هي فيما يبدو طالبة هوى مهما كان الثمن.

ولكن ما أنت متأكد منه تماماً أنها قد تقتلك وقد تفعل أي شيء ولكن المحال المحال أن تنالك كرجل، فهذا هو الأبشع من الموت قتلا أو ذبحاً.

يتأملها بعيون مليئة بألف احتمال.

وهو: اذن أنت لا تزالين مصرة؟!

هي: على ماذا؟

هو: أتتساذجين؟

هي: أعذرك تماماً، وأنا فعلاً لا أزال مصرة، ولكن الهدف تغير نهائياً.

هو: أأكون على حق اذا فهمت أنك صرفت النظر عني كزبون؟

هي: ضعها كما تشاء، فمشكلتك ومشكلتي معك أننا لا نتحدث نفس اللغة، ولكن على أية حال تغير هدفي.

هو: وأنا الاخر لم أصدق بطاقة تحقيق شخصيتك وحكاية أنك اخصائية علاج نفسي. . أي جهة. . (هم بأن يقول: أي مخابرات زورت لك هذه البطاقة ذلك التزوير المتقن، ولكنه آثر أن يمثل وكأن اللعبة قد انطلت عليه، فإذا كانت تمثل مخابرات، ما سي. آي. ايه، أو أف بي آي، أو الموساد (المخابرات الاسرائيلية) أو ال ك. ج. بي الروسية فالذكاء يحتم عليه أن يتجنب كشف أوراقها وأفهامها أنه فاهم. .).

هي: جهة؟ ماذا؟! أنت تشك في. . عينيك رغم خضرتهما البحرية

الهائجة تقول هذا. .أستطيع قراءتهماالى القاع كما ترى قطعة النقود خلال ماء البحيرة المستتب تماماً. . ماذا بالضبطيدور في عقلك تجاهي؟

هو: اقرئيه. . أنت تقولين أنك تخترقين عينيَّ إلى قاعهما السحيق: فلماذا السؤال؟

هي: لأتأكد فقطمن صدق احساسي.

هو: وماذا يقول احساسك؟

هي: إنك في باديء لقائنا كنت ضيقاً بي ورافضاً مجرد مناقشتي. . الآن أرى أنك بدأت تخاف مني.

(يضحك ضحكة يدرك هو نفسه انها أعلى مما يجب،وجوفاء تماماً).

هو: أنا؟! أخاف من امرأة؟! وتحت رحمتي وأخاف منها؟ ها ها ها.

(بدأ فعلا يخاف).

هو: ما الحكاية؟

هي: أممكن أن أجلس هكذا. . (تضع ساقاً فوق ساق فينكشف ثوبها عن كل فخدها الأعلى وساقها).

هو: تفضلي. . تفضلي. .

(ثم مواصلاً):

ما دمت تقولين ان الهدف تغير. . وأنك لم تحضري لتتمي الصفقة. . ثم اظهارك هذه البطاقة. . ما هو هدفك من المجيء بالضبط اذن؟

هي: (تتمدد الى الوراء في مقعدها وفقطوهي تأخذ وضعها المريح فوق (الفوتيه) يكتشف أنها، مع حقيبة اليد تحمل كتاباً ضخماً مجلداً بأناقة شديدة).

(ومع جلوسها يبدأ سكون وكأنما السؤال هو: من أين يبدأ؟ وكأنما السؤال عندها : فعلاً لماذا أنا مهتمة جداً بهذا الرجل؟).

(أخيراً تنطق).

(بسرعة المختلس المتلصص يمد يده الى حيث وضعت حقيبة يدها والكتاب وبضعة كتيبات. . الكتاب كرسائل الدكتوراه المطبوعة والمعدة للتداول. مكتوب على الآلة الكاتبة ومجلد. عنوانه غريب: السلوك الانساني عند الحيوان. والمؤلفة: باميللا. . جراهام. . قائمة بأسماء الشهادات تحت الاسم لم يفهم من اختصاراتها الا B A وهي الشهادة المعادلة لليسانس الآداب عندنا).

هي: عرفت الآن فقط جنسيتك.

- هو (مشغول بمشكلة أن يلقي نظرة على حقيبة يدها، ضمير الرجال يعترض بشدة) يسقط الحقيبة من يده، تنفتح تجمع هي وهو محتوياتها عرفت ماذا؟!

هي: جنسيتك.

هو: ما هي؟

هي: لن أقول لك. .

(مونولوج طويل منها، لم يفهم منه حرفاً. فقد كان الصراع في نفسه يتزايد ثم يحسم.

يتأمل ساقيها الطويلتين، هذا القوام الفارع نحن غير معتادين عليه في بلادنا. فتياتنا ونساؤنا الجميلات غالباً صغيرات الحجم، أما هذه الأرجل الطويلة، هذه الأفخاذ المسحوبة وكأنها لفرس عربي أصيل، وكأنها منحوتة مشدودة، لا انبعاجة دهن، لا حبيبة شباب حتى القوام الفارع جعل جاكتة بيجامته التي استعارتها تبدو قصيرة لا تخفي الا ما ليس هناك فائدة من اخفائه. .).

(رائعة. . . هكذا بدت وهي واضعة ساقاً عارية فوق ساعد مغطاة).

(نيويورك مدينة تعدت مرحلة الأساطير، ناطحات سحاباتها ترعب يسمونها الغابة المتوحشة الحديثة، والمرعب فيها أن الانسان ضئيل ضئيل، والأجهزة قوية ومخيفة، والغنى فاحش، والفقر ايضاً فاحش. انك لا يمكن أن ترى هذا العدد من البغايا في اي عاصمة من عواصم العالم.

ولا تجد في اي عاصمة من عواصم العالم هذا العدد الوافر من بيوت التدليك وما يسمى بحمامات السونا، والفتيات يعلن عنهن، وكأن المدينة تحولت الى ماخور كبير. لهذا كان من المحتم على بطل هذه الرواية أن يلتقي بواحدة منهن، ورغم كل عقائده واستنكاراته تفرض عليه نفسها الى هذه الدرجة).

(ولكن. هل المسألة مجرد بغاء وبغي؟، أم أنها عميلة لجهة ما؟).

(مرة اخرى يدق الخاطر في رأسه)

هو: هل من الممكن أن أسألك سؤالاً وقحاً؟

هي: أنت لا تفعل سوى هذا من أول لحظة.

هو: هل أنت عميلة لجهة ما؟

(على ملامحها ارتسمت علامات وكأنما أعجبها السؤال، استملحته واستعذبته، بل وأخذت عضلات وجهها تستطعمه على مهل).

هي: ولو فرض أني عميلة، أتعتقد أني وصلت في عشقك الى الدرجة التي أعترف لك فيها أني مدسوسة عليك؟ ثم أحب أن أقول لك. أنا ليس لدي مانع مطلقاً أن أعمل مع أي جهة تدفع بسخاء. فالنقود أصبحت هي الولاء الأعظم، وحياة الترف حلم أي امرأة مسحوقة هنا في نيويورك وأي رجل. حتى لو كان الكرسي الكهربائي في نهايتها. ثم.. هل انت مهم الى هذه الدرجة؟

هو: (سائلاً نفسه) صحيح . . . ما أهميتي حقاً حتى يوكلوا أمري الى عميلة تتنكر على أبشع صورة أراها للمرأة. . صورة المومس؟ (ثم لها) كل إنسان يبدو لنفسه على الأقل مهماً.

هي: أعني هل لديك أسرار هامة؟ . . لا أعتقد هذا . . .

هو: (لنفسه) صحيح . . . ماذا لديه من أسرار تستحق عناء المحاولة؟ . . أن كل اسراره مكتوبة ومنشورة ويعرفها الجميع . .

هي: أتقول شيئاً؟

هو: لا أهمية لما أغمغم به، فكثيراً ما أغمغم لنفسي كالمجانين. لا تلقي بالاً . .

هي: أنا أيضاً أفعل هذا في أحيان. . أتعرف أني اكتشفت أن الناس متشابهون الى حدود لا يمكن أن يتصوروها هم أنفسهم؟

هو: (كأنما تذكر فجأة امراً مخيفاً) اسمك فعلا . . باميللا جراهام.

هي: (بدهشة) ما الغريب في هذا. إنه اسمي فعلاً.

هو: اذن هذا الكتاب. ؟!

هي: آه. . تقصد هذه المخطوطة. . لقد كانت أطروحة. . ولكني عدلت فيها وأضفت لها وأحاول نشرها.

هو: وهي جزء أيضاً من «عدة الشغل»؟

هي: ماذا تقصد؟

هو: كانت البغايا في الزمن الغابر يحاولن أن يبالغن في مكياجهن وبهرجة ملابسهن ليظهرن مختلفات عن ربات البيوت. . الموضة الان أن تبدو البغي مثقفة وتحمل، وهي قادمة الى البار أو مكان العمل، مسودة كتاب . .

هي: لست من الغباء بحيث أغضب لكلامك، ولن تصدق أبداً أن المسألة حدثت بطريق الصدفة المحضة، فقد تركت هذه (مشيرة الى المخطوطة والمطبوعات) عند صديقي البارمان من عدة أيام، لأن (شغلاً) جاءني وأنا على غير استعداد بالمرة، اذ كنت في طريقي الى حجرتي بعد مقابلتي لوكيلتي الأدبية. ولم اشأ الرفض، وخجلت أن آخذ الأشياء معي فتركتها عند «جو»، والليلة هو الذي ذكرني بها.

(لم يكن يبدو عليها مطلقاً أنها تكذب).

هو: اذن ارتدي ملابسك فوراً ولنهبط الى الكافتيريا البار.

فجأة ينتصب الرجل الذي فيه وكأنه المارد قد خرج من القمقم، وكأن مسودة الكتاب هي الأنثى.. الدكتورة المجلدة المكتوبة فقرة وراءها وجدولاً في اثر جدول، العالمة فيها هيجت العالم فيه، وأيقظ العالم الرجل، فالتهبت عيون الذكر ولم يعرف بالضبط أهي العالمة هي التي قرأت بعقلها الرسالة ثم ترجمتها الى لغة الاحساس والجسد، أم أن الجسد فيها هو الذي رفع، متأخراً كثيراً فحوى العيون الملتهبة الى مستوى الادراك. طويلة باسقة ترتدي جاكتة البيجاما دون بنطلون حين وقفت تبحث عن ثقاب تشعل بها سيجارتها لمس كتفها كتفه، ولأول مرة وهو الطويل يحس بكتف امرأة في مثل طول كتفه. بنصفه الأعلى عار بدون جاكته، وبنصفها الأسفل عار بدون بنطلون. أفلت الزمام تماماً على الأقل من يده، أما هي فقد انهار الزمام وهوت بركبتيها على الأرض تحيط خصره بيديها مقبلة كل ما يستطيع فمها أن يصل اليه من جسده مغمغمة وكأنما تحلم متكلمة أو تتكلم حالمة قائلة:

هي: حسناً! لقد سحقتني تماماً وأنسيتني عملي، وأنا التي سأدفع. كم تأخذ؟

الرجل الغائر الغائر فيه تجمد وكأنما بجملتها حولت أعماقه بضغطة من زر الى لوح من الثلج. كم يأخذ؟ تبدأ الليلة بكم تأخذ هي، وتنتهي بكم يأخذ هو.

مودعاً جسدها الطويل الفارع وصدرها النافر في تحد، وكأنما هو مفارقهما الى الأبد. بلوعة الوداع ودموع المرارة وحسرة الأسف أمسكها بكل ما يملك من قوة من إبطيها وأنهضها، وبكلمات كلكمات حبذا لو كانت رجلاً لتتلقاها فعلاً الكمات قال:

هو: في لحظة واحدة.. ارتدي ثيابك فوراً.

هي: ماذا؟ ماذا حدث؟.. ماذا أغضبك؟.. سأدفع لك كثيراً جداً.. كل ما تطلب، وليس الليلة فقط. كل ليلة لو أردت.. لقد ملكتني.. سمها أحببتك.. أحببتك.. أرجوك.. أرجوك..

وفتحت حقيبة يدها تخرج حافظة نقودها الداخلية، وروعت فعلاً وهي ترى نية القتل في عينيه. وشحبت تماماً وكأنما تحولت الى تمثال من الشمع لا يرتدي ملابسه ،ولكنه يغطي نفسه بهلع، ،وكأنما ثانية عري واحدة ستكون فيها نهايته.

مشدوها، مشدوهة الى درجة الخوف أن يفترقا، مرة اخرى الى مقعديهما في الكافتيريا البار.

فلابد ـ حتى لا يجن ـ أن يعود الحديث الى الاتصال.

* * *

الان هما قد هبطا الى البار الكافتيريا والصمت مطبق ومشحون. مخطوف الخواطر والهواجس لا يزال. حين يجلسان.

هو: طبعاً أنت تتوقعين أني كالعادة سأكذبك في أن ما تحملينه هو رسالة دكتوراه حصلت عليها من وقت قصير، أو على أقل تقدير ستحصلين عليها حالاً. تتوقعين أني لا أصدق أنك سيكولوجست معالجة نفسية حاملة دكتوراه. لا أنا أصدقك فعلاً، ولكن أرجوك، أرجوك حتى لا أجن، أعطيني جواباً مقنعاً عن هذا السؤال البسيط.

هي: عن السلوك الانساني عند الحيوان (موضوع رسالتها)؟

هو: (بانفجار) بالعكس. عن السلوك الحيواني لدى الانسان.. سلوك انسانة مثلك.. دارسة وعارفة ومدركة ومثقفة ولا تتضور جوعاً وتقبل،بل وبارادة راغبة تماماً أن تعمل مومساً، وحتى اذا رغبت مومست من ترغبه.

(اندهاشته طازجة ودائماً طازجة وغريبةوبريئة ،وكأنه لأول مرة يدرك أو يستنكر بعض الروايات والأفلام المصرية. كان يفتح فم عقله مذهولاً أن تقبل، بل تفخر انسانة أنها مومس، وأبداً أبداً لا يستطيع أن يهضم أن يرضي رجل أن يعاشر بل مجرد أن يلمس انسانة يعرف أنها كالخرقة طوال يومها تتداولها الأيدي والأفواه والأبدان بطريقة تفقد فيها، لابد أن تفقد فيها، خصوصيتها التي تصنع انسانيتها، وبالتالي أنوثتها وآدميتها. دستوفسكي البغايا عنده ضحايا ومريمات، مريمات مجدليات داهمتهن الظروف وأرغمتهن إرغاماً على بيع الجسد، هو مستعد أن يقبل هذا ويغفره. أما أن تفخر بكونها بغيا وتوغل في فخرها بمهنتها الى حد أن تتباهى بها على الأخريات وعلى الناس وعلى رءوس الأشهاد، أما أن تتحول عاطفتها نفسها اذا استبدت إلى مومسة، فمسألة ابداً ابداً ما تصور إمكان حدوثها أو وجود نساء على نحو كهذا. بل أن يفسد خلق المرأة أو

الرجل ويخون أو تخون، وحتى يفعل هذا ليل نهار، جريمة هذا صحيح ولكن عملية البيع، بيع الجسد بمقابل نقدي فوري مدفوع مسألة أخرى تماماً.

وهذه ليست فتاة مضحوكاً عليها في فيلم مصري، أو ضحية من ضحايا ذئاب دستوفسكي البشرية، هذه حاملة دكتوراه مؤلفة كاتبة واضح حتى من عنوان كتابها أنها مكتشفة، وأنها ممكن أن توضع في مصاف فرويد ومدام كوري.

هو: (مردداً وبصوت أعلى) كيف؟! كيف؟!

هي: (معدة نفسها لجلسة استرخاء تامة تجلس على «الفوتيه» ناقلة ساقها العليا السامقة كأصابع الموز الامريكي الهائلة التناسق والطول فوق الساق الأخرى محدقة ناحيته وقد قبلت التحدي). ماذا أقول لك؟ نكبر ومع هذا نظل نفكر وكأننا أطفال لا نزال. لا تستنكر فقط أن أعمل بغياً،ولكن تستنكر أي عمل آخر قد يعن لي أو لغيري أو يقوم به، وكأنني أمك التي سوف تراها خاطئة. منذ فجر التاريخ يا عزيزي والعلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة صفقة، ولابد أن تكون صفقة. من الذي يدفع غير مهم، في أزمان كانت المرأة هي التي تدفع للرجل الثمن، وفي أزمان اخرى كزماننا ينقلب الوضع. الدوطة وما تسمونه عندكم المهر والشبكة والهدايا، في حقيقتها الواضحة جداً، ما هي؟ اليست ثمناً؟ لقد درست شرائع الزواج في كل الأديان، السماوية والوضعية. في كل منها يوجد مقابل مادي لكي يكون الزواج حقيقياً ورسمياً.

هو: انها كذلك ولكنها صفقة العمر، اتفاق الأزل، فارق كبير بينه وبين..

هي: وبين ماذا؟

هو: أن تصبح المسألة حرفة وتجارة.

هي: اذن المسألة ليست مبدأ. المسألة عدد مرات البيع والشراء، فقد سلمت بالمبدأ.

هو: لم أسلم تماماً.

هي: حسن فلنأخذك حسب رومانسيتك التي من الواضح انها تؤرقك، لنفترض المسألة حباً. عاطفة ملتهبة وغرام روميو بجولييت وبيرتون باليزابيث تايلور.

أنت تدعو الحبيبة للعشاء والرقص والنادي الليلي، وبيرتون يقدم لها خاتماً ماسياً بمليون دولار، أليس كذلك؟..

هو: أدعوها وتدعوني، أو بالطريقة الانجليزية نقتسم.

هي: وتقتسمون ولا أحد يشتري أحداً، ولكنك في نهاية الأمر تفكر في اسعادها وحتماً تفكر في شراء هدية. بالضبط ما معناها؟ معناها أنك تقول: في مقابل ما منحته أيتها العزيزة من متعة. هاك. أو خذ أيها الحبيب مقابل حبك.

هو: هدية.

هي: ثمناً. اسمه العلمي ثمن. ولكل متعة ثمن. ولكل سعادة تمنح مقابل، فالمبدأ إذن قائم وموجود.

هو: ولكن هذه علاقات خاصة، مصحوبة بعواطف خاصة جداً. فرق كبير بين أن أكتب لحبيبتي قصيدة غرام وبين أن أصنع منها نسخاً بالفوتوكوبي وأوزعها على العشرات.

هي: أبداً، لا فرق. المسألة مسألة وقت.

هو: وقت؟!

هي: كانت قصة الحب تستغرق رواية بأكملها، والرواية تستغرق عمراً بأكمله، قصرت قصص الحب، وصلت عند فرنسوا ساجان الى ستة أشهر. عندي أطولها تأخذ ليلة.

هو: ولكنك لا تحبين. أنت تتاجرين.

هي: ابداً.. معلوماتك عن البغايا قديمة جداً.. نحن في عصرنا البغايا (الالترا مودرن) أنت بنفسك رأيت أنني رفضت ثلاثة عروض.. وكان ممكناً أن أرفض أكثر. ولولا مفهومك المتأخر، لكنت أنت قد استمتعت كما لم تستمتع في حياتك.

أنا أنتقي من يروقني.

هو: تنتقين؟

هي: طبعاً فهدفي هو أولاً متعتي.

هو: الانسان يا آنسة أو يا مدام أو يا دكتورة. هو في النهاية بعض القيم.. خلاص.. انتهت عندكم القيمة تماماً في نيويورك حتى لم يبق إلا الدولار قيمة والمتعة الأنانية الذاتية هي الهدف.

هي: الدولار قيمة هذا صحيح. أما المتعة فما الضرر أن أستمتع طالما أني أمتع طرفاً آخر ولا أضر أحداً؟

هو: ألم تفكري أبداً وأنت الحاصلة على دكتوراه ثقافة، في هذا المدعو الجنس البشري؟. لو فعلت كل النساء ما تفعلين اليس في هذا بداية النهاية لهذا الجنس؟

هي: أبداً.. أبداً.. ربما بداية النهاية لكثير جداً من النفاق الذي

يعوق تقدم البشرية . . فاذا كان تكويني النفسي كما شرحت لك وأرغمني الجنس البشري أن أتزوج وأنجب و (أخلص) لزوجي، فالنتيجة أني سأرتكب عدداً من الخيانات الزوجية أكثر من شعر رأس زوجي وسأنجب أبناء لا أريدهم ولن يريدوني، وبالتالي سنضيف اسرة تعيسة اخرى تنتج اجيالاً تعيسة اخرى لهذا المحترم الجنس البشري.

المسألة اختيارية تماماً، وذاتية جداً، بعض النساء يحببن أن يكن زوجات وأمهات، ومثلك لا يتصورون ابداً تعدد العلاقات. حسن جداً. هؤلاء هن الزوجات الصالحات فعلاً اللائي حين يتزوجن ويخلفن يضفن لجنس الانسان أطفالاً أصحاء مرغوبين، يضفن فعلاً للجنس البشري نوعاً وكماً. لماذا هو محتم أن كل النساء يتزوجن كل الرجال، وكل النساء والرجال يخلفون اطفالاً؟ ما الذي وضع هذا النموذج الواحد للوجود الانساني؟ لماذا لا يوجد نموذج آخر يفضل كل فيه ما يشاء. الذي يحب النساء يحب النساء، والذي يحب نفس جنسه يحب نفس الجنس والتي لا تريد الزواج نتركها لرغبتها، والتي تستمع بوحدانية العلاقة والرغبة في الامومة نتركها تزاول هذا في سلام.

لماذا هذا الهوس غير البشري وغير الانساني بتطبيق طريقة حياة واحدة على أربعة آلاف مليون كائن لا يتشابه منها اثنان. مجرد اثنين.

(هذه الدعوات الزاعقة الى الحرية الشخصية للرجل والمرأة ليست غريبة عليه منذ الستينات، وهو يخوضها مناقشات ومساجلات وخناقات في اوربا وأمريكا وحتى في روسيا نفسها، بل وفي بعض بلاد الجزيرة العربية: ولكن اطلاق الحريات الشخصية الى نهاياتها شيء وقبض أثمان للحرية الشخصية شيء آخر).

هو: (ترجم لها المونولوج العربي الداخلي بانجليزية عالية باهرة).

هي: انت اخلاقي جداً.

هو: وهذا منتهى التحضر في رأيي، فالأخلاق، قمة الأخلاق، قمة التحضر، هي الصدق مع النفس.

هي: وعلى هذا المقياس نفسه فأنا الأخرى أخلاقية جداً.

هو: كيف وأنت..؟

هي: لا أنا ولا أنت.. المسألة يا عزيزي أن عملي كما عرفت الآن يسمونه معالجة نفسية.. طبعاً تعرف ماذا تعني معالجة نفسية.

هو: أكاد أخمن أنها التي تتولى تطبيق العلاج اليومي الذي يشير به الطبيب النفسي..

هي: شيء كهذا.. وكان تخصصي ولا يزال هو علاج (عدم القدرة) عند الرجال.

هو: عدم القدرة؟!

هي: أجل.. في السنوات الأخيرة كثرت هذه الحالات جداً حتى لقد تخصصت فيها عيادات بأكملها، اذ يبدو أنه مع تحرر المرأة الغربية وربما المرأة في كل مكان، وأخذها الارادة الأعلى فوق ارادة الرجل، قد بدأ يعمل عمله في قدرة الرجال الجنسية إذ أخذت في الانحدار، فكان عملي كمعالجة نفسية أن أساعد هؤلاء الرجال على استرداد قدراتهم.

هو: (بحب استطلاع فهو لأول مرة يسمع أن هناك عيادات بأكملها مخصصة لهذا النوع من العلاج النفسي، ولأول مرة يعرف أن طبيبات ومعالجات يقمن بهذا العمل) وكيف كنت تساعدينهم؟

هي: أولاً هناك بعض حقائق لا أعرف إذا كنت على علم بها. ولكن

لا يوجد مرض اسمه عدم القدرة عند الرجل إلاّ إذا كان مريضاً عضويـاً فعدم القدرة هو مسألة نفسية بحتة، إذ علمياً يستـطيع الرجـل أن يزاول الجنس طالما هو حي، طبعاً تقل القدرة والمرات،ولكنها أبداً لا تنعدم. نحن كنا نتولى علاجاً نفسياً و (فـزيكياً) يعيد لكثير جداً منهـم القـدرة. وكان علمي أنا أن أقوم بالجانب الجسدي باعتباره تخصصي. ولا تتصـور مقدار السعادة التي كنت أحس بها كلما استعاد مريض من مرضاي قدرته مرة أخرى، لقد كان امتنانهم يصل إلى حد دعوتي في احتفالاتهم الثلاثينية وأحياناً الخمسينية بزواجهم وإغراقي بالعواطف والهدايا.

هو: ولكن هذا يعتبر عملاً علمياً إنسانياً رائعاً جداً ومفيداً تماماً.

هي: وهل تجد فارقاً كبيراً بين عملي الان الذي تسميه مومس وبين ما كنت أقوم به في العيادة النفسية؟

هو: طبعاً. ذلك كان علماً وعلاجاً.

هي: وماذا أفعل الآن؟ أليس ما أقوم به في أحيان كثيرة، بل في معظم الأحيان علماً وعلاجاً؟ معك حق. هناك فرق واحد بين العملين، ذلك الفرق الذي دفعني لتفضيل عملي الحالي.

هو: اي فرق؟!

هـي: كان اجـري في العيادة يعـادل بالضبـط خمسـة دولارات في الساعة. الآن الساعة عندي بمائة دولار وربما أكثر.

قالت هذا وضحكت.

ويندهش هو برهة وكأنما داهمه ضوء كاشف مفاجيء، ثم لا يلبث أن ينفجر ضاحكاً. يقهقه وكأنه سيمـوت ضحـكاً ويخبـط فخـذيه ويتلـوى ويضحك وبكل ما يملك من قوة وعصبية واكتشاف يضحك، حتى لقد بدأت منضدتهما تسترعي الانتباه رغم ازدحام المكان.

(أخيراً يسكت.. ثم بهدوء شديد).

هو: فعلاً.. ما الفارق؟.. أو بالأحرى.. الفارق كبير.. كبير جداً.. (ثم يصمت.. يصمت طويلاً... في الحقيقة يعم الصمت بينهما حتى ليصمت المكان المكتظ.. والمدينة الماردة الكبيرة في الخارج.. وكأن كل شيء مات فجأة وصمت. ثم على مهل شديد يبدأ ينطق).

ولكن.. فعلاً.. هناك فارق.. أن تعالجي بهدف العلاج شيء وبهدف النقود شيء آخر.. ذلك يسمونه العمل.. وهذا يسمونه البغاء.

هي: اختلاف في التسمية.. هه.. (بول شيت).

هو: (مواصلاً كلامه الذي لم يعد مجرد كلام ولكنه فعلاً ما يؤمن به في الحياة) الأنثى التي كلفت الحياة ملايين السنين من الايغار في التعديل والتبديل حتى اصبحت قمة الكون النامية، الأنثوية الانسانية أرقى ابداع للخالق.. بقرار احمق ليس طفلياً، بل تافهاً وحقيراً فالأطفال أعظم بكثير وأكثر براءة ونظافة.. بقرار كهذا تلغى ملايين السنين من التطور وتقذف نفسها ساقطة هاوية الى حيث توقف التطور بالقطط والكلاب والفئران، بل حتى هذه الحيوانات تحظى بالجسم ببطولة، بمعركة تدور بين الذكرين حول القطة وهي الهدية. هي الوسام، والفائز هو من فعلاً يستحقها.. إنها أبداً لا تطلب مقدماً أو مؤخراً أو (تأخذ) أي شيء، إنها، بكل الدلال والسخاء تمنح، تعطي ما نقيسه بالثمن وبالساعة نحن، لا تتحول الى بضاعة ذات سعر، وتفخرين أنت بهذا باعتبارها مهنة كسب أكبر قدر من النقود في أقصر وقت. تكسبين الدولارات هذا صحيح، ولكن الحسبة مغلوطة تماماً فأنت ـ حتى لو أوغلنا في التشبيه ـ رأس مال، تكسبين مائة عاجلة وتخسرين مئات وآلافاً من رأسمالك. «وطريقة» سهلة جداً لكسب

النقود،ولكنها كمهنة من امتهن احتساء وجرع ماء النار. . في دقيقة يأخذ ماثة دولار، ولكن الكارثة هي كم ما يحدثه الداخل في أحشائه من تهـرؤ وتآكل في صميم روحه وذاته، بل وفي جسده. . .

بل لا أقول أنك تخسرين كميات من نفسك رأسمالك. أنت تخسرين كل شيء. تماماً كل شيء. تخسرين نوعك نفسه.

هي: آه: جئتا للخطب والمواعظ! ماذا تقصد بقولك أخسر نوعـي؟ هل أتحول الى رجل مثلا؟

هو: ولكن الرجل ايضاً يمت الى نفس النـوع ، أقول تخسرين نوعك نفسه.

هي: أصبح حيوانة تريد أن تقول؟

هو: ولكن هذا الحيوان لا يفعل ما تفعلين. . لا شيء في الحياة أو الطبيعة يخلق ليكون معروضاً للبيع ، إننا نخلق لأن من صفاتنا كحياة أن نتطور دائماً وباستمرار للأسمى والأرقى.

هي: الأسمى والأرقى. . كلمات. . أعرفها تماماً. . مجرد كلمات. . كلماتك وكلمات خالي وعمي وجيراني. . دائماً تقال من وراء الظهر،وكأنها تخدش الحياء. الأسمى والأرقى، كائنات متطورة عليا. . لماذا يكـون التطور من وجهة نظر سعادتك فقط؟ لماذا لا يكـون التطور يحدث من وجهة نطري أنا؟

هو: وما هي وجهة نظرك، يا سيدة داروين.

هي: الأرقى عندي هو الأكثر نقوداً بأقل جهد.

هو: أنا الـذي سيقول لك هذه المرة كلمات. . . مجرد كلمات. .

دعوة عظيمة كدعوة الحريـة والتحرر تصبح تبريـراً للتصرف في جسم الانسان بطريقة غير انسانية. هل هذا هو التحرر؟

هي: طبعاً.. حريتي أن أبيع نفسي.

هو: هذه ليست حرية.. حريـة أن يبيـع الانسان جسده، إنها أولاً تحويل الانسان الى تجارة، الى تاجر رقيق أبيض. ثم حتى تحويل هذا التاجر المفروض أن يتاجر في أجساد الآخرين الـى تاجر يتاجر في نفسه هو. يطرحها كأي سلعـة عليهـا بطاقـة السعـر، ومـن يدفـع ويشتـري ويحصـل، هل تتصـورين هذا ؟ يحصـل عليك، عليك كلك، علـى روحك بأدق خلجاتها، إذ هو يدخل سر أسرارك.

هي: إنه يتوهم هذا ،ولكني لا أسمح لهم إلا بما أريد أنا أن أسمح لهم به.

هو: أتستطعين اذن أن توقفي الصفقة في منتصفها وتلغيها؟

هي: الى الآن لم أفعل، ولكني لحظة أريد قطعاً سأفعلها.

هو: لا يا سيـدتي. ابداً لن تفعليها، فهذه خطوة لا تأخذها انسانة تحولت الى بضاعة. هذه خطوة لكي تأخذها امرأة ما فلابد أن تكون أبية حرة، انسانة لها كيان وإرادة وأبداً ليست انسانة باعت روحها لكل من هب ودب.

هي: ولكـن كل منا في عملـه بضاعة، وهذا عمل مثل غيـره من الأعمال.

هو: مطلقاً ليس هذا مجرد عمل آخر يمارسه الانسان ليأكل به عيشه. إنه جريمة يرتكبها انسان في حق نفسه يهدر بها آدميته وقيمه، ويظل سادراً

في ارتكاب جريمته خالقاً لها آلاف المعاذير. هذا أبداً ليس عملاً، انه تبرير لسلوك انسان، وتبرير غير مستقيم حتى الطفل نفسه لا يقتنع به فالعواطف أبداً ليست للتجارة. ما سمعنا عن انسان يبكي بأجر أو يفرح بمقاولة أو يغضب بالساعة. هذا انسان وليس دمية. نحن أمام الإنسان الذي حوله عالمكم الذي يسمونه للأسف الأول، الى بضاعة، الى ترس الى سلعة، الى جزء من آلة انتاج واستهلاك كبرى اسمها المجتمع. وما دامت كل الأعمال تتشابه في رفض الانسان أصلاً لها، فيصبح الانتقال من عمل الى عمل مسألة لا تزعج احداً. ولكنك لم تنتقلي من إنسانة تعمل معالجة نفسية الى إنسانة تعمل بغياً، أنت انتقلت من عمل عظيم يبني روحك لأنك تساعدين أرواحاً معذبة الى عمل يخرب روحك، الى عمل يميتك حية. حية أسكنت روحها جسداً تستغله صاحبته شققاً مفروشة مع عشرة في المائة خدمة. جسد الخدمة فيه ممتازة جداً، فالفام دي شامبر مثقفة معالجة متعلمة قطعاً يفضل أي زبون السكن في شققها.

أنت ـ سأستعمل أخف تعبير ممكن ـ مريضة فعلاً تدعى لنفسها أنها تعالـج، وهي أكثر من زبائنها مرضاً، فهي الشقة الفارغة الباحثة عن العواطف عبثاً في أحضان زبائن لا يفعلون سوى إشعارها بالحرمان أكثر.

هي: المريضة!.. أتسمي الحب مرضاً؟

هو: أتسمين هذا الذي نتحدث عنه حباً؟

هي: اذن لماذا اخترته ولا أزال حريصة عليه؟

هو: لأنك مريضة فعلاً، فالانسان الصحيح أبداً لا يقبل أن يلمسه مجرد اللمس أحد إلا حين يسمح له بذلك. أما أنت فحين تقولين إنك

مومس أوحتى مومس لبعض الوقت، فمعنى هذا انك علقت لافتة تقول: ممكن لمس وجس واختبار المعروضات. . شرفوا تجدوا ما يسركـم. . انسانة تفعل هذا بنفسها لابد أنها أُصيبت بمرض في عقلها جعلها تفعل اشياء لا يقبلها اي عقل بشري سوي.

هي: (مبتسمة في سخرية راثية) أنا اذن مريضة يا طبيبي. . السؤال هو في الحقيقة من فينا المريض؟ لماذا لا تكون انت المريض بهذه الأفكار التي تزحم بها رأسك، مريض بقيمك ومثلك، وأكون أنا الطبيبة؟ لماذا لا يكون الوضع فعلاً هكذا؟

هو: أنا يا مدام (قالها هذه المرة قاصداً) متحضر جداً، لايماني أن الانسان ليس فقط أرقى الكائنات، ولكنه أخطرها على الاطلاق. أخطرها حتى على نفسه، وأنه ما لم يزود هذا الانسان أو بالأصح ينقى من ذرات الغبار. حتى ذرات الغبار التي تعلق بهذا الشيء المخبأ خلف جبهته لاستحال من أرقى الى اخطر وأحط كائن في الوجود. لأنه في هذه الحالة يستعمل ارقى ما وصل اليه التطور الخلاق في عكس اتجاه التطور الخلاق. يدمر بادئاً أو منتهياً بنفسه ومن حوله، وكل اولئك الذين كان من الممكن أن يكونوا احباءه وأصدقاءه وحتى معارفه. .

هي: ولكنني سعيدة، وأسعد كل من تلقيه الصدفة في طريقي.

هو: تكذبين على نفسك! قطعاً أنت تعانين من اشمئزاز تلمحينه في كل وجه يلقاك، ولا يمكن أن نسعد والناس يشمئزون منا.

هي: أنا أمارس الحب فأنا موجودة.

هو: للأسف أنت موجودة، وانما ليس لأنك تمارسين الحب، في

الحقيقة أنت موجودة، مجرد موجودة لأنك لا تمارسين احلى وأروع انواع الوجود. . الوجود المحبوب المرغوب. أنا أمارس الحب فأنا موجودة؟!

هل تقبل الطفلة منطق الطفلة أن يدفع لها مقابل نقدي لقاء حبها لعروستها أو لقطتها؟ هل لا تحس بوجودها إلا وهي فقط تبيع الحب وتمتهن الجسد وتعتدي على كبريائها هي وكرامتها؟ هي المعتدية، والكبرياء المحطم كبرياؤها. . هي قطعاً إما عمياء، لا ترى شيئاً بالمرة. . أقصد عمياء سلوكياً، أو مفتحة الأعين وإنما لا ترى من الكون إلا حافظة الرجل وأجر الساعة. . هذه هي النهاية المحتمة لتقييم الرجل أو المرأة لنفسه ولغيره بحساب (الدولار ـ ساعة). ما دام قد وضعناها على أول الطريق ـ دولار ـ ساعة، فالبغاء هو النهاية المحتمة.

انسانة مثلك لا ترى ابداً وجه رجل يضع يده في حنان على كتفها وبرفق يضمها، وينظر معها إلى صورتيهما معاً في مرآتها. رجل هي التي اختارته، وانتقت ملامحه. . وحتى ما كان لا يعجبها فيه اصبحت تحبه اكثر. رجل اختارها هو الآخر وانتقاها لأنه يعتبرها أسمى وأثمن انسانة عرفها. رجل ترضيه ويرضيها وليس لها أو له من عمل إلا إرضاء نفسيهما. رجل تحترمه وهو الآخر يكن لها اعظم احترام والا ما رضى أن يقتسما اسماً. رجل بجذوره، بأرضه، بسمائه، بالهالة الكونية الكاملة المحيطة به.

أبداً أنت لا ترين وجه الطفل أو الطفلة، طفلكما إذا تسلل الى المرآة محتضناً سيقانكما. ملامحه منكما بعيونكما لو فتحا عيونه. حدة طبعه منك، والشقاوة من ذكاء أبيه، معاً عرفتماه، معاً انسجمتما وانسجم

معكما الكون والطبيعة فكانت الشرارة، وكانت اللحظة التي تتجسد الآن بينكما. لا ترين اشياء كثيرة جداً. . لا ترين نفسك انت نفسك.

هي: انك ايها الاستاذ العالم تخاطبني وكأنما تخاطب العالم من فوق برج ايفيل. الشرف والصدق والانسان المتحضر الراقي. أين؟ على سطح كرة أرضية مكونة من وحل وطين. ماذا أفعل أنا التي ولدت في غابة لم أصنعها أنا، ولكنها كائنة وموجودة، أحافظ على بقائي وأظفر بالمأوى والطعام والمتعة، وإن لم اجد اسرقها، وان لم استطع أقتل وأغتصبها؟ انت تملك ترف ان تعيش شريفاً، ولكنك غيرك حتى لو اراد لا يملك هذا الترف.

هو: انت تكذبين على نفسك. إن في اصبعك خاتماً يعول عائلة بأكملها في بلادي لثلاثة اعوام. أنت لست جائعة الى هذه الدرجة.

هي: لأن جوعكم هو ابسط انواع الجوع، جوع الحيوان الى الطعام ولكن جوعي هو جوع الانسان الى حياة الانسان. جوع الحياة بمتعة فالحياة لمجرد البقاء هي حياة حيوانات متخلفة. إني جوعى للسفر والرحلة والحياة اللذيذة. الفرق إنكم حيوانات جوعى، بينا جوعي أنا وجوع غيري هنا هو جوع الانسان، أبشع انواع الجوع، لأنه ليس جوع معدات، انه جوع مراكز عليا وخيالات وأحلام، جوع النوازع العليا استاذ.

هو: من اجل تلك النوازع العليا تنحطين بجسدك الى ما هو ادنى من مراتب الحيوان.

هي: فليكن، اني اغوص بالحيوان في، لأمتع كل ما يجعل مني انساناً.

نيويورك

هو: وتفقدين بهذا الحيوان والانسان معاً، فالانسان لا يرتفع فوق حيوان هابط. الانسان يصبح انساناً حين يشبع فيه الحيوان، ويحترم فيه الحيوان حيوانيته لكي يستطيع الانسان فيه بعد هذا أن يفخر ويزهو بانسانيته. ان الوحل لا يصنع اساساً لناطحة سحاب مهما حفلت أدوارها العليا بالديكورات والتحف والزينات.

هي: تقصد أساساً مما تسميه بلغتك القيم العليا.

هو: وما تسمينه أنت خصائص الحيوان.

أي حياة لذيذة تلك التي تدفعين فيها الثمن - كدين شيلوك - من لحمك ودمك! انها اذن تصبح كمدمن الهيرويين الذي يبيع كل يوم اصبعاً من أصابعه ليظفر بالجرعة. اسمحي لي سيدتي انت مريضة جداً. هيأ لك مرضك اقتناعاً كاملاً بحياة تعرفين من اعمق اعماقك انها ملفقة وكاذبة ومليئة بخداع النفس.

هي: لقد بدأت أمل حديثك.

هو: لأنه اقترب من نقطة جنونك الحساسة. لقد صغت لنفسك كما تقولين الحياة المثلى، تحبين الرجال وتغيير الرجال، وفوق هذا تكسبين نقوداً وسهرات، وكل يوم وجه وجسد جديد، ولكنك ستستيقظين ذات صباح لتجدي أنّه لا جديد بالمرة، لا وجه ولا جسد ولا حتى انسان يقول لك: صباح الخير. انت كما تبدين في الثلاثين، ترى كم انساناً سيحضر عيد ميلادك الخامس والأربعين، بل حتى الأربعين؟

هي: لقد بدأت تصبح مملاً جداً. ماذا تريد مني؟ ماذا تأخذه عليّ؟

هو: نفس ما تفخرين به، أنّك مومس.

هي: ولكنك انت الآخر مومس، وكل هؤلاء الحليقون المبتسمون المتحدثون في همس مؤدب خافت، كل من ترى من الرجال والنساء حولك مومسات ومومسون.

هو: أنا مومس؟

هي: بالتأكيد مومس. ماذا تفعل. آه. نسيت. قلت انك كاتب. وقطعاً تعمل في مؤسسة، أو تعيش في مجتمع يعولك ويدفع لك اجرك. هل تقول الحقيقة، كل ما تعتقد انه الحقيقة لهذا المجتمع، أم تقول أشياء وتخفي اشياء؟ اليس هذا مومسة؟ المحامي الذي يترافع عن انسان يعلم تماماً انه سارق او قاتل لينال اجره وأتعابه، ماذا تسمي هذا؟ السياسي الذي يعرف انه يبيع بلده أو يغمض عيناً عن مصالحها؟ ماذا تسميه؟ القاضي التاجر، الزوجة التي لا تطيق رؤية زوجها وتتأوه حباً حين يلمسها، الابن الذي يكره أباه ويحييه كل صباح: هاللو... دادي!.. ماذا تسمي هذا كله؟.. ماذا تسمي ما يقوم به العلماء الذي يخترعون قنابل الفناء، والسياسيون الذين يخوضون الحروب، والمثقفون والكتاب الذين يعرفون الحقيقة ويخافون الجهر بها؟. اليس كل هذا مومسة؟ كلكم، كلهن، بغايا، وبأجر فاحش مدفوع، ولكني أنا الوحيدة المصلوبة بينكم، أنا الوحيدة التي بخطيئة، وأنتم فقط قذاف الأحجار.

هو: كل هذا كذب على النفس، هذا صحيح، ولكن بيع الجسد شيء آخر.

هي: انه أخف انواعها، فما دمنا مومسين ومومسات، فأحسننا هو أقلنا ضرراً، وأنا على الأقل لا أضر الا نفسي، اذا سميت ما أفعله بنفسي

ضرراً. أما المومس الـذي يخدع الملايين، ويفتك بقيـم المـلاييـن ويسرق الملايين، ويقتل الملايين . .

(فترة صمت . . ثم تبدأ ببطء وصوت منخفض يظل يعلو) .

هي: لقد أضعت ليلتي في نقاش لا جدوى منه فأنا لا يغير حياتي نقاش رجل ألقاه ذات ليلة أو ذات صدفة. أنا قررت حياتي. وأنا للأسف أضعت الليلة معك.

هو: ربما ضاعت الليلة، ولكن من يدري، ربما أنقذنا بها عمراً.

هي: عدنا الى المواعظ.

هو: لم نعد ولن نعود. . ولكني متأكد انك ستفكرين فيما قلت.

هي: لا يهمني كلامك ابداً. أنا قررت حياتي. أنامومس، ولكني نظيفة، فأنا لا أقول أنا مدام فلان أو صديقة علان أو أرملة تلتان، أنا نظيفة أقولها لك وللجميع : أنا مومس. وبقولي هذا على الملأ اصبح أنظف منكم جميعاً. فأنا لا أكذب عليكم ولا على نفسي. أنتم الكذابون والكذب أخدش للشرف من النفاق. انه المومسة فعلا، وما أفعله مومسة ولكني نظيفة.

هو: لا يا سيدتي. . لا تخدعي نفسك فأنت تفخرين انك الوحيدة التي لا تخدعين نفسك. قولي أنا مومس. وأن بيع الجسد أحقر شيء يرتكبه بشر. ولكني لا أعرف لماذا أنا أفعله. ولا تهربي خلف رداء العموميات. قولي لنفسك انك ستخربين نفسك وانك بحاجة الى من يعالجك أو يأخذ بيدك.

هي: (محذرة) أنا نظيفة. . نظيفة. .

(صوتها العالي يجذب الانتباه، وبالـذات انتباه (الميتر) يقبل بقامته الفارعة ووجهه المكتئب الصارم، يبطيء الخطى حين يقترب من منضدتها ثم فجأة يبتسم ابتسامة تبدو بلهاء تماماً ولا علاقة لها بصرامة ملامحه).

الميتر: يبدو يا دكتوره انك الليلة عصبية..
هي: أنا نظيفة (بصوت لا يزال **عالياً** جداً).

الميتر: أعرف تماماً أن أبخس أجور هي تلك التي يدفعونها في العيادات والمستشفيات الجامعية.. لماذا لا تتفرغين للعمل كل الوقت هنا مثلا أو حسبما تشائين؟.. ان مزاولة عملين في وقت واحد أمر دائماً مزعج... ألست معي يا سيدي؟
هو: أأنت؟! (سائلاً إياها).
هي: أنا سأتفرغ **فعلاً**.. سأتفرغ للنظافة، فأنا نظيفة.. أنظف منكم جميعاً.

والميتر مشدوه تماماً ومشلول. هو ايضاً بدأ يضطرب. صوتها تحول الى صراخ. تقف فجأة وبعصبية شديدة تلم حقيبتها وكتابها وأوراقها وتصرخ بأعلى صوتها.

هي: أنا نظيفة.. نظيفة.. بل أنا قذرة.. قذرة جداً.. ولكني أقولها.. هأنذا أصرخ بها.. أنا نظيفة جداً لأني قذرة جداً جداً. أنا أنظف قذرة.. أنظف منكم كلكم. (بول شيت) عليكم جميعاً.

القاعة يخيم عليها سكون مشلول تام. الذهول لبرهة طويلة على الوجوه. دبدبة خطواتها المسرعة الى الخارج هي وحدها المسموعة. بخفوت شديد يبدأ شيء وكأنه الهمس، يظل يرتفع ويرتفع وتنفك دهشته

الشديـدة، وتعود الــوجوه تبتسم بل وتضحك، وتمتلــيء القاعة بنفس الضجة التي كانت عليها، وكأن شيئاً ما كان).

يصنع من كفيه كأساً يملؤها بذقنه ويحدق الى ابعد نقطة في الكون ويقول:

هو: متى يا الهي تعطي بعض الرجال شجاعة بعض البغايا.

القاهرة في

يونيو ١٩٨٠

فيينا ٦٠

السيدة فيينا

أكاد الآن أتصور مصطفى، أو «درش» كما كنا نسميه، وهو واقف وقفته المشهورة في ذلك الميدان الواسع من ميادين فيينا، وكل معلوماته عن الميدان أنه لا بد أحد ميادين فيينا، وأن فيينا هذه هي عاصمة النمسا والأهم من هذا أن له فيها يومين بليلتين بخمسة جنيهات أجراً للفندق، بلا فائدة.

والميدان لم يكن واسعاً بالمعنى المفهوم من تلك الكلمة، فأوسع ميدان من ميادين فيينا لا يمكن أن تبلغ مساحته مساحة أضيق ميادين القاهرة. ميدان والسلام تحده بناءات عجوز مهيبة الطلعة، مزخرفة بعدد لا نهاية له من التجاعيد والأفاريز، ومطلية بألوان طوبية وقورة غير زاهية وكأنما اختيرت خصيصاً لتلائم الجو شبه المظلم الذي يحيا فيه أهل الشمال؛ بناءات تحس أن الذين بنوها لابد اناس أوروبيون، بشرتهم حمراء من شرب النبيذ، وعيونهم صغيرة زرقاء ماكرة. ودرش كما هو واضح من اسمه مواطن مصري سافر كما يسافر الناس الى اوروبا، موفداً في مهمة مصلحية اسماً، وللتفرج والفسحة في حقيقة الأمر. موظف في وزارة التجارة عمل ألاعيب الدنيا والآخرة، وظل اكثر من ستة شهور

يكافح ليوفد دوناً عن بقية زملائه في تلك المهمة الرسمية الخاصة بالتبادل التجاري مع هولندا، وتم له الانتصار ووقع عليه الاختيار، وقضى اياماً كثيرة يجري من ادارة الجوازات الى مراقبة النقد الى القنصليات والسفارات وحتى الى مشايخ الحارات ليستخرج (الباسبور). وركب البواخر والقطارات،ووصل الى أمستردام عاصمة هولندا وأنهى مهمته الرسمية بنجاح، وغادرها، وها هو ذا في قلب فيينا بالذات. فالأمر يتطلب منا كشف ناحية من نواحي صديقنا درش لا يزال يحرص حرص الموت على اخفائها، ذلك أنه لم يأت الى أمستردام أو لاوروبا لمهمة رسمية ولا حتى للتفرج أو الفسحة، ولكنه جاء بهدف واحد فقط للنساء، رغبته الدفينة كانت أن يجرب تلك المرأة الاوروبية ذات الشخصية، وقد شبع من نساء بلده وايقاعهن في حبائله.

ونقول أنه شبع مجازاً، فدرش لا يشبع من النساء.

هو محترم جداً في مظهره، طويل انيق، على الأقل اكثر زملائه وموظفي مصلحته أناقة، له شامة سوداء كبيرة الى جانب فمه، حليق اللحية والشارب، لونه قمحي ومع هذا فشعره أكرت أسود، جاد وقور يحدثك بصوت الواثق من نفسه، ويستعمل دائماً كلمة يا حبيبي، حتى اذا حادث الغرباء، وهو مصري حرك، لا يترك فرصة للقفش والتنكيت إلا وانتهزها، وكلمة والثانية وينظر اليك بعينين عسليتين وبزاوية خاصة ويقول لك: ما تبقاش كروديا امال. وكأي مصري طبعاً إذا غضب يقول لك: وديني احط صوابعي في عينيك. ويزعل وينفعل،ولكن أقل كلمة ترضيه. وموته وموت من يحاول استكراده أو الضحك عليه. وفرق كبير

بينه في العمل وبينه في حياته الخاصة، فسمعته في المصلحة حريص عليها كل الحرص، ومعاملته للناس بالأصول، وتلك الاصول لا تمنعه طبعاً من زجر مرءوسيه أحياناً وازجاء بعض الملق لرؤسائه . . . ودرش متزوج وله ابنة صغيرة (كما جرت عادة الصحف عندنا في تعريفها للشخصيات)، هوايته هي النساء. وهي هواية سرية يزاولها في تكتم شديد، حتى ان بعض اصدقائه ليذهلون اذا عرفوا عنه تلك الهواية. هواية يمارسها بفن وحذق. ومن نظرة واحدة الى المرأة يستطيع أن يعرف أي الطرق يوصل اليها، وفي كم من المرات تقع، وهل يوقعها بتجاهلها او بالاقبال عليها أو بأن يمثل أمامها دور الفارس المغوار. وهواية النساء هواية واسعة الشعب، فهناك هواة البيض، وهواة السمر، وهواة الخادمات، وهواة نجوم السينما، وهواة التلميذات، وحتى العجائز لهن ايضاً هواة. أما درش فقد تخصص في نوع غريب على هذا كله هو النوع الخام، مزاجه كله أن يظفر بامرأة يكون هو أول ظافر بها، إذ هنا تتبدى عبقريته ويتفنن في استدراجها خطوة خطوة، وعلى مهل الصائد الماهر الذي يستمتع بكل ما في عملية الصيد من صبر وتمهل وحنكة. ومن كثرة تجاربه في ذلك المجال أصبحت له ثقة بنفسه لا حد لها، حتى ان أحد أقواله المشهورة بيننا قوله: المشكلة ابداً ليست في ايقاع المرأة، المشكلة الكبرى هي في التخلص منها.

كان درش اذن قد انتهى من النساء في مصر، وذهب وفي نيته أن يغزو أوروبا المرأة. ومن لحظة أن وضع قدميه على سلم الباخرة بدأت عيناه تزوغان هنا وهناك، كمن فقد لتوه شيئاً راح يفتش عنه في وجه كل امرأة يراها أو يلمحها.

وصحيح أنه خلال الرحلة وخلال اقامته في أمستردام، تعرف الى فتيات ونساء، ولكن الظروف كانت دائماً ضده، ولم تحن له فرصة واحدة. وفي امستردام بالذات كانت المدينة تعج بالقادمين اليها من كل مكان يحتفلون بمناسبة لا يعرف ماذا كانت، وخلال هذا الازدحام الهائل بآلاف الزوار لم تحن له ايضاً الفرصة .ولم يضايق هذا «درش»في شيء إذ هو صاحب مزاج، والحمى التي تجتاح أمستردام في أثناء الاحتفال لا يمكن أن تتيح له ذلك التلذذ الذي يريده. ولكنه عرف أين يمكن أن يتاح له هذا، فقد قابل بعض مواطنيه الشرقيين الخبراء في هذهالمسائل،وما أسرع ما كان صريحاً معهم، ولم تكن صراحتهم أقل من صراحته، فقد قالوا له: اذا أردت النساء يا أخ فاذهب الى فيينا، وحتى بغير نصيحتهم كانت فيينا هي ضالته المنشودة، فيينا التي كان يسمع اسمهان تغني بصوتها الحلو الرنان: ليالي الأنس في فيينا. كان جسده يقشعر بأحلام لا حدود لها، أغنية وقشعريرة ربما كانتا من أهم العوامل التي جعلته يدبر هذه الرحلة.

وها هو ذا له يومان في فيينا. وتلك هي ليلته الثالثة في مدينة الأنس والأحلام ولم يحدث شيء، مع أن النساء أمامه وخلفه وحوله وفي كل مكان، نساء نمساويات فيهن تتركز روح اوروبا، نساء من مختلف الألوان والأعمار والأشكال، وكلهن بلا استثناء يتمتعن بقسط وافر من الجمال. حتى القبيحة لابد أن جسدها جميل، أو لابد أن تجدها صاحبة ذوق رفيع في اختيار ملابسها. كل واحدة فيها شيء، شيء من أوروبا وكل واحدة لها ميزة. وعقله مشتت موزع، وبصره لا يزال كما بدأ الرحلة حائراً زائغاً.

كانت الساعة تقترب من الثامنة والميدان مضيء، كل ما فيه مضـيء وكانت هناك جريدة مضيئة تتوالى كلماتها فوق اعلـى مبنى في الميـدان تذيع آخر الأنباء، كلمات مضيئة بلغة لا يعرفها وهو الوحيد الذي يحدق فيها، اذ هو الوحيد الغريب الذي انقطعت عنه أخبار بلده منـذ غادره.

قرأ كلمة مصر. ودق قلبه بانفعال فلا بد أن الجريدة تتحدث عن شيء حدث هناك. وفي غمضة خاطر واحدة كان قد احتوى مصر بكل ما فيها وما له فيها، غمضة جاءت سريعة وذهبت سريعة، ولكنها خلفته خجولاً لا يكاد يطيق النظر الى نفسه، اذ كان لا يزال واقفاً في الميدان يفتش بعينيه عن المرأة.

وتحرك. ولم تكن هذه أول مرة يتجول فيها، فله يومان وهو يتجول في المدينة سيراً علـى قدميـه، ويقف أمام واجهات المحلات ويتناول القهوة الفرنسية التي لم يستسغها أبداً، ويجرب مع النساء كل الـوسائل التي أتقنها في بلده، فيبتسم تلك الابتسامات الخفيفة الباهتة الموجهـة ويهيم بعينيه بطريقة خاصة لا تلحظها إلاّ المقصودة فقط، ويدعي أحياناً انه لا يعرف ثمن تذكـرة الاتوبيس وينتقي اجمل راكبة بجواره ليسألها عن الثمن. ومن جهة الاحراج فان كل سيدة أو فتاة سألها كانت في غاية الأدب ولـطيفة الـى آخر حدا لم تكسفه واحدة، ولـم تشح احداهن بوجهها وتقول: يا سم.. كن يرشدنه بدقة، ويبتسمن له بظرف، ويرددن علـى اسئلته بطريقة مهذبة للغايـة، ويتعمد أن يقول للواحدة مثلاً محاولاً ادهاشها: أنا مصري، فتدهش صحيـح وتقول: أحقاً؟ انه لشيء مثيرا ولكن دهشتها لا تلبث ان تزول، ولا تلبث ابتسامة الاستئذان ان تلـوح

على فمها، ثم تنسحب من أمامه أو من جواره بكل خفة ورشاقة وبرود. لقد خدعوه ما في ذلك شك، هؤلاء الملاعين الذين قالوا له: يكفي أن تمشي في الشارع بلـونك الأسمر وشعرك الأكـرت حتى تجد النساء يتساقطن تحت قدميك» بل يكفي ان تقول لأي واحدة انك مصري حتى ينتهي كل شيء. . وها هو قد قالها الى الآن الف مرة ولم يبدأ اي شيء. .

ظل مصطفى يدور في الميـدان بلا هدف بل حتى دون أن يستطيـع تغييره أو الانتقال الى سواه، فهو الميدان الوحيد الذي يعرف منه الطريق الى الفندق، وهو لا يريـد ان يتوه في بلاد الناس، خاصة اذا كانت كل حصيلته من اللغات هي الكلمات الانجليزية التي ما زالت عالقة بذهنه من دراسته في كلية التجارة، وبعض جمل بالفرنسية من التي كان يحفظها في أثناء دراسته بالثانوي من أمثال: كل المراكـب من كل البلاد راسيـة في الميناء، وعلى كامل تلميذ مجتهد في المدرسة الثانوية.

وجد نفسه في طرف الميدان الآخر، ولم يجد نفسه هكذا صدفة أو لله في لله. لقد لمح من بعيد فتاة واقفة وحدها في ذلك الجزء من الميـدان فخف القدم اليها وهو يدعو الله في سره الا تتحرك أو يظهر لها زميل. وفعلا حين وصل اليها وجدها وحيدة. ليس هذا فقط، بل دهش حين اقترب منها وابتسم لها فابتسمت له، وعلى هذا وجد نفسه يقول:

ـ مساء سعيد.

فكادت تضحك وهي تقول بانجليزية ذات لكنة المانية غريبة على اذنيه:

ـ مساء سعيد.

وتهلل وجهه وقلبه وكل جسده بشراً . . هنا مربط الفرس . وهكذا وقف أمامها وسألها عن الساعة ـ سؤال سخيف عنف له نفسه فقد كان من الممكن أن يبدأ الحديث بطريقة اذكى، ولكنه لم يكن في حاجة الى اي ذكاء، فقد ردت عليه قائلة وهي تتمايل:

ـ ماذا يهم أن تكون الساعة، فلتكن العاشرة أو الواحدة ماذا يهم؟ .

وأدرك انها «شاربة» واستغرب، فقد كانت صغيرة لا يتعدى عمرها السادسة عشرة، وكانت حلوة جداً؛ تقاطيعها بريئة جميلة مسمسمة ودمها خفيف وجسدها يتموج أمام عينيه كالبالوظة. قال لنفسه: هيه سكرانه وحلوة وموش على بعضها، منتظر ايه ياللا!

واقترب منها جداً حتى بدأ جسداهما يتماسان، وضحك في خبث وقال لها:

ـ هل ممكن تصحبيني لنأخذ شيئاً . . هنا في المحل؟

وقالت له:

ـ غير ممكن؟

ـ ليه؟

قالت.

ـ انني انتظر صديقي.

وتعكنن.

ـ وأين صديقك؟ . .

قالت:

ـ في التواليت.

وأشارت الى باب نفق مضيء قريب لابد انه يؤدي الى التواليت.

وأمسك بذراعها قائلا في فوضوية مصرية:

ـ هيا بنا يا شيخة ودعينا من صديقك هذا.

ولكنها أصرت على موقفها وهي تتلوى وتتملص منه وتقول:

ـ غير ممكن، اني انتظر صديقي ولا يمكن ان اتركه.

ثم لم تلبث أن أضافت:

ـ ولكن شكلك عاجبني جداً لدرجة انني اريد ان اقبل حسنتك الجميلة هذه التي بجوار فمك.

وسرته الملاحظة، بل دفعته الى مزيد من الفوضوية فجذبها بعنف قليل ودمه كان قد بدأ يسخن، وقال:

ـ أنا حاضر وصديقك غائب.. دعينا من الغائب واكتفي بالحاضر.

وتلوت في يده كالعجينة، ولكنها لم تتحرك.

ولمح شخصاً يصعد سلالم النفق فترك يدها. واستمر الصاعد في طريقه تجاههما وحينئذ احس درش بالحرج، وتراجع عن قربه الشديد منها. وجاء الشاب، وقال بأدب بارد:

ـ مساء سعيد.

فأجابه درش:

ـ مساء سعيد.

ولف الشاب ذراعه حول الفتاة وقال:

ـ هيا بنا يا تيدي.

ومضت الفتاة سكرانة تتلوى، وحتى لم تلتفت لتلقي نظرة على درش وقد خلفته واقفاً وقفة لا تسر عدواً أو حبيباً.

ولكنه لم يقف طويلا. . ما لبث أن عاد الى تجواله في الميدان وهو شبه يائس، خائف جداً أن يتقدم الوقت ويفرغ الميدان من الناس، ومن النساء بالذات كما حدث في الليلتين السابقتين. ولكن الميدان لم يفرغ والنساء والفتيات كن لا يزلن كثيرات كشعر الرأس. ومشكلة درش الحقيقية لم تكن في هذا. فحتى لو تعرف بفتاة او بامرأة فماذا يفعل وهو لا يستطيع اصطحابها الى الفندق الذي نزل فيه؟ فبوابه كئيب يبدو أنه ليس ابداً من النوع الذي يمكن أن يسمح بشيء كهذا. فأين يذهب بها وهو لا يستطيع استصحابها لبيتها؟ قد تستطيع ان تدله على بنسيون او فندق آخر ممكن أن يذهبا اليه سوياً، ولكن أن يصل به الأمر الى هذا الحد يستلزم ان تكون معرفته بها قد توثقت الى درجة كبيرة، وهو يريد ان يحدث هذا كله في ليلة واحدة، بل في جزء صغير من ليلة. فكيف يمكن ان يتعرف الى فتاة وتتوثق معرفته بها ويستصحبها الى فندق في ظرف ساعة أو ساعتين؟. . والأهم من هذا انه لا يريد واحدة من فتيات الأزقة أو الشوارع، اذ ما أكثر ما اعترضن طريقه وأزاحهن عن نفسه بنظراته وتكشيراته، وهو يريد أن يتم كل هذا مع سيدة اوروبية اصيلة ذات شخصية، تريده هو ولا تريد نقوده، وتعطيه نفسها بارادتها. . بمطلق ارادتها. . المشكلة اذن عسيرة وحلها يكاد يكون مستحيلاً.

وفجأة بدأ مصطفى يلاحظ شيئاً. بدأ الميدان يمتلىء بجنود بحرية حين تمعن فيهم وجدهم شباناً صغاراً اعمارهم تتراوح بين السابعة عشرة والعشرين، ومع هذا يرتدون زي البحرية. وحين التقطت اذنه انجليزيتهم أدرك انهم امريكان. من أين يجي بحارة اميركيون لفيينا وهي ليست ميناء؟. . سؤال وجد الاجابة عليه صعبة جداً. ممكن أن يكونوا قد جاءوا

في اجازة مثلا، أو في رحلة في اوروبا. كل شيء جائز. المهم أنه بعد قليل كان قد أدرك انهم هم الآخرين يجوبون الشوارع مثله في جماعات صغيرة وكأفراد. بل تبين أن بينهم بعض الزنوج. ولدهشته وجد أن لونهم فاتح ،وليس كما تخيل دائماً أن زنوج أميركا غامقو السواد. وكانوا صغاراً هم الآخرون وفي عيون البيض والسمر والسود كان يلمح نفس النظرة هم ايضاً يبحثون عن النساء مثله. فلنر ما يحدث يا أميركان؟ قالها لنفسه ساخطاً حانقاً، فقد ظهر له من حيث لا يدري أو يتوقع مئات المنافسين الذين يبحثون مثله عن النساء،غير أنه كان مطمئناً الى حد ما،فالنوع الذي يبحث عنه هو غير النوع الذي يبحث عنه اولئك البحارة الصغار. انه يبحث عن اوروبا السيدة، وهم يبحثون عن اوروبا العابثة، وشتان ما بين الأوروبتين. ولأمر ما كان يتوقع لهم نجاحاً كثيراً، اذ كان يعتقد ان الفتيات الأوروبيات لابد انهن «ناقمات هن الأخريات على هذا الاستعمار الأميركي الجديد»، ولابد انهن سيقفن من هؤلاء البحارة العابثين موقفاً مشرفاً.

غير أنه فوجيء، ولم تكد تمضي نصف ساعة على دخول البحارة المدينة، بأن كل بحار اميركي صغير قد اصبح في صحبة فتاة نمساوية صغيرة. . بل احياناً سيدة كبيرة. كيف تعرفوا عليهن بهذه السرعة، ومن اين جاء كل هذا العدد من الفتيات والسيدات؟ . . لم يكن يدري،بل بدا واضحاً ان المعرفة ليست سطحية بالمرة، فسرعان ما بدأت عيناه تلمحان ايدي البحارةالصغار،وهي تمتد الى الخصور وفتحات الأثواب امتدادات غير بريئة، لابد أن هؤلاء الخواجات يتفاهمون مع بعضهم البعض بطرق لا نعرفها نحن الشرقيين، وكان طبيعياً جداً ان بدأت تتكون جماعات من

عدد من البحارة وعدد من الفتيات متخاصرين، سكارى، صاخبين يغنون معاً، واحياناً يرقصون في الشوارع هكذا عيني عينك.

ثم بدأ ازدحام ازواج الفتيات والبحارة يقل، وبدأ يلاحظ ان كل زوج يتسرب الى شارع مظلم أو في اتجاه المنتزه او الطرق المؤدية الى مدينة الملاهي والخالية تقريباً من المارة. . طبعاً لتحقيق كل ما يمنع النور تحقيقه. والناس أهل فيينا الكبار في السن والرجال والوقورون ذوو القبعات الغامقة والوجوه الجادة، والسيدات المسنات المتشحات بالسواد، يرون كل هذا ولا يحركون ساكناً، وكأن ما يحدث يحدث لبنات غير بناتهم، أو في مدينة غير مدينتهم، وكأنه وضع طبيعي جداً لا غرابة فيه بالمرة.

وبلغ حنق درش على أهل فيينا منتهاه، ولكنه وهو في قمة حنقة لم يفته أن يلاحظ انه هو الآخر يبحث عن امرأة، وان بعض حنقة راجع الى فشله فيما نجح فيه البحارة الأميركان. وقال لنفسه: لن يذهب هذا النحس الذي أصابني ولن ينفك كربي الا بكوبين محترمين من البيرة. قال هذا مع أنه لا يحب البيرة ولا الخمر عامة ويضيق بطعمها. ودخل الى أقرب بار وتأكد انه ليس من نوع فاخر، فكم أخذ من مقلب! وطلب من البارمان العجوز بيرة، وحين احضرها له الرجل رمق الورقة المكتوب فيها الثمن بربع عينه، ولما تبين فداحة ثمنها قرر أن يكون هذا هو الكوب الأول والأخير، ومضى يحتسيه محاولاً أن يخلق البهجة في نفسه خلقاً، ويقنع نفسه انه في اوروبا، في فيينا الساحرة الجميلة، في ليلة من لياليها . وان هذا يحدث له حقيقة. ولابد له ان يستمتع بكل دقيقة وكل ثانية، فغداً تستحيل كل هذه الأشياء الى ذكرى لا تعود. وكان كلما حاول

هذا أحس بالشجن أكثر، وبأنه غريب وحيد. إذ حتى في البار كان لا يزال وحيداً والمشهد حوله هو نفس المشهد في اي بار: فتاة من فتيات البارات جالسة قرب الباب، ورجل في منتصف العمر ذو صلعة وكرش صغيرة يجلس الى سيدة في مثل سنه في ركن، وبينهما كأسان لا تزالان ممتلئتين، وكل منهما ينظر بتدله الى الآخر، سابحين في قصة حب غريبة، والضجة الوحيدة في المكان كانت تنبعث من رجال يقفون معه على البار بينهم سيدة متصابية تشرب وتدخن. . ولها فم سجائر طويل وتضحك بصوت مزعج. هنا ايضاً كان واضحاً انه لن يعثر على ضالته المنشودة.

وحين خرج كانت البيرة قد بدأت تعمل عملها، وكان قد بدأ يحس أن خجله وعقده ومخاوفه تتوارى في ركن من نفسه، بل كان قد بدأ ينتابه شعور اهوج جعله يضرب عرض الحائط بكل شيء، ويقول لنفسه: وايه يعني؟ البلد اللي ما حدا يعرفك فيها، اعمل اللي تعمله فيها.

وهكذا بدأ يلقي بتحيات المساء ذات اليمين وذات اليسار بصوت مرتفع ضاحك، غير مبال أن يرد عليه احد. واذا توجه بتحية الى امرأة وأشاحت بوجهها في استنكار وتقزز، أخرج لها لسانه وكاد يقول: يلعن ابوكم. يعني ما ينفعش الا الأمريكان؟.

أما الأمريكان فعددهم كان قد خف كثيراً. . والظاهر أن ميعاد اوبتهم كان قد حان، فبدءوا يقفون على محطات الأوتوبيس مع فتياتهم لتوصيلهن. . والسكر كان قد بلغ ببعضهم حد الثمل فبدءوا يصخبون بطريقة مزعجة، وبدأت التكسيات تقف ويحمل الفائقون زملاءهم السكارى فيها حملاً. بل بدأ يشهد مناظر وداع بين الفتيات والبحارة

الصغار.. وداع ضاحك في معظم الأحيان مدوي القبلات في أحيان اخرى، ولم يخل الأمر من مشهد مؤثر واحد رآه: اميركي اسمر صغير وفتاة نمساوية صفراء الشعر قصيرة كالتلميذات وقفا على محطة الترام ساعة ويدها في يده، وعيناه هائمتان في عينيها، ودرش واقف قبالتهما يتفرج ويعجب، أهكذا ينشأ الحب ويستبد بالقلوب في ساعة زمن؟ لابد اننا حقيقة في عصر الذرة.

ولم يجد درش غضاضة فيما فعله بعد هذا، فقد كان ينتظر الى أن ينصرف الرفيق الأمريكي ثم يتبع رفيقته. ولكنه حتى وهو ليس في كامل وعيه لم يحاول ان يبدأ احداهن بالحديث، كان على الدوام ينتظر ان تلحظه هي فتتلكأ أو يبدو عليها أقل بادرة من بوادر القبول ليقدم هو. لم يكن يريد ان يجرح كرامته حتى وهو في البلد الذي لا يعرفه فيه أحد ولكن الفتيات كن ينصرفن مهرولات الى بيوتهن وكأنما شبعن واكتفين.

وحين دقت ساعة الكاتدرائية الكبيرة اثنتي عشرة دقة، كان الميدان قد خلا من البحارة الأميركان تماماً ومن الفتيات الصغيرات، ولم يبق فيه الا مجاميع صغيرة من الناس تنتظر الترام أو الاوتوبيس. ها هو ذا مرة اخرى مع الاوروبيين اهل فيينا وحدهم بلا أميركان ولا منافسين، ولكن نفسه لم تكن تحفل بانتعاش اول الليل. كان اليأس قد بدأ يزحف عليه بلا شفقة فبالأمس وأول الأمس حدث مثلما حدث له الليلة تماماً. وعاد في آخر الأمر الى فندقه وحيداً في الشوارع الضيقة المهيبة التي يعرفها، ونام والغيظ يملؤه.. وكل الظواهر تدل على أنه ملاق الليلة نفس ما لاقاه بالأمس.

ومن جديد راح درش يجوب الميدان ويتصفح وجوه المارة والواقفين

لعله يعثر على ضالته . . وجوه كثيرة متشابهة، وكأنها نسخ مكـررة لوجه واحد. أناس أنوفهم تنحدر من الجبهة بنفس الزاويـة، وعيـونهم يكـاد يكون لها جميعاً نفس اللون والبريق. أناس يعرفون بعضهم، ويفهمـون ولغتهم الألمانيـة ذات (الناخت) و (الفوخت) و (الأنيـن) تسري بينهم كالأسلاك الكهربائيـة الخفيـة، تربطهم وتجمعهم وتجعلهم يبدون كالجسد الواحد المتجانس الكبير. وهو الوحيد الغريـب اللـون والأنف والشعر واللغة . . هو الوحيد النشاز. ولم تكن هذه هي المرة الاولى التي يعاوده فيها احساسه بالحنيـن الـى بلـده. كلما شم رائحة السجق ،وهو يقلى، كلما سمع رطانة المانية لا يفهم منها حرفاً، كلما حدق في سيدة ولم تأبه له . . عاوده الحنيـن الـى بلـده وشقته المحندقة في شارع ابن خلدون، وزوجته النقية الصافية كدعوات المجاذيب في حي الحسين الطيبة الراقدة الآن تغطفي نوم عميق وتحلم برجوعه وتنتظره . . تماماً كما كانت تنتظره كل ليلة ،وهو عائد من سهراته المتأخرة كالولد العاق، كلما عاوده الحنين إلى ابنته الصغيرة التي تسنن. وبالذات إلى سنتيها الأماميتين الصغيرتين اللتين تطلان من فمها كلما فتحته لتقبله حين يقول لها بوسة بابا،. وإلى صندلها الصغير الذي اشتراه لها من زمن ،وكـاد يبلـى صوفه الأحمر، ومع هذا فنعله لا يزال جديداً لأنه لم يلامس الأرض قط وهو هنا، في قلب فيينا، يبحث عن امرأة يجرب طعمها الأوروبي ،والساعة قد جاوزت منتصف الليل!

ونفض رأسه بعنف . . نفضه حقيقة وهو ماش في الشارع. فليكن هذا كله ،ولكنه لا يمكن أن يحول بينه وبين الشيء الوحيد الذي أراده وجهز له عاماً طويلا، لقد فعل المستحيل لتتاح له هذه الفرصة، فهل يضيعها بعد أن أتيحت له؟ لابد أن يستغل الفرصة أولا، وهو عارف أن ضميره سيؤنبه

حتماً، وسيؤنبه كثيراً، ولكن فليحدث هـذا التأنيب في مصر بعد عودتـه فساعتها سيكون لديه الوقت الكافي لمحاسبة نفسه. . أما الآن فلم يبق لديه وقت، الدقائق تتسرب من ساعته بسرعة مجنونة، والليـل يوغل في التقدم، ولا وقت حتى لتأنيب الضمير.

وفي زاوية من الميدان لمح مجموعة لا بأس بها من الفتيات لها نفس الوجوه والبلوزات التي رآها تجوب الشوارع مع البحارة الأميركان، وأقبل عليها بخطى محترسة، غير أنه لم يقبل كثيراً، فما لبث أن توقف عن اقترابه ومضى يحملق فيهن وعلى فمه ابتسامة استنكار لا تخلـو من رثاء. كان يتوسط المجموعة شاب بدا لأمر ما وكأنه الرئيس، يقف مرفوع الـرأس يرتدي ملابس الفتوات النمساويين الجدد. . بنطلون محزق يضيق جداً حين يصل الى الأقدام، وبلوفر جلد، وشوشة العصر الحديـث تطل من رأسه، ونظرة وقحة وقاحة مصطنعة ومبالـغ فيها كثيـراً تطل من عـينيـه والفتى صغير السن يكاد لا يتعدى العشرين، ومع هذا، فقد كان مشتبكاً في نقاش متنمر مع البنات ومع زميليـن له. والتقطت أذنه كلمات: اميركان. . دولارات وشتائم من كل نوع بالانجليزيـة والألمانيـة ولغات الفئة والحي التي لا يفهمها سوى الخبير بالمهنة. وكـان واضحاً أن في المسألة تجارة وخلافاً خطيراً حول المكسب، أخيب نهاية لقصة منافسيه الأفاضل البحارة الأميركان.

وحين تحرك درش من مكـانه وقد بدأت المسألـة تتطور من معركـة بالألسن الى صراع متوحش بالأيدي والبواني، كان قد صمم على أن يغير ذلك الميدان النحس وليكن ما يكون. وانتقى أوسع الشوارع المتفرعة من الميدان ومشى فيه. لم تكن المدينة قد خلت بعد من الناس. . كان المارة

لا يزالون كثيرين ، وكان مطر خفيف جداً قد بدأ يتساقط. وتردد درش برهة بين ارتداء المعطف البلاستيك الرخيص الذي اشتراه ليقي أوجه حلله من أمطار الصيف في أوروبا، وبين ان يسير بلا معطف. فاذا ارتداه فقد يقلل المعطف من قيمته في عيـون النساء، واذا لم يرتده فقد تتلف الستـرة خاصة وهي اكثر ستراته جميعاً أناقة، وعلـى الأقل دفع في كيها بالأمس الشيء الفلاني، وآثر السلامة وارتدى المعطف.

كانت «فتارين» الشارع مضاءة كلها، فتارين حافلة بما يسيل له لعاب كل مسافر، كاميرات وأجهزة تسجيـل، وتحف دقيقة الصنع وولاعات. وكان درش في أزمة، فرغبته في التفرج على محتويات الفتارين، ومقارنة الأسعار الموضوعة علـى المعروضات بأسعار القاهرة، وانتقاء احسن الأنواع وارخصها، كانت رغبة ملحة لا يكاد يستطيع مقاومتها. ومع هذا فله يومان وهو يقاومها بعنف، فشيء من اثنين اما أن يتفرغ لها، أو يتفرغ للمهمة التي أوفد نفسه الى أوروبا من أجلها. وكان وهو سائر في الشارع الواسع يتألم ألماً حقيقياً، فالمعروضات في أضوائها الليلية التي تفنن أهل فيينا في زخرفتها وتنسيقها تكاد تخطف البصر. درش مخطوف كله وموجه الى رواد الشارع القليلين، يكاد ينظر بأربع عيون، عين على الرصيف المقابل، وعين على الرصيف الممتد من أمامه تستكشف، وعيـن علـى الشارع الممتد من خلفه تفتش، لعل شيئاً قد مر غير ملحوظ من عيـونه الثلاث الأخرى. . وعيـونه كلها تميـز في الكائن أول ما تميـز ملابسـه لتفرق بين الرجل والمرأة. وحين بدأ المطر يتساقط اصبح همه الأول ان يميز مظلة السيدة ومظلة الرجل، فاذا ما تم له هذا كان عليه ان يدقق ليميز نوع هذه المرأة، العجوز ينبذها كالرجال، والطفلة طبعاً يتركها، وكذلك كل من يشتبه أن تكون من المتبرجات فتيات الليل. وهكذا تبقى امامه نسبة

ضئيلة جداً عليه أن يوجه اهتمامه اليها، ومن أجل هذا كانت طريقة سيره في الشارع اعجب طريقه، فهو يسير على الرصيف مثلاً، وفجأة ينتقل الى الرصيف الآخر، ويسير الى الأمام مثلا وفجأة تجده قد استدار وسار في عكس اتجاهه، وهذا كله يحدث مصحوباً بحركة خلع للبالطو البلاستيك الرخيص وارتدائه قائمة على قدم وساق، كلما تبين في الشبح القادم امرأة خلع البالطو، فاذا لم تكن من النوع المطلوب عاد وارتداه، فاذا لمح على الرصيف المقابل واحدة تصلح انتقل اليه. . وانتقل البالطو هو الآخر من بده الى اكتافه.

وعلى هذا حين لمح درش شبحاً مشكوكاً في أمره قادماً من بعيد تجهز لكافة الاحتمالات فخلع البالطو ووضع يده فوق رأسه ليطمئن على هيئة شعره، وتأنى في مشيته وجعلها تبدو رشيقة في وقار تنم عن جاه وشخصية. وحين اقترب الشبح تبين انه كان على حق، وانه امرأة فعلا وأنها فوق هذا من النوع المطلوب. وطبعاً لم يتوقع درش أن يتغير الحال معها كثيراً عما جرى عليه منذ أول الليل.

تخطى درش الشارع متجهاً إلى الرصيف الآخر الذي كانت تمشي عليه السيدة المقبلة وسار في اتجاهها. . ومن كثرة ما تدربت عيناه على الرؤية كانت قد تكونت لديه قدرة مؤقتة على معرفة الملامح الجميلة حتى من لون الفستان الذي ترتديه صاحبته. . . وكان واضحاً أن القادمة ليست باهرة الجمال ولكنها على الأقل وسيمة، طريقة مشيها، الزاوية التي تمسك بها المظلة، حتى إمساكها للمظلة نفسه وقد كف المطر.

المرأة الجميلة وحدها هي التي تبالغ في الحرص على ملابسها ومساحيقها، وكل ما يمت إلى جمالها بصلة.

وقبل أن يلتقيا حاول درش أن يجذب أنظارها حتى تمتد أمامها فرصة رؤيته. . ولكنه لم ينجح، فلم تره الا حين اصبح وجهه في وجهها.

وبينما كان درش يلتهمها بعينيه، لم تفعل هي أكثر من أن ألقت عليه نظرة خاطفة سريعة لا تعني شيئاً، نظرة مثل آلاف النظرات غير المحبة للاستطلاع التي كانت تلقى عليه في اي مكان ذهب اليه في أوروبا. القت عليه النظرة واستمرت في طريقها لا تلوي على شيء. لم تكن بالجمال الذي كان يطلبه أو يحلم به. . كانت طويلة تدانيه تقريباً في الطول ترتدي معطفاً من الصوف البيج ذا ياقة عالية، وشعرها طويل على عكس المودة السائدة وغزير ايضاً، وكان وجهها طيباً وأنيقاً في الوقت نفسه، ولا تضع غير الروج (أو على الأقل هكذا خيل اليه). ولم تكن تبتسم وكذلك لم يكن بوجهها اي عبوس. امرأة تصلح ان تكون ربة بيت ممتازة أو طبيبة او عازفة «فيولنسل» في اوركسترا من الدرجة الثانية.

ودون اي قصد أو هدف الا المحاولة لعل وعسى، غير درش من وجهته وسار وراءها بعدما جاوزته، وأسرع في خطوه. وحين اقترب منها كثيراً حتى كاد يحاذيها تردد كالعادة بين أن يتجاوزها أو أن يتبعها. وآثر أن يتبعها اذ في هذه الحال سيكون هو سيد الموقف، واستمرت المرأة سائرة في طريقها، وعند منعطف يؤدي الى شارع جانبي غيرت وجهتها.

واستمر درش في متابعتها، ويبدو أن المرأة أحست أن انساناً ما يتبعها. . فالشارع الذي دخلا فيه كان قليل المارة ساكن الحركة نوعاً ما. . يبدو أنها أحست بشيء كهذا فقد أسرعت في خطوها.

ومع أن«درش» لم يكن يعرف أبداً ما يمكن أن تؤدي إليه تلك المطاردة الا انه أسرع هو الآخر في خطوه حتى لا تختفي عن نظره. ولكنه في نفس

الوقت لم يشأ أن يضيع نفسه، فقد كان دائم الفحص والحفظ لجغرافية الشارع وموقعه وعلاماته حتى لا يتوه في طريـق عودته بعد أن تفشل المطاردة.

والغريب أنه كان مقدراً تماماً أنه سيفشل. أما لماذا كان مصراً على متابعة التجربة مع علمه بفشلها، فذلك أمر قد يدفعنا الى التفكير في طبيعة الانسان نفسه. . الانسان الذي حين ييأس من النجاح يعوض هذا بالاكثار من تجاربه الفاشلة، ففشل واحد يعد فشلا، أما فشلان أو ثلاثة أو عشرة فممكن ان تعتبر ربع نجاح أو نصفه.

ما علينا من هذا، فقد خطر لدرش خاطر، نفس الخاطر الـذي كان يواتيه وينفذه كلما طارد امرأة، أن يكلمها. وعلـى هذا اسرع في خطوه حتى حاذاها. وابتلع ريقه مرة وأدب صوته اكثر من اللازم وروضه، وسألها بلهجة انجليزية حاول أن تكون سليمة ومنخفضة في الوقت نفسه، سألها عن الطريق الى فندق «زاخر».

وطبعاً لم يكن في حاجة لسؤالها عن شيء كهذا، اذ هو اولا لا ينزل في «فندق زاخر» لأنه من فنادق الـدرجة الاولـى العريقة التى تغوص الأقدام في ابسطتها العجمية الأصلية الفاخرة. ثم ثانياً لأنه يعرف الطريق جيداً إلى فندق فيكتوريا المتواضع الذي ينزل فيه.

كل ما في الأمر انه أحب بسؤاله هذا أن يفهمها ويفهم كل من سألهن من النساء ثلاثة اشياء: يفهمها أنه أجنبي، وأنه أجنبي من النوع الفاخـر والثالثة انه ضال وفي حاجـة لمساعدة. يعني يفتح الباب على مصراعيه امام اية واحدة لديها اقل رغبة في المغامرة.

ورد الفعل الذي حدث كان مفاجئاً! فقد التفتت المرأة الى الناحية الاخرى وكأنها خافت، ولكن روعها سكن في لحظة، وسكن في اللحظة التي كان درش يتم سؤاله بصوت أكثر امتلاءً واعتداداً. .

ويبدو ان حالة الخوف والمفاجأة كانت لا تزال تتملكها، فالساعة كانت تقترب من الثانية عشرة والنصف، والشارع نوره قليل، والسؤال غريب ومن غريب، اذ قالت بكلمات انجليزية مدشدشة النهايات ملخبطة الفاعل والمفعول انها لم تفهم.

وللمرة الثالثة أعاد درش سؤاله وقد كاد يزهق ويتركها وينصرف، فامرأة تخاف فقط من مجرد التوجه إليها بسؤال، لا يمكن أن تكون لديها الجرأة للقيام بمغامرة. . أي مغامرة.

وفقط بعدما انتهى درش من سؤاله للمرة الثالثة تنفست ملامحها الصعداء وتهلل وجهها وقالت: يا. . . يا. . . (أي: نعم. . نعم) وأوقفته، وأخذت المسألة جداً ومضت يداها تشيران ومظلتها توضح ولسانها يتلجلج بالانجليزية في عجز الأخرس حين يريد أن ينطق، محاولة أن تريه الطريق الى فندق زاخر.

ودرش لم يكن في هذا كله فاهماً، كان يهز لها رأسه بحماس، وهو يتابع شرحها مدعياً أنه فاهم كل الفهم، ولكنه يقرأ ملامحها بعين خبير محاولاً أن يعثر على الشيء الذي يعرفه جيداً. . الشيء الذي تنطق به ملامح المرأة حين تريد الرجل أو لا تريده. . ولكنه لم يجد شيئاً من هذا. ملامحها كانت جادة لا هزل فيها، وحماسها الصادق لارشاده هو كل ما هنالك.

وبالابتسامة الباردة المعهودة استأذنت منه وما لبثت ان تابعت طريقها. ودرش هو الآخر لم يلبث أن تابع طريقه خلفها ضارباً بكل ارشاداتها عرض الحائط. وحاول أن يعثر في مشيتها من الخلف على الشيء الذي لم يجده في ملامحها من أمام. حاول أن يضبط ارتباكاً ما في خطوتها لأنه يتبعها ولأنها تحس انه لا يزال - رغم ارشاداتها - يتبعها ولكنه لم يعثر على أي هزة أو ارتباك. كل ما حدث أن المرأة حين وصلت الى عسكري كان واقفاً على ناصية الشارع بقبعته المعهودة وقفت وحدثته سريعاً بالألمانية مشيرة الى درش الذي كان قرر التلكؤ نهائياً على بعد وتجهيز نفسه لأي اتهام قد يوجهه له العسكري.

وقبل أن يكيل درش ما شاء من لعنات للمرأة النمساوية التي خدعته هكذا واشتكته الى العسكري كما تفعل أي واحدة بملاءة لف في القاهرة اقترب منه الرجل وحياه بأدب وابتسامة ودخل في الموضوع مباشرة وراح يصف له بلغة سليمة الطريق الصحيح الى فندق زاخر.

وهدأ قلب درش بين ضلوعه، المرأة بريئة، فواضح أنها اعتقدت انه ظل يتابعها لأنه لم يفهم شرحها، وعهدت للعسكري بالمهمة.

وعلى أحر من الجمر انتظر درش الى أن انتهى العسكري من شرحه المؤدب الطويل، بينما عيناه زائغتان ترصدان تحركات المرأة بدقة لتكمل متابعتها بعد التخلص من هذا المأزق.

وفعلاً ما كاد العسكري يدير ظهره حتى دلف مصطفى إلى شارع جانبي آخر. إلى الشارع الذي اعتقد أن المرأة فقد سارت فيه. وهنا نفسه على

ذكائه وحداقته فما أسرع ما تلقت أذنه دقات كعب حذائها العالي على أحجار الشارع المربعة. وفي تلك اللحظة فقط أدرك أن الشيء الذي خافه كثيــراً قد وقع، إذ أدرك أنه في هذه المرة ـ وبحق وحقيــق ـ قد ضل الطريــق، وويلــه من تلك الشوارع المتشابهة ذات المنازل المتشابهة والأسماء المتشابهة والغموض حين يتوه فيها إلى ما شاء الله.

غير أنه لم يقلق كثيراً. فاذا حدث وسدت في وجهه كل أبواب الأمل فمـا عليـه إلا أن يركـب تاكسيـاً وليطالــب السائق بما يشاء من شلنات نمساوية: الشلن منها ثمنه أكثر من عشرة قروش، بل وصل به الأمر إلى حد الضحك. فهل إذا كان قد دأب على سؤال النساء عن الطريق إلى الفندق وهو يعرف الطريق، فها هي ذي الحجة تصبح حقيقـة واقعة، وها هو ذا فعلاً مظلوم تائه في حاجة إلى مساعدة حقيقية. حبذا لو جاءت من تلك المرأة التي يتبعها بالذات، والتي ترن دقات كعبها على حجر الشارع رنيناً حلواً يتصاعد في سكون الليل.. ويهيج كامن أشجانه، ويجعلـه ينتظر بعد كل دقة من الكعب دقته المثيرة التالية.

وأحياناً كان يفيق ويتهم نفسه بالجنون فهو يرتب الأمور في نفسه ترتيباً جميلاً جداً، مع أن المرأة مثلها مثل غيرها لم يكن قد بدا عليها أبداً أقل لمحه ممكن أن تفسر على أنها علامة قبول، بل حتى لم يكن بدر منها ما يدل على الشعور بوجوده.

الاحتمال الأكيد هو فشله الحتمي.. بل لو سلم جدلاً بأنه قد ينجح في محادثتها فالوقت متأخر، وهي على ما يبدو عليها ذاهبة إلى بيتها. بل لو حدث المستحيل وأخذ منها ميعاداً مثلا وقابلها في الغد فماذا يمكن أن

يحدث في ذلك الميعاد سوى جلسة في بار أو في مقهى، وقهوة فرنسية سخيفة الطعم له، ومشروب فادح الثمن لها، ثم ضغطات على اليد وبضع ابتسامات وينتهي كل شيء؟

بتلك المرأة أو بغيرها هذه الليلة. ولابد سيقضي معها أجمل الأوقات في مكان مغلق أمنية مستحيلة التحقيق، ولكنه مصر عليها وكأنها وشيكة الوقوع ،نفس الاصرار الذي دفعه للمجيء إلى أوروبا وهو متأكد لسبب ما ـ أن ما يريده اصرارنا نحن المصريين العنيد الغريب، اصرار الأب الجائع الذي لا يكاد يجد اللقمة على أن يجعل من ابنه الطفل الذي يلعب الذباب الاستغماية حول عينيه مهندساً أو طبيباً، اصرار الفلاح الذي يريد سقي مساحة شاسعة من الأرض بشادوف يحمل في كل دفعة حفنة ماء والغريب أنه اصرار لا يخيب. . فالأب فعلاً يظل يعاند حظه وحاجته وطبقته حتى يجعل من ابنه مهندساً أو طبيباً، والفلاح يظل ينحني ويعتدل ألف مرة. . مليون مرة. . عدداً لا نهاية له من المرات، حتى ينجح في ري الأرض.

درش هو الآخر كان لا يزال على اصراره وقد بدأت المسافة بينه وبين المرأة تتناقص، بينما أفكاره وخططه تتزايد. إذ كان عليه أن يتقدم خطوات اخرى. ووجد أن أحسن طريقة هي أن ينتقل إلى الرصيف الآخر ويسبقها ثم يعود من نفس رصيفها ويقابلها وجهاً لوجه، فلابد أن يشعرها بوجوده وبأنه لا يزال يتبعها وليرما يحدث، وعبر الشارع واستدار وقابلها. وقبل أن يصبح في مواجهتها تماماً توقف وادعى أنه فوجيء وقال:

ـ ها نحن مرة اخرى، عالم صغير، أليس كذلك؟

وواجهته بملامح فيها هي الاخرى بعض المفاجأة وخالية من أية

نوايا، وفعلت هذا كله وهي ماضية في طريقها دون أن تنطق بكلمة أو حتى تشير بايماءة.

وكان قرار درش قاطعاً بعد خطوتين، أن يتوجه توا إلى أي شارع رئيسي ويأخذ تاكسياً وينطلق إلى فندقه، وكفى ما كان. بل لابد أن المرأة الآن تعتقد أنه من الغرباء المصابين بلوثة، أو من يدري ربما تستدعي له البوليس بجد في المرة القادمة. ولكن قراره لم ينطبق إلا على عشر خطوات خطاها أصبح بعدها القرار في خبر كان، فما لبث أن استدار وتابع سيره وراء المرأة، ولكنه آثر أن يترك مسافة اطول بينهما على سبيل الاحتياط.

وظلت هي ماضية في طريقها، وهو وراءها يلوم نفسه أحياناً وأحياناً ينظر في ساعته فيجد أن المسافة كلها لم تأخذ سوى دقائق، مع أنه خيل اليه أنه ظل يتبعها لعشرات الكيلو مترات، حتى خرجت السيدة من الشارع الضيق إلى ميدان غير فسيح يشبه كثيراً ميدان الخازندار في القاهرة فواجهته محل كبير قبة تحتل ضلعاً من أضلاعه، ومحطات كثيرة للاتوبيس والترام تتناثر فيه، ولم يكن في الميدان وقوف كثيرون. . مجرد خليط متنافر غريب من زبائن آخر ترام وأوتوبيس. ووقفت المرأة على محطة. وظل هو سائراً في طريقه يتطلع هنا وهناك وفي الهواء، متخذاً هيئة من يحاول أن يحل لغزاً استعصى عليه حله، حتى وصل إلى ذات المحطة، ووقف في طرفها الآخر. وقف قليلا ثم ما لبث أن غير الهيئة ووضع يديه في جيوب بنطلونه، وعوج رقبته إلى ناحية، متخذاً هيئة من يترقب شيئاً ويتمشى جيئة وذهاباً في انتظاره. وكان يغير من هيئته وطريقته وكأن عيناً غير مرئية تراقبه وتحصي عليه حركاته وسكناته وتحاسبه وهو يرد على حسابها له، ويقنعها

أنه بريء لا مقصد له، مع أن أحداً في الميدان لا يكاد يلحظ وجوده، حتى ولا السيدة التي كان يتبعها. كانت واقفة مرتكزة على مظلتها ولا يبدو عليها أي شيء سوى القلـق الممل الـذي يصاحب انتظار الاوتوبيسات والتراموريات حين لا تجيء.. إلى أن وصل درش إلى خطوة أو خطوتين منها. إلى هنا كان قد تم له ما أراد، وها هو ذا أصبح قريباً منها، وبعد؟ أدخل يديه في جيوبه وأخرجها أكثر من مرة. وغير من اتجاه وجهه أكثر من مرة، وحدق ناحيتها طويلاً لعل عينيها تلتقيان بعينيه. . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث. وأصبح عليـه أن يقدم علـى عمل ايجابي أكثر، وفجأة ومرة واحدة عاودته حالة اللامبالاة التامة واقترب منها حتى وقف أمامها وابتسم كثيراً قبل أن يقول:

ـ هل تسمحين لي بسؤال؟

ولم ينتظر اجابتها، انطلق من فوره يقول:

ـ أنا غريب هنا كما ترين ولا اعرف الألمانية، وكـانت فرصة عظيمة انك تعرفين الانجليزية، فهل من الممكن أن أسألك عن بعض الأشياء هنا؟.

أتم الجملـة وأحس بسيـال من الخجل الحقيقي يسحب روحه من صدره،ويكاد يسقطها بين قدميه، حتى انه لم يرفع عينيه ويحس بروحه تعود إلى مقرها بين جنبيه إلا حين جاءه ردها:

ـ ماذا تريد أن تعرف؟

وتطلع إليها، وتفاءل. كانت هناك ابتسامة. . صحيح ابتسامة لا معنى لها بالمرة،ولكنها خير على أية حال من تكشيرة أو كلمة نابية عليه أن ينتهي إلى رأي بسرعة في أمر هذه المرأة فإما فيه أو ما فيش. ويكفي ما أصابه

فين ..

من كسوف. ولكن كان عليه قبل أي شيء أن يسألها عما يريد معرفته. قال مثلا موعد آخر ترام. سؤال بدا له سخيفاً جداً أسخف من أي شيء قاله في حياته، ولكنها أجابته بنفس ابتسامتها التي لا تعني شيئاً:

ـ الواحدة إلا ربعاً.

وخجل لسبب غير ظاهر وارتبك، وما لبث أن غير خطته وقال:

ـ إني أردت فقط أن أتحدث معك قليلا.. أممكن هذا؟.

وقبل أن تجيب كان هو يعمل عقله بسرعة ويفكر في الأمر من زاوية جديدة. فما لا شك فيه أنها عرفته وعرفت أنه ذلك الأجنبي ذو الشعر الأسود الذي سألها عن الطريق إلى فندق زاخر. والذي لم يحفل بأخذ الطريق إليه ومضى يتبعها. معنى هذا أنها لم تغضب منه. إذن فهي لم تستنكر سيره وراءها ولا مطاردته لها على هذا النحو. أو يجوز أن حب الاستطلاع فقط هو الذي يجعلها تستمع صابرة إلى أسئلته السخيفة هذه وهو نفسه الذي لا يزال يرسم على ملامحها تلك الابتسامة التي لا معنى لها.

وقالت رداً على سؤاله:

ـ أبداً.

هيه ها هي ذي تقول له أن ليس لديها مانع من الحديث. فتكلم يا درش.. تكلم.

وحاول درش أن يتكلم ويختلق موضوعات للحديث. وصمت برهة كي يستجمع كل ذكائه ولباقته، وتمخض هذا عن سؤاله:

ـ أنت طبعاً لا تعرفين جنسيتي.

فقالت:

ـ طبعاً!.

فقال وهو يبتسم ويحاول أن يمزح:

ـ أتستطعين تخمينها؟.

صمتت برهة وكأنها لا تحس للسؤال ولا لشخص سائله بأهمية، ثم قالت:

ـ برتغالي؟.

وكاد أن يقهقه قهقهة حشاشية عالية، ولكنه قطعها فجأة، فقد تذكر أنه في اوروبا وقال: لا.

قالت وكأن لا حول لها ولا قوة:

ـ لا أعرف.

فقال لها مزهواً:

ـ أنا من مصر.

وضايقته جداً حين قالت:

ـ حقيقة؟! أمر غريب.

قالت (أمر غريب) بطريقة لا غرابة فيها بالمرة، إذ هي نفس الكلمات التي لابد أن يقولها اي انسان في أي موقف كهذا، ولكنه التقط الكلمة وأمعن فيها وسألها:

أمر غريب! لماذا؟

ولم تتكلم، ابتسامتها التي لا معنى لها ظلت مرتسمة على ملامحها بلا أي اندهاش، أو انفعال، أو رغبة خفية كانت أو ظاهرة في متابعة الحديث.

وأحس درش أنه لو استمر أكثر من هذا فسوف تكون كل ثانية على

حساب كرامته وكبريـــائه، وأن أحسن طريقة هي أن يلايمها وينصرف.
وفعلا قال:
ـ أنا سعيد جداً بلقائك. وذهب.

ذهب إلى الطرف الآخر من المحطة، وعندما وجد نفسه يقف فقد واتاه خاطر: محتمل أن يكون حديثها إليه ناشئاً عن حب الاستطلاع، ولكنها لو كانت راغبة عن الحديث لأشعرته بذلك. ما الذي منعه إذاً من مواصلة الحديث.. ولماذا لا يعيد الكرة؟ يعيدها كيف؟ وبأي وجه يكلمها وهو الذي ودعها وانصرف. فليختلق سبباً ذكياً هذه المرة. ودار علـى عقبيـة عائداً، وحين اقترب منها بدأ يتكلم قائلا:

ـ أرجو أن أكون غير متطفل عليك. ولكن اسمحي لي هل أنت متأكدة أن آخر ترام يأتي في الواحدة الا ربعاً.

قال هذا وهو يتفرس في ملامحها، واطمأن بعض الشيء حين لم يجد فيها أي استنكار لعودته او لسؤاله الذي حاول أن يكون ذكياً فجاء أغبى ما يكون.

وقالت له:
ـ أجل. في الواحدة إلا ربعاً تماماً. وإذا أردت الذهاب إلـى فندق زاخر يمكنك أخذ الاوتوبيس الذي يقف هناك. سيجيء بعد دقائق.
وقال لها:
ـ أشكرك كثيراً.
وسكت،ولكنه لم يتحرك. ولم تتغير ملامحها هي الأخرى أو تتحـرك وفجأة سألها:
ـ نمساوية أليس كذلك؟

قالت:

ـ أجل طبعاً.

ـ تنتظرين الاوتوبيس؟

ـ الترام.

ـ ذاهبة بعيداً؟

ـ الى الضاحية.

كان يسألها محاولاً أن يجد خيطاً واحداً يجذبه ليمتد الحديث، ووجد في اجابتها الأخيرة فرصة. فقال لها:

ـ الضاحية بعيدة؟

ـ نصف ساعة.

ـ ياه. . . مسافة طويلة.

قالها وهو يرسم اندهاشاً اكثر من اللازم على ملامحه. وقال لنفسه: امض خطوة اخرى وليكن ما يكون.

وهكـذا مضى يحدثها ذلك الحديـث الـذي أتقنه كثيـراً في الباخرة والقطارات والفنادق التي حل بها، الحديث الذي يدور بين أي أجنبي وأي صاحب بلد. الجو. كم هو رائع في مصر! ويا لفظاعة اوروبا في الشتاء! النمسا عانت من الاحتلال طويلا، والآن أصبحت بلداً مستقلا. . نحن أيضاً أصبحنا بلداً مستقـلاً. المصريون يحبون النمساويين جداً، ونحن ايضاً نسمع عن مصر والمصريين.

وطوال الحديـث وبينما كان درش يسأل ويجيـب وينكـــت؟ كانت حاسته السادسة ـ والحاسة السادسة عند درش حاسة جنسية مائة في المائة وظيفتها استقبال اي تجاوب يبدو من اية امرأة تحادثه ـ.

كـانت تلك الحاسة تحاول أن تستقريء طيف انفعال، أو لمحة أو بادرة تدل علـى أن هناك أي استجابة. . تحاول بلا فائدة، فقد عجزت تلك الحاسة تماماً عن معرفة كنه موقفها الحقيقي، وهل هو رغبة أو رفض، وكأن ملامحها مكتوبة هي الأخرى بلغة المانية لا يستطيع فهمها أو ادراكها. بل خيل اليه أنه كان من الممكن أن تتحدث هكذا مع أي انسان غيره حتى ولو لم يكن أجنبياً أو بشعر أسود أكرت مثله، مع أن الحديث كان قد تكفل بتشكيل ابتسامتها وتغيير ملامحها فأصبحت تضحك أحياناً وأحياناً تدهش. وتصغي وأحياناً يبدو عليها الاهتمام.

وتضايق درش فمع أن أهدافه منها كانت قد تبلورت في اجراء حديث ما معها، الى ان يأتي ترامها وتمضي، إلا أن هذا الموقف منها قد ضايقـه بل جعلـه يحس مرة أخرى بالـلامبالاة حتى لو غضبت منه. انها لحظة خاطفة يقضيها معها، ولن يرى وجهها بعدها ابداً. فليحدث ما يحدث. . اذن فها هو ذا اخيراً وبعد كل تلك الجهود المضنية الضائعة قريب من امرأة نمساوية أصيلة تحادثه ويحادثها، وتضحك لكلامه وتصغي اليه. وكادت لامبالاته تبلغ به حد أن يطلب منها مثلا أن ترافقه إلى فندقه.

ولـكنه لم يفعل، ففي تلك اللحظة جاء ترامها ووقف، وبنفس ابتسامتها غادرته وهي تشيـر له لتريـه المحطة التي يمكـن أن يأخذ منها الاوتوبيس الـى فندق زاخر. صعدت الـى الترام المضيء ذي الركـاب القليلين،وبقى هو واقفاً على المحطة لا يدري ماذا يفعل. ينظر لها عبر نافذة الترام ويبتسم، وهي أيضاً تنظر اليه وتبتسم، وأشار لها اشارة السلامة فأومأت برأسها مجيبة. وكان معنى هذا أن خلاص. انتهت تلك المعرفة الخاطفة، وعلى كل منهما أن يذهب لحال سبيله.

ولكـن. . . فجأة وجد درش نفسه يصعد الـى الترام ويجلس علـى المقعد الذي بجوارها وبدا عليها انزعاج، لم يكن ـ كما توقع ـ انزعاجاً كبيراً مذهلاً. وقالت له:

ـ ولكن هذا الترام ليس ذاهباً إلى فندق زاخر، انه ذاهب في الاتجاه المضاد.

فقال لها بكلمات انجليزية وبابتسامة مصرية ماكرة:

ـ ولو.

فعادت تسأله بدهشة:

ـ إلى أين أنت ذاهب اذن؟

وتردد قليلاً ،ولكنه ما لبث أن قال:

ـ ذاهب إلى حيث تذهبين.

وقالت له ،وثمة قلق بدأ ينتاب ملامحها:

ـ ولكني ذاهبة إلى بيتي في الضواحي.

ـ حسناً! سأذهب معك.

وازداد الانزعاج في وجهها وقالت:

ـ اعذرني، ولكن تصرفك هذا شاذ.

فقال لها ،وهو سادر في مصريته:

ـ اعذريني. إنه ليس تصرفاً شاذاً. . إنه في الحقيقة تصرف مجانين.

وأصبح انزعاجها خوفاً، أو بمعنى أصح بوادر خوف، فقد انكمشت بعيدا عنه في المقعد وسكتت، وكان واضحاً أن سكوتها سكوت عجز. . اذ ماذا يمكن أن تقول أو تفعل؟

وطبعاً درش لم يكن مجنوناً أو شاذاً أو به خبل. كل ما في الأمر أنه

كان في تلك اللحظات يتصرف بوحي من احساسه أو بوحي من حاسته السادسة،تلك التي كانت تعمل بلا هوادة، ومنفعلة الى اقصى حد. لم يكن قد ظهر في تصرفات المرأة اي شيء يدل على أي شيء، ولكنه كان يعمل كمستكشفي البترول الذين تقول لهم أجهزتهم اذا حفرتم هنا وجدتم الذهب الأسود. هو ايضاً كان شيء ما. . شيء اعمق من احساسه وتفكيره وفراسته يهيب به أن يداوم على اصراره وأن يمضي في الطريق إلى نهايته، والطريق كخط الترام محطات، وها هو ذا قد غادر المحطة الأولى بركوبه الى جوارها في الترام. عليه الآن أن يتبين إن كانت هناك محطات اخرى. . كيف يعرف طريقه اذن؟ ومن اين يبدأ؟ .

وقال لها:

ـ أنت ذاهبة الى بيتك اذن؟

كانت في تلك اللحظة تنظر من نافذة الترام، والترام بدأ يتحرك وقطع في تحركه شوطاً، فالتفتت إليه، وكأنها لم تسمع ما قاله، وأعاد السؤال فقالت بوجه جاد:

ـ أجل.

وضايقه جدها في تلك اللحظة، ولكنه مضى بخبث هذه المرة يسأل:

ـ تقطنين مع عائلتك. أليس كذلك؟

فقالت ببراءة:

ـ أجل.

ـ متزوجة؟ أعتقد هذا.

ـ طبعاً متزوجة.

وكاد لسانه يزلف ويقول. أنا الآخر متزوج وعندي بنت صغيرة لها

صندل احمر وسنتان أماميتان، ولكنه رد لسانه الى حلقه فلا داعي لتعقيد الأمور، ومضى يسألها:

ـ لك أولاد طبعاً؟

فقالت، ولأول مرة منذ أن ركبا الترام قد عادت ابتسامتها التي لا معنى لها الى وجهها:

ـ اجل ولدان وبنت.

وقال لنفسه: لو كانت لا تريدني لقالت أجل واكتفت بهذا، ولكنها استرسلت تعد اولادها، فمعنى هذا أنها تريد الحديث. ولكنه استدرك أن حديث الآباء أو الأمهات عن اولادهم شيء طبيعي جداً، يفرحون له ولا يملونه، فليطرق هذا الباب إذن عله يؤدي إلى شيء.

وسألها: كبار في السن؟ . .

قالت:

ـ تومي الكبير عمره ست سنوات، والصغيرة ستة شهور.

غمغم لنفسه: عظيم! ها هي ذي تتحدث وهذا شيء طيب. وابنها الكبير ست سنوات، معنى هذا أنها في حوالي الثلاثين، هذا شيء عظيم . . امرأة ناضجة خبيرة مستوفاة بكل معنى الكلمة.

وكان حرياً بضمير درش أن يتحرك في هذه اللحظة فيذكره بأنه يحادث امرأة متزوجة وأما، وأنه يهدف من حديثه إلى أشياء يجب أن يتحرك لها الضمير. ولكن ضمير درش لم يكن يتحرك ابداً لمثل هذه الأشياء،فهو لا يؤمن بأي قانون يحكم هذا العالم الا قانون ما يريده، ما يريده هو الحلال وهو الصواب. أما أن يكون ما يريده هذا بعيد المنال أو يمت الى غيره أو الى اي شيء من هذا القبيل،فتلك امور لا تهم«درش»في قليل أو كثير.

كل ما كان يفكر فيه في تلك اللحظة هو كيف يجعل الحديث يستمر ولا ينقطع.

قال لها:

ـ اسمحي لي. فقد تعتبرينني مرة اخرى متطفلا عليك، ولكن هذا شيء يحيرني فالنساء عندنا في مصر لا يخرجن وحدهن في تلك الساعة المتأخرة من الليل.

وضحكت (وحين ضحكت اطمأن) وقالت:

ـ أبداً. كنت في الأوبرا مع صديقة لي.

وغمغم قائلا وكأنما يداري خجله من سؤاله:

ـ ظننتك تعملين، والعمل هو الذي أخرك.

فقالت:

ـ عملي ينتهي في الثامنة.

وحملق فيها بعينين واسعتين وكأنما اندهش، وقال:

ـ انت تعملين اذن؟

فقالت:

ـ طبعاً.

ـ شيء جميل.

ـ أبداً شيء عادي جداً. معظم النساء يعملن هنا.

ـ أعرف هذا.. أعرفه.

كان يردد الجملة الأخيرة وهو يفكر في سؤاله التالي، حين فاجأته قائلة:

ـ ولكنك بهذه الطريقة تبتعد عن فندقك كثيراً.

فابتسم وقال لها:

ـ لا يهم.

فقالت بدهشة حقيقية:

ـ اين ستبيت اذن؟ . .

فقال بغير دهشة:

ـ لا يهم في اي مكان.

وهزت كتفيها ،وعادت مرة اخرى تنظر من نافذة الترام، وكان معنى هذا أن الحديث سوف يؤدي الى سكون، والسكون عدوه الأكبر ،فعليه أن يتابع الحديث، خاصة والاضطراب قد استبد به الى درجة انه راح يهز ساقه هزات عصبية غير ملحوظة. . فقد بدا واضحاً أن حاسته السادسة قد خانته، فالمرأة واضح أنها زوجة وربة بيت، ومن إجابتها وطريقه حديثها يبدو أنها مثقفة ورزينة الى حد كبير، والملابسات كلها تشير إلى أن عليه أن ييأس إذ ليس هناك أبداً أي بادرة تدل على النجاح. وفعلا كان اليأس قد بدأ يصبغ كل حركاته وأفكاره وحتى نظراته. وكان وعيه قد بدأ يرتد إليه ويهيب به أن يهبط في أول محطة ويستعد لرحلة تخبط في طريقه إلى فندق فيكتوريا. فقط كان عليه أن يقول شيئاً يختتم به الحديث ويكون الوسيلة إلى تبادل الأسماء وأرقام التليفون. . فحتى هذا الوقت لم يكن قد عرف اسمها ولم تكن قد عرفت اسمه. وبهذا تصبح المسألة كلها واحدة من عشرات الحالات المماثلة التي التقى بها، والتي انتهت بكتابة الأسماء بحروف واضحة في مفكرته ،وبجوارها أرقام التليفونات والعناوين. . أسماء وعناوين يعلم سلفاً أنه لن يرى أصحابها أبداً ولن يراسلهم.

أجل عليه الآن أن يختم حديثه معها بأية حيلة. وسألها بلا قصد: صحيح أنت متزوجة؟ . .

وعادت من التفاتتها وضحكت وقالت:

ـ طبعاً! ألا يبدو عليّ أني كذلك؟

فقـال وهو يحاول إطراءها:

ـ الحقيقة لا يبدو عليك شيء من هذا.

وحين أحس أنها سعدت باطرائه قال مواصلاً كلامه:

ـ أنا أتكلم جاداً. . صحيح أنت متزوجة ولك أولاد؟ . .

قالت وهي تكبت الضحك:

ـ طبعاً! ألم أقل لك هذا؟ أنا متزوجة ولكن. . .

ودق قلب درش بين ضلوعه وكاد يحبس أنفاسه انتظاراً لما يكن أن يكون وراء لكن هذه.

ولم يطل انتظاره فسرعان ما أردفت قائلة:

ـ ولكني في الآونة الحاضرة لا أقيم مع زوجي.

وتوالت دقات قلبه عالية مملوءة بالفرح والانفعال. . وضحك.

ضحك هكذا بلا مناسبة. واحدة من تلك الضحكات التي نخفي بها انفعالاتنا. . ولم يفرح درش وينفعل لأنها لا تقيم مع زوجها، ولكن لأنها قالت هذا. ولو كانت لا تريده لاكتفت بقولها انها متزوجة، وما حاولت أن تطلعه على أمر خاص بها وحدها.

وكان لا يزال في دوامة النشوة حين تطلعت هي من النافذة وقالت:

ـ نحن الآن في ليوبولد بلاتس. . انك تبتعد عن فندقك كثيراً.

فقال لها وهو يطوح برأسه الى الوراء:

ـ لا يهم!

ـ أنصحك أن تهبط في المحطة التاليـة فلا يزال هناك أمل أن تلحق بآخر أوتوبيس.

- لا يهم.
- أين ستبيت اذن؟
- أعرف تماماً أين سأبيت.

قال هذا وهو ينظر اليها مخفضاً عينيه، محاولاً قدر طاقته أن يضغط على حروف كلماته واتجاه نظراته. ليحمل الكلمات والنظرات فوق ما تحتمل.

وسكتت هي مستسلمة مبتسمة، وسكت هو الآخر سكوتاً مؤقتاً. فقد بدأ يتحرك في مكانه تحركات خفية هدفها أن يتزحزح ليقترب منها، وسواء أكانت لاحظت هذا أم لم تلاحظه،فالذي حدث انها واصلت سكوتها وصمتها.

ودرش هو الآخر لم يكن يتحدث، فقد كان يحلم أحلاماً رائعة للغاية.. فهو إلى الآن لم يكن قد عرف عنها أكثر من أنها لا تقيم مع زوجها، ورغم هذا راح يحلم ويؤكد لنفسه انه حتماً سيقضي الليلة معها. وأن هذه مسألة مفروغ منها.

وهكذا دون أن يتوقع تحقق له الحلم الأكبر الذي كاد يؤمن باستحالة وقوعه. وتحقق ببساطة منقطعة النظير. الحلم الذي جاء به الى أوروبا ها هو ذا الآن يحياه.. وها هي ذي المرأة التي طالما تصورها. ها هي ذي حقيقة من دم ولحم وابتسامات بجواره، يراقبها ويتأملها بدقة وعلى مهل كما تتأمل القطة الفأر،وقد اطمأنت الى وقوعه بين مخالبها. وهو سعيد بتأمله لها، سعيد بالتهامها بنظراته والغوص بها في أحلامه، ولا أحد يستطيع لومه اذا كان قد فضل أن يبقى هكذا لبعض الوقت، يستمتع بخياله الملتهب، عن أن يستأنف فوراً مواصلة الجهود للاستحواذ عليها.

غير أن أمراً مفاجئاً قطع عليه أحلامه. فقد تبين له أن من الغريب أن تكون السيدة متزوجة وفي نفس الوقت لا تكون مقيمة مع زوجها.

وكالعادة ما كاد السؤال يخطر بباله حتى قفز الى لسانه وقال:

ـ اعذريني، ليس هذا محاولـة مني للتدخل في شئونك الخاصـة ولكن لماذا لا يقيم زوجك معك؟

وتلكأت قبل أن تفتح فمها لتجيب، ومع أنه لم يعرفها الا من دقائق قليلة، الا انه كان قد بدأ يدرك بعض عاداتها. وعلى هذا عرف أن تلكؤها معناه أنها محرجة وأن لا داعي للسؤال.

وهكذا ولينقذ الموقف. . ولينقذ هذا النسيج الدقيق الـواهي الـذي يربطه بها ولا يريده أبداً أن ينقطع، والذي قد يقطعه سؤال سخيف محرج أو كلمة غير مناسبة. أتبع بسؤال آخر عن كنه عملها.

وقالت له انها تعمل سكرتيرة مدير احدى الشركات الكبرى التي تنتج الأدوات الكهربائية والالكترونية. وليزيل كل ما تبقى من الحرج قال لها وقد استبدت به القفشة المصرية:

ـ آه. لعل هذا هو السبب في أني أحس أني مكهرب وأنا جالس بجوارك.

فضحكت وقالت:

ـ حذار اذن فقد تصاب بصدمة.

وبتلك الجملة منها أصبح درش كالهبلة حين تمسك الطبلة. فقد رد عليها قائلا وهو يزداد التصاقاً بها:

ـ المصيبة اني المريض الوحيد في العالم الذي يتمنى لو يصاب بها.
وحين طقطقت بشفتيها محتجة، ازداد التصاقاً بها وهو يقول:

ـ أعتقد أني فعلا في حاجة الى صدمة اخرى.

وكل هذا يحدث في غمرة الخجل من جانبها والخجل من جانبه وأنصاف الكلمات، والوجوه التي تتفادى أن تلتقي حتى لا ترتبك الى آخره.

ومن تلك اللحظة بدأ درش يعاملها كما لو كان قد عرفها من عام فالكلفة رفعت نهائياً، وأصبح لا يهتم بوقع أسئلته عليها ما يمكن أن تأخذه عليه، ولكنه في واقع الأمر كان يفعل هذا في الظاهر فقط، أما في أعماق نفسه فقد كان لا يزال مرتبكاً ولا يزال غير متأكد إن كانت قد رضيت به وقبلته فعلا، أو أن ما يراه منها إن هو الا سلوك عادي لا يمكن أبداً أن يؤدي إلى الشيء الذي يحلم به.

وكالعادة ترك درش تحديد الوضع للأحداث المقبلة فمحطتها لا شك تقترب، وقد انتوى أن يهبط معها في نفس المحطة.

وهي التي سوف تتولى بنفسها تحديد كل شيء.

وفعلاً، بعد قليل بدأت تستعد لمغادرة الترام، وقالت:
ـ أتركك هنا وحدك.

وابتسم ولم يعلق بشيء، وآثر ألا يصرح لها بما انتواه، فقد يجره التصريح الى نقاش واختلاف، هو في غنى عنهما. كل ما حدث أنه حين وقف الترام وقامت هي لتهبط هو الآخر، وعندما نزلت نزل وراءها.

وكان يتوقع منها أي تصرف الا ما حدث. فلم تفعل شيئاً حين رأته قد غادر الترام وأصبح يمشي بجوارها الا أن هزت كتفها وابتسمت.

وبعد قليل سألته:

- إلى أين؟

ولم يجب درش.

فعادت تقول:

- إلى أين؟

وأيضاً لم يشأ أن يجيب، فالوضع لن يحسمه الكلام.. الوضع يحسمه العمل.. وعلى هذا لف يده حول يدها وسارا سوياً. كانت كل الشواهد تدل على أنها لا مانع لديها من أن يرافقها الى بيتها، ولكنه لم يكن مطمئناً أبداً ولا مصدقاً أن يكون كل شيء قد تم بمثل تلك السهولة والبساطة التي لا يتصورها العقل.

- البيت بعيد؟

قالها وكأنه يسألها سؤالا عابراً لا يحتمل تأويلاً.

فقالت:

- هناك بعد قليل.

وانتابه شعور خاطف.. فهذه المرأة تكاد تفجر عقله من الحيرة. لم يعد يدري إن كانت شيطاناً أو ملاكاً، ساذجة أو ماكرة، تضحك عليه أم هي معجبة به.

وقال لنفسه: لف يدك حول وسطها ولنر ما يكون.

ولف يده حول وسطها، ولم يصدق أبداً أن اليد التي التفت حول وسطه هو.. هي يدها. وقال لها في صمت هامس مبحوح:

ـ هل معك أحد في البيت؟

قالت:

ـ طبعاً أولادي.

وعاد يقول كمن لا يعرف:

ـ كبار في السن.

ـ ألم أقل لك؟ تومي الكبير عمره ست سنوات، والصغيرة ستة شهور.

ـ أتعلمين شيئاً؟ أنا ذاهب معك الى المنزل.

وابتسمت نفس ابتسامتها التي لا معنى لها، وهزت كتفيها نفس الهزة التي قد تعني لا . . وأيضاً تعني نعم.

وقال لنفسه: لابد مما ليس منه بد. . قبلها، فان رضيت ارتاح بالـك وإن لم ترض كان لك معها شأن آخر.

وفعلا بدأ يرفع يده قليلا حتى احتوت عنقها، ثم أوقفها وضمها بشدة وقبلها.

ولـم يعرف أبداً رأيها في قبلته، ولا إن كانت ـ حتى ـ راضيـة أم ساخطة. كل ما حدث أنها انتظرت برهة، ثم دفعته برفق قليل وهي تقول:

ـ ستكسر ظهري يا افريقي.

وأهاجته كلماتها حتى بدأ وعيـه يغرق في الـدماء الساخنة التي تصاعدت الى رأسه.

كان الشارع الذي يسيـران فيـه طويـلا علـى جانبيـه مصابيـح بالغة الطول، والطريق بشكل عام كأنه أحد الطرق المؤدية الى مصر الجديدة. ولأول مرة منذ أن التقى بها سارة وقد بدأ يضمن انها له في تلك الليلة ما في

ذلك شك ولا ريب. ولأول مرة يحس بالاطمئنان، وبأنه لم يعد ثمة داع للسرعة واللهوجة. . وعليه أن يثق في نفسه وتصرفاته، ثقة الظافر الذي اطمأن الى استكانة الفريسة بين مخالبه.

ولكن شيئاً ما بدأ يستبد به. . شيء صغير رفيع لا يدري من أين جاءه، ودفعه لأن يتساءل: لماذا رضيت به السيدة هكذا ببساطة؟ كان واضحاً أنها ليست من ذوات الأخلاق اللينة. ولا يبدو عليها أنها ـ حتى ـ صاحبت أي رجل آخر غير زوجها. بل لم تكن حتى امرأة «ستاتي» أو حريمي خالصة. كان لها طابع من يعملن. . طريقة مشيها وكلامها، وحتى ابتسامتها،فيها طريقة المرأة الجد الدوغري التي تعودت الاختلاط بالناس والرجال، ومعاملتهم معاملة الند للند، فلماذا تهاونت ورضيت به؟. .

خواطر كهذه سرعان ما بدأت تدور في عقله. وكلما دارت بدأ الشك يخالجه، بل جاءت عليه لحظة بدأ يحس فيها أن شعوره يخونه، وأن من الممكن أن تكون المرأة بريئة كل البراءة، وأنه هو الذي يصور الأشياء كما يحلو له. بل دفعه الخوف إلى أن يتأكد. . وهكذا ازداد التصاقاً بها واقترب بفمه من رقبتها، ثم ظل يلامس رقبتها بشفتيه حتى احس بجلدها يقشعر تحت لفح انفاسه، وحينئذ رفع فمه قليلاً والتقت شفتاه بشفتيها وقبلها. . وفوجيء بها تضمه هي الأخرى وتقبله.

وغمغم يقول:

ـ أريد أن أقبلك مرة اخرى.

وغمغمت هي الاخرى:

ـ وأنا أيضاً.

وفارت الدماء في عروقه . . هذه هي المرأة والا فلا. النساء في الشرق جثث لا نستطيع أن نتالهن الا رغماً عنهن، حتى لو كن يذبن غراماً فيك. لا يرضيهن الا أن يؤخذن عنوة، ولكــن المرأة هنا يا سلام تقبل المرأة فتقبلك، تحضنها فتحضنك، تأخذها فتأخذك. هذا هو الشغل المضبوط، هذه هي المساواة الحقيقية بين الرجل والمرأة. وأمسك بيدها يعبث بها وقد بدأ يحس ناحيتها بألفة وحنان، واسترعت اصابعها الرفيعـة القوية من الضرب على مفاتيـح الآلـة الكـاتبة حتمـاً انتباهه ومن لمس الأصابع احس بلحظة زمالة غريبة تربطه بها.

ووجد نفسه يسألها:

ـ البيت بعيد؟؟.

ـ هنا بعد قليل.

كانا قد قطعا شوطاً كبيراً، والشارع بدأت المصابيح التي فيه تقل وبدأ الظلام يكثر، وعلى عكس ما كان يتوقع درش أحس للظلام بألفة عجيبـة فقد كان كستار أسود كبير مسدل على البقعة وعلى النمسا، وحتى علـى اوروبا كلها، يكاد يحجبها ويجعله ينسى احساسه بالغربة.

سار مسافة اخرى طويلة ولـم يبد علـى ملامحها أنهما قد اقتربا من البيت، وبدأ درش يحس بالقلق لطول المسافة، فالموقف بينهما ـ وكان قد بلغ درجة من السخونة ـ اذا طالت المدة عليه ربما يبرد، وربما يؤدي الطول الى حديث ،والحديث في موقف كهذا غير مستحب، بل في الواقع بالغ الضرر.

ـ لابد أن بيتك في آخر الدنيا!

ـ اذن فقد وصلنا الى آخر الدنيا.

وضحك.. وضحكت هي الاخرى وهي تقول ان البيت في الشارع الجانبي القادم. وتنفس درش الصعداء، فحقيقة بعد خطوات قليلة دلفا إلى شارع متفرع ضيق، ومع ضيقه فقد كان يكتنفه صفان من أشجار طويلة جداً، ربما تكون أشجار الصنوبر التي درسها في الجغرافيا. وكان الشارع سكنياً صرفاً مكوناً من بيوت منخفضة متقاربة.

وظلا سائرين إلى أن وصلا إلى بناية ضخمة مكونة من عدة أدوار وعدد من «البلوكات»، وأشارت هي إلى البناية وقالت:

ـ هنا أسكن في البلوك الى اليمين.

وأضافت: أتعرف أن كل هذا يملكه مالك واحد؟

ولكنه أحس من اضافتها أنها تريد أن تخفي شيئاً، وفطن إلى أنها ربما تريد أن تخفي عنه أن المالك الواحد هو الحكومة مثلا، وأنها بيوت مقامة لصغار الموظفين. عبيطة! حتى لو كانت تسكن في عشة فالمشكلة ليست في سكنها. المهم فيها هي.

ودخلت المبنى الثالث الذي كان يحفل مدخله بعدد غير قليل من البسكليتات.. ودخل وراءها. كان المدخل مظلماً وهمس لها:

ـ في اي دور؟..

ـ هنا.

قالت هذا وهي تصعد بضع درجات الى الدور الأول، ثم تقف عند باب الشقة المواجهة للمدخل.

وخيل لدرش أن كل ما يدور أمامه غير حقيقي.. لابد أنه يحلم أو يخرف. ولكن المصيبة أنه لم يكن يحلم أو يخرف، فقد تمهلت عند

الباب قليـلا، ثم أدارت المفتاح، وانفتح باب الشقة، وتركـت الباب مفتوحاً. لم تكن الشقة مظلمة من الداخل. . كان يضيئها مصباح كهربائي خافت الضوء. وأحس درش برهبة ودارت بعقله الظنون. . لماذا لا تكون هذه المرأة واحدة من عصابة تستدرج الناس والغرباء من أمثالـه بوجه خاص لتقتلهم، كما كانت تفعل ريـا وسكينة في مصر؟ خاطر تافه صحيح. . ولكـن ماذا يمنع أن يكـون حقيقيـاً؟ واقترب من باب الشقة يتسمع مصمماً أن يطلق ساقيه للريح لو سمع كلاماً في الداخل أو صوتـاً ولكنه لم يسمع شيئاً. وغابت. . كان مفروضاً أن تدعوه للدخول، فلماذا غابت في الداخل؟ لابد أن هناك أمراً يدبر.

ـ لماذا لا تدخل؟ . .

ثم أردفت هامسة: ادخل.

ودق قلبه بلا خوف، وأحس باضطراب وهو يدلف من الباب، وخطا الى الداخل بخطوات شديدة الحذر وكأنه يسير على حافة هاوية، وكانت هي تسير أمامه. . والغريب أنها كانت تسير عاديـة جداً بلا أي خوف أو حذر.

لم تكن الصالـة واسعة. . كانت صغيـرة محندقة، كل ملليمتر فيها مستغل. ورغم الضوء الباهت فقد استطاع أن يميز قطع الأثاث ونوعها. لم تكن جديدة ولكنها أيضاً لم تكن تبدو وكأنها استعملت لفترة طويلة. ثم الصالة. . والبيت كله له رائحة خاصة، رائحة بيت العائلة الصغيـرة حين تدخله لأول مرة. وكأن لكل عائلة رائحة خاصة لا يدركها الا القادم الغريب.

وقالت له وهي تهمس من بعيد همساً عالياً يكاد يصل إلى مستوى

ـ ألا تنوي أن تغلق الباب وراءك؟

وأدرك مرتبكاً أنه نسي أن يقفل الباب الخارجي، وحتى لم يعرف كيف يغلقه. وجاءت هي تساعده، وقالت له بعدما انتهيا من اغلاق الباب:

ـ لا تحدث صوتاً.

وكان في غير حاجة الى نصيحتها ،فهو لم يكن يحدث صوتاً ولا حساً ولم يكن في الواقع يحدث أي شيء بالمرة، كان الموقف غريباً عليه تماماً لا لأنها متزوجة، فهو قد عرف في حياته ومغامراته كثيرات متزوجات ولكنه كان يقابلهن في أمكنة اخرى غير بيوتهن.

ولم يكن ارتباكه لاحساسه بأنه ينتهك حرمة بيت أو شيء من هذا.. فكلمات مثل حرمات البيوت والأربطة المقدسة لم يكن لها أي مكان في قاموسه الخاص. كل ما في الأمر أن الوضع كان غريباً عليه.. وجديداً في الوقت نفسه ،بل أكثر من هذا كان بعض التزايد في دقات قلبه مرجعه الى أن غرابة الوضع قد استثارته أكثر. فها هو ذا لا ينال امرأة أوروبية فقط، ولكنه ينالها في ظروف جديدة مثيرة.

ودخلت باباً في نهاية الصالة يقابل الباب الخارجي، وفهم من هذا أن عليه أن يتبعها، وبينما كان يعبر الصالة بدأت أذنه تتلقف صوتاً خافتاً منتظماً.

وتوقف وتسمع برهة، كان غطيطاً ما في ذلك شك. غطيط صادر من الحجرة ذات الباب الموارب على اليسار.. وابتسم في طفولة، فقد كان

الغطيط رفيعاً صغيراً منخفضاً كغطيط القطط. لابد أنه غطيط أحد أولادها.

وخرجت هي من باب الحجرة التي دخلتها، وقالت بصوت لم تحاول أبداً أن تحيله الى همس أو تخفضه:

ـ لماذا لم تدخل. أهناك شيء؟.
ـ أبداً. أبداً.

قال هذا وهو يستغرب، فالواقع أنها منذ أن دخلت الشقة تحولت إلى كائن آخر غير الذي عرفه. أصبحت تتصرف بحرية وبطريقة عملية وبجرأة.. ربما لاحساسها أنها في بيتها. أما هو فلم يعد سيد الموقف أبداً، أصبح هو الذي ينتظر حركتها ليتحرك، أصبح هو المقاد الذي يتهيب اي شيء ويحدق في كل شيء وكأن كل شيء يحدق فيه ويحاول ضبطه.

ودخلت الحجرة مرة أخرى، وبهياب أكثر دخل وراءها.

ومنذ أول نظرة كان واضحاً أنها حجرة نوم، أو على وجه الدقة حجرة نومها بالذات؛ ففي جانب منها سرير. سرير يستلفت النظر فعلاً. فلا يستطيع الانسان أن يعتبره سريراً لشخصين أو لشخص واحد، سرير بين بين وكأنما صنع ليتسع لشخص ونصف شخص. وبجواره منضدة مزدحمة بآلاف الأشياء: أدوية ومنبه وأدوات تواليت وكتب وفرش وابر تريكو وشفرات حلاقة وأشياء لا تخطر على بال. وبجانب الحائط المقابل كان هنا سرير أطفال على هيئة أرجوحة.. وفي السرير طفل صغير لا تعرف ان كان بنتاً أم ولداً..

وحين رأته يطيل النظر الى السرير الصغير قالت:

ـ هذه فيولا الصغيرة.. ستة شهور.
ـ حقيقة؟.

خرجت الـكلمة من فمه والـدهشة تسبقها وتتبعها، فالطفلـة كانت كبيرة، حجمها يوازي حجم ابنته ذات العام والنصف العام. . عجيب أمر هؤلاء الناس، أبناؤهم دائماً أصحاء أقوياء ملظلظون وأبناؤنا دائماً يعانون المغص والاسهال وعشرات اللفف والعيون الحاسدة. ولكن أهم من تلك المقارنة التي راح يعقدها خفية بين ابنته وابنتها كان عليه أن يفكر في حل لهذه الفيولا الصغيرة الضخمة، فلابد من نقلها من الحجرة، وأمر حرج غاية الحرج أن يطلب من أمها هذا.

وفوجيء حين قالت الأم بطريقة عملية جداً وبلهجة خالية من الآهات أو الحسرات:

ـ ماذا نفعل بها؟ أعتقد أن علينا أن ننقلها إلى الحجرة الأخرى التي ينام فيها الولدان.

فوجيء درش الى الدرجة التي سألها ببطء:

ننقل من؟.

وبسرعة قالت له:

ـ ننقل فيولا طبعاًـ هذه حجرة النوم كما تعلم، وطبعاً لابد من نقل فيولا إلى الحجرة الأخرى. ألا تعتقد أن هذا ضروري؟

وابتسم ابتسامة بلهاء لا معنى لها، ولكي يعوض لخمته والغباء الذي ادعاه لصنع المرح والخفة قال:

ـ طبعاً طبعاً. . يجب هذا طبعاً، هيا بنا. سأحمل أنا من هنا.

واتجه إلى طرف من السرير وحملـه قبل أن تحمل هي من الناحيـة الأخرى. ويبدو أنه فعل هذا بحماس أكثر من اللازم، إذ سرعان ما قالت له:

ـ احترس! ليس بهذا الشكل. قد تستيقظ وتأخذ مدة طويلة لكي تعود الى النوم. لا ترفع الا اذا رفعت أنا.. هيه.

ورفعا السرير وراحا يسيران به في بطء واحتراس زائدين. هي بظهرها وهو بوجهه. وكان انتباهه طوال الوقت مركزاً تركيزاً خطيراً فوق وجه الطفلة النائمة في براءة الملائكة علـه يلمح أي تغير بسيط يحدث لملامحها وينبيء عن قرب يقظتها، اذ كان خائفاً خوف الموت أن تستيقظ، لا لأنها ستأخذ وقتاً طويلاً لكـي تعود إلـى النوم، ولكـن لأنه خيـل إليـه أنها لو استيقظت فستفسد الليلة كلها وتثور أعصابه ويتعكر مزاجه.

ولكنه كان احياناً يرفع وجهه عن وجه البنت ويحدق في ملامح الأم محاولاً أن يقرأ انفعالاتها. فالذي يحدث أمر غير عادي بالمرة.. أم تساعد طارق ليل مثله في نقل ابنتها ليخلو لهما الجو. أمر غيـر عادي تماماً.. ولكن العجيب أنه لم يستطع أن يتبين أي تغيير خطير في ملامح الأم. كل ما استطاع أن يلاحظه أنها هي الأخرى تركز انتباهها على وجه البنت مخافة أن تستيقظ. ربما هذه طريقة النمساويين في الخجل..

ولحسن الحظ لم تستيقظ فيـولا، رغم ارتطام السريـر مرة بمنضدة الطعام القائمة في ناحية من الصالة. وحين وصل الموكب الى باب حجرة نوم الطفليـن، دلفت هي اولا من الباب، ودخل هو بحذر أشد. وفجأة غمغم صوت صغير حافل بالنوم:

ـ مامي...

وفي لمحة كان درش قد أنزل السرير من يده، وفي قفزة واحدة كان قد أصبح في الصالـة، ومن ثم في حجرة النوم الاخرى التي كان بها منذ

هنيهة. ولم يلتقط نفسه التالي إلا بعد أن أغلق الباب ووقف خلفه يتسمع أدق الأصوات، ويتنفس ببطء شديد وبهدوء حتى لا يطغى صوت تنفسه على سمعه. حدث كل هذا في لمحة خاطفة، وكأن الصوت الذي قال مامي كان صوت الزوج أو صوت رئيس عصابة مسلح بمدفع رشاش.

وبقلب يدق بالهلع مضى درش يتسمع. والتقطت أذناه المرهفتان حديثاً قصيراً خافتاً بين الأم التي استطاع أن يميز صوتها وبين أحد أطفالها، ربما البنت وربما الولد لم يكن يعرف أيهما، ولكنه لأمر ما تمنى أن تكون التي استيقظت هي البنت..

وخيل إليه أن ساعة طويلة قد مضت قبل أن تتحرك أكرة الباب الذي يحتمي خلفه، وتدخل المرأة وهي تكاد تموت على نفسها من الضحك.

وقالت له باستغراب:

ـ ما الذي اخافك؟

وأحس بالخجل، فقد أدرك لحظة سؤالها فقط أن ما فعله كان عملا دل على رعبه الشديد، وقال:

ـ أبداً. أنا خفت؟ أبداً.. فقط كما تعلمين، لا أريد احراجك اذا كان احد الأطفال قد اكتشف وجودي. طبعاً هذا لا يصح.. اليس كذلك؟

فقالت وقد جلست فوق السرير ومدت يدها تخلع حذاءها:

ـ اطمئن، هم لا يدركون شيئاً. والآن لا تخف لقد اصبحنا وحدنا. اليس كذلك؟ أنا وأنت فقط.

وأعجبته كلماتها، كانت أول كلمات تقولها منذ أن تعارفا ـ ويحس منها أنها فعلا تريده بصراحة ووضوح ودون أدنى مواربة . .

وكان السؤال لا يزال يؤرقه، فهو خبير بالنساء، ويستطيع أن يقسم على كل مقدس أن هذه المرأة خام مائة في المائة،وأنها ليست عابثة ولا مغامرة. فلماذا رضيت به؟ وحتى لو كان قد أعجبها وسحرها لماذا قبلت وهي الزوجة والأم أن يصحبها إلى شقتها بمثل تلك الصورة؟ لهذا حين نطقت كلماتها السابقة اطمأن وأحس أنه لو سألها أي سؤال، حتى ذلك السؤال، فلن تغضب ولن تتحرج من الاجابة عليه.

ورأى أنه من اللائق أن يخرج سؤاله بطريقة بريئة ومؤثرة لا تجعله يبدو في نظرها ساذجاً أو محباً للاستطلاع، فمن صفات الرجل الكامل في نظره ألا يكون ساذجاً أو محباً للاستطلاع. وهكذا وقف أمامها وهي تخلع جوربها، ووضع يديه في جيب بنطلونه وقال بلهجة مغرية وبنبرة آسرة.

ـ أنا كما ترين أحب الصراحة،وهناك أمر يحيرني جداً وأحب أن تكوني صريحة معي فيه.

فسألته بقلق بريء:

ـ ما هو؟.

ـ السؤال هو بصراحة: لماذا قبلتنى؟ أنا أعلم أنك لم تفعلي هذا على سبيل اللهو أو العبث. وأعلم كذلك أنك لا يمكن أن تكوني قد وقعت في حبي من أول نظرة. السؤال محرج جداً، وقد أبدو سخيفاً في نظرك ولكني استحلفك أن تقولي لي لماذا؟

وضحكت بل خجلت، وتأكد أن خجلها خجل حقيقي فعلاً مثل

خجل المرأة في القاهرة وفي كل مكان، فقد كان مصحوباً باحمرار خديها وسقوط أجفانها فوق عينيها.

ـ أبداً ليس محرجاً بالمرة.. ولك حق فيه. ولا أعرف كيف أقول لك ما أريد قوله. ولكن.. أنت تعلم.. لا تؤنبني على هذا ولكنه الحقيقة: الحقيقة أننا هنا في الغرب نسمع عن الشرق كثيراً، وعن غموضه ورجاله وسحره، وطالما داعب خيالي الأمير الشرقي الأسمر. داعب خيالي وأنا بنت مراهقة.. وحتى أوأنامتزوجة وأم. وحين رأيتك خيل إلي أني عثرت عليه وأنها فرصة العمر. لا تلمني أرجوك، ولكنها فرصة العمر، ولولم تكن أنت قد صعدت الى الترام ورائي لهبطت أنا في المحطة التالية وعدت اليك. وقد كذبت عليك.. اني اقيم مع زوجي فعلا، ولكنه سافر إلى كوبنهاجن من اسبوع وهو موظف في الخطوط الجوية الاسكندنافية.

كانت تقول هذا وعيناه منخفضتان حائرتان بين تتبع عملية خلع جواربها وبين استراق النظر الى ساقيه المنتصبتين امامها. وكان كلامها لا ينساب انسياباً طبيعياً، أحياناً تتوقف.. وأحياناً تتردد.. وأحياناً تدغم الكلمات. وتوقفت برهة ثم رفعت اليه عينيها وواجهته قائلة:

ـ هل أجبت عن سؤالك يا أميري الشرقي؟

ـ أجل يا امرأة احلامي الاوروبية.

قال درش هذا وقلبه يخفق خفقات يعرفها تماماً، تلك الخفقات التي يحسها حين يقدم على أمر رائع خطير، هي الأخرى كانت لها أحلامها في الرجل الشرقي الممتليء بالرجولة ذي الجواري والحريم، وهو جاء خصيصاً ليبحث عن المرأة الاوروبية ذات الشخصية والحضارة، فيا له من لقاء.

انه ينتظر منها الكثير، وهي بدورها لابد تنتظر منه الكثير. فمن اين يبدأ المقدمات؟. لابد من عمل قليل من المقدمات. وبدأ درش يهيىء نفسه ولم يكن هذا سهلاً،فالأحداث كانت كثيرة ومتتابعة. . ولم يكن لديه اي وقت لاستيعابها. ولا يزال لا يصدق كيف أن المرأة التي قابلها في الشارع منذ ساعة بلا أي أمل حتى في الحديث معها، كيف أصبحت الآن طوع بنانه. ولكن سواء استوعب عقله الوضع أم لم يستوعبه، عليه أن يظل سيد الموقف، عليه أن يحدد بالضبط متى يبدأ في المقدمات.

ولكنه وجد نفسه بعد ثانية واحدة في غير حاجة الى المقدمات بالمرة، اذ هي لم تكتف بخلع الجوارب، فقد خلعت كل ملابسها، ووقفت أمامه كما ولدتها أمها.

ولم يكن الانزعاج الذي أحس به درش انزعاجاً عادياً. كان واقفاً فجلس على الكرسي وراح يحدق في جسدها العاري وقد تبخرت من عقله كل مشاكل المقدمات. أيه ما هي حكاية هذه المرأة بالضبط؟ فلتكن قد حلمت بأميرها الشرقي كما يحلو لها، ولكن هل هذه هي الطريقة المثلى لمعاملة الأمراء الشرقيين؟

وفك رباط عنقه وخلع جاكتته ليريها انه ليس أقل منها جرأة. غير أنه بعد أن فعل هذا وجد نفسه يسألها:

ـ أريد الذهاب إلى الحمام. . ممكن؟

لماذا الحمام؟ لم يكن يدري. كل ما كان يريده في تلك اللحظة هو بضع ثوان يلتقط فيها أنفاسه ويهضم ما حدث.

وقالت له وهي تغلق عينيها:

ـ أول باب على يمينك.

وخرج . . وكان صحيحاً ما قالته ، فأول باب على يمينه كان باب حمام فعلا. فتحه ودخل ، وظل يعسعس على مفتاح النور حتى وجده وأضاءه ووقف يدير رأسه في كل اتجاه. كان الحمام صغيراً جداً ، تماماً مثل الحمامات في مصر ،وكأن ذمم اصحاب البيوت ضيقها واحد في كل زمان ومكان . . حمام تحس أنه يمت ايضاً الى عائلة تسكن في شقة مزدحمة صغيرة. ولم يتفرج درش على الحمام طويلاً فقد راح يهيىء نفسه لاستعمال التواليت مع أنه كان متأكداً تماماً أنه ليست به حاجة الى استعماله ، كل ما في الأمر انه ما دام قد قال لها أنه يرغب في الذهاب الى الحمام فعليه أن يستعمل الحمام فعلاً ، وكأنها ستراقبه من مكانها البعيد لتعرف إن كان قد ضحك عليها أم قال لها الحقيقة .

وبدأ درش يلاحظ أنه هناك في حذاء وجهه تماماً يوجد حبل غسيل صغير ممتد بين حائطي الحمام ، وهز كتفيه كمن يقول : كأننا يا بدر لا رحنا ولا جئنا . ففي حمام بيتهم ايضاً يوجد حبل غسيل مثل هذا تعلق عليه زوجته ملابس ابنتهما الداخلية . ما فائدة اوروبا اذن إذا كان أناسها يستعملون نفس الأشياء التي نستعملها؟

غير أن ما استرعى انتباهه حقيقة هو أنه وجد الحبل يزدحم بعدد لا يحصى من الملابس الداخلية للأطفال اكثر من عشرين قطعة في حجم الكف ، وكأنها صنعت لترتديها عرائس أطفال. لابد أن هذه المرأة نظيفة ونشيطة . . كيف يا ترى تجد الوقت الذي توفق فيه بين عملها في الصباح والمساء وبين بيتها وهذه العناية التي توليها أولادها .

غير أن اعجابه بالمرأة لم يستمر طويلا فقد لسعه شيء ما . . في هذه اللحظة فقط أدرك أن المرأة التي اصطحبته الى منزلها حقيقة أم. وشيء غريب هذا! لقد نقل معها ابنتها ، وحدثته طويلا عن أبنائها ،ولكنه أبداً لم

يؤمن أنها أم الا حين رأى العدد الكبير من ملابس الأطفال الداخلية. هي أم ولها بيت وزوج وأولاد، والأعجب من هذا أنه ربما للمرة الأولى في حياته أيضاً يدرك في تلك اللحظة بالذات انه هو الآخر أب له بيت وزوجة وابنة لها ملابس داخلية مثل تلك الملابس التي تلاصق وجهه والتي تنفذ منها رائحة الصابون الذي غسلت به الى خياشيمه.

وأحس أنه لم يعد في حاجة لاستعمال التواليت، فخرج، وذهب الى حجرة النوم.

وحين فتح الباب ودخل لم يجدها عارية، كانت قد تمددت فوق السرير الذي صنع لشخص ونصف شخص وغطت نفسها بملاءة السرير البيضاء، ولم يبق ظاهراً منها إلا وجهها وعيناها فقط. أو على وجه الدقة لم يبق ظاهراً منها إلا انفعال واحد التقطه درش من لحظة أن وضع قدميه في الحجرة.. انفعال تختلط فيه الرغبة بالاستسلام والأماني بالحقائق.

ودلف الى جوارها في السرير وتأمل وجهها المبتسم.. كان به نمش صغير كرءوس الدبابيس لا يرى الا عن قرب، وسمع دقاً عالياً يتصاعد بجوار أذنه ويقلقه، والتفت.. كان المنبه الصغير هو الذي يرسل دقاته فقال لها:

ـ هل باستطاعتنا أن نخرج هذا الشيء المزعج من الحجرة؟

وبدا أنها أفاقت قليلا من هيامها، وما لبثت أن قالت:

ـ لقد كدت انسى. لابد لي من ضبطه على السادسة. هل نسيت؟ لابد لكي أصل إلى المكتب في الثامنة أن استيقظ في السادسة.

ومضت تملأ جرس المنبه.. وقالت بدلال وهي تضبط عقربه:

ـ الساعة الآن الثانية.

وحين انتهت أخذ منها المنبه ولفه في فوطة وجه ليخفي صوته، وقام من الفراش ووضعه في ركن الغرفة البعيد ليخمد أنفاسه نهائياً، وعاد إلى رقدته بجوارها. غير أنه ما كاد يستريح هنيهة حتى جاءته دقات المنبه منتظمة عالية في انتظامها؛ بل خيل اليه انها اعلى مما كانت.

وتولته حالة عصبية. واحتضنها بقوة فقالت:

ـ ستكسر ظهري يا افريقي.

أفريقي مين؟ لا ريب أنها تقول هذا لتستثير رجولته، أو بالأحرى ما تتخيله هي عن فحولة الأفريقي الشرقي المعهودة. لابد اذن من أن يرفع درش رأس افريقيا والشرق عاليا، والا خيب آمالها وجعل رقبة افريقيا كالسمسمة. وكاد درش يضحك وقد خيل اليه أن شعوب افريقيا مثلا قد اجتمعت كلها وانتخبته ليمثل رجالها في تلك المباراة، بين رجل افريقيا وامرأة أوروبا، ولكنه لم يضحك.. نظر إلى جسده هذا الذي سيدخل المباراة الخالدة فلم يجد فيه من علامات الافريقيين شيئاً كثيراً.. فلا هو زنجي اللون، ولا قامته طول أشجار جوز الهند، ولا صدره مليىء بالشعر الكث كألياف النخيل، وقال لها:

هل تعتقدين أن الشرقيين والأفريقيين يعني..؟!

قالت وهي تموء:

ـ ألا تعتقد أنت هذا؟

وضمها درش بحنان أول الأمر، ولكنه تذكر أن عليه أن يكون (أفريقياً) فقساً في ضمته وقبلها قبلة متوحشة.. فما كان منها الا أن ضمته هي الأخرى بقسوة وقبلته.

وتضايق بعض الشيء.. لماذا ترقد مستسلمة وتدع له مهمة الرجل؟ لماذا لا تتمنع قليلا؟ ان التمنع يضفي على الأنثى أنوثة ويكسب الرجل رجولة، وايجابيتها هذه الزائدة عن الحد تضفي على انوثتها رجولة، وعلى رجولته سلبية الأنثى.. ولكن، اليس هذا هو ما اردته يا درش تماماً؟ الم ترد أمرأة ايجابية تعطي نفسها بكل قوتها وارادتها؟

وحدثت ضجة موسيقية في الصالة، ودقت الساعة نصف الساعة.
فقال لها:
- يبدو أن الساعات هنا اكثر من اللازم.

ولكنه في نفس الوقت كان يفكر في شيء آخر.. معنى هذه الدقة الثانية والنصف، الوقت يمضي بسرعة وهي موظفة، ودرش هو الآخر موظف ويعلم أهمية المواظبة على مواعيد الحضور. بل من المحتمل جداً أن يكون رئيسها في الشركة مثل رئيسه الدكتور نوفل ذي الشعر المشوش الذي يحمل دكتوراه لا يدري أحد فيم؟ والذي كل همه أن يراجع كشف الحضور والانصراف بنفسه، وكأنه أخذ الدكتوراه في مراجعة تلك الكشوف.

ولا يدري درش لم ألقى نظرة جانبية أخرى عليها؟ كانت «صحيح» عارية ولها ابتسامة لا معنى لها وبشرة صلبة بعض الشيء وأصابع رفيعة أنهكتها الكتابة على الآلة الكاتبة، ولكنها موظفة مثله.

وفي الثانية التالية كان ثائراً على نفسه، فالطريق الذي كانت تسلكه أفكاره طريقاً اذا داوم على السير فيه لانتهى الأمر بكارثة. عليه أن يركز خواطره ولا يجعلها تتشتت وتتبعثر. عليه أن يصم أذنيه ويغمض عينيه ولتكن موظفة أو عاطلة، المهم أنها الآن أمامه انثى عارية من دم ولحم

على فراش واحد معه في حجرة مغلقة وقد عثر عليها بعد طول عناء وطول يأس.

وبدأ درش يعاملها كأنثى، أخذ يدها وقبلها ووضعها علـى خده وأحس ببرودة معدنية تنغمش جلده فرفع يدها. . كان في أصبعها البنصر دبلة فترك هذه اليد وتناول الأخرى وراح يجريها على خده. ولـكنه في نفس الوقت كان يفكر في زوجها، لابد أنه هو الشخص الذي رأى صورته موضوعة في برواز الكومودينو المجاور للسرير. وتحرك رأسه حتى أصبح في استطاعته أن يواجهه. . كان سميناً بعض الشيء ويبتسم في سذاجة اذ لم يكن هناك أبداً أي داع للابتسام. . وكان حليق اللحية والشارب وشعره خفيف، وقال لها:

ـ أنت متأكدة أن زوجك لن يأتي الليلة؟

ـ طبعاً متأكدة. . هو لن يأتي الا في الأسبوع القادم، ذكر لي هذا في خطابه الذي وصلني امس.

ومضت تتكلم عن الخطاب.

ولـم يصغ اليها، كان في ذلك الـوقت يلعن نفسه. . ما له هو وما لزوجها وخطابه؟ لماذا يخرج عن (الموضوع) باستمرار. الزمن الـذي أمامه محدد وقد أضاع وقتاً كثيراً، وهي كانت أذكى منه، فهي لم تسأله أبداً عن شخصه ولا شغلت نفسها كثيراً بأحواله ولا يهمها إن كان متزوجاً أم أرمل، كل ما يهمها أنها الآن معه في حجرة مغلقة واحدة.

وحل صمت.

أثقل صمت. وحاول درش أن يقطعه بحركة، بضمة أو حتى بقبلـة

حتى هدأت تماماً ونسيت ما كان. وما كاد هذا يحدث حتى هبط عليه خاطر عبقري فسألها:

- هل عندك مشروبات؟

- مشروبات؟

- أجل، نبيذ، براندي، ويسكي أو بيرة حتى.

وضمت حاجبيها مفكرة بينما كان هو قد بدأ يرتجف بعصبية حادة كأنما مصيره معلق بالكلمة التي سوف تخرج من فمها. وبدا عليه الارتياح الشديد حين قالت:

- أعتقد أن عندي بعض البراندي.

- أين؟.

- هنا.

قالت هذا وهي تشير له دون أن تتحرك إلى دولاب صغير قائم في ركن الغرفة. وبابتهاج زائد قام وفتح الدولاب وجرد محتوياته بنظرة، وفي قاعه عثر على زجاجة البراندي. لم يكن بها الكثير، كأسان أو ثلاث تعوم فوقها فلينة ساقطة. وبينما كانت تقول له الكوب فوق الدولاب كان هو قد رفع الزجاجة الى فمه، ودلق محتوياتها في جوفه مع أنه لا يطيق طعمها.

وطبعاً لم يسر مفعولها في جسده حالا.. كان الأمر يستلـزم بعض الوقت، ولكنه أحس بنفسه منتشياً حتى قبل أن يصل الخمر إلى رأسه. فجأة بدا له الأمر في غاية الروعة، أمرأة جميلة، وليلة سوف يذكرها الى آخر العمر، وجسد عار أبيض مشرب بحمرة، تماماً مثلما يريده، وأبواب الجنة مفتوحة على مصاريعها أمامه. فماذا ينتظر؟

وذهب اليها في الفراش. واحتضنها وهو جالس، ورفع رأسها حتى أصبحت في متناول فمه، ومضى يقبلها ويمعن في اثارتها بتقبيلها في عنقها وأذنيها، ولم تكن هي في حاجة لكل هذا.

وقبل أن يسمع هو شيئاً قالت له:

ـ الطفلة..

وقبل أن يسألها عادت تقول:

ـ اسمع.

ومن بعيد وصلت الى اذنيه ضجة صغيرة مكتومة يعرفها تمام المعرفة.. ضجة الطفل حين يصحو من النوم باكياً فجأة، وبلا سابق انذار.

وقالت، وكأنها لا تدري حقيقة ما تفعل:

ـ ماذا أفعل؟

غير أنها قامت ولفت الملاءة البيضاء حول جسدها حتى بدت كالشبح الأبيض، ثم خرجت ملهوفة من الغرفة..

وما أن أغلقت الباب وراءها حتى أحس بنوع خفي من الارتياح ومضى يدور في الغرفة على غير هدى ويعبث بمحتوياتها بحب استطلاع الأطفال حين يتركون وحدهم في البيت الخالي. وحتى حقيبة يدها فتحها، كانت تفوح منها رائحة غريبة.. خليط من العطر القديم المختلط برائحة الجلد والعرق والبودرة، وكانت فيها بطاقتها الشخصية وكانت تبدو كالمراهقة في الصورة الصغيرة الملصقة بالبطاقة، ثم قبضة مفاتيح كثيرة كل ما كان يميزها عن مفاتيح أي ربة بيت ان بينها مفتاحاً أدرك أنه مفتاح

درج مكتبها في العمل. فقد كان يشبه إلى حد كبير مفتاح درج مكتبه «البيل». بل انه أخرج سلسلة مفاتيحه من جيبه وقارن بين المفتاحين وضحك. فمجرد التشابه بين المفتاحين أضحكه، اذ في ذلك الوقت كان قد بدأ يحس بالسخونة تسري في رأسه، وبشيء يملأ تلك الحفرة الواسعة التي كان يشعر بها طوال الوقت عميقة جوفاء في صدره. وعادت وهي لا تزال ملتفة بالملاءة البيضاء، ولو كانت قد بقيت على حالها لمضى في اقدامه الى نهايته، ولكنها حتى قبل أن تصل الى الفراش رفعت الملاءة عن جسدها وألقتها جانباً. وبدت سخية في عريها. وأكمل طريقه إليها واحتواها بحماس مكسور الحدة. وقبل أن يحدث شيء آخر لمحها تبتسم وكأنها تريد أن تضحك، فسألها، بانفعال:

ـ ماذا يضحكك؟

ـ البنت كانت تريد الذهاب الى التواليت. .

وقال في سره وهو يلعنها: وماذا يضحك في شيء طبيعي كهذا؟ ولكنه ـ مجاملة لها ـ جاراها في ضحكها، وقالت هي:

ـ الفريد هو الذي يفعل هذا في العادة.

ـ ألفريد مين؟

ـ الفريد زوجي. هو الذي يستيقظ على بكائهم ويذهب بهم إلى التواليت. ولم تكد تقول هذا حتى كان درش يقهقه، وأخذت تتأمله وهو ينثني ويعتدل ويضحك ثم سألته بعد أن انتهى:

ـ لماذا تضحك؟

فقال وهو يكاد يموت من الضحك:

ـ لأنني أحسن من ألفريد.

ـ لماذا؟

وكاد يقول لها: لأنني ليس من مهامي كزوج أن أذهب بالأولاد إلى التواليت. ولكنه لم يقلها. ليس هذا وقته الوقت وقت الفراش. .

وفي الفراش حاول درش جاهداً أن يطرد عن نفسه كل الأفكار التي أرادت أن تأخذ بمجامع عقله، ولكنه فشل. كان أحياناً يحيا معها في الموقف، وأحياناً يحس بأن عقله قد انفصل عنه ووقف قريباً من سقف الغرفة يراقبها ويراقبه. لا شك أن المشهد حينئذ سيكون مسلياً للغاية. هو شرقي وهي اوروبية وكلاهما متزوج، وكلاهما موظف، وكلاهما قد طال غيابه عن زوجه ورفيقه، وكلاهما يحاول أن ينال الآخر، ويبذل في سبيل ذلك جهد المستميت.

وكل شيء يدور في صمت. . الأعصاب تتوتر وترتجف، والعرق الصغير ينبت ويتبخر، والنظرات تخجل أن تلتقي فاذا التقت بدت جريئة لا خجل فيها، والضغطات الهينة أحياناً المجنونة في أحيان اخرى، وعيناه حين ارتفع صراخ طفلها مرة اخرى. . عيناه حين راحتا تأمرانها وترجوانها أن تلزم مكانها وألا تقوم وهو يحاول أن يجد في تفضيلها له على طفلها علامة حب أو رغبة خاصة. وتفضله على طفلها وتبقى فيتمنى لو كانت قد حاولت فعلا أن تقوم ومنعها هو بالقوة.

كل شيء يدور في صمت لا تقطعه سوى دقات المنبه العنيدة التي كانت تشق نسيج الثوب الملفوف حوله وتعبر فضاء الحجرة وتصر على الوصول إلى فتحتي أذنيه فتملؤهما، وساعته في يده مقلوبة، ولكنه دائماً يحاول عدلها لكي يعرف الوقت، والدقائق تمضي بطيئة جداً، ومع هذا فالوقت يمضي بسرعة هوجاء ويقترب اقتراباً جنونياً من السادسة حيث يجب عليها أن تستعد لمغادرة البيت.

كـان هذا كلـه فوق احتمالـه، وأيضاً فوق احتمالها. لقد حاولا المستحيل.. حاول درش أن يغمض عينيه عن العالم كله الا عنها وعما يدور في الغرفة، وحاولت هي بكل طاقاتها أن تساعده في اغماض عينيـه وليتها لم تحاول، ليتها لم تحاول مساعدته، ليتها فقط تكف عن ابتسامتها الممدودة المرتسمة اكثر من اللازم على فمها.. بل والسائلة من فمها ايضاً كروج أسيء وضعه. ليتها حاولت هذا، فبعد كفاح رهيب كان درش لا يزال يتصبب عرقاً وخزيا، ولا يزال يلهث، وهي لا تزال تساعده وتبتسم.

وقال درش:

ـ لندخن سيجارة.

ـ أجل ندخن.

وأعطاها سيجارة، أشعلتها بعد أن أدارتها لتعرف ماركتها، وبدت مسرورة بماركتها الثمينة، وأشعل هو سيجارة من الناحية التي فيها الفم الفل. ولـو كان قد حدث هذا في أول الليـل لألقى السيجارة وأشعل غيرها، ولكن لم يعد ثمة داع للتظاهر.. قطع الفم وأشعلها مرة أخرى.
وجلسا يدخنان.

وحاول أن يفكر بهدوء فيها؛ فوجد أن من المستحيل عليه حتى أن يفكر فيها. فكلما فكر فيها تأزم أكثر وعمقت الحفرة التي يحسها كائنة في صدره. بل ما حدث هو أنه وجد أنه كلما بعد عنها بأفكاره ارتاح، كلما احس أنه هو نفسه، وأنه طبيعي جداً، وان ارادته وأعصابه وجسده ملكه.

وهكـذا وجد درش نفسه يفكـر في نوسته، ونوسته هي أنيسة التي يسميها أحيـاناً نوسته ونوسته وسنسنته الـى آخر عشرات الأسماء التي ابتكرها لها... نوسته التي تركها هناك في شقة متواضعة من شقق شارع

ابن خلدون، بل ووجد نفسه يفكر بالذات في وقفتها بالمطبخ حين يجيىء هو بهدوء من الخلف ويلف ذراعيه حولها، فتنزعج لثانية واحدة وتخاف ولكنها في الثانية التالية تأمن اليه، وتحس حينئذ أنه الرجل الوحيد في العالم،وأنها المرأة الوحيدة التي تصلح له.

ولبرهة خاطفة ظن درش أنه يحلم، ولـكنه كان فعلا يحيط امرأة بذراعيه وكان يغمض عينيه، وخاف لو تحركت المرأة أن تطير نوسة من خياله فأمرها ألا تتحرك، بل غمغم بكلمات لا تكاد تسمع، وحبذاً لو أطفأت النور.

ولم ير شيئاً، فقد كان لا يزال مغمضاً عينيه، فقط سمع تكة زر النور المعلق بجوار الفراش وهو يطفأ، وحتى بعد أن أطمأن إلى أن الظلمة قد سادت الحجرة لم يفتح عينيه. كان لا يريد أن يرى شيئاً، فهو لا يرى الا فراشه ونوسته، ولا يسمع الا همساتها الرقيقة له، وأصوات بائعي الفول (الحراتي) حين ينادون عليه من بعيد في شارع ابن خلدون.

* * *

وتنفس الصعداء وهو يربط حذاءه. كان قد ارتدى كل ملابسه ولم يبق الا أن يمر بالمشط على شعره ويغادر الحجرة والبيت، وكل ما كان يفكر فيه في تلك اللحظة هو مشكلة وصوله الى فندقه. فالساعة كانت قد جاوزت الخامسة، وكيف يستطيع في مثل تلك الساعة، ومن تلك الضاحية البعيدة أن يصل الى قلب فيينا حيث فندق فيكتوريا الذي ينزل فيه؟

وسألها، قالت:

ـ في آخر الشارع يوجد موقف للتاكسي.ـ

ونظر اليها وهي تجيب، ولأول مرة احس انه ينظر لها بقوة وسيطرة. . كان قد اجتاز الأزمة بتفوق، كان وجهها هادئاً مستريحاً يحفل بالاكتفاء والابتسامة الزائدة عن حدها قد اختفت تماماً من ملامحه.

وكاد يؤنبها بينه وبين نفسه على هذا الاحساس، لولا أنه كان قد انتهى تماماً منها ولم تعد تهمه في شيء.

وبعد أن مر بالمشط علـى شعره، وتحسس كالعادة علبة سجائره وسلسلة مفاتيحه واطمأن إلى أن كل شيء على ما يرام، لم يبقَ أمامه إلا أن يغادر البيت وتنتهي الليلـة. . خاصة وأنها كانت قد انتهت فعلا وبدأت أضواء الصباح النابتة الـزرقاء تمتد إلـى الحجرة مخترقة حجب الشيش والزجاج.

ولكنه لا يدري لم وقف محرجاً يتردد بين الخروج والبقاء؟ لقد تم له ـ ولو بعد مآس كثيرة ـ كل ما أراده، فما الداعي لكل هذا التردد بين الذهاب والبقاء؟

وأي شيء يريده؟ هو نفسه لم يكن يدري. . ولكنه كان يحس بشيء يؤرقه. لا لم تكن خيبة الأمل، ولم يكـن كذلك تأنيـب الضميـر، كان بالتأكيد شيئاً آخر.

لقد كان طول الوقت الذي مضى مع نوسة زوجته، كان معها بجسده وعقله وكل ذرة فيه. ولولا هذا لما استطاع أن يلعب دور الرجل، بل دور الافريقي. وهذه المرأة الراقدة تجتر احساسها بالشبع كانت تظن انه معها. لا وحياتك لم أكن معك. . أما أنت يا نوسة فلو عرفت ما حدث لظننت أني قد أخللت بعهدي لك، هراء لم يحدث شيء من هذا، لقد كنت طول الوقت معك.

أفكار صغيرة دقيقة لم يكن يستطيع أن يقبض احداها بمفرده، ولكنها كانت لا تكف عن مهاجمته ووخز جنبات عقلـه وخزاً رفيعاً حاداً لا يدمى.. ولكنه يوجع ويؤلم.

ربما لهذا السبب أقدم علـى هذا القول الذي بدا في الحقيقة سخيفاً لا معنى له.. طرأ له أن يقول للمرأة أنه لم يكن معها، ولكنه كان مع زوجته. وأول الأمر استنكر الأمر بشدة.. ولكن عدم المبالاة كان قد استولى عليه وأصبح يحس أن باستطاعته أن يتصرف معها بمطلق حريته. يقول لها كل ما طرأ له، ويفعل كل ما يريد فعله، ثم انه لن يراها بعد الآن وهي ايضاً لن تراه، هذا آخر لقاء يتم بينهما في الحياة فلماذا لا يقول لها الحقيقة؟ وماذا يهمه لو غضبت وبكت ما دام ما يقوله صحيحاً، وما دام حقيقياً، وما دام سيريح به ضميره؟

وهم أن يقول لها هذا، ولكـن يبدو أن الجرأة قد خانته في آخر لحظة.. فقد خرجت كلمات اخرى من فمه. طلب منها ان تعطيه رقم تليفونها ووعدها بأن يتصل بها في المساء، وطبعاً لم تكن لديه أية نيـة للاتصال بها.

وكانت عيناه مغمضتين وهي تمليه، ولكنها بعد أن انتهت ولم تحدث حركـة في الحجرة تنبيء عن خروجه ولا بدرت منه كلمة وداع، فتحت عينيها.. ولما رأته واقفاً تلك الـوقفة الغريبة ابتسمت له نفس ابتسامتها الممدودة.

وأحس أنها محرجة هي الأخرى أن تسأله عن الداعي لبقائه، وكـل شيء يهيب به أن يذهب.

وما أن لمح ابتسامتها الممدودة حتى زايله التردد، وبدأ يستجمع نفسه ليقول لها الحقيقة.

غير أنه فوجيء بابتسامتها تتسع وتتسع حتى تغمر وجهها كلـه، ثم تنقلـب إلـى ضحكـة بدت غريبة باردة في تلك الساعة المبكـرة من الصباح.. وبعد ليلة حافلة كتلك. وعلى هذا بدلا من أن يقول لها ذلك الشيء سألها عما يدفعها إلى الضحك، فقالـت وقد عادت إلـى اغلاق عينيها.

ـ إنه لأمر مخجل.

ـ قوليه.

ـ مخجل جداً..

كان يقول هذا بلهجة الأمر، ولكنه خاف أن تستنكر لهجته فلا تجيبه.

فعاد يقول:

ـ أرجوك، أعتقد أنه لم يعد بيننا ثمة مجال للخجل ـ قوليه.

ولـم تجب.

فتحت عينيها واستدارت وهي لا تزال راقدة وراحت تحدق في صورة زوجها الموضوعة علـى المنضدة القريبة من الفراش، تحدق عن عمد فيها، وما لبثت أن أخرجت يدها العاريـة من تحت الملاءة وتناولـت الصورة وقربتها إليها.

وحينئذ نطقت وقالت:

ـ أتعلم أني كنت معه.

ـ مع من؟

ـ مع الفريد.
ـ متى؟
ـ حين كنت معك.
وأكملت اجابتها بضحكة، نفس الضحكة التي بدأت بها الحديث.

وظلت ممسكة بالصورة بيدها وقد حجبت الصورة وجهها، ولم يعد بادياً منها إلا ذراعها الذي بدا في ذلك الخليطمن النور الكهربائي وضوء ما قبل الشروق باهتا شاحباً يكسوه شعر أصفر خفيف.

وقبلته.

قبلت صورة الفريد، وما لبثت أن أعادتها إلى مكانها. . وقالت وهي تستدير في الفراش ليصبح وجهها إلى الحائط وظهرها إلى درش ـ وكأنما هي الأخرى لم يعد يهمها من أمره شيء ـ قالت في شبه غمغمة نائمة:

ـ لم أكن أعلم أنه رجلي الافريقي الذي كنت أبحث عنه.
ولم ير درش شيئاً بعد هذا، فقد أحس بغليان يملأ رأسه، واستدار على أعقابه فجأة وخرج من المنزل غاضباً وكأنه أهين.

كانت الدنيا في الخارج تحفل بزهزهة ما قبل الشروق. كل شيء هادىء وساكن يتحفز مستعداً للنهار الجديد القادم. كل شيء جديد. . اليوم جديد. . والناس جدد. . وحتى الهواء طازج لم يتنفسه أحد بعد. وكانت البقعة لا تزال خالية من المارة، والضوء الرمادي يكتسح أمامه أضواء مصابيح الشارع فيخمد بريقها ويجعلها تبدو كالثمار التي فات أوانها.

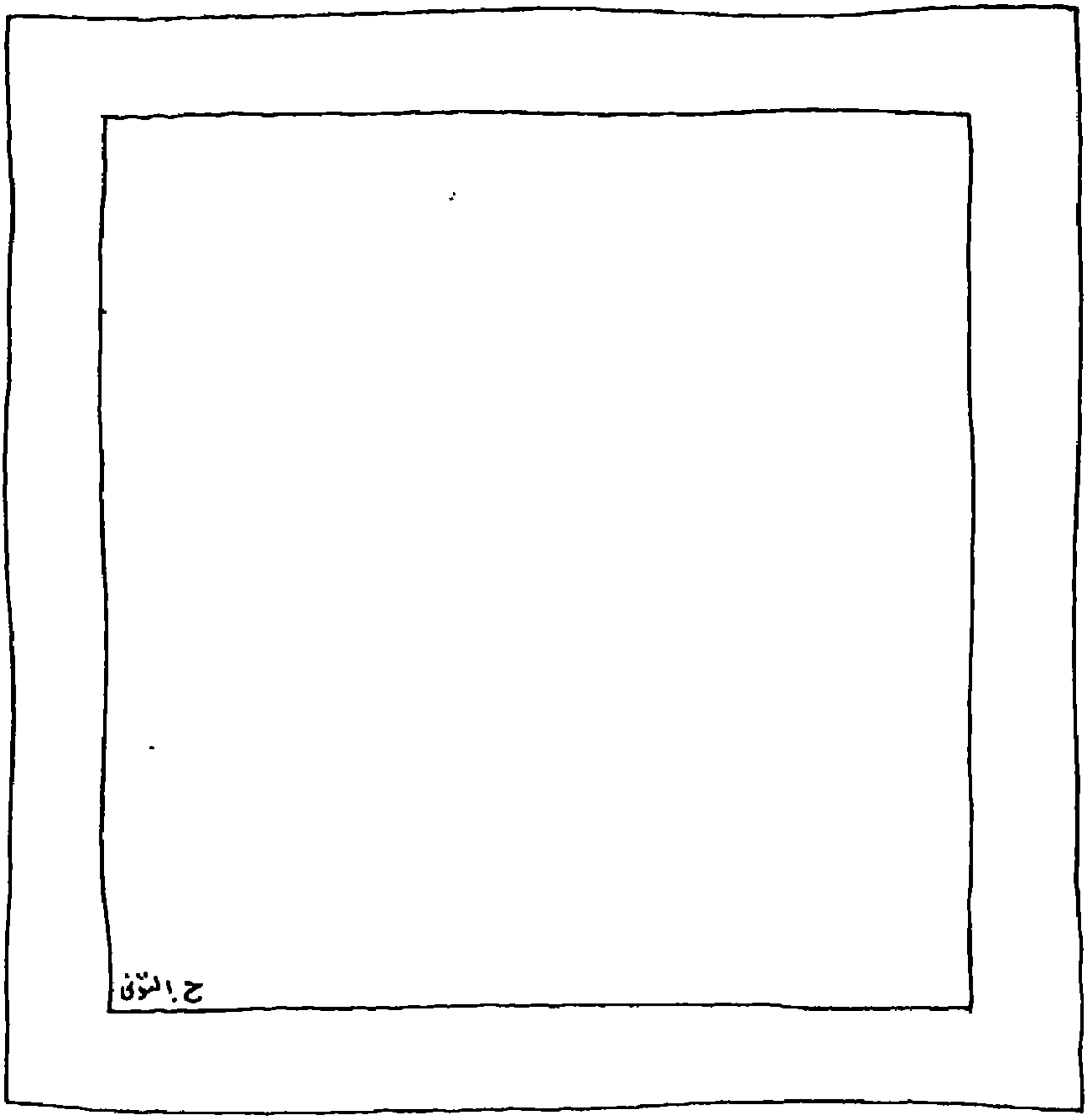
وقبل أن يجتاز آخر بلوك في المبنى سمع درش جرس منبه يدق من

بعيـــد في اصرار مكتوم. لا شك أنه منبهها، ولا شك أنها الآن تناضل ارهاقها وسهرها والـــدفء، وتحاول أن تغادر فراشها لتلحق بعملها ودنياها.

وأحس درش أنه لم يعد غاضباً عليها، وحتى لم يعد غاضباً علــى نفسه. كل ما أصبح يشغله في تلك اللحظة هو شعور كان قد بدأ ينبثق في نفسه وحنين غريب جارف إلى بلده.. وعائلته الصغيرة.. والدنيا الواسعة العريضة التي جاء منها.

القاهرة

يونيو ١٩٦٠



العسكري الأسود

١

حين أتحدث عن السر الذي كان يحيرني في «شوقي» ولا أعـرف له سبباً أو تفسيراً، لا أقصد ابتسامته المشهورة عنه، التي كان لا يبتسم ليعبر بها عن شيء بقدر ما يستعملها كقناع داخلي يخرجه من فمـه حين يريد ليغطي به ملامحه ويخفي وجهه الحقيقي عن الناس. ولا أقصد أيضاً نظرته . .

النظرة التي كان يطليها بزيت تعبيري معين دون أن يجعل بصرك ينزلق عن عينيه ولا يستقر لحظة، وكأنما لو استقر لأدركت سره وعرفت ما به. ولا أقصد أيضاً الطريقة الغريبة التـي كان يتصـرف بهـا. . انبثاقـة الانفعـال المفاجئة التي يدهش بها الحاضرين كلما ضمه مجلس، وأفلتت من أحد الموجودين كلمة ما أثارت تعليقاً ما، وإذا بك بعد ثوان قليلة من ضيقه المباغت تجده على قدميه وقد افتعـل عذراً لا يهمـه إدراك الحاضـرين لوجاهته، وغادر المكان إلى الخارج الطلق إلى أي مكان. هذه أيضاً لا أقصدها. ما أقصده شيء بالضبط لا أستطيع التعبير عنـه، بل ولا حتـى نجحت في اكتشافه بعد الحادث الهائل الـذي قدر لي أن أكون شاهـد عيانه. . الحادث الذي كثيراً ما جلست وحدي أستعيد دقائقه لعلي ألمح هذا الشيء الواهي المروع الذي كان «شوقي» يضم عليه جوانحه. وأشهد

أني في أحيان قليلة جداً استطعت بالكاد محاصرته، وإن فشلت في تحديده ومعرفته. بل لكي أكون صادقاً مع نفسي أعترف أني في جلوسي لكتابة ما حدث، ليس لي من هدف سوى أمل واحد: أن أوفق عن طريق الكتابة فيما فشلت فيه عن طريق الخيال، بصراحة أكثر أقامر - إذ من يدري - لعلي إذا انتهيت أكون قد فسرت كل شيء، ووصلت إلى الحقيقة التي دوختني محاولة الوصول إليها. .

٢

بدايتنا متواضعة جداً، لم أكن أتصور أبداً أن باستطاعتي أن أصل منها إلى سر ما، خطير أو غير خطير. البداية مكتب حكيمباشي المحافظة في بناية المحافظة القديمة التي تهدمت الآن. كنت كلما وجدت نفسي في ميدان باب الخلق، بساعته المعهودة، وواجهة دار الكتب ومئذنة الجامع القائم في وسطه كالنافورة العالية التي جف ماؤها، تذكرت «شوقي».. وكلما تذكرته وجدت نفسي مدفوعاً بشكل تلقائي للذهاب إليه خاصة إذا كان الوقت بعد الظهر، إذ أن «شوقي» كان يعمل في المكتب الطبي للمحافظة. وكان لأسباب ليس هنا مجال تقصيها قد اختار فترة بعد الظهر ليكون النوبتجي فيها.. أسباب لعل أحدها وأهمها أن الطبيب حين يعمل في تلك الفترة كان ينفرد بالعمل في المكتب ويصبح هو رئيسه فالحكيمباشي لا يعمل إلا في الصباح.. ورئاسة المكتب الطبي والجلوس على كرسي الحكيمباشي وتلقي تحيات المراسلة والمستخدمين متعة لا بد أن ترضي غرور أي طبيب شاب. أما حين يعمل في الصباح فلا يصبح أكثر من مجرد مرءوس واحد بين أربعة أو خمسة زملاء..

ونفس هذا المكتب هو الذي كان يضمنا حين ألقى عبد الله التومرجي

بتلك الجملة التي قلبت جلستنا. . بل علاقتنا كلها رأساً على عقب، قال:

ـ ده خلاص يا بيه. . الراجل بقى يهبهب زي الكلاب ويعوي زي الديابة.

حسبتها أول الأمر إحدى مبالغاته، ومبالغات عبد الله التومرجي كانت شيئاً مشهوراً في المكتب، خاصة في تقدير أثمان القهوة والشاي وحساب السندوتشات. وعبد الله لم يكن تمرجياً أصلاً، كان عسكرياً في القسم الطبي بالجيش. وحين دخل البوليس جعلوه مراسلة للمكتب الطبي ولكنهم وجدوه أكثر لحلحة وذكاء من التومرجي الأصلي فأعطوه دوره وأصبح بجلبابه «الدمور» الميري وطاقيته ذات الحائط العالي وجبهته العريضة اللامعة المائلة في خجل خبيث دائم. . وبالذات حين يخفضها ويقول بلهجة خضوع عسكري ظاهر: أفندم! كلمة ذات وقع على آذان الأطباء المدنيين تتيح لهم بعض متع العسكرية ودفء سطوتها. أصبح عبد الله بهذا وبقبقابه الذي كان لا يتناسب أبداً مع حركته الكثيرة علامة من علامات المكتب الرئيسية. . كما أصبحت وقفته أمام باب الحكيمباشي نصف المغلق، وشخطه في الرواد القادمين متأخرين والتحايل لإبعادهم علامة رئيسية من علامات جلستي مع «شوقي».

ولولا رنة دخيلة صادقة في جملته، ما التفت «شوقي» أو التفتّ إليها. كنت قد تعودت إذا بدأ «شوقي» يتحدث في العمل مع عبد الله أو غيره، أو يزاوله أن أنصرف كلية لأفكاري وتأملاتي. . الجملة استخرجتني منها وجعلتني أسأل عن هذا الذي يعوي كالذئاب ويهبهب كالكلاب؟ وأجد أنه «دوسيه»، أو على وجه أصح صاحب الدوسيه الضخم الذي كان موضوعاً فوق مكتب «شوقي». . كانت الساعة تقترب من الرابعة

والنصف، وكنا في الصيف والحجرة قد خلت من روادها، ورواد الحجرة معظمهم من مجتمع القاهرة السفلى، متسولون ومتشردون، ومجاذيب وذوو عاهات، ومدعون ومتشاجرون، فرادى وجماعات، في سلاسل وكلابشات. وأحياناً مربَّطو الجلابيب حتى لا يغافل أحدهم العساكر وينسل هارباً. . رواد بمحاضر وخطابات من الأقسام لتوقيع الكشف الطبي عليهم لتقدير أعمارهم وعاهاتهم، تمهيداً لسلسلة الإجراءات الطويلة التي تتخذ معهم. . ولا يخلو الأمر من متشاجر أنيق، أو تهمة بهتك عرض، أو بنت ذوات. . هذا عدا العساكر طالبي الإجازات وأحياناً شاويشية وضباط، عدد ضخم كان طابوره يبدأ من باب المحافظة ويملأ فناءها الواسع، وينتهي عند ذراع عبد الله الممتدة تسد باب المكتب الطبي المفتوح، وعند صوته المبحوح المطالب عبثاً باحترام الدور. . العجيب أن «شوقي» كان ينتهي من طابور بعد الظهر كله فيما لا يزيد على الساعة، ولكن أي ساعة! حتى حين تخلو الحجرة بعدهم ويوصد عبد الله الباب يبقى الجو مشبعاً بأشباح تكاد تتدخل في الحديث الدائر بيني وبينه، أشباح أشخاصهم ومآسيهم، وأشباح روائحهم أيضاً روائح خاصة ليست مقززة كما يتبادر إلى الذهن، ولكنها مختلفة بالتأكيد عن رائحة الأفندية مثلاً، أو جموع الفلاحين، رائحة لا تصبح مقززة إلا حين تختلطبرائحة الفنيك الذي ترش به الأرض، والـد. د. ت. ، وعرق المبنى العتيق، والأثاث الذي بقرت مسانده. . وتتجمع هذه كلها، ويأتي عليها ظهر يوم صيف كيوم الصيف ذاك وما بعده، فيحولها إلى بواخ يملأ الحجرة وينعقد حتى سقفها العالي. . بواخ يخنقنا ويكاد يدفعنا لمغادرة المكان. ولكنا لم نكن نفعل. بالعكس كان إحساسنا بالاختناق الخارجي ذاك يوفر علينا الكثير من إحساسنا بالاختناق الداخلي.

كنت و «شوقي» شابين من شباب الجيل الذي اصطلحوا على تسميته بالجيل الحائر. صديقين بلا سبب يدعونا للصداقة أو حتى الانتساب إلى جيل واحد، تفتقت عنا الحرب العالمية الثانية لنجد أنفسنا هكذا زملاء في كلية أو جامعة واحدة، بنزعات سياسية وآراء في الناس والحياة لا يمكن أن يربط بينها رابط ،ومع هذا فكنا أصدقاء لا لأننا كنا هازلين في خلافاتنا إذ الحقيقة أننا كنا فيها أكثر من جادين، وتمسك كل منا برأيه ووجهة نظره كان يصل أحياناً إلى حد ارتكاب الجريمة. ربما السبب في الصداقة المهيمنة الكبيرة التي جمعتنا أننا كنا جميعاً نؤمن ـ رغم اختلاف طرقنا ووسائلنا ـ أن لنا رسالة واحدة نحن مبعوثو العناية لتحقيقها. . إنقاذ بلادنا وتغيير مصير شعبنا تغييراً جذرياً وإلى الأبد. وهكذا بدأت واستمرت علاقتي بشوقي.

كان تعارفنا في مؤتمر للطلبة عقدناه في الكلية ونتيجة تشاتم في الرأي ولا أقول خلافاً. . تشاتم كاد يصل إلى حد التشابك. ولكنا حين خرجنا من المؤتمر كنا قد نسينا الخلاف، وكنا نتعازم على الشاي. . وصرح لي ونحن جلوس على المقهى أنه ـ بينه وبيني ـ كان يوافقني في الرأي لولا الموقف الذي كان عليه فيه أن يناصر زملاءه أعضاء الجماعة التي كان ينتمي إليها. ولكنها نقطة واحدة هي التي كنا متفقين فيها، فقد كان استنكاره لما أؤمن به لا يقل عن استنكاري لآرائه ومعتقداته. ولم تفعل الأيام التي تلت أكثر من أن تزيد كلاً منا استنكاراً لآراء الآخر، ولا أعرف مع هذا لماذا كانت في نفس الوقت تزيد من علاقة كل منا بالآخر؟ الجيل واحد صحيح، ولكنه شيع واهتمامات. . أناس منا كانوا يمرحون ويقضون الليالي حول موائد البوكر الذي يلعب بقروش ويسمونه قماراً وشلل أخرى «تزوغ» من المحاضرات وتدمن حفلات السينما الصباحية

وفرق همها الرياضة والجري بالفانلات حول الملاعب، وجماعات للاغتيال والإرهاب، ونحن المهتمون بالسياسة والمؤتمرات والخطب.. نحن الذين نبادل الآخرين الرياضيين وأصحاب النزوات الاحتقار، ونرد على اتهامهم لنا بأننا مهاويس باتهامنا لهم بأنهم منحلون.. وفيما بيننا أيضاً نتبادل التهم، التعصب يرد عليه بالإلحاد، والفاشية يرد عليها بالشيوعية، ومع ذلك ـ وربما من أجل ذلك ـ يظل يجمعنا ذلك القوس العريض الذي كنا نطلق عليه برهبة وتقديس.. السياسة. «شوقي» بالذات كنت شديد الضيق منه قبل أن أعرفه، يذكرني إذا ما قام ليخطب بباعة «الشرب» وخالعي الأسنان في الأسواق! بل حتى شكله لم أكن أستلطفه كان شاحب الوجه لسبب غير معلوم وبطريقة يبدو معها شاربه الغزير أكثر سواداً من حقيقته، شاربه الذي ما هضمت أبداً أسباب وجوده.. ولا استطعت أن أفسر هذا التناقض الواقع بينه وبين ذقنه. فهو غزير، وذقنه ملساء ناعمة نادرة الشعر كذقون المراهقين. كان نحيفاً متوسط القامة جاد الملامح إلى درجة لا تملك معها إلا الاستخفاف بجده. كان أحد زعماء الكلية وأحد زعماء مذهبه، ولكنه أبداً لم يكن ذلك المتهوس الأحمق الذي لا يفلح معه تفاهم أو نقاش.. كان دائماً على استعداد لمناقشة أكثر الآراء بعداً عن رأيه، يرحب بالجدل بابتسامة واثقة، ولا يثور.. وكثيراً ما كنت أتحسر وأعتبر أن عيبه الأكبر أنه في المعسكر الآخر، وأحلم بأني يوماً استطعت إقناعه، وبأننا يوماً ما اتفقنا على رأي. ولكنها أحلام، مجرد أحلام! فقد كان «شوقي» يتمتع بطاقة إرادة هائلة، وكأنه ولد وهو يعرف بالضبط ما يريد، ومتأكد أنه واصل إليه لا محالة. وكان يبدو وكأن إرادته تلك ترسب إيمانه في قلبه طبقة فوقها طبقة، وكل يوم تزيده عمقاً وتسبعاً بطريقة محال معها من أن يتزلزل إيمانه ذلك بإيمان جديد.

إلى أن حدث ذلك الحادث السياسي الذي هز البلاد كلهـا، وقبض على «شوقي» وأدخل السجن تمهيداً لمحاكمته. وربما لفرط إيمانـي به كزعيم من زعماء جيلنا وتقديري له، عجبت للأسف القليل الذي أعقب اختفاءه من الكلية، حتى بين البقية الباقية من أفراد جماعته. وكنت كلما سألت عنه ظفرت بإجابات غامضة عن مصيره ـ بل ولكي أسجل الحقيقة تنصلاً من الإجابات الحقيقية ـ عن مصيره ومصير المقبوض عليهـم من زملائه وغير زملائه.

ولا أعرف إذا كنتم ما زلتم تذكرون تلك الفترة من تاريخنا القريب ولكني متأكد أن جيلنا أبداً لن ينساها. . جيلنا الحائر وعامي ٤٧ و٤٨ والأحكام العرفية، وعهود الإرهاب البشع المخيف.

تلك الفترة كانت أول ضربة جدية تلقاها جيلنا. . خرجنا من الحرب لنجد جيوش الاحتلال ترتع في أرضنـا، ثرنـا فحاولـوا الضحـك علينـا والجلاء الصوري إلى القنال وفـايد، ثرنـا مرة أخـرى مطـالبين بالجـلاء الكامل والكفاح المسلح، وهذه المـرة ضربونـا. . جاءوا بدولـة الباشـا وضربنا علقة كوبري عباس، وحاول أن يضرب أكثر فقتل، فجاءوا بدولة باشا آخر ليكمل العلقة، وأكملها. . فتح السجون علـى آخرهـا، سلـط الإرهاب بكل أشكاله، كمم الأفواه، أخمد الأصوات، أطلق العملاء وبعـد أن كانـت كليتنـا تمـوج بالمؤتمـرات والخطـب والثوار أصبحـت تمـوج بالبـوليس السياسـي والإشاعـات والخـوف وحرب الأعصاب. وتشتت شمل الجيل. . دخل السجن بعضه، والبعض اختفى وهرب في الأرياف والمدن البعيدة، وأحياناً داخل نفسه. . حفـر حفـرة عميقة في صدره دفن فيها ثورته ومعتقداته وردم عليهـا، وأصبـح همـه الوحيد أن يردم عليها أكثر وأكثر ويدعي عكس ما يعتقد. في تلك الأثناء

شاعت قصص التعذيب، وطار صيت العسكري الأسود وما يفعله بالمساجين المعتقلين، وأصبح رمزاً لكل ما يناله جيلنا من ضربات وأصبح هو مبعث رعب الجيل. ذلك العسكري الذي كان يرقد «دوسيهه» بعد سنوات كثيرة وسنوات على مكتب «شوقي»، والذي كان مقدراً لنا أن نراه بعد هذه المدة الطويلة، وبطريقة لم نحلم بها أبداً.

٣

وليست هذه محاولـة لسـرد تاريخ، إن هي إلا لمحـة نعـود بعدهـا لشوقي. إذ بعـد شهـور طويلـة من انقطاع الصلـة بيننـا لم أره إلا يوم الامتحان. . فوجئت به يدخل علينا الخيمة ومعه جمع من زملائه مكبلين بالحديد،ومعهم جيش من الحراس ببنادق وكونستبلات.يومها عبر اللجنة وأوراق الأسئلة تبادلنا ابتسامات راعينا أن تكون خفية، وكأن عيونـاً غير مرئية ستلحظها وتسجلها. ألم أقل أننا كنا في فترة إرهاب؟ وماذا يفعـل الإرهاب أكثر من أن ينجح في جعل كل منا يتولى إرهاب نفسه بنفسـه فيقوم هو باسكاتها واخضاعها للأمر الواقع الرهيب؟

المفاجـأة التي لم أكن أتوقعهـا، كانـت أنـي عرفـت حين ظهرت النتيجـة أن «شوقـي» قد نجـح. كيف ذاكر وعلـوم الطب تحتـاج الـى الخبـرة العملية والمـران؟ وكيف أجـاب وكيف نجح؟ لا أعرف. المهم أنه نجح، ومع هذا ظل مسجوناً لا يفرج عنه ولا يقدم للمحاكمة ولا يواجه بتهمة. أشياء لا تحدث إلا في عصور مظلمـة أو في بلاد رغم العالم المضيء لا تزال تحيا في تلك العصور. . لم يفرج عنه إلا بعد انقضاء فترة طويلة، ولم أعـرف بالخبر إلا حين كنـت ماراً بالقسم الذي أعمل به في المستشفى الكبير بعد تخرجي، فلمحته جالساً

في غرفة الحكيمة وعليه سيماء الترددوالحرج، وكأنه قادم لزيارة مريض والمفاجأة الكبرى التي كانت تنتظرني أني عرفت أنه قد عين في نفس المستشفى، بل أكثر من هذا في نفس القسم الذي أعمل فيه. ورغم انشغالي بضجة الترحيب به لم يفتني أن ألاحظ أن أشياء كثيرة جداً تغيرت فيه إلى درجة حسبته للوهلة الأولى إنساناً آخر، خاصة وجسده نفسه كان قد تغير وأصابه ما يصاب به المسجونون من ترهل، وحتى ذقنه نبت وغزر وأكسب لونه سمرة. ولكني على أية حال قابلته كما يقابل البطل العائد من معركة، والمكافح الخارج من سجن بعد اتهام خطير. وكذلك ظللت أعامله، ولم أكن وحدي.. زملاؤنا الأطباء وممرضات القسم، وبعض مرضاه ممن عرفوا قصة الطبيب الجديد.. كلنا ظللنا نعامله ونتوقع منه دور البطل، ونتقبل تصرفاته خلال الأيام الأولى لالتحاقه بالعمل على أنها نوع من التواضع وإنكار الذات.. كان التخرج قد عمل عمله في نظرتي للناس والأشياء، وخفف من حدة اعتدادي برأيي وإيماني، وأصبحت أؤمن بالحسن أنّى وجد الحسن، وبالبطولة أنّى وجدت البطولة، وأصبحت أحتفل بكل عمل مخلص حتى لو صدر عن مخالف في الرأي وعدو في العقيدة.. وكان أقصى آمالي أن أتحين اللحظة المناسبة لأجلس جلستي التاريخية مع «شوقي» ويقص عليّ فيها كل ما دار له في رحلته التاريخية المليئة لا بد بالمواقف والبطولات.. والحقيقة حانت أكثر من لحظة وأكثر من مناسبة وألقيت على «شوقي» أكثر من سؤال، وكانت النتيجة أني لم أظفر منه فقط بأي جواب، بل كان يحدث «لشوقي» حالة أحس معها أنه يبدو عليه وكأنه ينكر أصلاً أنه سمع السؤال. أعتقدت أول الأمر أنها مغالاة من «شوقي» لتجنب الحديث أمام المرضى أو على مسمع من الزملاء أو الحكيمات.. أنه على أسوأ الفروض يؤجل الحديث إلى زمن قادم

قريب. ولكن الزمن كان يمضي والأيام تنقضي فلا تزيده إلا استمساكاً بموقفه. مشكلة أخذتها أول الأمر ببساطة ولم أعتقد أبداً أنها يمكن أن تقودني إلى اكتشاف. . بساطة لم تمنعني من أن أبدأ بطريقة لاشعورية أنتبه لشوقي، وهدفي طول الوقت أن أستخلصه من تلك التي اعتقدت أنها «حالة» انتابته بعد خروجه من السجن، والتي كان من الطبيعي جداً أن تنتابه. أستخلصه ليعود مرة أخرى ذلك البطل الوطني الذي عرفته، ولو حتى سار في طريق تختلف كلية عن طريقي. كنت متأكدا أن«شوقي»ليس من النوع الذي تكفي بضعة شهور من السجن لكي تغيره وتدفعه للتنازل عن رأيه، مع أن أيامها كثيراً ما كنا نقابل زملاء ومعارف دخلوا متحمسين وخرجوا وقد طلقوا السياسة والوطنية وكل ما يمت إليهما بصلة، وكأنما كان السجن هو الحجة التي ينتظرونها لينفضوا يدهم من المعركة.

أقول بدأت أنتبه لشوقي، وكان أول ما لاحظته أن نظرته اكتسبت طابعاً آخر لم يكن لها. كان في عينيه دائماً بريق يشع ويكسب ملامحه جاذبية خاصة. . جاذبية المؤمن بحقيقة تضيء نفسه، وتفضح ملامحه الضوء الداخلي وتشعه، ويتركز النور في عينيه، وينقل للعالم صورة نفسه المؤمنة. ذلك البريق كان قد اختفى وكأنما اجتث من جذوره، ولم يبق لعينيه حتى اللمعة التي تميز عيني كل كائن حي! كنت كلما نظرت في عينيه أحس بإحساس غريب خاص يضايقني أني لا أستطيع إدراك كنهه وأنّى لي أن أعرف أني أستطيع أن أدرك كنه ذلك الإحساس إلا هناك بعد أعوام طويلة، وفي زمان ومكان كان مستحيلاً أن يخطرا على البال.

ثم بدأت أعي أن صوت «شوقي» نفسه قد تغير فأصبح لا يتحدث إلا همساً، همس مؤدب خافت كمن يتوقع دائماً أن ترفض طلبه. . ثم هاتان النظارتان ـ لا أقصد النظارات الطبية، أقصد تلك التي تركب للخيل لكي

لا ترى إلا في اتجاه واحد ـ هاتان النظارتان الخفيتان اللتان لا تجعلانه يرى إلا ما أمامه، وما أمامه فقط. أين هذا من «شوقي» المتلفت دائماً حوله، الباحث المنقب في كل شيء من أمور الدنيا والناس، الغاضب الثائر إذا وقعت عينه على الخطأ، المهدد بالويل والتغيير وإخضاعها لما يريد؟

شيئاً فشيئاً طوال شهرين أو ثلاثة عملنا فيها معاً، أيقنت أن محاولاتي لاستثارة «شوقي» البطل داخل هذا «الشوقي» الجديد محاولات لا فائدة منها. بل حتى أملي في أن يخرج عن صمته مرة ويحدثني عما لاقاه خلف القضبان تضاءل وانعدم تحت تأثير الموقف الواحد الغريب الذي كان يلتزمه. وكان لا بد أن يأتي اليوم الذي أبدأ أؤمن أن «شوقي» لم يتغير فقط، ولكنه أصبح بالتأكيد انسانا آخر غير شوقي الذي عرفته. كم من مرة ضبطته يتآمر مؤامرات صغيرة في القسم ليتاح له مثلاً أن يحظى بعملية «فتق» أكثر مني ومن زملائه! كثيراً ما سمعته ينافق «النائب» الذي لا يكبرنا في العمر أو في الوظيفة إلا بعام واحد من أجل أن يقرضه كتاباً أو يدعه يلقي نظرة في «المنظار»، ويكذب.. يكذب باستمرار وبلا سبب وبطريقة ساذجة مكشوفة تدفع للاشمئزاز. ولم أصدق الاشاعة التي أطلقتها الحكيمة عليه إلا بعد أن رأيت بعيني.. رأيت كيف يحضر المرضى في «كشك» الغيار ويساومهم مساومات رخيصة على أن «يتوصى» بهم في العلاج، ويأخذ في مقابل هذا بضعة قروش هي كل ما يمتلكه المريض الراقد في عنبر المستشفى.

أكثر من هذا لاحظ عليه زملاؤنا في «بيت الامتياز» الذي نقيم فيه، أنه ما من مرة دخل فيها حجرة أحدهم إلا واختفى بعد خروجه شيء من محتوياتها ـ أي شيء ـ ولو كان فرشاة أسنان قديمة، حتى أطلقت في

البيت حكمة تقول: إذا حياك شوقي باليمين فتحسس محفظتك باليسار وعلى عادة الأطباء حديثي التخرج كثيراً ما عقدت مؤتمرات لمناقشة حالة شوقي.. وكثيراً ما أجمع الكل على أنه مصاب بالكليبتومانيا أو جنون السرقة.. وكان عسيراً عليّ أن أشهد مؤتمرات كتلك وأن أرى شوقي الذي طالما قدره هؤلاء الأطباء أنفسهم وهم طلبة باعتباره الزعيم والمكافح يصبح ليس محط سخريتهم فقط،وانما محط اشمئزازهم واحتقارهم أيضاً من بين مائة طبيب أو يزيد يصبح هو، الزعيم، أحقرهم وأصغرهم شأناً.

لا أريد أن أسرد كل ما كان يفعله شوقي في سنة الامتياز أو بعدها.. العيادات التي افتتحها والنصب والابتزاز والنظرة الأفعوانية الغريبة التي كان ينظر بها إلى المرضى والناس، وكيف قاطع عائلته بعد التخرج وأبى أن يساعدهم بمليم، وكيف، ومن، والطريقة البالغة الشذوذ التي تزوج بها والتي حصل بها على الدبلوم، و «سعى» حتى عين في هذه الوظيفة في مكتب حكيمباشي المحافظة. لا ولا بأي أسلوب وحشي كان يعامل رواد المكتب، وخاصة رواده من العساكر طالبي الإجازات.. شاهدت مرة عسكرياً يبكي أمامه بدموع حقيقية، يستحلفه ويرجوه ألا يكتب أنه متمارض حتى لا يحاكم ويخصم من مرتبه أيام. ولا يفعل الرجاء والإلحاح، ولا تفعل الذلة والدموع أكثر من أن تجعل شوقي يبتسم وتومض ملامحه في غبطة، خطورتها أنها كانت حقيقية أيضاً.

السؤال الذي لا بد أن يلح على القارىء هنا.. لماذا بعد كل ما ذكرت ظللت مبقياً على علاقتي بشوقي؟

والإجابة صعبة، فصحيح كان شوقي قد تحول من زعيم طلبة إلى كائن مزعج مؤذ أصابني شخصياً بمثل ما أصاب غيري من ازعاج وإيذاء

ولكنني لم أكن أرى المسألة هكذا، ولا أعتبرها حالة «كليبتومـانيا»، ولا تغييراً في شخصية شوقي تسبب عن فترة سجنه. كنت وكأنما أرفض أن أصدق أن بضعة شهور من السجن تحيل إنساناً ـ مهما كان ـ من النقيض إلى النقيض. وكأنما أرفض أن أعتقد أن شوقي القديم قد مات وانتهى ولم يبق منه إلا ابتسامة واسعة تدرب على استعمالها، ابتسامة مهما بالغ فيها تبدو دائماً فاترة صادرة عن الشفتين فقط. يقول بها للمـريض في عيادته الخاصة أهلاً وسهلاً، ولزوجته صباح الخير، ويرد بها على تحية عبد الله التومرجي، ويخفي بها ملامحه إذا أحرجته بسؤال. . ابتسامة في جملتها تحمـل ملخصـاً وافياً لحياة ناجحـة بالمعنـى الفاتـر الواسـع السطحـي للنجاح. . لم أكن أرى المسألة هكذا! كنت لا أزال أؤمن أن شوقي لم يضع ضياعا نهائياً وأن كل ما يبدو من تصرفاته إن هو إلا انعكاسات قشرية محضة صادرة عن قشرة صدأ ألم بشخصيته، وأنها آجلاً أم عاجلاً ستزول والمسألة تتوقف عليّ وعلى مجهودي معه. باستطاعتي أن أتـركه وشأنـه يغرق ويتلاشى، وباستطاعتي أن أظل محتفظاً بعلاقتنا أحاول بلا يأس أن أعود به مرة أخرى ذلك الكائن الثائر النافع لشعبه وبلده. كان الواقع يؤكد لي أن شيئاً خطيراً قد حدث. . أنظر إلى شوقي وأدقق فيه شخصيته فأحس وكأنه مجروح، لا ليس جرحاً صغيراً في الصدر أو الـرأس وإنمـا جرح جرحاً شاملاً من قمة رأسه إلى أظافر قـدمي شخصيته،وأن ما أمامي ليس شوقي، ولكنه الندبة الضخمة التي تخلفت عن الجرح. .أنظر إليه وأزداد عناداً وايماناً بأن كل خطأ ممكن إصلاحـه وكل جرح ممـكن أن يشفـى ويندمل. ولم يكن مبعث تفاؤلـي هو أملـي الخـاص فقـط. هنـاك في الغلاف الخامس أو السادس لنفس شوقي من الداخـل كانـت منطقـة لا أستطيع أن أحدد أبعادها أو كنهها بسهولة، كل ما أستطيع قوله عنها أنها

كانت منطقة استماع ربما، أو رغبة عارمة مخنوقة للاستماع لا تجد لها متنفساً إلا من خلالي، أو على وجه أصح إلا من خلال تلك الزيارات المتباعدة التي كنت ألقاه فيها، في عيادته أحياناً وفي مكتبه بالمحافظة أحياناً . . هناك حيث نجلس طويلاً نتبادل أتفه الأحاديث عن مصير الزملاء والكادر الجديد، ولكن كان يحدث دائماً أن يلتفت شوقي مرة إلى الناحية الأخرى وكأنما يخفي علي بهذه الحركة انفعاله، ويسألني عن الحالة سؤالاً أحس معه بتلك المنطقة جوعى تكاد تتشقق ظمأ ولهفة . . وما كنت في اجابتي آتي بالنادر أو الجديد، كنت أتحدث ذلك الحديث الذي نجيده جميعاً في السياسة بأنواعها وأشكالها، وأحلل ما يجري منها في الداخل والخارج . . ومن الصعيد الشخصي المحض إلى صعيد القوى العالمية الرحبة المتصارعة في عالمنا، ورغم أن شوقي كان يرفض دائماً أن يتحدث هو أو يعلن، بل ويتعمد أن يبدو حين أتحدث أنا وكأن لا صلة له بالموضوع أو الحديث، أو ليس له علاقة مباشرة أو غير مباشرة بكل ما يمت إلى كائن أو قوة خارجة عنه. رغم هذا إلا أني كنت ألحظ دائماً أنه رغم كل تمثيله يستمع، ويستمع بلذة ملهوفة ينجح في اخفائها معظم الأحيان. . حتى إذا سكت استثار سكوتي بسؤال جانبي، أو بجذبة نفس من سيجارة أخرى يشعلها ويبتلع دخانها بطريقة من يود أن يطفىء بدخانها ظمأ بلغ درجة الحريق ـ هو الذي طالما ألقى عليّ ونحن طلبة المحاضرات في مضار التدخين ودلالته الخلقية المشينة، هو الذي أصبحت أظافر يمناه ويسراه والعقد الأخيرة من أصابعه بنية محترقة من لون التبغ. وتطول الجلسة وأنا أفضفض عن نفسي بالحديث، وشوقي يفضفض عن نفسه في حذر عظيم بالاستماع. وكثير جدا ما كنت أتأمل المشهد بروح منفصلة محايدة فأرانا فردين من أفراد جيلنا الحائر الذي

حمل الرسالة فوق كتفيه حتى كاد أن يسحقه الحمل، فردان جالسان في حجرة كشف مغلقة، أو في مكتب حافل بالروائح، ندخن بكثرة وكأنما ننوي الانتحار مدخنين، ونشحن المكان بسحب متكاثفة لا نعرف أن كانت من احتراق السجائر أم من احتراق الصدور. ولكنا مع هذا لا نكف بل نمضي نحرق اللفائف وتحرقنا، ونملأ الجو بدخان يضغط على صدورنا لتخرج دخاناً أكثر، وأملنا أن ينجح الضغط المتكاثف المتزايد في افراغها مما تحفل به.. من كتل الحديد والرصاص والمآسي المترسبة في أعماقنا تجذب أرواحنا إلى أسفل وتحني ظهورنا قبل الأوان. ونحن اثنان أبعدتنا المقادير عن جيلنا كما أبعدت جيلنا عن بعضه، وقذفت بنا داخل هذه القماقم المتداخلة من الجدران والأدخنة والمخاوف، وبيننا مطاردة لا تنتهي. أنا ـ الغريق ـ أحاول انتشال شوقي وجذبه، وشوقي يرفض مذعوراً أن ينجو، وأنا أواصل محاولاتي وكأنما تبلورت أهدافي ومعتقداتي في محاولة إنقاذه، وهو كأنما تبلورت رسالته في محاولة إغراق نفسه أكثر، وإذا استطاع اغراقي أيضاً، ويا للسخرية! لقد كنا بالأمس نعمل، وأملنا مؤكد أننا سننقذ الشعب كله، فإذا كل منا اليوم غير قادر أن ينقذ نفسه بالساعات كنا نجلس هكذا لا ننتبه إلى الوقت إلا بمؤثر من الخارج، بليل يهبط أو تليفون ملح يدق، أو حدث غير عادي يقع، كتلك الجملة التي نطق بها عبد الله التومرجي وهو يشير إلى الدوسيه.. جملة لم أكن أعرف أنها ستقودني وستقود شوقي إلى هذا الذي كان ينتظرنا بعد ظهر يوم الصيف ذاك.

٤

لم يقل عبد الله أول الأمر أنه العسكري الأسود.. كل ما قاله رداً على استفسار شوقي:

ـ ده يا بيه مشكلته معقدة وحالته حال.. ما لنا احنا بيه ما تسيبه للحكيمباشي لما ييجي الصبح يعرف شغله معاه.

كان شوقي في ذلك الوقت مشغولاً بإحدى عملياته الصغيرة.. كان يبحث في دفتر الإشارات التليفونية التي ترسل للمكتب لتطلب توقيع الكشف على العساكر أو الضباط المرضى، وكان يفعل هذا لحكمة ومصلحة.. فقد جرت عادته أن يجرد الإشارات ليختار منها واحدة يكون العنوان المذكور فيها قريباً من عيادته إذا كان يريد الذهاب للعيادة، أو من بيته، ويختارها هكذا لكي يوفر على نفسه ركوب الترام أو الأتوبيس أو استعمال عربته الخاصة، إذ في هذه الحالة تقوم عربة المكتب الحكومية «الاستيشن واجن» بتوصيله خلسة بعد الانتهاء من المهمة.. في محاولة بحثه عن الإشارات عثر على الدوسيه، وبسؤال عبد الله عنه تطوع الرجل بذكر حكاية العواء والهبهبة، وما لبث أن أعقبها بتلك النصيحة.. ونصائح عبد الله لم تكن مجرد نصائح.. كانت في معظم الأحيان أوامر واجبة النفاذ، إذ رغم أنه تومرجي المكتب الذي بالكاد يجيد القراءة

والكتابة إلا أنه لطول عهده بالعمل كان هو الحافظ الوحيد تقريباً لكل لوائح وقوانين القسم الطبي، وبالتالي المرجع الأساسي لحل المعضلات إذا نشبت معضلات، وفتواه هي النافذة إذ كان يثبت في النهاية ومهما ثار الحكيمباشي والأطباء عليه أن رأيه هو الصحيح، وهو الذي ينطبق تماماً مع كل ما جرت به اللوائح والقوانين. . وشوقي بالذات كان لا يناقشه إذ كان أخوف ما يخافه أن تحل الكارثة مرة فيخطىء في حق لائحة من اللوائح أو قانون من القوانين، هو الذي بدا عدواً لكل قانون، أصبحت المسئولية هي عدوه الوحيد اللدود يفعل المستحيل ليتجنبها، ومستعد أن يسير أميالاً إذا كان في السير ما يجنبه فقرة واحدة يتحمل فيها درهم مسئولية. . إلى درجة كان يخيل إلي فيها أحياناً أنه يود لو يشف جسده ويشف حتى يصبح كائناً أثيرياً لا يتحمل مسئولية ايجاد مكان له فوق سطح الأرض، أو نظرة يلقيها عليه انسان. ومع هذا تعجب لتمسكه بالحياة ونهمه إلى الدنيا بطريقة يكاد معها أن يبتلعها ـ لو استطاع ـ داخل جوفه.

أي كائن بالغ التعقيد كان قد أصبحه شوقي!

المهم، انتهزت فرصة النقاش الدائر بين عبد الله وشوقي ومددت يدي وتناولت الدوسيه، ملف خدمة ذلك العسكري. . تناولته وقد انبثق في نفسي حب الاستطلاع الكامن تجاه هذا النوع من الدوسيهات. كثيراً ما رأيتها في أقسام المستخدمين، وقد دمغت بكلمة «سري جداً»، وكثيراً ما أردت تقليبها، ووقف النظام الذي يقضي بألا يطلع عليها إلا الرؤساء ـ وفي حالات الضرورة القصوى ـ حائلاً بيني وبين ما أريد. . رحت أقلب صفحات الدوسيه الكثيرة أكثر من مائتي صفحة في أولها شهادة ميلاد وتوافق مضحك أن أجد أن عباس محمود الزنفلي صاحبها وصاحب الدوسيه قد ولد في نفس العام الذي ولدت فيه، والذي يسبق مولد شوقي

بأشهر. كنت أتصور صاحب الملف عجوزاً أو على الأقل في الأربعين فإذا به لدهشتي من نفس جيلنا الحائر التعس. مضيت أقلب الصفحات.. ما كان أشبه الملف بكتاب ضخم، عن حياة انسان.. كان واضحاً أنها من أولها مضطربة غير مستقرة لم تمش أبداً على الصراط المستقيم. خدمته نصفها الأول كله جزاءات تتراوح بين الخصم والتكدير وتقارير تمس السلوك (رغم الشهادة المرفقة بالمسوغات والتي يقر فيها اثنان من الموظفين أنه حسن السير والسلوك). ثم فصول أخرى تتعدد فيها حركته وتكثر التنقلات والانتدابات، وينتهي بذلك الخطاب المتوج بشعار مجلس الوزراء الذي يطلب نقله إلى حرس الوزراء. ومن تلك الصفحة لا خصوم ولا انذار، وإنما تفاجأ بقرارات بعلاوات، ثم أمر بترقيته إلى رتبة أومباشي، بعدها قرار آخر بترقيته استثنائياً إلى شاويش، ثم صورة من خطاب شكر وتقدير من وزير الداخلية. ثم صورة قرار آخر بمنحه نوط الواجب من الدرجة الثانية «تقديراً للجهد المشكور الذي بذله في أداء واجبه والتفاني في خدمة مصالح الدولة العليا».

ولكن هذا كله لم يستغرق من الدوسيه إلا أقله، إذ أغلب الصفحات كانت ما تلت.. وكلها طلبات بإجازات مرضية، وخطابات متبادلة بين الحكمدارية ووزارة الداخلية وقومسيون طبي المحافظة مؤرخ أولها في نوفمبر ٤٩ وآخرها بعد سنوات. وبالتحديد في اليوم السابق لذلك اليوم الذي كنت فيه مع شوقي في مكتبه، ورد خطاب أرسلته المحافظة إلى الحكيمباشي تطلب فيه توقيع الكشف الطبي على نفس عباس محمود الزنفلي لاثبات عجزه الكامل تمهيداً لفصله من الخدمة.

وما كدت أنتهي من اغلاق الصفحة الأخيرة حتى كانت أذني تلتقط

أخريات الحوار الدائر بين شوقي والتومرجي، والأخير يقول وكأنه يهم باطلاعه على سر:

ـ عارفشي حضرتك عباس محمود الزنفلي يبقى مين؟

وقبل أن ينطق شوقي أو يسأل، وجدت عبد الله يقول:

ـ ما هو ده اللي كانوا بيسموه العسكري الأسود يا بيه. حضرتك ما سمعتش عليه واللا ايه؟

ولم يجب شوقي.. كل ما حدث أنه ثبت على وضعه وثبتت ملامحه على تعبيرها السابق.. لم يقل شيئاً ولم يدهش أو يستنكر، ظل هكذا وقتاً ثم دون أن يغير من وضعه أو يتحرك شيء في ملامحه مد يده وتناول مني الدوسيه ومضى يقلب صفحاته صفحة صفحة وبامعان تقرأ عيناه كل سطر.. وأيضاً دون أن يختلج وجهه أو لسانه أو وضعه بانفعال. كم من الوقت مضى على شوقي وهو يقرأ، الله وحده يعلم! إذ كنت في الحقيقة مشغولاً عن الوقت بما هو أعظم، بالاهتمام البالغ الذي لفرط خطورته غير باد على شوقي ،ولكنك تحس وجوده، تكاد تلمسه، تعتقد لا بد أن شوقي تحول إلى كتلة اهتمام رابضة تقرأ وتقلب الصفحات.. أول مرة في علاقتنا طوال سنين أراه يكرس نفسه كلية لشيء، فنفسه دائماً كانت كالأشعة المارة من خلال عدسة مقعرة لا تسقط على شيء بذاته أو لذاته ولا تتركز في نقطة، وكلما حاولت تبددت وتفرقت، وكأنما هناك تنافر مشحون بين أجزائها يمنعها أن تلتقي أو تتوحد. كان دائماً معك ومع نفسه ومع أشياء أخرى لا تمت بصلة إلى الزمان أو المكان.

٥

الحقيقة كنت أشعر بسرور صبياني الطعم وأنا جالس بجوار شوقي في المقعد الخلفي للعربة الحكومية، وسائقها يستغل سترته الرسمية في ارتكاب ما شاء من مخالفات، وفي المضي بسرعة مجنونة غير حافل بشتائم المارة والسائقين، أو مجيباً عليها في سره ـ تأدباً ـ بأقبح منها. وبجواره عبد الله التومرجي لا يكف عن الحديث، ولا يكف عن الحاحه المقيت بأن نترك الموضوع للغد وللحكيمباشي والضيق بالمهمة باد عليه. وكأن الكشف على زميل له «لتشريكه» وفصله مسألة تزعجه، ويأبى أن يشهدها أو يكون طرفاً فيها. . والصامت الوحيد تماماً فينا كان شوقي. كان قد نحى الابتسامة التي كان يعقم بها ملامحه كي لا تنم عن انفعال أو حماس، ومضى ـ ربما للمرة الأولى وأنا معه ـ يفكر ولا أظن أنه كان يفكر، ولكن عقله بالتأكيد كان يقوم بعمل ما في تلك الدقائق التي استغرقتها الرحلة إلى «قلعة الكبش» حيث كنا ذاهبين. . عمل جاد خطير ما في ذلك شك، تحس إذا نظرت إليه أنه يحرك أعماقه ويرجها بطريقة تئن معها أنيناً صامتاً وتتلوى، تلك التي قد ظننت أنها مثل قلب الشجرة أو النخلة حين يجف قد يبست من زمن وماتت. . .

ولم يكن سروري بغير مبرر. كنت رغم كل ما كتبته الجرائد عن

العسكري الأسود لا أكاد أصدق احتمال وجوده الحقيقي، بل حتى لم أكن قد صدقت عبد الله وهو يؤكد لنا أن«عباس»هذا هو العسكري الأسود. لأمر ما كنت أوقف ايماني بوجوده وحقيقته إلى أن أراه رأي العين وأحادثه ولهذا ارتضيت، بل طلبت من شوقي أن أصحبه، ولم تكن المرة الأولى التي أصحبه،ولكنها الأولى التي أطلب فيها أن أصحبه. ولم يكن الأمر مجرد حب استطلاع، كان أكثره أن العسكري الأسود، مثله مثل السجون والإرهاب والأمجاد والكفاح المسلح، علامة رئيسية من علامات جيلنا كيف تفوتني رؤيتها؟

أردت أن أسأل شوقي عن حقيقة دور العسكري الأسود ـ هو الذي سجن ولا بد أن لديه الحقيقة. أردت رغم كل تجاربي السابقة الفاشلة معه، إذ في كل مرة كان يرى السؤال يتراقص على لساني أو يتخذ شكل الكلمات، كنت أفاجأ بنظارة الخيل التي تهبطفي الحال ومن مكان خفي وتجعله يشغل نفسه مشغولية عظمى بما في يده أو بالمريض الذي يسحب له السائل من بطنه. وبتلك الطريقة يبدو وكأنه ينكر، ليس علي وإنما على نفسه، أنه سمع مجرد السؤال. . هذه المرة ورغم الظرف الحاد تنكر أيضاً للسؤال ولاذ بالعملية الغريبة الدائرة في عقله. ولكني لم أيأس أعدت السؤال وألححت، وظللت أبسطما أريد وأسهله إلى الحد الذي أصبح مجرد أن أعرف أن كان قد قدر لشوقي في أثناء سجنه أن يرى العسكري أو يمر به. وراحة عميقة ممزوجة بالدهشة والوجل والاستنكار، وأوله استنكار نجاحي، هو ما أحسسته وشوقي أخيراً ينطق ويجيب:

ـ أيوه. . حصل.

راحة كراحة وكيل النيابة حين يظفر، لا بعدليلة،وإنما بعد مئات

الليالي، بعد سنين، ببارقة كلمة ينطقها شاهد، أو يلمح شبح اعتراف
وفي الحال سألته:

- يعني كلام الجرائد كان صحيح؟

قال شوقي بعد وقفة تردد:

- جايز. . إنما العسكري الأسود كان بالنسبة لنا شيء تاني. . شيء غير الحاجات الجنسية والكلام الفارغ اللي سمعت عليه. . شيء تاني خالص.

وهذا الشيء الثاني هو ما رحت مستعملاً كل مقدرتي على الاستدراج أسأل شوقي عنه، وأزداد الحاحاً. ساعتها لم أظفر منه إلا بكلمات قليلة ومعظم الأحيان أصوات مدغومة صادرة عن انسان مشغول بما هو أخطر مما تنقله له أذناه، أو كل حواسه. ولم يقدر لي أن أعرف إلا فيما تلا ذلك من أيام، وإلا من النتف المتفرقة التي استطعت أن أختلس النظر إليها في البحث السري الذي انشغل شوقي بكتابته وتعمد أن يخفيه عني. ولا أريد أن أصور الأمر على أن ما عرفته كان التفسير الكامل لسلوك شوقي الغريب بعد خروجه من السجن، فالحكاية حينئذ تبدو ساذجة كحكايات الأفلام وتمثيليات الإذاعة. انسان يدخل سجناً بشخصية ويخرج بشخصية أخرى مختلفة، ويظل سر هذا التغير يؤرق صديقاً له إلى أن يبدأ شيء يحدث وتنفك العقدة، ويتكلم البطل ويفسر اللغز وتنتهي المشكلة.

ليت الانسان كان كذلك، ليته كان كمسائل الحساب أو تمارين الهندسة يخضع لقانون واحد أو تفسره بضع نظريات. . ليته لم يكن ذلك الكائن الذي لا تزيدنا معرفتنا به إلا تصعيباً لمهمة فهمه، وأي حقيقة نكتشفها عنه ويخيل إلينا أننا بها وصلنا إلى سره لا تفعل أكثر من أن تضيء

الطريق إلى مناطق كنا نجهلها. . مناطق في حاجة إلى اكتشافات أخرى لا يفعل اكتشافها إلا أن يزيد من حاجتنا لكشف حقائق أكثر. . التغير الذي حدث لشوقي لم يكن من ذلك النوع الذي يرجع لسبب معين أو وراءه سر، ولم يكن سكوت شوقي وعزوفه عن الحديث في السياسة أو مزاولتها مثلاً بسبب عقدة نفسية تكونت له أو خوف. كان ما حدث لشوقي شيئاً آخر، شيئاً يشبه خروج الفراشة من دودة الشرنقة، أو تحول الخشب بفعل النار إلى رماد. . وليس معنى هذا أيضاً أنه كان قد تحلل وفسد بالاختصار كنت قد بدأت ـ خاصة في الفترات الأخيرة ـ أتبين أني كنت على خطأ، وأن محاولاتي «لانقاذ» شوقي كان لا يمكن أن تأتي بنتيجة، إذ كنت أقوم بها باعتبار أن ما حدث لشوقي كان مجرد تغيير أصابه، من الممكن جداً أن يشفى منه. . الحقيقة بدأت أدرك أنها غير ما كنت أتصور تماماً، فشوقي الذي دخل السجن لم يخرج منه، وإنما الذي خرج شخص آخر له مزايا ومضار أخرى،وأقول «شخص»كنوع من التبسيط لا أكثر. فالذي خرج علينا كان كائناً غريباً أخطر ما فيه أنه لا يختلف كثيراً عن شوقي الذي دخل، ولا عن ملايين البشر الذين كان يحفل بهم سطح الأرض حين انضم إليهم شوقي بعد خروجه، فهو يتكلم مثلهم ويغضب ويدبر أمور المستقبل ويحب، وحتى حين تتحاشى الخوض في مواضع بعينها لا يختلف عنهم. . الفرق لا يتضح إلا هناك وبعد طول دراسة ومعاشرة واهتمام غير عادي بالموضوع. . هناك حيث تدرك، مثلما أدركت، أن الخلاف بين شوقي الجديد وبقية الناس يكمن عميقاً، أعمق من طبقات التصوف، في الدافع ربما، هناك تدرك أن شوقي وأن ظل في ظواهره بشرا، فهو في حقيقته لم يعد يمت إلى البشر ولا إلى أنواع

الآدميين المتعارف عليها من عقلاء أو مجانين أو مرضى أو شواذ باستطاعتك أن تقول أنه خرج ليكون نوعاً جديداً قائماً بذاته، إذ قد خرج ليحيا بدافع جديد تماماً على الجنس البشري. . فهو لا يحيا ليتكاثر أو يتطور، وإنما دافعه للحياة كان أن يهرب ويفر، وكأنه لم يعد يرى في الجنس البشري كله سوى جن وعفاريت، همهما أن تنقض عليه وتعقره وتفتك به. هم جميعاً شياطين، وهو وحده الإنسان. أو هم جميعاً بشر وهو وحده الشيطان الذي يعادونه ويتربصون به ولن يهدءوا حتى يقضوا عليه. . ومأساته كانت أن عليه أن يظل يحيا على ظهر الأرض مع هؤلاء الذين يخاف منهم ويرهبهم. عليه أن يعاملهم ويتصرفوا في أمره ويتصرف في أمورهم ويصادقهم ويزاملهم، هو الذي ينتفض رعباً منهم. لم يعد لحياته خطة أو ارادة أو هدف بعيد يسعى لتحقيقه ويدفعه للبقاء حياً، دافعه للبقاء أصبح أن يهرب، ليس مجرد هرب بسيط يمكنه معه أن يتنصل من تبعات الإنسان العادي فيطرحها جميعاً ويسير كالمجاذيب بلاد الله لخلق الله. أبداً! عليه أن يهرب وهو موجود بينهم. الفرار حينئذ يصبح عملية معقدة بالغة التعقيد قد تستغرق العمر بأكمله. ما أغربه من كائن فقد أمنه البشري وكأنما عقره كلب من نفس الجنس، وخيل إليه أنه نفذ بجلده من العقرة الأولى فجند نفسه وحياته ليتحاشى العقرة الثانية وأصبح لا يرى في البشر غير قطيع من ذئاب أو كلاب أو شياطين لا يستطيع أن يهرب من أرضها إلى كوكب آخر، أو يعتزلها في جزيرة نائية. قطيع يتربص به في كل مكان، عليه أن يلقى أفراده في كل وقت، ويحادثهم ويربط مصيره بمصيرهم، وعليه أن يفعل هذا دون أن يبدو عليه الذعر عليه أن يسير بينهم كما تمر بالمكان الذي يعج بالوحوش الخطرة ترتجف من الذعر، آذانك منتصبة تتلقى أوهى الأصوات، وكيانك كله مهيأ للجري

في أية لحظة. ومع هذا فعليك أن تخفي كل ما بك، عليك أن تسير وتحيا دون أن يبدو منك أقل الخوف. تسير طبيعياً جداً مطمئناً جداً تؤكد بنظراتك وتعبيراتك أنك غير خائف أومهتم، وأنك مبتسم وأنك فرحان أحياناً وغاضب أحياناً أخرى، وأنك مثلهم بشر، أو مثل الكلاب كلب. بل حبذا لو بدوت أقوى وأقدر وأكثر ثقة بنفسك وقواك.. حياته لا هدف لها ولا خطة ولا ارادة لهفيها، ولا يريد من خلالها أن يصل إلى أي مأرب بعيد أو قريب، إذ مأربه الوحيد أن يتجنب الخطر المتربص به كل لحظة، فيحيا اللحظة بلحظاتها، ويبني حياته لا عن طريق أعمال يضعها فوق بعضها ليكون هرماً شخصياً، ولكنه يبنيها إلى أسفل.. يحفرها تحت الأرض كجحور متشعبة ملتوية معقدة كلما أحس في جحر منها بالخطر فر وانطلق يكون جحراً آخر. وغاية وقتية سفلية هروبية أخرى.. أنه يعرفك ويقيم معك الصداقة أو الزمالة امعاناً في الهرب منك، ويجاذبك أطراف الحديث ليلهيك عن نفسه، وينافقك أو يصنع معك المعروف لكي يرشوك ويتزوج كي يهرب من مسئولية عدم الزواج، ويعمل في قومسيون طبي المحافظة لكي يفر من البوليس والمباحث حتى ولو كان الفرار إلى قلب البوليس. وهو لادراكه أنه محاصر بالجنس الخطر في كل زمان ومكان يواجهه وحيداً، إذا صرخ أو استغاث فلن يخف أحد لنجدته. بالعكس سيدركون جميعاً أنه وقع ويلتهمونه حياً. لهذا فاعتماده الكامل على نفسه هو أصدق أصدقائه، وصدره أنسب مكان لأسراره، وعليه أن يعمل جاهداً لكي يبقى أكبر جزء من نفسه، بل كل نفسه ورغباته وحذره وخوفه بعيداً جداً عن الأنظار، داخل نفسه. وعليه أيضاً ألا يبدو وكأنه يخفي شيئاً حبذا لو بدا كثيفاً لا يظهر منه شيء على الاطلاق! حبذا لو احتوى كل دنياه داخله واختفى بكل ما يحتويه عن الدنيا! كائن غريب ليس له نفسية

المجرم مثلاً، فهو لا يكره الناس أو يحقد عليهم ولا يريد أن يؤذي أحداً أو حتى كالمعقور المصاب بداء الكلب البشري همه أن يعقر الآخرين. أبداً، همه فقط أن ينجو، وإذا اضطر لايذاء أحد فهو يفعلها بخبث شديد ويختار بعناية تامة ضحيته. ولا يفعلها انتقاماً أو ليخيف بها أحداً ممن يحيطونه من المردة والجن، ولا حتى يقوم بالايذاء دفاعاً عن نفسه كما يفعل أي مجرم. أنه يؤذي فقط لكي يموه على من حوله من جان وكلاب ويثبت لهم انه جني هو الآخر. ليتنكر في زي الشياطين عسى أن ينجح في إخفاء حقيقة نفسه عن الأنظار، تلك الحقيقة التي لا يعرفها سواه. آه لو عرفوها! آه لو أدركوا رغبته العارمة في البقاء حياً! رغبة أكبر من رغباتهم مجتمعين، رغبة عارمة في الحياة يؤرقها دائماً الخوف الهائل المجنون من الأحياء.

ذلك هو الكائن الذي خرج من السجن وله نفس الاسم «شوقي». الكائن الذي له كل مظاهر البشر، وفي قرارة نفسه لا يمت بصلة إلى البشر، بل يستعمل عقله البشري وكل ما منحته الحياة للانسان من مزايا ليفر من البشر، ليبعد، ليختلف جذرياً عنهم، ليبذل طاقات خارقة كي يعمق هذا الاختلاف بمثل ما يبذل من طاقات خارقة أخرى كي يخفيه وكي يبدو في الظاهر أكثر شبهاً بغيره من الناس، وأقرب إلى البشر من البشر نفسهم.

من حقهم أن تسألوني كيف عرفت، وكيف وصلت إلى حقيقة شوقي واكتشفتها هكذا؟ ولن أبالغ وأدعي أني أدركت كل هذا بنفسي ومجهودي فصحيح أنني بذلت جهداً خلال معرفتي الطويلة به كي أخمن أشياء وأبحث وراء المعاني المختفية لكلماته، وأدقق في تصرفاته التي كانت ـ مهما أجاد في اضفاء الأقنعة الطبيعية عليها ـ تتناقض أحياناً وتتضارب

وينتج عن تضاربها شرارات تضيء وتدفع المهتم إلى الاستقصاء والتنقيب وجمع الدلالات والخروج بنتائج . .

صحيح كان شيء كثير من هذا قد حدث، ولكن الصورة لم تكتمل في خاطري، ولم أبدأ أدرك وأعي أني كنت في ظنوني وتخميناتي على حق، إلا عن طريق لم يحدث أن خطر ببالي أبداً، من مصدر لم يكن بينه وبين شوقي أدنى صلة. فهل يمكن أن يتصور أحد أن توجد صلة بين الدكتور شوقي وبين «نور» زوجة عباس محمود الزنفلي، أو على وجه أصح ما روته نور عن عباس؟ أيمكن أن يتصور أحد أنه خلال قصة تحكيها عن زوجها تبدأ الخيوط المهملة في ذهني والناقصة والمنسية تتكامل وتنتظم وتتضح، بحيث ما أن تنتهي حتى أكون قد وصلت إلى التصور الكامل لذلك الكائن غير البشري الذي أصبحه شوقي؟!

ولكنها الحقيقة، ولنعد إلى ما حدث . .

٦

وإن يكن شوقي قد لاذ ساعة أن سألته، بالعملية الغريبة الدائرة في عقله، إلا أني في مرات أخرى بعد حادثة اللقاء ظفرت من بعض زملائه القدامى الذين التقيت بهم صدفة عنده.. ظفرت بأشياء، فيها الغموض أيضاً. ولكنها رغم غموضها استطاعت أن تحدد الملامح الرئيسية لدور العسكري الأسود في حياة شوقي وزملائه.. دوره الخطير الثاني الذي لا يمت بصلة إلى الاشاعات الجنسية التي أطلقتها بعض الصحف عليه حين انكشف أمره، وبعد زوال حكم الارهاب وبداية مراجعة الجرائم التي ارتكبت في ظله. كان عمل عباس محمود الزنفلي هذا أن يضربهم.. يضرب بعضهم لكي يعترف، وآخرين لمجرد الضرب وهد الكيان.. الضرب بمختلف أشكال الضرب، بالعصى، بالكرابيج، بالحذاء بالنبوت، باليد العارية المجردة. ولم يكن أسود كما وصفته الصحف وأفاضت، كان فقط غامق السمرة ومن الصعيد، وكان مجرد مرآه بالهالة المحيطة به من أبشع القصص يثير الذعر في القلوب. كان طويلاً أطول من قامة الكثيرين،ولكنه ليس فارع الطول، وكان يبدو دائماً مزهواً بنفسه وبقوته حتى على زملائه. إذا سلم على الواحد منهم ظل يضغط على يده ـ لمجرد الضغط ـ حتى يتأوه صارخاً ويجثو. وحين يضرب كان من يراه

لا يظن أبداً أنه يمت إلى الانسان أو الحيوان بصلة، بل ولا حتى للآلة. فالآلة لا تبدو على وجهها المتعة المتوحشة وهي تضرب. ويا للحظات قدومه ودخوله العنبر ودوران مفتاحه في القفل، كانوا يعرفونها تماماً وباستطاعتهم أن يميزوها عن غيرها حتى في الحلم، ويستيقظون ـ رغم خفوتها ـ على وقعها. ومع كل دورة من دوراتها تدور دوامات سريعة في صدر كل منهم يسقط فيها قلبه ويهوي.. ترى من عليه الدور؟ صوت خطواته وهو يجتاز الفناء الأسفل! التسمع الرهيب لو قعها! آذانهم وكيف تعلمت، علمها الذعر الأعظم، أن تتركز فيها الحياة كلها ويتضخم دورها ليصبح كل العقل، ولتستطيع أن تميز بين الخطوات الذاهبة إلى زنزانة ٧ في الدور الأول والأخرى المتجهة عبر الفناء إلى السلم حيث الدور الثاني. ومن أول وقع لأول خطوة على أول سلمة عليها أن تعرف إلى أي دور في نيته أن يصعد. فإذا اختار الدور عليها أن تدرك في ومضة خاطفة أي الزنازن يقصد، كي تعد نفسها إما إلى الرعب الهائل المقيم، أقصى درجات الرعب، وإما إلى استرخاءه مرعوبة هي الأخرى وتنهيدة حمداً لله.

ويا لخسة ضربه! في الحياة العادية حين يتشابك الناس ويتضاربون ليس هذا بضرب، فاحساس المضروب أن باستطاعته أن يرد الضربة يخفف كثيراً من وقع ما يتلقاه، والألم الذي ينتج عنها يتبخر في الحال ويستحيل إلى حافز يدفع صاحبه للهجوم والانقضاض. بالاختصار أنت لا تشعر بالضرب حين تكون حراً أن تردّه.. أنت تشعر به هناك حين يكون عليك فقط أن تتلقاه ولا حرية لك ولا حق ولا قدرة لديك على ردّه.. هناك تجرب الاحساس الحقيقي بالضرب، بألم الضرب، لا مجرد الألم الموضعي للضربة أو الألم العام الناتج عنها، إنما بألم آخر مصاحب

أبشع . . أقوى، ألم الاهانة، حين تحس أن كل ضربة توجه إلى جزء من جسدك توجه معها ضربة أخرى إلى كيانك كله، إلى احساسك وكرامتك كإنسان. ضربة ألمها مبرح لأنها تصيب نفسك من الداخل اصابة مباشرة لا يحجبها أو يخفف منها جلد أو لحم أو عظام أو حرية أو حق الانسان أن يتصرف كالانسان ويرد، وهذه كلها دروع لو تعلمون عظيمة. إن حرية الانسان . . حقه أن يرفض أو يقبل أو يرد الاعتداء، جزء لا يتجزأ من جسده وكيانه ولحمه وجلده وأنسجته الواقية الحية. هي وليست ملابسه أو جدران بيته التي تحفظ عليه ماء حياته كإنسان، وتحميه. وهي التي إذا انتزعت منه لا يموت كما يحدث للسلحفاة إذا انتزع غطاؤها، ليته كان يموت، ولكنه يبقى إنساناً منزوع الحق في حماية نفسه والدفاع عنها، فما بالك إذا كان يرغم على أن ينتزع هو بنفسه هذا الغطاء، وتجبره القوة الغاشمة على السكوت، على تلقي الألم والسكوت، على التنازل عن انسانيته وحتى عن خصائص الحيوان فيه والسكوت؟ حين يستحيل إلى كومة عارية من لحم خائف مذعور لا تستطيع أن تعض أو ترفس، عليها أن تتلقى الألم وتسكت عليه، والسكوت على الألم أشد إيلاماً وإيذاءً من الألم نفسه، خاصة إذا كنت أنت من تتولى اسكات نفسك . . الضرب هذا النوع من الضرب، حين لا يبقى أمامك لكي تمنع ألمه وعاره إلا أن تحتمل وتصبر، أو تقتل نفسك وتنتحر، عمل لا يستطيعه ويقدر عليه معظم الناس. وحتى إذا قدروا فقانون الحياة نفسه يرفضه ويمنعهم من إتيانه، إذ كيف يعقل وأنت في موقف تدافع فيه عن نفسك ووجودك أن تشرع في قتل نفسك ومحو وجودك؟ بالعكس، إن أبشع ما في الأمر أنك لا تحتمل فقط وتصبر، ولكنك تزداد استمساكاً بالحياة، وتصل بك حلاوة الروح إلى درجة مخجلة في شدتها وقوتها. وهكذا في مقابل كل ضربة

هائلة الألم عارمة القسوة مهينة تتلقاها من الخارج، تنهال عليك من داخلك وذات نفسك ألف لعنة، ألف طعنة، ألف إحساس مخجل مهين تمزق أحشاءك وتذيب كماء النار روحك، لأنك لا تموت ولا تريد الموت ولا تزال حياً تتمسك ذليلاً بالحياة.

والأبشع هو مرآه.. مرأى الزنفلي عباس... العسكري الصعيدي الأسود.. وهو يضرب، ومنظره وهو يستمتع بتخريب كائن حي وانسان والمضروب يتحول أمامه إلى كتلة اللحم المذعورة التي تصرخ في فزع أعمى فلا يفعل مشهدها أكثر من أن يغريه بالضرب أكثر، والتمتع بلذة الهدم أكثر، فيمضي يضرب ويضرب سعياً وراء الفرحة الكبرى، كمن هدم جزءاً من بناء ويسعى بمتعة وحشية كي يأتي عليه تماماً. الضرب ذلك النوع من الضرب، حين يتحول المضروب إلى أنقاض إنسان مذعورة، أنقاض تتألم، وبوعي تحس بنفسها وهي تتقوض إلى أسفل وبإرادتها الخائفة تمنع نفسها من أن ترد. ويتحول فيها الضارب إلى أنقاض إنسان من نوع آخر، وكأنه إنسان يتهدم إلى أعلى، يسعده الألم الذي يحدثه في ابن جنسه، ويستمتع بإرادة، وبإرادة أيضاً يقتل الاستجابة البشرية للألم في نفسه فلا يكف إلا ببلوغ ضحيته أبشع درجات التهدم والتقوض، وبلوغه هو أخس مراحل النشوة المجرمة التي لا يستطيعها من المخلوقات جميعها ولا يستمع بها غير الإنسان المنحط في الإنسان.

٧

كنا قد وصلنا في رحلتنا إلى حارة لا تسمح بمرور العربة، رغم كل محاولات السائق لاستعراض براعته وارغامها على المرور، فهبطنا. وبينما وقف السائق يذب عن الاستيشن واجن جيوش الأطفال التي تجمعت عليها، سرنا نحن الثلاثة.. عبد الله بنفس قبقابه يحمل الدوسيه وحقيبة الكشف ويرينا الطريق، وشوقي بجواري، ومع كل خطوة يتضاعف شغفي وحب استطلاعي لرؤية هذا المارد الأسود الذي أرعب صفوة بأكملها من أبناء جيلنا الموعود. تراه كيف يبدو وقد دالت دولته من زمن وضاق عليه المصير؟ شغف جعلني أسهو عن شوقي وأصمت مثلما صمت، وأرحب بمحاولات عبد الله للتكاسل حتى يوازينا ويلقي في أسماعنا بجملة أو بذكرى يحملها لعباس محمود الزنفلي. كان واضحاً أن تأففه من مهمة تشريك زميل له قد انتهى أو كاد، وكان واضحاً أيضاً أنه وقد ذهب الجرح عاد ليأخذ دوره المفضل، دور العارف بكل شيء، الحريص على أن يرينا أنه حتى في العسكري الأسود يعرف ما لا نعرف، ويتطوع أيضاً بالنصيحة وبتقديم المعلومات.

ـ دا شاف عز يا بيه ولا العز اللي شافه فاروق.. دا كان يدخل المحافظة ناقص يضربوا له نوبة سلام.. كان يقدر ضابط من الضباط

يكلمه وهو قاعد. . كان ينقله على طول. . حد منا كان يستجري يبص له واللا يهوب ناحيته؟ دا مرة والله العظيم وشرفك إنت يا سعادة البيه وقع منه قدام عيني دي نص ريال ما رضي أبداً يوطي ويجيبه. . والله لما كنت تشوفه راكب جنب سواق رئيس الوزراء، واللا دولة الباشا. . وكان جبار. أعوذ بالله. . والله بعيني دي مرة شفته قفلوا عليه الأوضة اللي في الدور الثاني بتاع المحافظة اللي قصاد المكتب الطبي على طول هو وواحد من السياسيين، وقعد يضرب فيه من صباحة ربنا، والجدع يقول آي!. . ولا هو سائل فيه، ولغاية ما روحنا أحنا الساعة خمسة وشرفك سبناه بيضرب فيه. .

- بطل كلام يا عبد الله. . البيت فين؟

كان القائل شوقي. فوجئت وفوجىء عبد الله أيضاً بصوته يرتفع بالكلمات أعلى مما يجب بكثير، صوت لا أذكر أن شوقي تحدث به أمامي أبداً. كان كلامه دائماً يخرج وكأنه لا يريدك أن تحسب أنه قائله، صوت جعل عبد الله يسكت في الحال وترتد إلى وجهه تلك الصرامة النظامية التي كان كثيراً ما يرفعها أمام الدكاترة الشبان. . ونظرت إلى شوقي، لم يكن عابس الوجه أو مقطب الملامح. كان يبتسم بطريقة غريبة وكأنه يبتسم بنصف وجهه الأسفل فقط ابتسامة من يستمع إلى هاتف بعيد. قلت له هامساً:

- ايه. . افتكرت حاجة؟

بنفس الابتسامة قال:

- أبداً. . ح افتكر ايه؟

وهممت بالعودة لتأمل الدكاكين التي نمر بها، والاطفال وهم

يتجمعون حول موكبنا. ولكني بهت حين وجدت شوقي يتخلى فجأة عن وقاره التقليدي ويمسك بذراعي ويجذبني بعصبية قوية ناحيته، ويهمس في أذني كطفل قرر لأمر ما أن يفضي إليَّ بسر:

ـ إنت عارف مين اللي كان بيضربه العسكري الأسود في المحافظة ده م الصبح للمغرب؟ عارف مين؟

والتقت أبصارنا لومضة كنت خمنت فيها الاجابة، وبينما أشعة ضاحكة سعيدة تخرج من عينيه خرجت كلمة لتؤكد:

ـ كنت أنا..

وآخر ما كنت أتوقعه حدث، إذ مرة أخرى وجدته يترك يدي وجانبي ويميل ناحية عبد الله ويقول:

ـ هيه. وايه كمان يا عبد الله سمعته عن عباس الزنفلي؟

ونظر عبد الله إلى رئيسه نظرة تساؤل انقلب إلى قلق وعدم ارتياح وسكت كأنما خوفاً.

وقال شوقي بلهفة وكأنما يستحثه:

ـ ايه سمعته كمان؟ قول.

وكأنما أيقن عبد الله أخيراً أنها فرصة، فاندفع يتحدث ويدلل على صدق أحاديثه بأنه أحياناً رأى بنفسه، وأحياناً أخرى جاءته الأنباء من صاحب أو زميل. كيف رآه رئيس وزراء ذلك الحين في المحافظة مرة وأعجبه فضمه لحرسه، وكيف أدرك من رؤيته له واحتكاكه به أنه ضالته المنشودة، وأن له في القسوة وتحجر القلب باعاً، فأعطاه هدية للبوليس السياسي. وكان عباس نعم الهدية، فمن بين جميع الذين كان يعهد إليهم بضرب السياسيين كان هو أكثرهم توحشاً وتفانياً لا في تنفيذ الأوامر فقط

وإنما في اختراع وسائل أقسى وأنجع للتنفيذ. وكانوا يقولـون أنـه حين يضرب يفقد وعيه وصوابه ويصبح كالسكران أو المجنون إلى درجة لم يكونوا يجرءون على تركه وحده مع الضحايا، فيلازمه في عملية الضرب رقيبان عملهما التدخل في الوقت المناسب لانتزاع المتهم حتى لا يفتك به عباس. وكانوا لا يستطيعون استخلاصه إلا بصعوبة وإلا رغماً عن أنف عباس، وأحياناً بالتكاثر عليه وشل حركته وتكتيفه. ولهـذا كان الرقيبـان يختاران دائماً من عساكر أقوياء أشداء. ورغم هذا ففي مرات كان يحدث أن يثور عباس عليهما ويأبى تسليم الضحية وينهال عليهما ضرباً إن حاولا منعه. . وكان يأتي في الصباح مع الباشا في عربته، وبعد انتهاء مهامه في سجن الاستئناف والمحافظة، وأحياناً نادرة في نفس غرفـة رئيس البوليس السياسي، كان يعود ليركب بجوار سائق عربـة رئيس الـوزراء في أثنـاء موكب العودة، وقد تمنطق بالمسـدس الضخـم ذي الـكردون الأحمـر. ويقولون أنه كان في بيت رئيس الوزراء كأحد أهله، يأكل هناك، ويأخذ البقشيش من الهانم الكبيرة، ويجود عليه الباشا بالمنح السـخية وعلـب السجاير الفاخرة، والعهدة على الرواة، ولكنهم كانوا يقولون أن الباشـا بالذات كان معجباً أشد الاعجاب بقوامه الفارع المستقيم، وكان يعتبره نموذجاً للرجل الكامـل. وكثيراً ما كان يأمـر بإحضـاره أمـام ضيوفـه في الصالون، والأجانب منهم بصفة خاصة، ليفرجهم عليه، ويجعله يقف يستعرض قوامه وبناءه وعضلاتـه أمامهـم، فخـوراً به باعتبـاره اكتشافـه الخاص، وكم من تأوهات كانت تصدر عن السيدات الزائرات لمرآه. .

وإلى هنا لا أدري لماذا سكت عبد الله عن حديثه، ربما لادراكه أنه تكلم أكثر مما يجب أو فيما لا يجب، ربما لفراغ ما في جعبتـه، ربمـا للنظرة المختلسة التي ألقاها على الدكتور شوقـي ورأى منهـا أن شغفـه

بالاستماع كان قد هبط إلى درجة الانصراف عنه، وعنا كلية، وعـاد مرة أخرى يبتسم بنصف وجهه الأسفل ابتسامة من يحاول الإنصات إلى هاتف بعيد.

٨

كان الباب الذي أوقفنا عنده عبد الله التومرجي لا يمكن أبداً أن يمت لبيت، فهو لا يشبه بيوت المدينة الفقيرة، وكذلك لم يكن كوخاً أو داراً من دور القرى المبنية بالطين. لكأنه الحلقة المفقودة بين الكوخ والبيت ومنازل القرية والمدينة. ولم نكن قد وصلنا إليه إلا بقطع عدد لا يحصى من الأزقة والحواري، بعضها تهبط إليه بسلالم، وبعضها تصله بعد أن تجتاز أكواماً عالية من تراب، هي في الحقيقة أطلال بيوت تهدمت وسقطت ولم تجد أحداً يزيل أنقاضها وبقاياها، فتحولت إلى تلال تسد حارة أو تصنع هضبة بين شارعين.

دق عبد الله الباب ،وطال دقه دون أن نظفر بجواب حتى خيل إلينا أن لا أحد هناك.. وبدأنا نشك أن يكون هو البيت المقصود، ولكن عبد الله راح يؤكد لنا أنه لا يمكن أن يكون قد أخطأ، وزيادة في التأكيد مضى يلدق بجماع يده، وخيل إلينا أخيراً أننا نسمع أصواتاً مختلطة في الداخل. وارتفع دق عبد الله حتى وجدنا الباب تحت تأثير الدق ينهار وينفتح من تلقاء نفسه، ومن الباب المفتوح رأينا صالة واسعة كفناء دوار عمدة أقيم في قلب القاهرة، صالة خالية من كل شيء إلا من كنبة بلدي «شلتة» أو مساند تحتل أحد الأركان، وفي وسط الصالة تقريباً «طشت» غسيل مقلوب

تقف عليه دجاجة تنقب بمنقارها في التراب والطين القليل اللاصق بقاعه علّها تظفر بغذاء، فلا يفعل تنقيبها إلا أن يجعل منقارها يرتطم بالطشت الرنان في دقات منتظمة مملة، تصاعد رفيعة ملحة رنانة، لا تفعل أكثر من أن تزيد الكآبة في الصالة الواسعة الخالية.

لم يبق الحال هكذا ولا بقينا واقفين مترددين بين العودة والبقاء طويلاً، فقد فتح باب جانبي وخرجت منه امرأة نحيفة قصيرة بيضاء ذات عيون سود غائرة كعيون نساء شمال الدلتا ومنطقة البحيرات، وإن كان الوشم المثلث تحت شفتها السفلى على ذقنهاعلامة صعيدية أكيدة.. عيون فيها بريق يفهمه الذكر وحده، ولكنها هزيلة شاحبة بالتأكيد لا تزيد نسبة الهيموجلوبين في دمها على الربع،وفي وجهها «قوبة» في حجم الريال.وكانت حافية،قدماهاصغيرتان كأقدام الأطفال أو الصينيات، ترتدي في عز الصيف جلباباً كزي الفلاحات من الكستور. جلباباً مهرأ يظهر قميص نوم أصفر نظيفاً. خرجت من الحجرة مندفعة وكأنما هاربة من شر وحين لمحت الباب الخارجي مفتوحاً ورأتنا، ثلاثة رجال طوال يسدون فتحته شهقت، وفي الحال اختفت داخل حجرة أخرى، وتركتنا واقفين نعجب ونقلب الأنظار في الصالة، بينما الدجاجة التي كان قد أفزعها خروج المرأة ما لبثت أن عادت بعد اختفائها تعتلي الطشت، وعاد منقارها يصدر ذلك الدق المنتظم الرنان الكئيب.

وبزهق رفع عبد الله كفه وأهوى بها على الباب المفتوح في ضربة قاصمة، انزعجت لها الدجاجة، وشتتت شمل السكون، وارتفع صوته فارغ الصبر مزعجاً هو الآخر يقول:

يااللي هنا.

وفتح الباب وخرجت المرأة الصغيرة وقد ارتدت ثوباً مهلهلاً أسود

بينما لفت رأسها بثوبها الكستور الذي كانت ترتديه، ومضت ناحيتنا تتعثر في مشيتها وتقول:

ـ اتفضلوا.

وباختصار، وقبل أن تصلنا أو تشرع في الدخول كان عبد الله قد شرح لها السبب في حضورنا، ولدهشتي وجدته قد ضمني إلى البعثة وأخذ يتحدث عنا باعتبارنا «قومسيون طبي المحافظة» وقد جاء «بكامل هيئته».

واستغربت أن تفهم المرأة كل شيء لأول وهلة. لا بد أننا لم نكن أول «قومسيون» ندخل البيت وأن بدا واضحاً أننا آخرهم.

وحين انتهى من إخبارها لم تفعل أكثر من أنها أطرقت مستسلمة، ومرة أخرى قالت:

ـ اتفضلوا.

ـ انتي مراته؟

ـ أيوه يا سيدي.

ـ وهوه فين؟

ـ نايم جوه.

وللمرة الثالثة قالت:

ـ اتفضلوا.

وبلهجة آمرة قال عبد الله:

ـ قدام البهوات.. وزيهم السكة.

ولكنها بدلاً من هذا وقفت لا تعرف ماذا تقول، وأخيراً قالت مشيرة إلى الكنبة في ركن الصالة:

ـ بس والنبي تستريحوا هنا دقيقة.. دقيقة واحدة.

ولم نعرف لطلبها هذا سبباً. ومع ذلك وجدنا أنفسنا نأخذ طريقاً إلى ركن الكنبة، وبينما قررت أن أخضع للأمر الواقع وأجلس آثر شوقي أن يظل واقفاً، وبالتالي أجبر عبد الله أن يظل كذلك.

وكانت المرأة قد تركتنا ودخلت الباب الأول، وسمعناها تتحدث دون أن يجيبها صوت، ثم رأيناها تخرج وتختفي في الحجرة الثانية وتحضر شيئاً تواريه في ثوبها عنا وتدخل به نفس الباب الأول، وتظل خارجة داخلة،ونحن صامتون نتابعها بأنظارنا، والسكون مخيم لا يقطعه سوى دقات الدجاجة المنتظمة على صفيح «الطشت» وقد أصبح لا يزعجها أو يوقفها عن الدق دخول أو خروج.

وأخيراً بدا أن المرأة قد انتهت من رحلاتها، إذ جاءت ووقفت قريباً منا. وقال عبد الله بتأنيب شديد:

ـ مش خلاص؟ الدكاترة مستعجلين.. احنا ورانا قومسيونات تانية كتير.

وأخفت فمها في جلبابها الطرحة وهي تقول:

ـ أيوه.. حاضر.. دقيقة واحدة بس.

وانفجر عبد الله:

ـ هي دقيقتكم ايه.. ساعة؟ واللا باينها يوم!

وظلت المرأة واقفة لا تتحرك ولا تجيب، ثم بدا وكأن هذه الوقفة القصيرة قد أرهقتها، إذ ما لبثت أن سحبت جسدها إلى أسفل وجلست القرفصاء مسندة ظهرها إلى الحائط.

٩

لم نكن نعرف لهذا الانتظار كله سبباً واضحاً، ولكن لا بد كان له سبب. والمحرج في الأمر كان هو الصمت الذي شملنا وامتد حتى ابتلع دقات الدجاجة وأنسانا إياها. ولأمر ما أحسست وكأني مسئول عما نحن فيه من حرج، وعن ازالة هذا الصمت الكئيب. وهكذا بدأت أتحدث إلى الزوجة وأسألها. . حديثاً لم أكن أقدر له أكثر من دقائق قليلة إذ كانت لهفتي الأساسية أن أرى «العسكري الأسود». ورغم أنها بردها على أسئلتي بدأت تجيبني إجابات مقتضبة لا تنطقها إلا بعد تفرس خجل سريع في ملامحي ونواياي، إلا أن اجابتها تلك بدأت تسترعي انتباهي. . وليس انتباهي وحدي، شوقي الذي كنت أدرك رغم انعدام الكلمات بيننا أن لهفته لرؤية عباس لا تقل عن لهفتي، والذي وضح ضيقه من أول لحظة بأسئلتي وإضاعة الوقت بفتح مجال للحديث بدأ هو الآخر ينتبه، ويكاد لفرط متابعته يهم بإلقاء أسئلة أخرى لولا أنه كان يتراجع قبل نطقها ويحجم. وهكذا امتدت الدقائق إلى ربع ساعة وإلى مرحلة بدأت الأسئلة فيها تقلب المواجع على «نور» الزوجة فتبكي وتدمع وهي تجيب. ولكني ظللت أتابع حتى تعدى الحديث مرحلة البكاء إلى مرحلة بدأت تجيب فيها الزوجة بصراحة وصدق، وقلب كأنما تريد فتحه وإفراغه وقد ناء بما

يحتويه، أو ربما اعتقدت أنها بالصراحة قد تخفف الحكم الذي نوشك أن نصدره على زوجها.

وأصبح شغفي باستخلاص كل ما يمكن استخلاصه من «نور» يكاد يطغى على شغفي لرؤية زوجها، بل طغى،وأيضاً لم أكن وحدي. . وجدنا أنفسنا نحن الثلاثة ننسى اللهفة والوقت والرجل الراقد في الحجرة ونستمع إليها. وكأنما عداها هي الأخرى اهتمامنا ونسيت الحاضر والراقد، وراحت تعيش بكيانها كله فيما كان.

والقصة كما استخلصتها من «نور» الزوجة تختلف بطبيعة الحال كثيراً عن قصة «العسكري الأسود» كما تطوع بها عبد الله، وعن صورته كما رآها شوقي، وكل من كان في السجن وقدر له أن يقع تحت طائلته. قصة الفلاح حين يشب قوياً أقوى وأصلب عوداً من كل أقرانه فتصبح له في البلدة شهرة، ويصبح لقوته سلطان ومستلزمات ليس أقلها جلباباً من حرير، و«لاثة» من السكروتة، وطقماً يخطر به ساعة العصر ويقتحم به السوق ويتربع به في مجالس الرجال، ويزغلل به وبنفسه أنظار البنات والمطلقات وأنظارها هي بالذات، بنت عمه وأحلى البنات. قصة الفنونة والمراهنات على حمل أكياس القطن وأجولة الكيماوي والمعارك والنبابيت والخناقات، ومع هذا فما كان أسعدها ـ كما تقول ـ بالزواج به واستعدادها لا لكي تنتظره أعوام «الجهادية»الخمسة،وانما العمر كله ولكنه جاء بعد مدة الجيش وأخذها وسكن بها في مصر، في نفس هذا البيت الذي لم يغيره الزمن. واشتغل في البوليس،ولم ترزق منه«صحيح» بأطفال. . مشكلة كانت تلح عليه وتضايقه، ولكن فرحتها به كانت على الدوام أكبر من أي ضنك أو قسوة أو انعدام خلف. أخذها للدكتور مرة ولم يجد الطبيب فيهاعيباً،وقال له إبحث عن نفسك أنت. ولكنه كان دائماً

مشغولاً بالبحث عن السلطة والتسلط ،دائم المشاحنات مع رؤسائه، دائم الثورة على وضعه وزملائه، حتى قدر له في النهاية أن يختاره الباشا ويمسك بهذه الوظيفة التي بدا وكأنها باب السعد والهنا. فما من يوم يعود فيه إلى البيت إلا ومعه سبت خضار ولحمة، وضحك يجلجل في الصالة إلى ساعة النوم. والبيت يزدحم عليهم بالناس والزوار والسهرات التي تمتد إلى ما بعد منتصف الليل. و «الحتة» كلها قد عرفت سر الوظيفة الخطيرة، وكثيرون رأوه في جلسته الفاخرة أمام الباشا، بل لم تلبث عربة الباشا نفسه أن بدأت توصله إلى الحي ويراها الجيران رأي العين مجعوصاً فيها، حتى أم على «الحسادة» تراه وتأتي لتصف لها ما رأته والشهقات التي كانت تتبعه أينما سارت به العربة،وأينما وضع قدمه،وتطلب منها أن ترقيه من عيون نساء الحي ورجاله، فترقيه «نور» أول ما ترقيه من «أم علي» وتقوم من الفجر لتدعو وتطلب من الله أن يقيهم شر الناس ويديم عليهم الستر. والناس في بيتهم الداخل لا يعرف الخارج، ومع الخارج والداخل والزائر والقريب والغريب عرائض وشكاوى وطلبات وظائف وترقيات، بل ويا للسخرية شفاعات ورجوات لعباس كي يتوسطلدى الباشا للافراج عن معتقلين ومتهمين. كان يقبل ويخدم الكل، ما عدا طلبات الافراج التي كان يضيق بها أشد الضيق ويزجر أصحابها، وأحياناً يبلغ عنهم البوليس السياسي. حالة واحدة فقطهي التي قبل أن يتوسطفيها حين فوجئوا بعمدة بلدهم بنفسه، البيه الرسمي، أحمد بك مروان ومعه والده المسن ووفد ضخم من عائلة مروان يطرق باب بيتهم، نفس هذا البيت، ويشرب قهوتهم ويخاطب «عباس» بقوله: يا فندم! وأحياناً يقول:البركة فيك يا عباس أفندي، وأحياناً أخرى يا حضرة الضابط. بل ويصل الأمر إلى درجة

يقبل فيها يده، بعينها رأته «نور» من خلال الباب الموارب يتشبث بيد عباس وينحني عليها ويقسم يمين الحرام أن يقبلها، فلا يملك عباس إلا أن يوافق وإلا بأن يعد أنه سيبذل كل ما في استطاعته لرجاء دولة الباشا والافراج عن بسيوني شقيق العمدة، الطالب المعتقل. وينجح في الافراج عنه ويهديه البيه خمسين جنيها وخروفاً، نقود وما أكثر ما دخل جيبه من النقود. مع كل عريضة تندس اليد في جيبه وتترك ما فيه القسمة. ويصرف عباس ويبعزق ولا يتحرك إلا في جمع من الحي والبلديات. على القهوة يحيطونه ويؤنسونه. وفي البيت، وفي نفس تلك الصالة الواسعة ينعقد مجلسهم كل ليلة. أيام حافلة عارمة، وإن كان كل ما يأتيهم فيها كان يذهب ويتبخر ولا يبقى منه. ولم يبق من أيام العز كلها سوى مائتي جنيه في صندوق التوفير بالبريد.. أيام عامرة ولكنها قليلة، ولا تستطيع «نور» رغم الأسئلة الملحة ومحاولات التذكير أن تحدد بالضبط ماذا حدث، أو متى؟ كل ما لاحظته أول الأمر أن «عباس» كان حين يذهب عنه الأصدقاء والزوار ويصبح البيت خالياً إلا منه ومنها يذهب عنه المرح والضحك الذي كان غارقاً فيه، ويستمر على جلسته المتربعة منكس الرأس إلى أسفل، سادراً في حزن مفاجىء لا تعرف سببه. يبقى هكذا بالساعة والساعتين لا يتحرك ولا يحدثها ولا يغير من وضعه، إنما كان يحدث بين كل حين طويل وحين أن يرفع رأسه فجأة مستلاً من صدره تنهيدة عميقة قائلاً: ايه.. حكم! ثم يعود رأسه يسقط ويعود إلى الحزن الشارد الذي كان فيه. حتى إذا طال الأمر وواتتها الجرأة على سؤاله عما به لم تظفر منه بجواب. أو إذا رفع رأسه وأجاب لا يقول أكثر من: معلهش! كله منه.. بكره تتعدل. كانت واثقة أن ليس في الأمر زوجة أخرى أو شاغل من شواغل المعيشة، ولهذا كانت لا تلح وتسكت، خاصة والحالة لا تحدث إلا نادراً وكل بضع ليال

مرة. ولكنها ما لبثت أن تكاثرت حتى أصبحت تتكرر كل ليلة تقريباً وتطول، ويطول غياب عباس في «الشغل» ويعود إذا غاب مضعضعاً مطحوناً كالمضروب علقة. ينام بغير عشاء، وإذا تعشى استيقظت على صوته المخنوق يصرخ من كابوس، ثم بدأت محنة الأفيون. كانت تعلم أنه يأخذه، ولكنه كان يفعل هذا للمزاج ليس إلا، بتوالي النوبات والاستغراق في «الشغل» تعلق به وأدمن فيه وأصبح يأخذه في كل وقت.. قبل النوم وفي منتصف الليل، وحتى في الصباح على الريق. وإذا فتحت فمها أو اعترضت رماها بنظرة تخلخل مفاصلها وتدفعها إلى ابتلاع الريق والكلمات، وتغلي وهي صامتة وتتمزق نفسها من الخوف منه وعليه. تضع أمامه الطعام وتعود لتحمله كما وضعته، وينام.. أصبح لا يأتي إلى البيت إلا لكي ينام، ولا يحتمل أن يبقى فيه وحده مستيقظاً. ينام ويطلب منها أن تصحيه في ساعة مبكرة، فإذا جاء الصباح ونادته ليستيقظ زجرها فإذا مضت في محاولتها يكاد يقتلها ليسكتها وليستمر نائماً. وجاء عليه اليوم الذي لم يذهب فيه إلى القهوة، وإذا حضر أصحابه وسألوا عنه أمرها أن توزعهم وتدعي لهم أنه غير موجود. كانت تقول لنفسها كلما ووجهت بجديد إن هي إلا عوارض لن تستمر، وأنه لن يلبث أن يعود إلى نفسه وإلى عباس الذي كانه زمان، ولكن كل يوم يقبل كان يجيء معه بتغيير إلى أسوأ، حتى ليصبح منتهى أملها أن يعود مثل الأمس فقط. بل حين يئست من هذا أيضاً أصبح كل ما تطلبه من الله أن يبقى على ما انتهى إليه، هو ذلك الشخص المكشر الملامح، الغاضب دائماً، الضيق الخلق الذي يثور لأتفه سبب، وبلا سبب. والذي لم يعد ينفق على البيت أو عليها، ورغم كل ما يكسبه فمحفظته تحت المخدة دائماً خاوية وكأنه يلقي بما يكسب في بلاعة لا تنسد، شخص سائر في طريق لا تدري إلى أين، ولكنه يبعد

عنها، وعن الناس حتى أصبح لا يلقي السلام على أحد. وكأن السلام مشقة، ويتحاشى الناس وكأنهم أعداء. له كل يوم واقعة شتم أو سب أو تماسك وضرب، مع الجار وصبي البقال وراكب البسكليت إذا دق الجرس، حتى كاد يخاصم الناس كلهم.. وأجمع الكل على أن البعد عنه غنيمة. فإذا ضاق بنفسه ووحدته مرة، وأرسل في طلب أصدقاء زمان وجاءوا، يأتون مكرهين، ويجلسون مكرهين، ويستمعون إلى حديثه الذي يفرضه عليهم فرضاً، حديث مملوء بمواقف هو دائماً فيها البطل، وبقصص لا بد كسر فيها ذراع واحد من الساسة بضربة،أو هشم أسنان آخر ببونية،وماذا قال له دولة الباشا وماذا أعاد،حتى إذا لمح أي عطف في ملامح سامع أو بدت كلمة نقد لما تفعله الحكومة، اندفع يتحدث بفظاظة عن الحكومة ودولة الباشا والعهد، وكأنه أحد أصحابه والقائمين به، وكثيراً ما يقول: إحنا عملنا واحنا كان لازم نسوي، أو يصف السياسيين والمعارضين بقوله: دول أعداءنا. لا تستمر الجلسة طويلاً إذ لا يلبث أفرادها أن يتسللوا واحداً وراء الآخر متذرعين بحجج، واهية في معظمها، ويظل بعد ذهابهم يلعنهم ويلعن الحي والناس، يلعنهم لنفسه وهو يحدث نفسه. وحديثه لنفسه كان طارئاً أول الأمر،ولكنه لم يلبث أن أصبح عادة. تكون في الصالة أو الحجرة الأخرى فتسمعه يتحدث أو يزعق أو يشتم أو يزفر زفرة حارة ويتنهد قائلاً بأعلى صوته: ايه.. آه.. أيوه.. كله منه.. حكم.. ملعون أبو الدنيا.. ملعون أبوهم كلك واحد واحد.

وأيضاً لا تعرف «نور» كيف أو متى جاء اليوم الذي فطنت إلى الحقيقة التي دوخها اكتشافها.. أن عباس لم يعد عباس.. لقد أصبح رجلاً آخر لم تره أبداً ولم تعرفه.. رجلاً آخر بطبائع أخرى ومزاج آخر.. غريباً.. لا

تحس أبداً أنه زوجها الذي تزوجته.. ومن الواضح أنه هو أيضاً، وقد عادى كل من كان يعرفهم وتغير ولم يكن قد سواها بجانبه، كان واضحاً أنه هو الآخر يستغربها، وينكرها، ولا يرعى شعوراً، ولا يهمه من أين تنفق أو كيف تدبر الأمور. . «أم علي الحسادة» تقول لها أن الأفيون قد غيره ولكنها هي العليمة الخبيرة به تعرف أن الأفيون، كضيق خلقه، كشروده ونفوره من الناس، عرض وليس سبباً، السبب أكبر أو أبعد من أن تستطيع وحدها ادراكه. . لقد كانوا يحيون ككل خلق الله، فماذا حدث؟ قالت لنفسها أنها العين، وعين أم علي بالذات، وأخذت من «سملها» ورقت وبخرت وقالت أنه عمل، وذهبت لشيخ العمولات ودفعت الأجر وذبحت الديك الأسود وجربت كل علاج ودواء. . وحاله لا تسير إلا إلى أسوأ. خاصة هجره لها في الفراش ذلك الذي طال وطال حتى اعتقدت أنه ممنوع عليها بسحر، التمست فكه وفكته، وظل مع هذا ذلك الشخص الغريب الذي لولا الشبه الذي لم يتغير لما عرفته، وظل هو يبعد عنها ويبعد ولا يكاد يحس بوجودها أو يأبه له.

وما كان أسودها من ليلة قررت فيها أن تعتمد على نفسها وتنفض أقنعة الخجل وتواجهه. ليتها ما فعلت! فلقد ظل يسمع صامتاً حتى أفرغت كل ما عندها ولم يبق سوى الدموع فبكت. وبدلاً من عباس رجلها وابن عمها الذي تعرفه، أطبق عليها وحش غرس أظافره في لحمها، ممسكاً إياها بكلتا يديه مجيباً على ما قالت بأخس وأقبح الفاظ سمعتها في حياتها. . ألفاظ ما خرجت من فمه قبل ليلتها قط ،وما كانت تعتقد أن باستطاعته أن يعرفها أو ينطقها. ولا تدري ماذا منعه من ضربها وسحقها أو قتلها، فلأسباب أو هي وأقل لم يكن قد ترك إنساناً يعرفه دون أن يمد عليه يده. ماذا أبقى تلك اليد مغروسة الأظافر في لحم ذراعها لا ترتفع

وتصفعها ولا تهوي بقبضتها الحديدية عليها وتحطمها؟ إنها لا تعرف ولكنها تؤمن عن يقين أنها قد كتب لها عمر جديد.

وكأنما كان ينتظر ليلة كتلك لينفلت عياره إلى آخر مدى، وليصل إلى درجة تدفعها للتفكير في الهرب والهيام على وجهها في الطرقات، إذ ما كان هناك حل آخر. فلو غضبت وسافرت إلى القرية فلن يكون عقابها أقل من القتل. فكرت ودبرت وأخذت تراقبه لكي تحدد الساعة وتنطلق. كان عباس يبدو كمن جن، يصحو صارخاً مرعوباً إذا نام، وإذا انفرد بنفسه تجده فجأة قد انهال عليها ـ على نفسه ـ شتائم وسباباً، نفس شتائمه ذات الألفاظ الداعرة. بل رأته مرة ينهي شتائمه لنفسه بصفعة من يده يهوي بها على وجهه، وقررت يومها أن لا بد من التعجيل بالفرار.

غير أن الأيام كانت تدبر شيئاً آخر. كان عباس قد عاد من العمل مبكراً على غير العادة في الضحى ونام وظل نائماً إلى اليوم التالي. وقبل أن يرقد سمعته يقول لها شيئاً لم تفهمه، وخافت أن تستعيده ما قال. وفي أثناء نومه جاءتها أم ثابت والحاجة كريمة وأم علي وأخبرنها أن الباشا الذي يعمل معه عباس ترك الكرسي وأنهم سيعملون انتخابات ليجيئوا بباشا آخر. وحين استيقظ عباس حاولت أن تفتح باب الحديث لكي تستطيع إخباره، ولكنه كان عازفاً عن الحديث، ذوب قطعة المر وتجرعها وأعطاها ورقة ووصف لها كيف تذهب بها، وعاد للنوم.

كانت ورقة طلب إجازة مرضية، الورقة الأولى من عشرات ومئات لم تكن تدري أنها ستتوالى بعدها ولا تكف عن التوالي.

كانت «نور» لا تزال جالسة القرفصاء قريباً من الكنبة، وصوتها الصعيدي الناعم المحشرج يخرج على دفعات متقطعة يحكي ويكاد يهز

المكان بحرقته وصدق نبراته، وشوقي قد أرغمه تتبعه المحموم على الجلوس على طرف الكنبة والهبوط برأسه قريباً من رأس «نور» حتى لا تفوته الكلمة، وإحجامه قد ذهب وأصبح يسمع، ويشمل المرأة بنظرة نافذة كأبر بذل النخاع تحاول استخراج كل ما لا تستطيع المرأة قوله أو تملك القدرة على التعبير عنه. وبين الحين والحين ينطلق منه السؤال كالقذيفة التي لا يريدها أن تخطىء. والحديث استبد حتى بعبد الله التومرجي نفسه إلى درجة جعلته يترك الرسميات جانباً، ويجلس القرفصاء أيضاً بجوار المرأة يسمع، وبين الحين والحين يهش بيده دون أن يتلفت أو ينظر، يزجر الدجاجة ويخيفها في محاولات كثيرة فاشلة لاقصائها عن المكان تماماً.

وقبل أن تكتمل القصة ونعرف منها كيف مرض مرضه الأخير، وماذا بالضبط حدث له، فوجئنا بشيء روعنا حقاً، وأنا لا أذكر أني من وقت أن غادرت مرحلة الطفولة وكفرت بالجن والعفاريت والأماكن المسكونة.. لا أذكر أني خفت حقيقياً. كثيراً ما اضطربت مثلاً أو دق قلبي بانفعال خائف ولكن لم يحدث أبداً أن جزعت وذعرت. ولكني لحظتها خفت، بل بلغ رعبي حداً كاد يدفعني لترك المكان والجري بكل قواي. ما فوجئنا به كان صرخة، أو هكذا ظنناها أول الأمر، ولكنها لم تلبث أن طالت وتغير نوعها وتحولت إلى ما يشبه العواء، ولو كنا في غابة أو حقل لما روعنا ولحسبنا العواء لذئب.. ولكنا كنا في قلب القاهرة، وداخل بيت، والعواء عواء ذئب ولكنك تدرك أنه صادر عن رجل.. وعن رجل لا يمزح أو يحاول أخافتك،ولكنه يعوي حقيقة ويعبر بعوائه عن أشياء مكتومة داخله تتقطع نفسه وهو ينتزعها على هيئة عواء متصل مستمر لا يمكن أن تفرق بينه وبين العواء الحقيقي لذئب.

ولم أكن وحدي الذي خفت! حين عدت ألتقط أنفاسي وجدت أني كنت دون وعي قد وقفت، ووجدت أن الآخرين جميعاً قد وقفوا، أعينهم مفتحة وفي حدقاتهم رعب. وكانت المرأة أول من تحرك، تركتنا واقفين مشلولين واندفعت إلى باب الحجرة التي تصاعد منها العواء بلا خوف أو وجل، وكأن العواء صرخة طفل رضيع هي أمه.. وما أن دخلت حتى تصاعد الصوت مرة أخرى، ولكنه لم يستمر، وما لبث أن انقطع وكأنه فطم وارتفع على أثره نحيب.. لولا خشونته القليلة لحسبته نحيب طفل.

وقال عبد الله في رجاء يكاد يتحول إلى بكاء:

ـ ما نخليها يا دكتور للحكيمباشي.. إعمل معروف.

ولمحت شوقي أصفر زائغ العينين يتطلع إلى الباب، ثم الى عبد الله وإليّ متردداً

في تلك اللحظة بالذات كنت أمر بحالة الخجل الذي يعقب خوفنا من شيء، خجل لأننا ونحن رجال قد خفنا.. ذلك الخجل الذي يدفع الانسان في الحال لتحدي ما يخيفه والاستهانة به واقتحامه. ويبدو أن شوقي كان قرأ في عيني ما جعله يحاول باستماتة أن يؤكد لي أنه هو الآخر غير خائف، وأننا لا بد أن نمضي في المهمة إلى نهايتها.

وهكذا دخلنا الحجرة.

كان الوقت قد تأخر! لا نعرف إن كانت الشمس قد غابت أم لا تزال على وشك المغيب، والحجرة لم يكن يضيئها غير نافذة صغيرة جداً قريبة من السقف كنوافذ الزنازين والسجون، وكدنا لا نرى شيئاً لحظة دخولنا. بدت لنا الحجرة كمخزن مملوء بظلام قديم مهمل، آذاننا فقط هي التي

استطاعت أن تميز وتسمع وتدرك أن شهقات مكتومة تتردد في الجو المشبع بزفرات مبللة بالدموع.

لحظات قليلة هي التي استغرقتها المفاجأة، بعدها وجدنا أن باستطاعتنا أن نرى ونرى بسهولة، وكأن عيوننا قد بالغت في التقدير أو أعماها مجرد الدخول. كانت الحجرة واسعة، أشبه بالصالة الثانية، وأثاثها قليل، «حصيرة» كبيرة تغطي الأرض، ودولاب عرس قديم طال استعماله.. في الركن، وإلى اليمين سرير بأربعة عمدان، فوقه مرتبة ممزقة الكيس، وقطنها أسود ظاهر، وكذلك المخدات والرائحة مقبضة تخاف معها أن تتنفس فتلهث.

كان عباس الزنفلي يرقد نصف رقدة على الفراش والزوجة تسنده وكان يبدو كمن كف لتوه عن البكاء. ومن الصعب أن أحاول وصف الحالة التي كان عليها، فمفروض أن تبدو على المريض آيات الضعف والهزال، وأن تتغير سحنته وتنقلب، ذلك التغير الذي يجعلنا ندرك أن الشخص مريض. من هذه الوجهة كانت تبدو على عباس آيات المرض لكن لم تكن هذه الآيات أخطر ما به.. أخطر ما به كان في عينيه. أو بتحديد أكثر في نظرته، فمفروض أن الجسد حين يضعف أو يمرض ويشحب جلده ولونه تبرق عينا صاحبه وتتوهجان وكان شحوب العينين يبدو على هيئة بريق. والمجانين مثلاً لهم نظراتهم وكأن الشخص حين يجن تجن عيناه أيضاً، كما يخرف بتفكيره يخرف بنظراته،فتصبح كأن لا معنى لها ولا إرادة وراءها. نظرات عباس لم تكن مريضة أو متوهجة أو مجنونة، كانت ساكنة سكوناً مستمراً مستتباً كسكون الموت، وشاملة أيضاً. فيها ذلك الشمول الذي تحسه للمحيطحين تقف على شاطىء له ولا تستطيع لفرط اتسعه وامتداده أن تتصور أن له شاطئاً آخر. في الحقيقة

كان سكوتها المستمر وشمولها وامتدادها يجعل النظرات كسطح بحر لا يتحرك. وكأنما هو موجود في عالم مفرغ من الهواء، وبلا شروق أو غروب، وبلا بداية أو نهاية أو زمن.

دخلنا وفوجئنا بعبد الله يقول بلا مناسبة وبصوت متهدج: سلام عليكم! موجها تحيته إلى عباس، ولا أعرف أن كان الأخير قد شعر بنا وبدخولنا أو لم يشعر، إذ حتى السلام الذي ألقاه عبد الله لم يكلف نفسه مشقة الرد عليه.

ومن لحظة أن دخلنا وبدأت أعتاد المكان وجدت أن اهتمامي لم يعد مركزاً على عباس وحالته فقط، أصبح اهتمامي موزعاً بينه وبين شوقي كان شوقي في أثناء سماعه لنور وسؤالها، وبعدما سمع ما سمع وقبل أن يدخل الحجرة، وحين دخل وأصبح يضمه مكان واحد مع عباس باستطاعته أن يراه فيه رأي العين ويتثبت من وجوده، كان قد انتابته حالة لم أره عليها من قبل. . حالة ما كدت ألحظها حتى خيل إلي ،وكأنما أضاء النور فجأة في عقلي، وكأنما بدأت أعي بشيء كنت أراه ولفرط تعودي رؤيته لم أعد أراه. تماماً مثلما لا تستطيع أن تدرك أن شخصاً ما كان تعساً طول الوقت إلا حين تراه فجأة يبتسم، أو أنه كان راضياً إلا حين تراه فجأة يغضب. هكذا انتابت شوقي تلك الحالة، حين بدأت أشياء في نفسه تصطرع وتعبر ملامحه وعضلات وجهه عن صراعها. . حين بدأت انفعالاته تتلون وتتشكل ويخاف ويدهش ويرغب ويستطلع ويتردد. . حين أسقط فجأة بسمته الخالدة فبدا كما لو كان قد أسقط قناعاً كان يحجب به نفسه عني وحتى عن نفسه. . حين لمحت وكأن الحياة قد بدأت تتدفق بسرعة وقوة واندفاع إلى كيانه، وأدركت لحظتها فقط ـ مذهولاً ـ أني كنت

خلال السنين الطويلة التي صاحبته فيها بعد خروجه من السجن كنت أصاحب شوقي آخر دون أن أدري وأن ظنوني كانت على حق وتخميناتي عنه كانت صحيحة. إذ في تلك اللحظة بدا وكأن شوقي القديم.. شوقي الذي كنت أبحث عنه بلا جدوى في شوقي، شوقي الثائر الحي قد دبت فيه الحياة من جديد وصحا وكأنه كان ميتاً محنطاً في مكان ما من جسده.. في ابتسامته المرسومة ربما تلك الابتسامة التي أدركت لحظتها أيضاً أنها كانت ابتسامة ميت على وجه حي.. ابتسامة تحس إذا دققت فيها التأمل والنظر أنها البقية الباقية من شخص مات وشبع موتاً.. ابتسامة ذكرتني نظرة عباس الزنفلي بها وعرفت منها سر الإحساس الذي كان ينتابني كلما رأيتها. إذ أدركت أني كنت وكأني أتطلع إلى سطح بحر هامد شامل لا تتحرك فيه موجة ولا تصدر عنه نأمة، وكأنه البحر إذا وجد في عالم مفرغ من الهواء. حالة انتابت شوقي وأحدثت في عقلي دوامات أفكار وتأملات وأحاسيس، ولكني رغم كل ما كان يدور في عقلي وجدت نفسي على وشك أن أحس بفرحة طاغية، إذ تصورت أنه قد آن الأوان لينفض شوقي عن نفسه شخصية الكائن المذعور المعقور، وأنه لا بد في طريقه إلى العودة.. لا بد أنه عائد، ولا بد أني لن أغادر الحجرة إلا وفي صحبتي شوقي الذي فشلت جهودي لإعادة الروح إليه، ويئست ولم يعد في جعبتي أي أمل.

وبشغف متزايد مضاعف رحت أتابع ما يحدث. والآن وأنا أحاول تسجيل ما دار واستعادة الصورة وإبقاءها بطيئة أتفحصها على مهل وكما أريد، الآن باستطاعتي التحكم في الزمن وتتابع الصور. ساعتها لم أكن في وضع أنا فيه المسيطر، كانت الأشياء تحدث في لمحات سريعة بالكاد أستطيع متابعتها أو تبينها، بالكاد أملك القدرة على استرجاع ما سبق

اللحظة أو الحركة من تاريخ. فالمهم في مواقف كتلك ليس فقط أن تتابع ما يدور فيها ،ولكن أن تتابعه وأنت فاهم مدرك لكل ما سبقه، وأنت حافظ لتاريخ حياة الموقف إذ هو الذي من خلاله تستطيع أن تفرق بين المهم وغير المهم، بين الكلمة الواحدة حين يصبح لها قوة الحدث الهائل وبين الحدث الظاهر الهائل حين لا يستحق الذكر.

بخطوات يعرف صاحبها لماذا يخطوها.. لا يبدو اضطراب أو وجل فيها، تقدم شوقي من فراش عباس، وبعيون كأنما انقطع عنها النظر من سنين ثم استعادت القدرة عليه فجأة شمله بنظرة قوية فاحصة لا ذعر فيها كل ما فيها من اهتزاز مرجعه ربما لوجودي ووجود عبد الله.. نظرة لا كره فيها ولا حقد ولا شماتة، كل ما يبهرك فيها هي الإرادة، إرادة أن تنظر ولا تخفى عليها خافية. وبمقام من مقامات صوته لم أسمع شوقي ينطق به قال:

ـ أنت عباس..

ودون أن يرفع الرجل الهيكل رأسه سكب على شوقي كمية ما من نظراته الميتة الوقع والطعم والادراك.

ـ عيان بإيه؟

أطلقها شوقي حامية، وكأنما من صدر حولته حرارة ما يدور فيه من انفعالات إلى تنور. وأيضاً لم يتحرك الرجل الجالس نصف جلسة ولا بدا عليه أنه سمع.

ـ عباس محمود الزنفلي؟

خرجت من فم شوقي كالصرخة، كالنداء الهادر، أعقبها بصرخة أخرى:

ـ انطق.

لم أكن قد سمعت شوقي يرفع صوته أبداً إلى درجة الصراخ، ولـم يحدث أبداً أن فقد اتزانه.

وبدأت الفرحة في نفسي تزداد والأمل يكاد ينقلب إلى حقيقة. أفرحني ذلك الصوت الذي افتقدته سنين وأزعجني، فقد كان يتوهج نفس التوهج الصادر من عيني شوقي حتى بدأت فرحتي تمتزج بخوف أن يحدث شيء أكثر، مثل أن نفاجأ بشوقي ينهال على الرجل الهيكل ضرباً وركلاً وخنقاً. وتدخلت طالباً من شوقي أن يتذكر مهمته، ويعامل الرجل بمثل ما يعامل الطبيب مريضه.

ولكن شوقـي لم يأبـه لتدخلي، بل بدا وكأنـه لم يحس به أصـلاً أو يسمعه، كان وكأنه يعاني من جنون الفرحة المغلولة التي تنتابنا حين تحين فرصة العمر.

وقالت نور الزوجة:

ـ بالراحة عليه يا دكتور.. دا عيان.

ـ انت عباس الزنفلي؟

ورفع الرجل رأسه وأبقى نظرته الميتة معلقة على ملامح شوقي تتلقى الرذاذ الخارج من فمه، ويصفعها زفيره المحموم الذي كان واضحاً أنـه ينتزعه من أعماق سحيقة.. من جروح بالغة القدم بالغة الألم، أعمارها سنين، وقروحها حية لا تزال رغم كل العمق والزمن..

ـ ما تستعبطش.. ما تعملش انك ناسي.. مش فاكر العنبر؟ مش فاكر علق الساعة خمسة؟ مش فاكر دور تسعة؟ مش فاكر النبابيت؟ مش فاكر الكرباج؟ مش فاكر الدم؟ فين كرباجك وديته فين؟ فين صراخك يا وحش

فين؟ فين نعل جزمتك الحديد؟ فين كفك؟ فين صوابعك؟ فين النار فين؟ بص لي وانطق واتكلم وصرخ. . صرَّخ زي زمان. . سمعني صوتك. . صرخ يا عسكري يا أسود. . بص لي وانطق واتكلم وصرَّخ. . ما تعملش ناسي وان عملت أفكرك. . حالاً أفكرك. .

ولا أعرف كيف استطاع شوقي في تلك الومضة المتناهية الصغر من الزمن أن يخلع جاكتته وقميصه، ويرفع فانلته ويكشف ظهره، ويا لهول ما وقعت عليه أبصارنا. لم يكن في ظهره مكان واحد له شكل الجلد أو مظهره. كل جلده كان ندوباً بشعة تمتد بالطول والعرض وتتجمع في هضاب مندملة وتكشف عن مناطق غائرة، في قاعها تكاد تبدو عظام الضلوع. مشهد بشع يجعل القشعريرة تسري في جسدك، لا لمجرد مرآه وإنما لتساؤلك عن القسوة المتوحشة التي أحدثت كل ما تراه. لكأن ذئباً مجنوناً أو غولاً قد أعمل أنيابه وأظافره في ظهر شوقي نهشاً وتقطيعاً وفتكاً.

في جزء من الثانية كان قد فعل هذا، فعله وهو يستدير ليواجه «عباس» بنظره وصراخه لا يكف:

ـ إذا كنت نسيتني فمش ممكن حتنسى ده. . مش رح تنسى اللي عملته. دلوقتي افتكرت؟

وكما بدأ فجأة كف فجأة عن عرض ظهره واستدار وهو يصرخ.

ـ لازم تفتكر كويس ما تنساش، أنا مش ناسي، ولا حد ناسي، ولا حد حينسى، انطق واتكلم وصرّخ وقول انك فاكر، انطق.

وروعت لما حدث. . للطريقة التي كان شوقي يصرخ بها، للصوت العالي المزعج، للهدير، للصراخ وكيف ظل يعلو، وللكلمات المفهومة وقد بدأت تصبح غير مفهومة أو متبينة. ثم كيف، لعلوها بدأت تفقد شكل

الكلمات ،ويصبح كل ما يصدر عنه آخر الأمر مجرد خيط متصل طويل مكون من أشياء لا ندري إن كانت حقداً أو أنيناً أو تألماً وبكاء، وكيف بدأ خيطها يلتوي ويستحيل إلى شيء يشبه العواء، بل إلى عواء حقيقي، عواء مرتجف مستغيث لا يستطيع الكائن الحي أن يطلقه إلا وهو يعاني أقصى وأحد درجات الألم. . الألم الذي لا يحتمله بشر، الألم الذي لا تصرخ معه الحنجرة ،وإنما الصارخ هو الجسد نفسه، لحم الجسد وعظامه وأعصابه وكأنما يجبرها الألم أن تطلق صرختها المستميتة الأخيرة.

والشيء المخيف أن كل هذا كان يصدر عن شوقي، وأننا كنا أنا وعبد الله والزوجة قد أصابنا الشلل لا نعرف ماذا نفعل، ومنظر شوقي يجعلنا نؤمن أن لا قوة في الوجود تستطيع إيقافه، لا عن الصراخ والعواء ولا عن قتل عباس الزنفلي، ولا عن قتل أي منا لو أراد.

أما عباس فقد ظل يسكب على شوقي نظراته الميتة ولا يتحرك له جفن، ولكن ما كاد صراخ شوقي يستحيل إلى عواء حتى رأينا كأن بارقة ادراك قد تحركت فوق سطح العيون الميتة، أعقبتها في الحال اهتزازات عاصفة لم تلبث أن تكشفت عن نظرة ذعر راحت تتعمق وتتعمق وتصبح رعباً هائلاً مقيماً. . رعباً جعل الحياة تدب أيضاً في الجالس المكوم نصف جالس وتدب على هيئة خوف، فبدأ ينكمش على نفسه وينكمش. ويزحف بزوجته بعيداً إلى آخر الفراش، ويصغر حجمه ويتكور. ولم أكن أتصور أن الإنسان في انكماشه يستطيع أن يصل إلى هذه الدرجة التي تكاد تعتقد معها أنه لو استمر ينكمش بنفس السرعة لتلاشى حالاً واختفت الكرة الانسان عن الوجود. وربما رعبه هذا وانكماشه هو الذي جعل شوقي يطارده ويتقدم في اتجاهه ويتضخم كلما رآه ينكمش، ويقترب

كلما ابتعد مطاردة لم يوقفها الفراش فقد ارتقاه شوقي واستمر يتعقبه ويصرح فيه ويعوي ولا يكف. ربما رعبه الهائل ذاك هو الذي حال من ناحية أخرى بين شوقي وبين الانقضاض عليه وإزهاق روحه.

لم يكف شوقي عن تقدمه وعوائه إلا حين فجأة فتحت الكرة البشرية الملتصقة بالحائط، والتي لم يعد لها مجال للتراجع، فتحت فمها وأطلقت ذلك العواء المزعج الذي أخافنا ونحن في الصالة، عواء اختلط بعواء شوقي وعلا حتى أسكته، وحتى أوقفه في مكانه لا يتكلم أو يصرخ أو يصدر عنه صوت. عواء مرعوب أول الأمر يستغيث، ثم باك، ثم عال مجنون مرتفع. ثم.. ثم فوجئنا بما لم نكن نتوقع أبداً بالعواء ينقلب إلى هبهبة كهبهبة الكلب، وبالكرة البشرية تنفرد ويمتد منها فم طويل وينفتح وينغلق في كل اتجاه ويهبهب هاو هاو هاو.. وامتد الفم مرة وكاد يقضم كتف شوقي، وجزع الأخير وبدا وكأنما قد عاد إليه وعيه، وفي قفزة كان قد غادر مكانه فوق الفراش ليصبح بعيداً عن متناول الفم الطويل المفتوح على آخره. ولم تنقطع الهبهبة، بل حدث ما هو أكثر.. أطبق الفم المفتوح على يد الزوجة القريبة منه وبدأ يلوكها بين أسنانه ويضغط كمن يهم بالتهامها. واحتملت الزوجة قليلاً، وهي ترجوه أن يتركها، ولكننا وجدناها فجأة ـ وكأنما أدركت أن يدها على وشك أن تتمزق ـ تطلق صرخة أعلى من كل عواء وهبهبة، تعقبها بصرخات سمعنا على أثرها دق الجيران على الباب، بل فوجئنا ببعضهم وقد اقتحم الحجرة ودخل.. أكثر من رجل وامرأة وفي أذيالهم أطفال. ورغم وجودهم ووجودنا لم يجرؤ أحد على الاقتراب من عباس وانتزاع يد نور من الفم المطبق عليها، ولم ينقذها إلا عودة الفم للهبهبة وزوال إطباقته. ووقفنا جميعاً وقد انضمت الزوجة

الدامعة إلينا، وبيننا وبين الفراش مسافة، ترقب ما يحدث. . ترقب«عباس» وقد بدأ يضرب الفراش ويهبهب ويعوي ويغرس أظافره وأنيابه في قماش المرتبة ويمزقه، ويمضغ القطن، ويزداد هياجه ويبدأ بضرب وجهه بكفه كمن يلطم، ويعمل أظافره في جلده تجريحاً وتمزيقاً. ونحن ننظر إليه ونعتقد أنه في الدقيقة التالية سيهدأ فلا يهدأ، وكل ثانية تمر تزيده هياجاً إلى درجة أرعبتنا وجعلت كلاً منا يفكر في مغادرة الحجرة،لولا أن«عباس» أهوى بفمه على لحم ذراعه النحيلة التي كانت تبدو من كم الجلباب الممزق، وظل يضغطوينظر إلينا بعيون ملتهبة تحترق،ويضغط،ولعابه قد غطى الذراع العارية ومن كثرته بدأ يتساقط ويسيل، وهو لا يكف عن النهش والضغط ،وكأنما هو لا يحس أو يتألم،أو كأنما يدفعه إلى مزيد من الهياج وغرس أسنانه في اللحم. وكان لا بد أن يحدث ما حدث، وأن تدير النساء وجوههن، وأن ندير وجوهنا معهن، ما عدا شوقي فقد لمحته لا يستدير، وإنما يظل يتفرس في وقفة مستمتعة مريضة بما يراه، وحين عدنا مرة أخرى نواجه«عباس»تبين أننا لم نكن قد تحاشينا الكثير باستدارتنا، فقد وجدنا وجهه قد ارتفع عن الذراع حقيقة، ولكن الدم كان يتساقطمن فمه ويختلط بلعابه! إذ بين أسنان الفم التي كانت قد انفرجت عنها الشفاه كانت هناك قطعة لحم مدماة، القطعة التي كان قد نجح في نهشها من ذراعه ذراعه التي كانت لا تزال في مكانها فوق ركبته، ومكان العضة فيها قد أصبح جرحاً متهتكاً بشعاً. وكان عباس الزنفلي لا يزال رغم وجودقطعة اللحم بين أسنانه يعوي ويهبهب بصوت مكتوم، وكأنه ينزف من صوته والدم قد بلل عواءه وخنقه.

الغريب أني كنت في تلك اللحظة بالذات قد اكتشفت أن على الحائط المجاور للفراش بروازاً فيه شهادة معلقة، حروفها تلمع تحت الزجاج

المتسخ، والأغرب أني وجدت نفسي أترك كل ما يدور في الغرفة وأنهمك في قراءة ما في الشهادة. ولم تكن شهادة.. كانت براءة نيشان الواجب من الدرجة الثانية، فيها نفس الكلمات التي قرأتها في نفس الملف، والتي كان بصري قد ألغى كل شيء حوله وتوقف عندها، وبالذات عند كلماتها «تقديرا لتفانيه في خدمة مصالح الوطن العليا»!

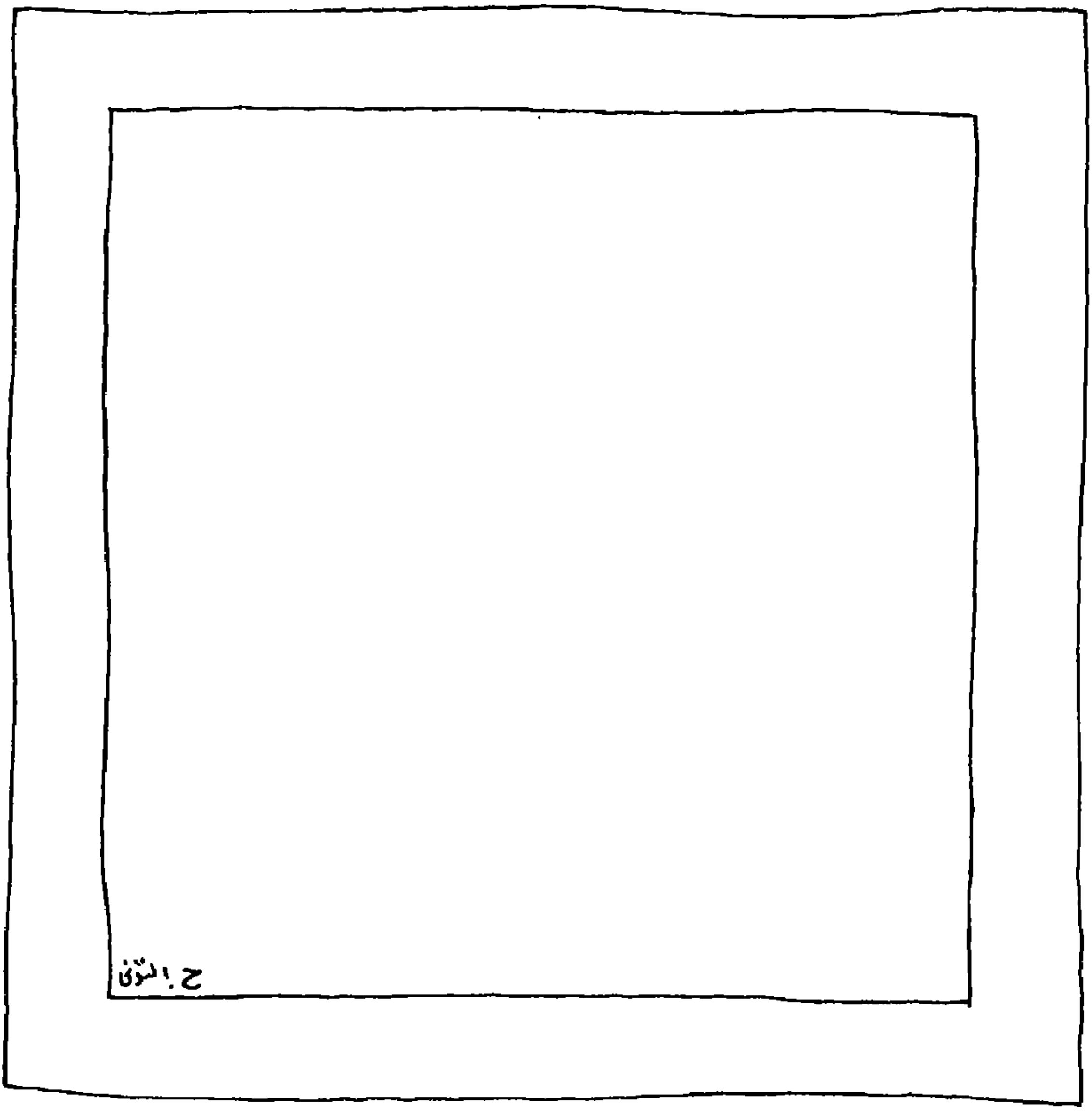
كان هذا آخر عهدي أو عهد شوقي بالعسكري الأسود، إذ يومها غادرنا المكان حتى دون أن يكتب شوقي قراره إذ ترك المهمة للحكيمباشي، ولم أستطع فيما تلا هذا من أيام أن أخمن ما حدث لشوقي، ووقع اللقاء وما حدث فيه عليه. كنت قد وضعت خططاً كثيرة لمعاودة المجهود مع شوقي، وقد أجج أملي تلك الدقائق القليلة التي رأيته فيها على حالته الأولى، خاصة وقد بدا خلال الأيام القليلة التي تلت ذلك شغوفا باثارة الموضوع بمناسبة وبلا مناسبة، دائب التفكير فيه، يفاجئني مرة بقوله: أتعرف أنك حين تؤذي غيرك تؤذي نفسك دون أن تدري؟ ومرة يسرح ويضحك فجأة ويقول: دع الضارب يضرب فيده التي تضرب تمتد أيضاً إلى ذات نفسه. ولم يقتصر الأمر على التفكير، دخلت عليه يوماً فوجدته منهمكاً في الكتابة، وما أن رآني حتى جمع الأوراق محاولاً أن يخفيها ولكني من بين أصابعه استطعت ان أقرأ عناوين فقرات.. فلسفة العلقة.. الايلام سلاح ذو حدين.. وعناوين أخرى كثيرة. وسألته فقال إنه بحث قد يطلعني عليه يوماً ما.

وفيما عدا هذا كفتني بضع جلسات مع شوقي أن أؤمن أن الحالة التي رأيته عليها وملأتني بالأمل كانت كصحوة ما قبل الموت، وأن ما حدث له من تغيير، والكائن الجديد الغريب الذي أصبحه طريق لا يمكن الرجوع منه، لا يمكن أن يعود الجلد الطبيعي مكان الندبات التي يحفل بها ظهره.

أجل! أدركت ما فاتني إدراكه طوال سنين.. أدركت أن شوقي وقد فقد أمنه البشري مرة لن يعود أبداً مثلنا بشراً مرة أخرى.

ولا أعرف لماذا كلما راجعت ما حدث لا أستطيع أن أنسى رغم كل ما رأيته وشاهدته، كلمة خيل إلي أنها عادية جداً وطبيعية ساعة أن سمعتها تقال، ولكني لا أعرف لماذا ظلت تلح علي ولا تتركني. الكلمة قالتها امرأة من اللاتي حضرن على صراخ نور.. إمرأة لعلها «أم علي الحسادة». وقالت ونحن نتأهب لمغادرةالحجرة،وقد أصبح البقاء فيها أمراً لا يتحمله العقل، وقطعة لحم عباس بين أسنانه،ودماؤه تكاد تصبغ كل ما تقع عليه العين. سمعت المرأة تمصمص بشفتيها وتهمس للواقفة بجوارها: لحم الناس يا بنتي.. اللي يدوقه ما يسلاه.. يفضل يعض انشا الله ما يلقاش إلا لحمه.. الطف يا رب بعبيدك!

سمعتها ورنت في أذني رنين الكلام الفارغ الذي نسمعه من خالاتنا العجائز لنسخر منه.. ولكن لا أعرف لماذا لا تزال تلح عليّ.



العيب

١

ثلاث مرات في تاريخ المصلحة ازدحمت مثل هذا الازدحام. . يوم توفي سعد زغلول ونعاه الناعي، ويوم طرد الملك، واليوم الذي عينت فيه سناء. ففي ذلك اليــوم تم تعييــن خمس من زميــلاتها الناجحات في المسابقة، وفي نفسه أيضاً انقلب المستحيـل حقيقة وانقلبت المصلحة سوقاً أرخص ما فيها الكلام، بل لا شيء فيها غير الكلام. المصلحة من يوم انشائها والعاملون فيها رجال في رجال. الرجال هم الذيـن أنشئوها ووضعوا لها اللوائح والقوانين، وهم الذين تولوا طوال تاريخها التنفيـذ وهم الذين بنوها طوبة طوبة ورسموا التقاليد. رجال. كلهم رجال! حين يشيخ منهم جيل ويودع العمل يحل محله جيل جديد، شبان صغار بآراء جديدة ودم جديد، ولـكنهم مع ذلك أيضاً رجال. ربما لهذا لم يصدق أحد البتة تلك الإشاعة التي سرت ذات يوم، وقالت إن النية قد اتجهت إلى تعيين «بنات»! كيف يصدقها أحد والمصلحة من يومها ـ ككل مصلحة ـ وكر رجالي لا تسمع فيه إلا أصواتهم وشكـايـاتهم، ولا تشم فيـه سوى روائحهم ووقع خطواتهم. . طالعيـن هابطيـن، دارسيــن لأسرار العمل العظمى والكادر وأمزجة الرؤساء؟

ولم تكن استحالة التصور تحيزاً ضد المرأة، ولكنها استحالة أن يعتقد

أحدهم أو يهضم أن تستطيع فتاة أو سيدة ما في الوجود أن تجد لها مكاناً داخل هذه المؤسسة الرجالية الخالصة. . تماماً كما لا تستطيع أن تتصور أن توجد فتاة أو سيدة في جناح الملابس الداخلية الخاصة بالرجال مثلاً فهنا مكان رجالي مزدحم ـ لا بحكم اللوائح ـ ولكن بحكم الكتلة ونوع الكتلة وكتلة الكتلة. تماماً كما لا تستطيع أن تتصور وجود لوزة سوداء مع لوز القطن الأبيض، أو وجود رجل ـ أي رجل ـ في مكان خاص بالسيدات مهما كان السبب في تجمعهن، حتى ولو كان سبباً لا يمت إلى الجنسين بصلة.

لهذا فالإشاعات حين سرت قبل بضعة شهور عن اتجاه النية لتعيين بعض الفتيات في المصلحة، لم تقابل بأي تعليق على الاطلاق. وأي تعليق بامكانك أن تدلي به لو قالوا مثلاً أن النية متجهة لتعيين أطفال للتدريس في مدارس روضة الأطفال!

الضجة التي لم تحدث إلا حين ذهبوا إلى عملهم ذات يوم كالمعتاد لا بهم ولا عليهم، فوجدوا في أكثر من حجرة من حجرات المصلحة فتيات، وأكثر من هذا وجدوا قرارات بسرعة قد كتبت على الآلة الكاتبة في أقسام المستخدمين، ومكاتب جديدة ـ وخطان تحت جديدة هذه ـ أعدت وجلست عليها الفتيات.

ولا يهمنا ما حدث في الحجرات الأخرى، يكفي جداً أن نختار مكتب التصاريح الذي قدر أن تعمل به «سناء» من بين الخمس فتيات اللاتي عين كدفعة أولى ـ وخطان تحت أولى هذه.

يومها وبعد ما بقيت في الردهة فترة تسأل عن محيي أفندي الذي قيل لها أن تذهب إليه بالورقة التي معها، وفي الطرقة الطويلة نسيت اسمه ووقفت حائرة تسأل الساعي الجالس فوق كرسي واضعاً ساقاً على ساق

ومن تحت شاربه الكث غير المشذب تخرج كميات هائلة من الدخان أكثر بكثير من التي يجذبها تباعاً من السيجارة النحيفة التي لا تكاد تظهر بين أصابعه . تسأله عن محيى أفندي والساعي يحتسي القهوة من الكوب الزجاجي الرفيع باستمتاع، ويؤكد لها أن لا أحد في قسمهم له هذا الاسم. وبعدها تحايلت على التذكر بأن طلبت منه في لباقة ـ وبابتسامة لجأت إلى أنوثتها كي تجعلها ساحرة ـ أن يعدد لها أسماء الموظفين. وتفعل الابتسامة فعلها ويكر الساعي الأسماء، وبهذا وحده تعثر كالغريقة على اسم محيي أفندي، وبعد قليل تعثر عليه شخصياً. ويدخلها الساعي وهو لا يعلم من تكون، بل وكاد يفقد عقله وظل أكثر من ربع ساعة يضرب كفاً بكف ـ لا تدري لماذا ـ حين عرف أنها موظفة جديدة عينت في المكتب، ولا يصدق. . ولا يصدق حتى وهو يقطع احتساءه للقهوة ويحمل لها على كاهله من المخزن مكتباً جديداً أنيقاً ويضعه كيفما اتفق في حجرة الموظفين ذات الأربعة مكاتب، ويعاني الأمرين وهو يضعه وكل منهم يشير عليه أن يضعه في مكان، والمشير والمشار إليه لا يزالان غير مصدقين أو مقتنعين أو مؤمنين بأن ما يدور أمامهما وأمام الآخرين حدث حقيقي سيظل موجوداً غداً مثلاً وبعد غد وإلى وقت القيام بالإجازة السنوية، حتى حين استقرت سناء على مكتبها الذي جاء وضعه في أسوأ مكان في الحجرة، فالحجرة لها أربعة أركان، وكل موظف فيها قد اختار له ركناً تشبث به واحتمى، واحتله احتلالاً أبدياً. وكل ما يميز ركن الباشكاتب رئيس الثلاثة، أن مكتبه أكبر قليلاً ومتقدم قليلاً بحيث يواجه الداخل إلى الحجرة. المكتب الجديد وضعوه هكذا بجوار الباب مباشرة ودون أن يتنازل أيهم ويزحزح مكتبه، حتى بدا وضعه نشازاً، وبدا وكأنه متطفل على الحجرة ـ فللحجرة أربعة أركان، وفيها أربعة مكاتب قائمة

وثابتة ومشغولة، ما حاجتها إلى موظف أو موظفة جديدة أو ركن خامس؟ ولم تكن هذه كل سيئات الوضع الجديد للمكتب، فبوجوده بجوار الباب يعرض الجالس عليه ـ أقصد الجالسة ـ للخبط كلما فتح الباب، حتى حين حاولت سناء جهدها أن تعدل من الوضع بحيث يتلقى مكتبها أقل الخبط باءت جهودها بالفشل.

كل هذه تفاصيل صغيرة وغير مهمة، فالمهم أن الساعة ما كادت تشرف على التاسعة حتى كانت سناء قد استقرت تماماً على كرسيها ووضعت يديها أمامها فوق المكتب كعادتها إذا جلست إلى ترابيزة لجنة الامتحان قبل توزيع الأسئلة. كانت تنتظر ما سوف يعهد إليها به من عمل، فهي لم تنم ليلة الأمس إلا نادراً، وقضت الساعات الطويلة تحلم بما سوف يحدث في الغد بتفاصيله الصغيرة حتى. كانت تحلم بدخولها المكتب، برئيسها، بالطريقة التي تقابل بها زملاءها، ثم أخيراً بالعمل. لم تكن تعرف بالضبط ماذا ستعمل، ولكن أحلامها ظلت تدور في غموض مثير حول هذه النقطة بالذات، ويدق قلبها بالانفعال وكأنها ستزف إلى العمل مثلاً.. إلى ذلك الشيء الغامض المحير الذي له رائحة الرجال ولملامحه جديتهم وصرامتهم. مهما كان فهي تريده، وها هي ذي تحلم وتتلوى وتحتضن المخدة مفكرة فيه محاولة أن تتخيل نوعه ووقعه وأهميته، وتصرفاتها ازاءه.

وحين جاء الصباح أخيراً وتم كل شيء تقريباً كما تخيلت، لا تزال برغم وجودها فوق كرسي وأمام مكتب وفي حضرة رئيس وزملاء، تحلم وتتصور وتبتلع ريقها مراراً في انتظار ما ستكشف عنه اللحظات القليلة الخطيرة المقبلة.

٢

اللحظات القليلة المقبلة لم تتكشف عن شيء ذي بال بالنسبة لسناء. الحقيقة تكشفت عن أشياء بالنسبة لزملائها الموظفين! إذ في ذلك اليوم ورغم مضي ساعة على بدء العمل لم يبدأ العمل، وإن وجد كل منهم نفسه مشغولاً بترتيب أوراق، والتحدث إلى الرئيس الباشكاتب في مسائل تتعلق بالعمل، مستعملاً في حديثه اصطلاحات وتعبيرات تكنيكية خاصة، مدسوسة من عمد. ولكن أحداً منهم ـ حتى الباشكاتب نفسه ـ لم يكن قد فكر لثانية واحدة في العمل. وفي الفترات التي كانوا يكفون فيها عن التفكير في العمل ـ وهي ليست قليلة بالمناسبة خلال اليوم الواحد ـ كانوا في العادة يتحدثون عبر المكاتب ويتناقشون. في تلك الساعة لم يعملوا، ووجدوا أنفسهم غير قادرين لسبب ما على التحدث عبر المكاتب كما اعتادوا، لا لوجود سناء أو لخجلهم منها ولا لأي سبب معلوم. كل ما في الأمر أن أمنية كل منهم كانت قد تركزت دون أن يشعر حول أن يتاح لهم أن ينفردوا بأنفسهم قليلاً ليعودوا أربعة مثل ما كانوا حتى يصبح باستطاعتهم التفكير أو الحديث. وأيضاً لم يكن يعرف أي منهم بالضبط ما يريد قوله. أشياء كثيرة يحس بها، ولكنه لم يكن يعرف بالضبط ما هي أو كيف يعبر عنها. وحتى تلك اللحظة لم يكن أي منهم قد

ألقى نظرة متطلعة أو متعمقة إلى زميلتهم الجديدة، ولا حتى رأى إن كان شكلها يعجبه، أو حاول معرفة اسمها أو ماذا ستقوم به من عمل. كان يؤجل هذا كله إلى أن يعود نفسه أولاً . . أن يمسك بزمام كيانه ليستطيع أن يتكلم أو يرى أو يسمع أو يعرف. كل شيء ظل يؤجله إلى أن تغادر القادمة الجديدة الحجرة، ولو حتى للحظة.

ولكن سناء لم تغادر الحجرة، بل وكانت هي الأخرى لا تستطيع أن ترى أو تسمع أو تحس بما حولها، وإن كانت لا تزال جالسة ويداها فوق المكتب وعقلها في حالة سكون تام في انتظار أن يقول أحد له تحرك ليتحرك. خيالها فقط هو الذي كان يتحرك . . وحتى لم يكن يذهب بعيداً كان يتحرك «محلك سر». يترقب أن يعرف أخيراً هذا الشيء المجهول الذي تعبت سناء وأتعبت أهلها معها وتعلمت ونجحت ليتاح لها أن تأتي إلى هذا المكان وتعرفه.

وفقط حين انتقل عقرب دقائق الساعة المثبتة فوق رأس الباشكاتب إلى علامة النصف بعد الثانية «فالساعة كانت ثمة خمس ساعات فرق بينها وبين التوقيت المحلي للقاهرة»، حين تحرك العقرب ليشير إلى التاسعة والنصف ولم تتحرك سناء أو تغادر الحجرة، بدأ الأربعة يتململون ولم يعد باستطاعتهم الصبر. واستأذن أحمد وخرج، وما لبث شفيق أن تبعه والتقى الاثنان على الباب، وقبل أن يحدث أي شيء آخر وجدا نفسيهما يقهقهان ويتصافحان بعنف، وكأن أحدهما قد انتهى لفوره من القاء نكتة أعجبت الآخر، وجعلته يتطوح ويتلوى «ويدق» على كف زميله مرة ومرات.

قال أحمد:

- شفت يا عم؟

وضحك شفيــق وهو يأخذه من ذراعه ويبتعد عن الحجرة حتى لا تتسرب ضحكاتهما إلى الداخل. ولـم يذهبا بعيـداً فقرب البوفيـه وجدا اسماعيل وصفوت و«أبو»النجا من قلم المراجعة في حالة مؤتمر ضاحك. دخل عليهم أحمد بقامته الرفيعة الطويلة وصديريه الذي يتهدل من ناحية ويبدو في هذه الناحية بالذات أوسع من صدره وقميصه، وطوق صفوت واسماعيل بذراعيه قائلاً:

ـ شفتوا اللي حصل؟

ـ دا احنا لسه نا بنتكلم.

ـ كفك على كده.

وتصاعدت من الخمسة قهقهة غطت علـى كل الضجة الصادرة من البوفيه. . قهقهة انزعجت لها لا بد أبنية المصلحة العالية الـوقورة. وما لبثت الطرقة والصالة وحجرة الموظفين في قسم الأرشيف ـ الوحيدة التي بقيت على حالها رجالية محضة ـ أن امتلأت بموظفي المصلحة وكأنهم في حالة فسحة أو اضراب. . جماعات متفرقة وشلل وأقسام بأكملها على هيئة مؤتمر. وحتى حجرات الرؤساء ذات السجاجيد كنت تجد بعضهم قد سعى إلى الآخر وطلب القهوة وجلس وبدأ الحديث.

في تلك الساعات الأولى من اليوم الأول لم تكن الآراء محددة، بل لم تكن هناك آراء على الاطلاق! ضحكـات وقهقهات كنت تجد تريقة كنت تجد، لا على الموظفات الجديدات ولكن على أنفسهم، أو على وجه أصح على الضعفاء منهم، وبالذات تلك النماذج الغلبانة التي ليس باستطاعتها التريقة أو قول النكات. أحدهم يقترح على عم فرج موظف الخزنة أن يذهب ويبحث لنفسه عن عمل آخر، إذ هم في الطريق إلـى فصله من عمله بسبب شكله القبيح وتعيين موظفة خزنة من طراز مارلين

مونرو. والنكات تنهال على الحاج ابراهيم الفراش ذي اللحية. بكره الست تبعتك تشتري خضار يا حاج.. واللا ترضع النونو. ومين عارف يمكن تقصدك مرة ترجع الكورسيه! وذلك الذي يقترح على متعهد البوفيه أن يفتح فاترينة للروج والريميل! إلى آخر ما استطاعت عقول الموظفين ابتكاره من أبواب القافية والتنكيت.

وفي طواف أحمد وشفيق بالمصلحة، والمصلحة كلها كانت في حالة طواف ببعضها البعض، التقيا بالباشكاتب وسلما عليه بحرارة وكأنهما يقابلانه بعد سفر، وهو الآخر أخذهما بالأحضان وكأنه نجا لتوه من حادث. وقال له أحمد:

ـ هيه.. ايه رأيك؟

ـ قالوا اللي يعيش ياما يشوف.. وياما لسه حنشوف!

واكتشف الثلاثة بعد برهة أن «الجندي» ليس موجوداً في طرقات المصلحة ولا ردهاتها، وأنه لا بد قد عسكر في الحجرة لم يبرحها، وزمانه في تلك اللحظة هو و«الست» وحدهما. وأن يترك الجندي مع سيدة بمفردها في حجرة تقابل عندهم أن يترك المراهق مع سيجارة، أو المراهقة مع تليفون، وضع معناه كارثة محققة.

٣

وليس لهذا الأمر وحده عادوا جميعاً إلى الحجرة. كانوا بعد ما شبعوا ضحكاً وتهليـلاً وأفرغوا كل ما عندهم من نكـات، قد اكتشفوا أن أحداً منهم أو من غيرهم ممن كتب عليهم أن يرزءوا بفتاة من الفتيات الخمس لم يكن قد رأى «الست» أو تفرج عليها. اكتشفوا أن انفعالهم كان لمجرد الخبر المؤكد الذي ليس اشاعة أو نية أو اتجاهاً، ولكن حقيقة واقعة أصبح لها مكاتب، وصدرت من أجلها قرارات. أليس من الواجب أن يروا كنه تلك الحقيقة ويتأملوها؟

وصح ما توقعوه، فما أن فتح أحمد الباب وتراجع ليدخل الباشكاتب أولاً، حتى تناهى إلى سمعهم صوت محمد الجندي الأخنف قليلاً يقول:

ـ يعني لسه ما تشرفناش باسم حضرتك.

ولأول مرة يتعالى في حجرتهم صوت حريمي يقول:

ـ سناء.

يقولها في خجل متلعثم سريع لا يليق بزميلة. هنا تلكأ الباشكاتب في الدخول وبقي الباب مفتوحاً، وجاءهم صوت محمد الجندي مرة أخرى يقول بطريقة ليست غريبة عليهم.

ـ تشرفنا. . أهلاً وسهلاً. . ثناء وانت صحيح ثناء.

ـ أنا اسمي سناء. . سناء بالسين.

وإلى هنا لم تحتمل الأعصاب، وهجم الثلاثة داخلين في كتلة مندفعة ذات ثلاثة أحجام مختلفة ما لبث أن انقسمت وتمكتبت. وصوبت ستة أزواج من العيون التقت كالأنوار الكاشفة النهارية على وجه محمد الجندي، وكأنما لتضبطه وتصب عليه ستين زوجاً من اللعنات. لعنات الباشكاتب معروفة بترفعها واحتقارها لأساليب الجندي، ولعنات أحمد الطويل فيها قرف من لزاجة الجندي المعهودة، ولعنات شفيق لم تكن في حقيقتها لعنات. كانت مجرد تأنيب دقيق كامضائه لا تتبينه بسهولة كتأشيراته، كآرائه في الناس والحياة.

وفعل كل هذا فعله في الجندي، فما لبث أن اختفى وجهه عن الأنظار اللاهثة الكاشفة وانكفأ يكتب، أو على الأصح يحرك القلم على هيئة كتابة.

ولكن الأنظار ظلت مسلطةعليه،وكأنما لتتأكد من صدق توبته، ثم ما لبثت في أزمنة متفاوتة، وبسرعات متفاوتة، وتردد وأدب وقلة أدب وقوة ابصار متفاوتة أيضاً، أن استدارت إلى «الست» تتفحصها وتحلل ملابسها إلى عواملها الأولية وأثمانها، ووجهها إلى أنف وعيون ونوع بودرة وطريقة تصفيف شعر، وحذاءها الواضح من تحت المكتب لتحدد إلى أي الطبقات الاجتماعية تنتمي.

والظاهر أنهم اندمجوا في الاستطلاع والتحليل إلى درجة لم يشعروا فيها بعيون محمد الجندي، وهي تنضم إلى وليمة العيون بلا حرج ولا تكليف، وبطريقته الدنيئة اللزجة الخاصة.

وغير مهم الزمن الذي استغرقته عملية الفحص، فهم وإن كانت مشاربهم وشخصياتهم وأهواؤهم مختلفة متباعدة إلا أنهم جميعاً -بمن فيهم الجندي - خرجوا برأي واحد. . الواضح أن الزميلة العزيزة جميلة التقاطيع، مسمسمة، سمراء قليلاً، ومن كل أدوات الزينة لا تستعمل سوى الروج، ليس غامقاً كالسمراوات حين يضعنه، ولكنه روج مؤدب هو الآخر ليس هدفه أن يبرز جمال الشفاه، إنما هدفه فقط أن يدل على وجودها ويحددها، وكان واضحاً أنها ليست مؤدبة فقط، ولكن أدبها من النوع الذي لا يمكن التحول عنه، فهي لا تستعمله لأنها مع رجال مثلاً أو تخاف على سمعتها، ولكنه أدب حقيقي نابع من طبعها.

غير أن الجندي لم يفته أن يلاحظ أنها قد طلت قدميها بالمانيكير، وقد أسعده اكتشافه هذا سعادة لا توصف، فهو في نظراته لجنس النساء عامة كان دائماً يحاول أن يجد فيهن أو في شخصياتهن ما يسميه هو بعلامة «الرضاء الموارب»، وسناء كان من الواضح أنها من النوع المحصن المغلق الحصين، ما عدا هذا الطلاء الذي لا يكاد يرى في أصابع قدميها.

لعل وعسى يصلح علامة للرضاء الموارب. من يدري؟ لعل وعسى.

٤

وفي حوالي الحادية عشرة بدأت تحدث في المصلحة ـ وعلى نطاق أضيق ـ حركة تجوال أخرى وتطواف هدفها تكوين فكرة ما عن الموظفات الجديدات. واثنان من موظفي الحجرة هما اللذان خرجا هذه المرة. . كان أولهما محمد الجندي الذي اتجه فوراً إلى إدارة التفتيش، حيث قد سمع عرضاً من الساعي أن الموظفة التي عينت هناك مثل «المهلبية». فعلاً وجدها كذلك وبطريقة تسيل اللعاب، فقد كانت تبتسم على الفاضي والمليان ولكل من هب ودب، وتحادث كل راغب في الحديث، وكل شوية وشوية تمد أصابعها بسرعة لتطمئن على «القصة» وتفرد شعراتها أو تجذبها الى أسفل لتعيدها الى فوق جبهتها. ولكنه أيضاً لم يتوقف كثيرا في ادارة التفتيش فقد كان عليه أن يطوف بالمكاتب الثلاثة الباقية، لتكون فكرته عن الزميلات الجديدات كاملة ومبنية على أساس من المشاهدة الشخصية التي لا تقبل الجدل.

وأكثر من «جندي» كنت تجدهم كذلك، وأكثر من جماعة تكونت أعضاؤها من السعداء الذين عينت في أقسامهم فتيات يتبادلون الرأي حولهن ويقارنون بينهن ويختلفون حول أيهن تتوج ملكة الجمال على الخمس؟ وأيهن أكثر أناقة؟ ومن ملكة السيقان؟ ولم يخل الأمر من

جماعات مشتركة من سعداء الحظ وتعسائه، أولئك الذين ظلت مكاتبهم رجاليــة خشنة في تلك الجماعات، وبعد أن كان أعضاؤها ينتهون من التحسر أو التفاخر كان يبدأ حديث ما عن المستقبل، وبالذات عن مستقبل الفتيات! وعند هذه النقطة كانت تتفق آراء الجميع على أنها مسألة أيـام فهن قد نجحن حقيقة في اقتحام ذلك المعقل الرجالي، واغتصاب مكاتب بقرارات، ولكن المشكلة ليست في الاقتحام. . المشكلة في الصمود في العمل نفسه، فمما لا شك فيه ولا نقض أنهن لن يستطعن بأي حال أن يمارسن العمل، لا لصعوبته، ولكن لاحتياجه إلى عقلية الرجل وتصرفه وشخصيته. . وهكـذا كان أكثر المتفائليــن تفاؤلاً لا يعطيهن سوى شهر واحد مهلة، بعده ستضطر المصلحة حتماً لأن تطلب نقلهن إلـى أعمال أخرى في الوزارة، أو حتى خارج الوزارة كلية. . والدلائل كانت تشيـر إلى أن شيئاً من هذا وشيك الحدوث، فالمصلحة لتلك اللحظة حائرة لا تعرف ماذا تعهد إليهن به، والفتيــات لا يزلن جالسات لا يفعلن إلا الانتظار، بينما موظفة التفتيش نادمة علــى أنها لـم تحضر معها الابر والتريكــو إذ كان باستطاعتها خلال السبع الساعات التي قضتها جالسة تنش الذباب أن تنتهي بسهولة من البلوفر الذي بدأته.

يومها، ذلك اليوم الأول، عادت سناء إلى البيـت باحساس تلميـذة أولى ابتدائي حين تعود بعد أول يوم دراسي في حياتها، وكـل ما داعب خيالها من أحلام حول الدراسة قد تبخر في أثناء جلستها الطويلـة علـى المقعد بلا حصص ولا كتب جديدة ولا مسائل حساب.

ولكن ذلك كان في اليوم الأول فقط. فما كاد يمضي يوم آخر إلا وسناء قد وجدت نفسها غارقة في العمل، ضائعة مشتتة، وكـأنها تقرأ أسئلــة امتحان جاءت كلها خارج المقرر. لقد ظل الباشكاتب يشرح لها ما يجب

عليها عمله أكثر من ساعة، ويسألها بعد نهاية كل شرح أن كانت قد فهمت فتهز رأسها بالإيجاب. ولكنها حين يعهد إليها بالموضوع على سبيل التجربة تجد كل ما قاله يطير من عقلها ويتشتت، وتجد نفسها عاجزة عن تنفيذ ما طلبه أو فهمه، تحدق في يأس قاتل ناحية أحمد وشفيق وحتى محمد الجندي، وتجدهم جميعاً منكبين يعملون بسرعة وببساطة، فتكاد تبكي وهي تحس بهم عباقرة مشتعلي الذكاء، وبنفسها غبية حمقاء لا يمكن أبداً أن يأتي عليها يوم يصبح لها فيه نفس قدرتهم الخارقة تلك.

والغريب أنها بعد بضعة أسابيع حين أدركت أن كل المعميات التي كان مطلوباً منها أن تنجزها، لم تكن تتعدى تحرير التصريح وتتبعه حتى يختتم بخاتم المصلحة، كانت تضحك على نفسها ولخمتها! ولكنه شيء لم يحدث إلا بعد بضعة أسابيع، أما في تلك الأيام الأولى فحدث ولا حرج عن العرق، والمنديل الصغير وهو ينتقل في سرعة واضطراب كمنديل الحاوي المبتدىء من باطن احدى اليدين إلى الجبهة، والخجل المشل للقلب المعشى للبصر. والدموع.. الدموع الداخلية غير المرئية التي لاتني عن سكبها في المصلحة، والدموع الظاهرة التي تتفجر بارادتها في البيت. حالة ليتها كانت تملك معها القدرة على الرثاء لنفسها. فالعكس هو الصحيح، إذ كانت لا تكف عن لوم نفسها رغم كل هدهدات الأم ومحاولاتها للتخفيف والتبرير، رغم كل ابتسامات زملائها في الحجرة والعمل ونظرات الإشفاق التي يغمرونها بها حتى لا تتعثر فيها وتكاد تنزلق، رغم صبر الباشكاتب وطول باله واحتماله لها وهي تكرر الخطأ نفسه مرة، وتحاول بعناد أن تتلافاه فتجد نفسها تكرره مرة أخرى، وأية أخطاء! أخطاء تصل إلى أنها وهي خريجة التجارة تجد نفسها أحياناً عاجزة عن تحويل المبلغ المرقوم أمامها إلى مبلغ مكتوب، وتشك وتخاف ألف

مرة قبل أن تضع العلامة العشرية.

ولكنها الأيام الأولى ـ كأية أيام أولى ـ كان يجب أن تمر وتحمل معها كل الذكريات المحرجة الأليمة، ومواقف الاعتذار، وعشرات المرات التي يئست فيها تماماً وفقدت الأمل.. كان يجب أن تمر لكي تصل سناء إلى المرحلة التي أصبحت تجتازها بنجاح، مراحل الفهم الأولى والاحاطة بالثغرات والمزالق تلك التي تشبه مرحلة الانطلاق في تعلم ركوب الدراجات، المرحلة التي يصبح في مقدرة المرء فيها أن يبدل ويسير دون أن تسقط به الدراجة بعد بضعة أمتار.

ونفس الشيء حدث لكل ما هو خارج العمل وعلى هوامشه فزملاؤها في الحجرة الذين كانوا يبدون لها ـ رغم كل ما بينهم من اختلافات ـ متشابهين إلى درجة لا تملك التفرقة بينهم، كانت قد استطاعت أن تحفظ أسماءهم، وحتى نوع العمل الذي يؤديه كل منهم.. وأكثر من هذا بعض خصاله. ولقد اطمأنت لهم جميعاً، وفي وجودهم لم يكن جهاز رادارها الأنثوي ينقل إليها أية نوايا ذكرية خافية، جميعاً ما عدا الجندي فقد كان الجهاز الكامن في أعماقها يدق كلما حاول أن يقترب منها أكثر من اللازم.. كلما فضل ألا يتنحى جانباً ليفسح لها طريق الخروج.. كلما اتكأ بمرفقه على مكتبها وهو يحادثها حديث عمل في الظاهر، بينما عيونه التي يتأرجح لونها بين الصفرة والخضرة تجوب سطح المكتب ويديها، وتتأمل عقل أصابعها وخاتمها وجلد رقبتها وكل ملليمتر مربع من شفتيها، في فحص وقح خرب الذمة، لا يرده عن تصور أي شيء قد يخطر بباله وازع أو خجل، ولكنها لم تكن دقات خوف.. على وجه أخص خوف أنثى من ذكر، أو فتاة من رجل يطاردها.. كانت دقات

اشمئزاز واستنكار، فلا أحد ممن تضمهم الحجرة كان قد راق أو استوقف عينيها، خاصة الجندي فلا شكله كان عجبها، ولا طريقته في معاملتها ولا علاقته بزملائه، ولا أي رأي قاله أو كلمة خرجت من فمه. حتى عادته في تدخين سجائره نفرت منها، فقد كان يبتلع النفس ثم يفتح فمه ويترك الدخان يخرج منه وحده دون أن ينفثه أو يبذل جهداً في اخراجه، فكان يبدو وكأن الدخان الخارج من فمه مجرد رائحة منفرة خارجة على هيئة دخان، كأن في بطنه عقب سيجارة تركه أحدهم لينطفىء وحده ويخنق أنفاس المحيطين برائحة شياطه. وهي لا تدري لماذا حرص كل من زميليه الآخرين أن يخبرها ـ خلسة ـ عن حياة الجندي الزوجية الخاصة، وكيف أن له زوجتين والثالثة تقاضى منها ثمن الطلاق.. وكم استبشع عقلها الذي كان لا يزال بناتياً حالماً في آرائه كل ما سمعت، وكم أصبح الجندي في رأيها بشعاً إلى درجة تتقزز فيها من مجرد أن تراه يقطع عمله ويتحدث أو يضحك، أو يروي نكتة لا يقهقه لها أحد، كم تمنت في لحظاتها لو كانت رجلاً لتلكمه بشدة وتعلمه الادب. وكم تضايقت بينها وبين نفسها من سكوت زميليه والباشكاتب عنه واحتمالهم لسخافاته. كم ضايقها ذلك وأرق من جلستها إلى المكتب.. تلك التي جاءت لسوء الحظ في مواجهته، والتي حتمت عليها أن تمتنع نهائياً عن النظر أمامها طول النهار وحتى لو استوجب الوضع أن تنظر إلى الأمام.

مضايقات طالما تمنت لو كان أبوها الحنون لا يزال حياً لتشكو إليه منها، فأمها رغم كل حدبها لا تفهم ولا تستطيع هي التي قضت حياتها ربة البيت ورهينة المطبخ، أن تدرك تلك الأنواع الجديدة من المشاكل.

عمها، أو بالتحديد عمها «حسن أفندي» إبن عم والدها الذي كان يبسط على عائلتهم الصغيرة ظل الرجل وحمايته، ويأتي بانتظام دقيق

لزيارتهم كل أسبوع مرة، كان يدرك تلك المشاكل، كان هو نفسه موظفاً في الدرجة الخامسة، وقد وصلها خلال خمسة وعشرين عاماً بادئاً من التاسعة، كان يسألها ويبدو فاهماً حين تحدثه عن تفاصيل كل شيء وأكثر فهماً حين تحدثه عن علاقاتها بمن معها من الموظفين. حتى مشكلة الجندي واستثقالها لظله وكل وجوده كان يفهمها، ويقول لها معلقاً ـ ولا يخلو تعليقه من حكمة أو خبرة ـ أن مضايقات العمل جزء لا يتجزأ من العمل، لا تحاولي حلها بعواطفك فالعواطف لا تحل شيئاً، حليها كمشاكل العمل بعقلك فالعقل وحده هو القادر على حلها. . العمل ومضايقاته مثل مسائل الحساب لا يمكن للعواطف مهما بلغت حرارتها أن تحلها، الحل بالعقل، بإعمال العقل، بالتفكير وتبريد الانفعالات والتدبير. أنا مثلاً كنت. .

ويحكي لها. . ولكن يبدو كل ما يحكيه بسيطاً جداً بالمقارنة إلى ما هي فيه، إذ يبدو وكأنها مشاكل خلقت وفصلت خصيصاً من أجلها ولإغاظتها، ولإحاطتها بجو لا تستطيع التخلص منه. . جو من الارتباك والاضطراب وعدم القدرة على الإتيان بأي حل.

ولكن الأمر لم يكن يخلو أيضاً من سعادات: جمهور المكتب المتردد عليها حين يرجوها ويمتثل لكلماتها، حين يقف الرجل العريض أمامها باحترام بالغ وينحني بسرعة ورضوخ قائلاً بأدب جم: أيوه يا افندم! تسعد هي في سرها وتضحك وتحس بنشوة السلطة والأهمية، ويضيع معها شعورها بأنها مبتدئة وأنها منذ دقائق كانت تقف وستقف أمام الباشكاتب ومدير الإدارة موقف تلميذة الإعدادي أمام الناظرة. هؤلاء المترددون جميعاً لا يعرفون عنها أبداً ذلك الموقف، والدليل بسيط. ها هم يعاملونها وكأن لها كل خبرة الباشكاتب وأهميته وأقدميته.

ويـا لسعادتها يوم اكتشفت خطأ في الاستمارة التي حررها الجندي الأقدم منها بسنين، وذهبت في حماس بالغ تلفت نظر الباشكـاتب إلـى الخطأ مدعيـة التواضع وقلـة الاهتمام باكتشافها الهائل. صحيـح أنها دهشت لأن الباشكاتب لم يشنق يومها الجندي ولا حتى عنفه، ولكن ذلك لم يثبط من الإحساس الغامر بالتفوق الذي صاحبها طول اليوم.

وهناك حين مضت الشهور الثلاثة الأولى وأصبح من حقها أن تقبض ماهيتها المجمدة، وذهبت إلى الصراف في اليوم الأول من الشهر، وبدلاً من اجابة النفي التي تعودها أومأ لها بغير حماس كثير إلـى اسمها في القائمة، ورأته بعينيها وتأكـدت منه. وحيـن فك رزمة الأوراق من فئة الخمسة جنيهات وجعلها توقع باسمها الكامل ومضى يعد، ثم يكمل لها المبلغ من رزمة الجنيهات وأرباعها. . هناك حين غادرت الخزينة وفي حقيبتها أول ثلاث ماهيـات، وحيـن غادرت المصلحة، ثم وهي تعبر الشارع وترى الناس وتدخل البيت بصرخة فرح بناتية قائلة أنها جوعـى مدبرة أن تفاجىء أمها بالنقود رزمة واحدة. . هناك وأمها تفرح وتهم أن تزغرد وتقبل الماهيـة وتقبلها، وتمسك النقود بيـدها وتدعو لها. . هناك وهما تجلسان بعد الغداء تتحدثان فيما يجب عمله بالنقود وتدبران أمور العيش على أساسها، بينما أخوها الطالب الأصغر يقطع المذاكرة ويطل عليهما بين الحين والحين متلصصاً، وبطريقة تحس سناء معها أن جلستها مع أمها جلسة كبار، وحديثها حديث كبار. . حديث وجلسة ومواضيـع تعيد لذاكرة سناء صوراً باهتة عن أبيها المرحوم حين كان يقبض وتراه آتياً يومها كالمنتصر، له حق رفع الصوت على أمها وفرض الرأي. . صوراً عن الأيام الماضية والكلمات الغامضة التي كانت ترن في مخيلتها الطفلة رنين الخطوة الغريبة على أرض خام لم تطأها قدم بشر. . أكل العيش وعرق

الجبين والماهية، ماهيتي يا ست أم سناء. . عمرك لن تدركي كيف أشقى لأحصل عليها، كيف أحرق دمي لأتقاضاها، الماهيـة يا أم سنـاء والفلوس. . كلمات كانت سناء الطفلة تدرك بطريقة ما ما تعنيه، ولكنها أبداً لم تشعر بمعناها الحقيقي، بأنها ليست مجرد كلمات، إلا هناك حين اشتغلت هي وتحملت الفشل والضيق، وعرقت وخجلت وغلا دمها غضباً وتجمد خجلاً، لتقبض آخر الأمر. ليتحول هذا كله إلى نقود، تبدو لها على كثرتها مثلما كانت تبدو لأبيها قليلة، كل قرش منها لا يقدر تعبها في الحصول عليه بمال.

٥

الذيـن راهنوا خسروا الـــرهان، والذيـــن كانوا لا يصدقون اضطروا للتسليم، وأسابيع كثيرة مضت و«البنات» قد ثبتت أقدامهن في العمـل ومكـاتبهن التي كانت موضوعة علــى هوامش الحجرات ـ وضع الشيء المؤقت ـ زحفت زحفاً غيــر منظور وابتعدت عن الأبواب، واستطاعت بطريقة ما أن تخلق لها أركاناً ثابتة حصينة تكاد تجعل من الحجرة ذات الأربعة أركـان حجرة بخمسة، وقد أضيف إليها ركن جديد لا يقل أهمية وخلودا عن الأركان الأربعة الأصيلة. وكأنما باستطاعتك دائماً أن تحيل المثلث إلى مربع، والمربع إلى مسدس له أصالة المربع، وكأن لا ثابت هناك ولا خالد، والغباء فقط لمن يتصور الثبات والخلود. .

والزمن مع سناء وزميلاتها باستمرار، وكل يوم يمضي يضيف جديداً ويزيدها فهماً ووعياً. وبغير أن تبذل مجهوداً كبيراً كانت قد استطاعت أن تعرف عن قسمهم وعن زملائها فيه كل ما تريد معرفته، ثم بدأت معلوماتها تتعدى نطاق الحجرة وأصبحت تعرف علــى وجه الـــدقة كنه التركيـــب الخارجي للمصلحة، وكذلك وإلى درجة ما استطاعت بتبادل الـرأي مع زميلاتها، وبالنصيحة الخالصة لوجه الله التي كان يتفضل بها بين الحين والحين زميل، أن تتبين فيما يشبه الصباح المضبب كنه التركيب الداخلي

للمصلحة، ومن بيده النقل والانتداب والعلاوة، ومن الذي يقرر البدل والأوفرتايم، ومن باستطاعته الدس لدى المدير، وبين التركيبين وبين العالمين، استطاعت أيضاً أن تدرك أن ثمة شخصاً واحداً يقف، وحول شخصه وموقفه تلتف علامة استفهام كبرى لم تعرف كيف تفسرها أو تحلها. فموظفو المصلحة بمن فيهم الكبار، كانوا ينضوون بشكل أو بآخر تحت أي من التركيبين. هناك المدير ونوابه مديرو الإدارات والمفتشون إلى آخر قائمة الوظائف والألقاب، هؤلاء مع ما بينهم من صراع وتنازع اختصاصات يكونون الهيكل الخارجي للمصلحة. أما الإدارة الفعلية أما لماذا ينقل هذا ولماذا يرضى عن ذاك، أما التيار الحقيقي الجاري في قلب المصلحة يحرك الأمور ويوجهها فقد كان يقوم على أناس قد تجد بينهم سكرتير المدير مثلاً، أو موظفاً في الدرجة السابعة في قسم المستخدمين، وآخر عجوزاً في مكتب المراقب العام قربت احالته على المعاش، مع كل ابتساماتهم المؤدبة، مع كل محافظاتهم على الشكل الخارجي وأداء عملهم في حدود وظائفهم لا يتعدونها، إلا أن نفوذهم بالغ الخطورة، تحدّ أحدهم وانتظر ما يحدث لك. وبين الوجهين يقف هذا الشخص ـ الجندي ـ لا يعمل طول اليوم بمليم، ودائم الغياب والتأخير وكثير الأخطاء، يخرج من الواقعة، حتى إذا بلغت الواقعة المدير، خروج الشعرة من العجين دون أن يمسه مجرد لفت النظر، أو على الأقل هذا هو ما خرجت به سناء بعد تجربتها الخطيرة معه. فلم يكد يمضي على وجودها في المصلحة أسبوع ويذهب طعم الضيافة عنها، حتى بدأت مطاردته لها. ولم تكن سناء في الحقيقة تتصور ـ رغم كل ما ذكره لها عمها ـ أن تبلغ الوقاحة حد أن يبدأ زميل لها في العمل يغازلها مغازلات علنية سمجة فاضحة، تدخل في الصباح وما تكاد تلقي على زملائها التحية حتى يرفع

هو الدوسيه ليحجب وجهه عن الباقين، وينسكب اصفرار عينيه ملقاً سائلاً رخيصاً وزلفى كما ينسكب صفار البيضة، ويقول بهمس لا يقل زيتية عن نظراته: صباح الخير يا حلو. . يا مدوخني إنت يا حلو. . والنبي أنا دايخ وحاقع. . دانا خلاص وقعت.

ولا تعرف ماذا كان يلجم لسانها، أكثر من هذا يلجم حواسها كلها وعقلها عن أن تثور أو تنفجر صائحة غاضبة. أهو الخجل؟ ربما كان هذا صحيحاً في المرات الأولى. أوهو الاشمئزاز؟ ربما كان في الشهر الأول. أهو الغثيان الذي كان يطفح من أعماقها حتى ليعميها أن ترى أو تسمع؟ أم هو كل ذلك معاً؟ جائز. ولكن الواقع أنها كانت تسكت، وللإنصاف أيضاً كان يتبدى على ملامحها الساكتة كل ما لم تكن تنطق به أو تقول. ولكن الوضع أصبح لا يطاق حين تعدى صاحبنا حدود الغزل ودخل في عروض الزواج، أجل عروض الزواج! خلف الدوسيه سالت كلماته:

ـ هو أنا لا سمح الله نيتي وحشة؟. . أنا هدفي شريف. . أنا راجل بتاع سنة الله ورسوله. . ومستعد من دلوقتي وبالشروط اللـي تطلبيها. . أصلي بصراحة دايب. . وواقع. . ومش لاقي اللي يسمى عليّ. .

٦

حين أصبح الأمر وكأنه كل مشكلتها.. أمر لا تستطيع عرضه على عمها أو مصارحة أمها أو احدى زميلاتها به، فكرت سناء لفرط ما وجدت نفسها محاصرة ومخنوقة أن تترك العمل وتستقيل. ولكن فكرة أخرى عنت لها..

لماذا تيأس هكذا من أول عقبة؟

ولماذا تسلم بالهزيمة أمام انسان تشمئز منه وتحتقره؟ لماذا لا توقفه عند حده؟ لماذا لا تتصرف التصرف اللائق بوضعها وقد أصبحت موظفة وتشكوه؟

وليلة بطولها قضتها إلى الثانية عشرة تكتب وتمزق وتفشل وتبكي وينتابها الغيظ، وأخيراً بدا وكأنها استقرت على الصيغة المناسبة للشكوى. وفي الصباح لم تذهب بالعريضة إلى الباشكاتب رئيسهم وإنما مباشرة إلى مدير الإدارة. دقت على الباب ودخلت وحيته وقدمت له «البوستة» ليوقعها وكانت قد وضعت الشكوى في آخرها. وحين انتهى المدير من التأشير على بقية الخطابات ورأت خطها يطل من العريضة والمدير يهم بتوقيعها هي الأخرى اقتربت منه، وترددت، ورجته أن يقرأها فهي شكوى منها. وخيل إليها بعد دهشة الرجل الأولى أنه قد أخذ وقتاً أكثر

من اللازم في قراءتها، وأن قهقهته حين انتهى كانت سخرية منها. واشتدت سمرة وجهها فجأة ووجدت نفسها تبكي. حينئذ فقطكف المدير عن الضحك واتخذت ملامحه طابعاً أبوياً مصطنعاً وإن حاول أن يطليه بطبقة حزم حادة، وسمح لنفسه أن يهدهد على كتفها مؤكداً لها أنه لا بد أن يوقف الجندي عند حده، غير أن هذا لم يمنعه أن يعود للابتسام وهو يطلب منها أن تحاول في المرات القادمة أن تتعلم أساليب الشكاوي الرسمية، إذ ليس فيها محل لعبارات كثيرة جاءت بشكواها من أمثال «كلام تحمر له خدود العذارى»، و «موظفة مثلي ذات أصل وحسب». ثم بلهجة شبه حادة هذه المرة أفهمها ألا توقع الشكاوى الرسمية أو المكاتبات بتعبير مثل «المخلصة» سناء عبد الله، فللرسميات لغتها الأخرى.

ورغم كل هذا الدرس الجانبي فقد عاد المدير يؤكد لها أنه سيوقف الجندي عند حده، تأكيداً دفعها لأن تعود إلى الحجرة وفي نظراتها رضاء سافر، وحين جلست كان في جلستها تماسك من أن له في النهاية أن ينتصر ويستريح. وهي التي ابتسمت هذه المرة ابتسامة حقيقية حين لم تكد تمضي دقيقة حتى جاء ساعي مدير الادارة يستدعي الجندي، وبعد أكثر من ربع ساعة عاد مصفر الوجه بطريقة جعلت لجلده لون عينيه وأكسبته بشاعة، ولكنه يضحك أو على الأقل كان فكه الأسفل قد تهاوى في سقطة مهددة ضاحكة. . ومن خلف الدوسيه جاءتها كلماته بتشتكيني ؟ . . هو أنا من بتوع الكلام ده ؟ . . طيب . . بكره نشوف.

وقبل أن ينتهي كانت هي في انفعال حقيقي غاضب قد شرعت تكتب شكوى عاجلة أخرى تثبت فيها ما قاله، وتجري حاملة اياها إلى المدير الذي ما كاد يعرف محتواها حتى استدعى الجندي وقد تملكته شياطين الرئاسة والاحساس المضاعف بالهيبة المخدوشة. وجاء الجندي ويا

لدناءته! يا للاستنكار الكاذب الهائل الذي قابل به شكواها! وقسمه وتأكيده لقسمه وأيمان الطلاق التي توالت من فمه،وهو يؤكد أن شيئاً مما قالته لم يحدث، وأنها تتبلى عليه، وأنها هي التي تتمحك فيه وتناوشه على أمل ـ أن تتزوج منه، وأنه مظلوم. . أي والله مظلوم لا يدري ما يفعل في هذه البلاوي التي تتساقطمن حيث لا يعلم فوق رأسه. يا بيه عيب. . أنا راجل متجوز وعندي تسع عيال. . ما تخليها تشوف حد تاني تتلقح عليه. يا سعادة البيه ده أنا. . أنا. .

وبلغ الاشمئزاز بسناء حداً جعلها تتمنى أن ينتهي المشهد بسرعة وعلى أي وجه، حتى لو جاءت النهاية ضدها وفصلوها من المصلحة أو أرسلوها إلى السجن. إنها لم تر أبداً في حياتها منذ وعت أناساً كهذا الجندي يكذبون عيني عينك بلا خجل أو حياء أو ارتباك، مجرمين في كذبهم إلى حد ممكن فعلاً أن يقلب الباطل حقاً والحق باطلاً.

ولكن الأمر لم ينته تلك النهاية. . فالمدير حتى لم يكلف نفسه عناء النظر إلى سناء أو سؤالها عما لديها من أقوال. ظل طوال الوقت يحدق بنظرة غير مفهومة إلى الجندي وهو يقسم ويتفتف ويرفع عقيرته بالخطب والأقوال ـ على الأقل لم تفهمها سناء ـ وحين انتهى أمره بصوت حاسم خفيض ألا يتعرض مرة أخرى لها أو يحادثها حتى في العمل. . لهجة حيرت سناء، فقد كان واضحاً أن المدير يدرك خطأه ويعلم سفالته، ولكن لهجته في أمره لم تكن تتناسب أبداً مع هذا الإدراك. والأغرب من هذا أن يمتثل الجندي ويتعهد أن يقوم بكل ما يريده المدير أن يقوم به.

ولقد نفذ الجندي تعهده، ولكن التنفيذ لم يدم إلا ليوم واحد، أو على وجه الدقة بقية ذلك اليوم الذي بدأته سناء بشكواها. في اليوم التالي

مباشرة صبحها بنظراته، وبعده بيوم ـ بأقل من يوم ـ عادت ابتساماته، وما لبث أن أردفها بتعليقاته الهامسة التي كان يلقيها ثم يعود ليبتلعها ويخفيها.
وأخيراً وجدته سناء يوماً يرفع الدوسيه، وفي الحال قررت أن تذهب إلى المدير وتشكوه، ولكنها ترددت فماذا فعل بشكواها الأولى لتلجأ إليه ثانية؟ ثم أليس من المحتمل أن تبدو في نظر المدير بكثرة لجوئها إلى الشكوى طفلة أو تلميذة؟ بل أليس من الممكن أن يصدق أنها بشكواها الكثيرة تناوش الجندي كما ادعى؟ لقد جربت عمها ونصيحته وجربت المدير، فلماذا لا تجرب نفسها؟ لماذا لا تواجه الجندي، أو على وجه أصح لماذا لا تكف عن مواجهته والاهتمام بأمره وبكلامه؟ لماذا حتى تشمئز منه وتحتقره؟ إن انفعالها به هو اعتراف بوجوده، لماذا لا تهبط في احتقارها له درجة أخرى، وتلغيه كلية من تفكيرها ووعيها؟

٧

وهو بالضبط ما فعلته سناء وهو بالضبط ما كاد يقتل الجندي ويدفعه إلى الجنون. إنها هي نفسها لم تكن تعتقد أن باستطاعتها أن تتجاهل وجود انسان على مبعدة منها إلى تلك الدرجة، فما بالك برجل يزاملها ثماني ساعات كل يوم ومكتبه يكاد يلمس مكتبها؟ ولكن يا لقدرة النساء الكامنة فيهن على التجاهل! لكأنما أصبحت الحجرة في نظرها بمكاتب أربعة لا خامس لها بالمرة، لكأنما مات الجندي أو ما ولد قط. ويا للروعة التي سار بها كل شيء وعلى أتم ما تريده من مرام! إلى ذلك اليوم. . ليت ذلك اليوم لم يأت قط ليتها قطعت لسانها بيدها قبل أن يزلف وتخبر روحية زميلتها بالمشكلة! ولكنه درس تعلمته وستوصي أحفادها بتفاديه. المشكلة عادية وبسيطة ومن النوع الذي تقرأ عنه في الجرائد ويرد أحياناً في السينما، وتلوكه صباح مساء تمثيليات الإذاعة. مشكلة المصاريف التي لم تدفع وحلول موعد دفعها، وتوقف حضور الامتحان على هذا الدفع. والمصاريف مصاريف أخيها، القسط الثاني وقدره عشرة جنيهات. كان اشتغالها قد اقتطع من المعاش الذي كانوا يتقاضونه قيمة نصيبها فيه، وكان تراكم مطالبها قبل تسلم العمل وبعده قد أثر في ميزانيتهم الصغيرة وأنهكها حتى أصبحت أعجز من أن تسدد القسط

الثاني. أمر لولا اشتغال سناء ما كان يمكــن أن يحدث، فالنقود كانت توزن. . تزنها مدبرة بيتهم ومدبرة حياتهم ـ أمها ـ وتوزعها بالمليم، ولم يحدث يوماً أي ارتباك. ولقد ظلت سناء تعاني من ضغط الموقف الذي لم ينقلب إلى مشكلة إلا بعد أن طرقت الأبواب جميعاً فلم تلن أو تستجـب حتى عمها الناصح الأمين ما أكثر ما سهل عليهم المأمورية لدى عرضها أمامه، وما أكثر ما تحجج حين تأزم الوضع واقترب موعد الامتحان.

في تلك الآونة الخانقة وفي ساعة ضعف، عرضت سناء المشكلــة على روحية عرضاً لا طائل من ورائه إلا لمجرد الشكوى والتفريـج عن النفس. ومن تلك اللحظة أصبحت الكلمة الدائمة على لسان روحيـة: هيه، عملتم ايه في مصاريف أسامة؟ ورغم أن اجابة سناء الدائمة كانت هز كتفيها علامة اللاحل، إلا أن ضيقها كان يتعاظم في كل مرة تسألهـا وكل مرة تصمم أن تصارحها بما يعتمل في صدرها لمجرد السؤال، ولكنها تعود وتلتمس لها العذر وتسكت. غير أنها لا يمكن أبداً أن تعذرها لما فعلته ذلك الصباح حين جاءت لتمر عليها بالمكتب، وجلست وتحدثت قليلاً، ورحب بها الجندي ترحيباً ملحاً مبالغاً فيه، وطلـب علـى حسابه مشروبات وألح وأقسم، وانشغل عن كل شيء إلا حديثه إليها وبطريقة لم تجد معها روحيــة فرصة تتبادل فيها كلمة واحدة مع سناء، وأول كلمة تبادلتها معها كانت حين سألتها كالعادة:

ـ هيه عملتم ايه في مصاريف أخوكي؟

صمتت سناء كالمصعوقة لا تجيـب، بينما وجد فيها الجندي فرصة فتحت له فيها أبواب السماء وأبواب الحديث، وبكل ما يمكنه اصطناعه من نخوة سأل ما هي المشكلة؟ وببساطة وبرغم نارية النظرات الخارجة

من عيني سناء مضت روحية تحكي بكل براءة مقصودة، حكاية القسط الثاني والحرمان، يا عيني، من الامتحان.

وربما كانت تلك أول كلمات تقال في الحجرة وتشير إلى حقيقة ما عن حياة سناء الخاصة التي عمدت منذ تسلمها العمل إلى اخفائها بنفس الطريقة التي تخفي بها ذيل «الكومبليزون» تحت الفستان، أو «ركبتها» التي أحكمت اخفاءها عن العيون النهمة بأن سدت فتحة المكتب الأمامية بقطعة من الورق المقوى. حقيقة ألقتها روحية بسذاجة أو بخبث ولكنها جعلت سناء تذوب خجلاً وتتمنى لو اختفت بكلها خلف ورق المكتب المقوى. حقيقة قيلت وارتفع لها رأس الجندي من طيات الورق وطقطقت لها أذناه في تنصت مشدود متحفز هائل. وما كاد يفطن إلى المقصود حتى هم بأن يلقي بنفسه في الحديث كعادته، ولكنه للوهلة الثانية انداحت في وجهه ابتسامة صفراوية ما، وخنس وسكت.

لقد قضى أياماً تعسة طويلة يبحث في أثنائها عن نقطة ضعف ولا يجد. أيكون ما قالته روحية هو النقطة التي فاتته؟ وحتى إذا لم يكن كذلك فهو لا يدري لماذا أحس بتغيير أو باقتراب تغيير، كالليل حين يلونه الفجر، كاليأس الكامل حين تسقط في قلبه قطرة ،مجرد قطرة واحدة، من طعم مخالف اسمه الأمل. كان كل مناه ان يعرف عنها شيئاً واحداً تحرص على اخفائه والباقي في رأيه بسيط، ولم يكن أبداً يتصور ان تهديه الأقدار بهذا الشيء غير العادي الذي عرفه . . إن حكمته الخالدة المشهورة عنه أن الفلوس يا حبيبي . . is the master ker هي كل شيء. . مفتاح السعادة ، ومفتاح الدنيا ، وبالذات مفتاح قلب كل امرأة على سطح الأرض. . حتى لو كانت المرأة سناء.

ورد الفعل الساحق الذي حدث، والذي لم تكن سناء تعتقد أبداً أن باستطاعتها أن تنساه أو تشفى منه ـ لدهشتها الشديدة ـ كان مفعولـه بعد ساعات قد زال أو كاد، وكـانت قد عادت تتمالك نفسها وتنظر إلـى ما حدث وتطمئن النفس بقولها. . وربما فاتت الـكلمة دون أن يسمعها أحد، والجندي بالـذات يدعي أن سمعه ثقيـل، ثم هو لم يتدخل ولـم يعلق، خاصة وليس من عادته أن يفلت فرصة كهذه دون تدخل أو تعليق.

ولكنها كانت واهمة، فلو قد أتيح لها أن تنظر ـ مجرد أن تصوب واحدة من تلك النظرات النافذة التي تقتحم صدور الناس وكيانهم وتظهر كالأشعة السينية ما تخفيه ـ نظرة كانت غير قادرة عليها بالمرة، لا بالنسبة للجندي ولا بالنسبة لأي رجل ربما لمجرد كونه رجلاً. . لو أتيح لها أن تلقي نظرة لوجدت الجندي في حالة ما بعد النشوة، حالة قل أن يوجد عليها انسان إذ هي احدى البقيـة من أحاسيس الحيـوان الـذي تفصلـه عنا ملاييـن من السنين. . حالة الإحساس بالفريسة رهن الإشارة وعلى مدى انقضـاضه حالة السعادة البدائيـة الجامحة التي تدعو القط وبه من الجوع أن يصبر على صرخاته ويتجاهلها ليستمتع بما هو أكثر امتاعاً من اشباع أية غريزة بمفردها، ليستمتع بنفسه والفأر قد أصبح حبيس ارادته ونظراته، يرى ارتباكـه الأعظم، ورهبته ورغبته العارمة في النجاة، وتحفزه الهائل للهرب، وعجزه الهائل عن الفرار، الحالـة التي تشبع في بعض الناس غريزة الغرائز وتنتشي بها حيوانية الانسان. .

أجل. . من أين آكلك يا سناء؟

٨

كان العمل قد أصبح أمره بالنسبة لسناء وزميلاتها عادة سهلة، ولكن المشكلة لم تكن أبداً في العمل ولا في كتابة بضعة سطور وتنفيذ بعض تأشيرات. المشكلة كانت فيما هو خارج نطاق العمل في المصلحة، في الموظفين، في الأسرار التي لم تتوقف عن التشكيك يوماً واحداً. لا يكاد يوم يمضي حتى يكون قد انتهى باكتشاف أمر من أمور المصلحة جديد عليهن كل الجدة، لاكتشافه فرحة العثور على السر المنيع. والأسرار تبدو كثيرة وكأن لا نهاية لها، وكأن أسفل البناء الضخم الذي أنفق الرجال عشرات السنين في اقامته سراديب خفية، حفروها وجعلوا لها أبواباً محصنة سرية لا يمكن أن يفطن لها غريب، ولا تفتح إلا على كلمات سر معينة تقال.. عشرات السنين من العمل الدائب لبناء الهيكل من الخارج والدنيا الخفية من الداخل. والعمليتان ماضيتان معاً، وكل ارتفاع في البنيان تقابله وعورة في الممرات وفي السراديب السرية، والسرية جداً السرية جداً جداً.

هذا العالم الخفي لم يكن ليكشف عن نفسه هكذا ببساطة للموظف الجديد، فما بالك والجديد موظفة وأنثى، والأسرار أسرار تتكشف ببطء شديد وبالقطارة، ولا تتكشف من تلقاء نفسها.. لا بد من بذل جهود وعقد صداقات وشحذ ذكاء.

وهكذا كان لا بد ـ طال الوقت أم قصر ـ أن تدرك سناء أن ثمة عملية أخرى يقوم بها المكتب الذي تعمل فيه . . استخراج التراخيص، ذلك هو العمل الرسمي للمكتب، أهون العملين وأقلهما شأناً واهتماماً وأبطؤهما سرعة انجاز. بل هو في الواقع لم يكن أكثر من مجرد لافتة رسمية معلقة لتدل الزبائن على المكان الذي باستطاعتهم أن يتوجهوا إليه لنهو العمل الثاني، العمل الحقيقي الدائب. . بيع التراخيص، بيعها بأثمان لم تحددها المصلحة ولا الوزارة وإنما حددتها تقاليد ورثها الموظفون جيلاً عن جيل وباشكاتباً عن باشكاتب. أسعار تَخضع لكل ما يطرأ على حياتنا من تغيير، ارتفعت في أثناء الحرب مع ارتفاع الأسعار، وكلما زاد الغلاء ازداد ارتفاعها. والشيء نفسه ينطبق على نسبة التوزيع. . الباشكاتب ٣٠ في المائة، بقية الموظفين في مرءوسيه ٣٠ في المائة، والأربعون في المائة الباقية تذهب إلى رأس كبير في المصلحة. ويقال أن معظمها يذهب إلى رءوس مماثلة في الوزارة نفسها، عملية تجري مجرى اللوائح والقوانين تتم سراً معظم الأحيان، وبحرص شديد من الزبون وبجرأة غريبة من الموظفين، والطريق إليها معروف، والواسطة خفاجى ذلك الساعي ذو الشارب الكث وسحب الدخان الغزيرة، الواقف على باب المكتب «ليفنط» الزبائن و «يوزع» غير المرغوب فيهم، ويفتح الباب «للسالكين» .

ورغم كل ذكائها لم تكن سناء قد أدركت طبعاً، ولا كان لها أن تدرك ذلك الاجتماع الخفي الذي تم بين الباشكاتب وزملائها يوم تعيينها، ولا ما دار فيه من نقاش، وكيف كان رأي الباشكاتب أكبرهم نصيباً وأكثرهم خوفاً أن يتوقف العمل الثاني في ذلك اليوم إلى أن يجسوا نبض هذه القادمة الخام الجديدة، وكيف كان من رأي الجندي أن يستمر العمل وكأن

شيئاً لم يحدث، فلا يمكن لبنت مثلها لا تزال مغلقة العينين كالقطط المولودة أن تستنتج أموراً لا يستطيع الجن الأحمر نفسه ادراكها إلا إذا اشترك فيها. ولم يكن غريباً أن ينتصر رأي الجندي. ففي ذلك العمل الثاني كان هو الذي يقبض، وهو الذي يتولى التوزيع، وأهم من ذلك كان هو الصلة الوحيدة بين المكتب وبين الرءوس الكبيرة يخصم لها النسبة ويتولى ايصالها، ويحتفظ وحده بأسمائها لا يعرفها سواه، ومن هنا كان نفوذه لا في المكتب وحده ولكن في الوزارة كلها، ذلك النفوذ الذي استطاع به أن يمنع نفسه من النقل أو حتى الترقية أو ترك المكتب بأية وسيلة لخمسة عشر عاماً متواصلة قضاها ينظم ذلك العمل ويشرف عليه.

صحيح أن انشغاله بأمر سناء قد جعل اضطراباً ما يحدث للعمل ولكنه ظل يواصله. وصحيح أنه تساءل مرة أو مرتين ـ ونادراً جداً ما كان يسأل نفسه عن أمر ـ ماذا يحدث لو عرفت سناء ما يقوم به، هي التي يبدو أنها نقية مثالية كالقماش الأبيض، بالتأكيد يمرضها بل يحتمل أن يقتلها معرفة أشياء كهذه؟ ولكنها أيضاً مجرد تساؤلات متباعدة تدق دقاً خافتاً جداً على احساس جامد متصلب ولا تتوقف عنده طويلاً.

في ذلك اليوم وقد جاءت سناء متحفزة لقرار التجاهل التام، أحست حين دخلت الحجرة أنها تدخل على جو مريب. كان زبون بادي الثراء والأناقة من زبائن المكتب يجلس أمام الباشكاتب، وثمة كوكاكولا قد انتهى من شربها وقهوة في الطريق إليه وحديث كان يبدو أن دخولها السبب الوحيد في قطعه. لم تلق بالاً كثيراً أول الأمر إذ كانت لا تزال تحيا وتتشبث بقرارها الخاص، ولكن الصمت. الصمت الذي تتخلله كلمات مقتضبة أشد ريبة من الصمت نفسه، والوجوه. الوجوه المستديرة عنها والموجهة بارتباك إليها والمندسة في الأوراق، والاستغاثات الملحة

بالسؤال عن صحتها ومزاجها وكيف تبدو الدنيا في الخارج، بجماع هذا كله، أو في الحقيقة بالفراغ الكامن بين هذا كلـه، استطاعت أن تخمن مخلـوعة القلـب شبه مرتجفة أن هناك شيئاً آخر غيـر العمل يحدث في المكتب، ويحدث باتفاق الجميع وباشتراك الجميـع، وأن الجميـع يبذلــون جهدهم كي يغلقوا عينيها عن أن ترى وحواسها عن أن تشم وتسمع.

وكان طبيعياً أن يفوتها وهي فيما هي فيه من وجل وارتباك أن تدرك أن بعض العيــون الثماني التي تزاملها قد استوقفتها حالتها، وكفتها لمحة لتتأكد ـ العيون ـ أنها، سناء، قد عرفت.

وتلاقت العيون حينئذ تسترق التشاور، وبدا أن ومضاتها ما لبثت أن اتفقت على رأي لم يكـن قد بقي علـى تنفيـذه إلا اجتماع عاجل يعقد وطريقة تختار.

وفي المقهى ـ في المساء ـ وتحت ظليلة من دخان الحشيش ورشفات أكواب الشاي، استقر الرأي على أنها ما دامت قد عرفت أو خمنت فلا بد من اشراكها. وتطوع الجندي وأخذ على عاتقه مهمة جر رجلها وتوظيفها ـ وأمره إلى الله ـ في العمل الثاني على شرط أن يكون هذا مقابل أبخس نسبة ممكنة. ورغم أن الآخرين لم يبدوا حماساً للفكرة.. فكرة أن يكون الجندي بالذات هو رسولهم إليها، إلا أنه أصر وأقسم لهم وأكد وتمسك بطريقة لم يجدوا معها بداً من الرضوخ. كان بينه وبين نفسه وقد سدت في وجهه كل الأبواب الأخرى يطمح أن يتقرب إليها من هذا الباب، وأن يجرب معها هذا المفتاح السحري وقد وضع في اعتباره ما تعانيــه هي وأسرتها من أزمة وحاجة إلى المصاريف.

من هنا وبهذا السلاح قرر أن يأكلها.

٩

كانت خطة الجندي رغم عبطه الظاهر ماكرة خبيثة، فقد ظل يرتب الأمر بحيث خلت الحجرة إلا منه ومن نفس «الزبون» البادي الثراء، بينما وقف خفاجى على الباب يمنع الدخول بحجة أن هناك لجنة، وإن كانت شياطين الشغف تستبد به أحياناً حتى ليكاد ينحني ليختلس النظر أو يلصق أذنه بالباب علها تلتقط كلمة. جلس الزبون محرجاً أول الأمر يرد على تحيات الجندي المتعاقبة بجهد وتكلف، وبين الحين والحين ينظر ناحية سناء ويعود ينظر إليه متسائلاً متشككاً. وتركه الجندي في حيرته وظل يراقب سناء من طرف خفي إلى أن لمحها تترك انهماكها المتعمد فيما أمامها من عمل، وتبدأ من طرف خفي أيضاً تدرك وجود الزبون أمام الجندي، وتدرك وهذا هو المهم ارتباكه وحيرته، بمعنى أوضح تدرك أن هناك أمراً يتحرج الزبون من الخوض فيه أمامها، وأن الجندي لا يريد انقاذه من هذه الحيرة. كان مفروضاً حينئذ أن تعاودها احدى نوبات الاشمئزاز الحادة التي تنتابها كلما بدر من الجندي ما يبعث على الاشمئزاز، فتنتفض في الحال واقفة وتغادر الحجرة. ولكنها هذه المرة وجدت نفسها واقعة تحت تأثير ما هو أقوى من الاشمئزاز.. حب استطلاع الأنثى. أقوى أنواع حب الاستطلاع، القادر وحده على أن يكبت

ـ إذا استبد بها ـ كل رغباتها وما يدور بأعماقها من انفعالات. وجدت نفسها تريد بأي ثمن أن تعرف إن كان ما قدرته صحيحاً أم هو من قبيل التخمينات. . أم لعل سبب بقائها هو الارتباك العنيف الـذي اجتاحها وفصد العرق من كل جسدها وسمرها في مكـانها، وكـأنها بسبيلها إلـى حضور أمر مخجل مجهول لا تعلم مدى بشاعته، أعيب عيب؛ لعل هذا هو ما دفعها إلى ابتلاع اشمئزازها والبقاء، بل ما هو أكثر من البقاء، ادعاء الانهماك الشديد في العمل. كي تترك أمامهم المجال واسعاً رحباً حتى يتسنى لها أن تسمع وترى رأي العين.

كل ما حدث أنها حين لاح عليها وكأنها ترفع رأسها مفيقة، لم يضع الجندي الفرصة الذهبية فرفع صوته يقول للزبون المرتبك المحرج:

ـ خد راحتك قوي يا عبادة بيه. . الآنسة سناء زميلتنا ومنا وعلينا. خد راحتك قوي قوي. . دي مش غريبة. . دي معانا.

ورغم أن المقطع الأخير رن في أذنها رنيناً مزعجاً غريباً، إلا أنها لم تشأ أن تنكص وقررت أن تظل منهمكة، وعادت مرة أخرى إلى الدفتر الكبير الذي كانت تسجل فيه، أو على وجه أصح تدعي التسجيل.

وكـأنما انزاح عن كاهل الـزبون عبء من جديـد، فقد أخرج علبة سجائره وقدم للجندي واحدة، بل عزم عليه بالعلبة كلها ثم قال:

ـ ما دام المسألـة كده يبقى نتكلـم بصراحة. . والصراحة انتم لازم تتوصـوا بنا شوية. . أنا ما أقدرش أدفع خمسين جنيه عالتصريح.

وبينما كان قلب سناء يدق أكثر من خمسين دقة متقاربة متتالية كانها دقة واحدة تفتت إلى دقات، ومضى الجندي يقول:

ـ ما دام صراحة بصراحة، نتكلم احنا كمان بصراحة. . يا عبادة بيه

العبر

انت نسيت أن الخمسين اللي بناخدهم بتكسب من وراهم سعادتك ألف وأكثر.

بيتهيأ لك، لو تعرف اللي فيها ما تقولشي كده.. أنت فاكر أن الحكاية تصريح وبس؟ مش عارف في المراقبة لازم برضه على الأقل خمسين وخمسين زيهم واللا ميه في الجمرك؟ ما انت عارف كل حاجة.. ايه الداعي تخليني اتكلم.

ـ ما انت كمان يا عبادة بيـه ما فيش داعي أقول لك.. أنت بتقول عليهم خمسين انما أحلف لك بايه الواحد منا ما بينوبه خمسة يمكن واللا ستة.

ـ بينوبك خمسة! أمال الباقي بيروح فين؟

ـ يا سعادة البيه احنا هنا في المكتب أربعة غير الباشكاتب، شوف كل واحد ينوبه كام، ولازم يروح للناس الي في المصلحة كام، وبتوع الوزارة كام. إن كان علي أنا أحلف لك بايه إني يمكن ما باطلع بحاجة، وشرفي ورحمة أمي أنا مجرد واسطة خير.

ولسبب ما بدا أن «عبادة بيه» الزبون لم يهمه من كل اجابة الجندي إلا نقطة واحدة رسمت الدهشة على ملامحه أول الأمر، ثم جعلته يلقي على سناء نظرة خاطفة ويطمئن إلى انهماكها في العمل قبل أن يميل على الجندي عبر المكتب ليهمس له بصوت ملؤه الدهشة وغير قليل من الاستنكار:

ـ ودي رخره بتاخد معاكم؟

ورفع الجندي صوته عن عمد وهو يكاد يقهقه قائلاً:

ـ أمال يا بيه، هو يصح نبقى زملاء في مكتب واحد وحاجة زي دي

ما نقاسمش بعض فيها؟ ده أنا إن مكانش لي خير في زميلي ما يصحش واحد زي سعادتك يعبرني أو يثق في. أمال يا سعادة البيه.. كلنا بناخد أنا وزملائي الثلاثة كلنا والباشكاتب.

وكان يقول الجملة الأخيرة وهو يدور بصوته العالي في كل اتجاه وكأنما ليشهد السقف والجدران والمكاتب الخالية على ما يقول، بينما يسدد بصره الذي لا يطرف إلى سناء.

١٠

فجأة اكتشفت سناء أنها غارقة إلى قمة رأسها في هوة كأنما حفرت داخلها في لمح البصر، ومضت بسرعة مجنونة تتسع وتعمق وتحتويها. كانت لأول مرة في حياتها تواجه بموقف حاد عاجل يتطلب منها تصرفاً حاداً عاجلاً، وهي لا قدرة لديها على القيام بأي تصرف، أو حتى النطق، مجرد النطق بكلمة. لم تكن تتصور أبداً أنها ستنقلب هكذا ـ دون أن تحس ـ من متفرجة محبة للاستطلاع على موقف، إلى مشتركة لقمة رأسها فيه وأن يكون الجندي العبيط في نظرها هو فاعل هذا ومدبره. كيف استطاع ساذج مثله أن يقلب الحديث الدائر بينه وبين «الزبون»، الحديث المفروض أنها تجهله تماماً وأن يتم خلف ظهرها ودون علمها، إلى حديث عام يرفع فيه صوته ويسمعها وكأنه في ندوة، وكأنها الطرف الثالث في «الصفقة». . بل كاد لولا بقية من حياء أن يطلب منها أن تساهم برأيها فيما تجري عليه المساومة.

بقية من حياء تثبت أنها لم تكن موجودة أصلاً، إذ ما لبثت بعد وقفة التقط فيها أنفاسه ومن السيجارة أشعل سيجارة، وبينما «الزبون» يهم بفتح فمه للرد إذا بالجندي يشير إليه مقاطعاً مصوباً نظراته إلى حيث سناء رافعاً صوته بحيث خرجت كلماته واضحة مفهومة لا تقبل اللمس.

ـ والله ايه رأيك يا آنسة سناء؟ أنا بذمتك وشرفك ببالغ؟ مش يدوب الواحد منا بيتلايمله من الخمسين اللي بناخدهم ع التصريح يدوبك على ورقة بخمسة! كده واللا لأ يا سناء؟ كده واللا لأ؟

حشدت سناء نفسها بكل قواها لترد بكل ما تملك من قدرة على الغضب، بكل ما استدعته إلى وعيها من ألفاظ السباب، بكل طاقتها على الانفعال. بوجهها الأسمر الذي من احتقانه كاد يسود، بعينيها اللتين جحظتا إلى أمام، بالارتجافة الشاملة التي اكتسحتها وأرعشت حتى المكتب الذي تستند إليه، ولكن كلمة ما لم تخرج من فمها.

ضغطت بكوعيها على حافة المكتب، واعتصرت صدرها، وتقبضت عضلات زورها وحلقها في محاولة ثانية للنطق بلا جدوى. ليس لأنها لم تكن تجد ما تقوله، ربما لتزاحم ما تريد قوله، ربما الازدحام الخانق من ألفاظ السباب التي تحفظها والتي سمعتها وتحرجت طوال حياتها عن ذكرها، وأرادت لحظتها بمثل ما لم ترد به أي شيء خلال عمرها كله أن تقولها وتنطقها وترددها مثنى وثلاث ورباع.

وكادت تجن! وهذا الضغط الهائل المحتشد داخلها يأبى أن ينطلق أو يجد له منفذاً لكأنه كابوس خانق لا يحدث لها في حلم، وإنما في واقع يجري أمامها، وكلما مضت ثانية تضاعف احساسها بالرغبة العارمة في الانفجار، وتضاعف إحساسها بالقوى القاهرة الخفية التي تبقيها رغماً عنها غير منفجرة. حتى صراخ الاستغاثة الذي يصدر من النائم، لم تكن تستطيعه. كل ما استطاعته أنها ـ من حلاوة الروح ـ وقفت فجأة كالملسوعة، وضمت قبضتين غريبتين كأنهما ليستا لها، وخبطت بهما سطح المكتب خبطة، وكأنما تقصد بها أن تحطم القبضتين وليس أن تدق المكتب.

العبد

وطوال هذا المشهد الذي برغم طوله اللانهائي الذي أحسته له ـ لم يكن قد استغرق بضع ثوان، في أثنائه كان الجندي منذ أن ألقى السؤال سائقاً العبط على الهبالة يراقبها. راقب كل حركاتها غير الإرادية الأولى وهو لا يفهم، ثم وهو يشك، ثم وهو يخاف خوفاً لا يعرف سببه، وسرعان ما تحول خوفه إلى رعب حين وجدها تفتح فمها عدة مرات دون أن يصدر عنه شيء أو صوت. ثم تحاول محاولات مستمرة مستميتة أن تبتلع ريقها بطريقة تبدو معها وكأن غصصاً أخطبوطية خفية كثيرة تتزاحم وتسد حلقها حتى لتكاد تمنعها عن أخذ النفس أو اخراجه.

وما لبث أن تولاه الذهول حين وجد الخناق الخبيث يزايلها مرة واحدة وتبكي، بكاء غير عادي بالمرة، فهو لم يبدأ كالبكاء على هيئة انفعال يتطور إلى بكاء، بدأ فجأة دافقاً غزيراً وتحت ضغط كالاناء المملوء إذا أصابه ثقب.

وجم الجندي وداخ وتاه وحاول أن يفعل شيئاً، وعلى أقل القليل أن يتكلم، ولم يعجز، ولكنه وجد نفسه يوأوىء ويهوهو ويقول كلمات على هيئة حروف قاصداً أن تكون حروف استفهام، يحاول أن يعرف بها ما الخبر وماذا ألم بها؟

أما عبادة بك «الزبون» فقد جاء انزعاجه على هيئة حركات مضى يجمع بها أوراقه ويضعها ثم يعود يخرجها من حقيبته الفاخرة وقد بدا أنه يستعد لمغادرة الحجرة.

وبنفس الغزارة الأولى رغم كل محاولاتها لايقاف الدموع، مضت سناء تبكي بكاء بدا وكأن لا قوة هناك تقدر على ايقافه. . بكاء تحس له بأضعاف أضعاف سخطها على نفسها حين عجزت عن الرد والنطق، فقد

كان البكاء أسخف تصرف ممكن أن تقوم به لحظتها، وكلما أدركت هذا وثارت عليه واستجمعت قواها لايقافه، أحست بتصميمها وارادتها تذوب وتتلاشى، ووجدت نفسها تمضي باكية سادرة في تصرف تحنق عليه حنقاً لا تجد له رداً إلا بكاء آخر. لقد أحست أنها أهينت اهانة واضحة متعمدة مدبرة، اهانة بلغت بشاعتها حداً أخرسها وأعجزها تماماً. وحين ذهب العجز والشلل وأوشكت أن تنطق وتنفجر، ها هي ذي لا تفعل إلا أن تبكي وتذرف الدموع كأي طفلة، كأي حمقاء معتوهة. تبكي؟ أيكون هذا موقفها من أخطر وأسفل اهانة وجهت لها في حياتها،بل حتى في خيالها لم يكن في حدود التصور المحض بامكانه أن يحلم بشيء كهذا. فما بالك والإهانة لم تحدث في الخيال، وهي واقعة حقيقية لم تفرغ دقائق الزمن من تسجيلها بعد. والإهانة لم تكن فقطلأنها حضرت واقعة كهذه أو شاهدتها، أو حتى لمحاولات محمد الجندي اشراكها ولو بطريق غير مباشر فيها. الإهانة الحقيقية أنه لا بد قد وضع في اعتباره وهو يرسم خطته احتمالاً شبه أكيد أنها من الممكن أن توافق. الإهانة الحقيقية هو ظنه شيئاً كهذا فيها، وليست اهانة لشرفها فقطوكرامتها، وإنما الإهانة العميقة هي أن هذا كله وجه إليها من رجل. الإهانة الأعمق والأخطر أنها فتاة أنثى ـ وأن رجلاً هو الذي ظن فيها هذا الظن، ربما لو كانت شاباً وعوملت بتلك الطريقة لما جرحت هذا الجرح العميق، لاعتبرت أن ما حدث سبة أو تهمة عادية وجهت إليها ولردتها مضاعفة، ولكنها أنثى تحس بعمق أن الإهانة التي وجهت إلى شرفها هي في الحقيقة اهانة لأنوثتها، لشرفها كأنثى، وليس لشرفها ككاتبة أو كفتاة تعمل. اهانة ليس ردها الصفع والركل وكيل أقبح الألفاظ، فمهينها رجل.. الرجل لا يهمه أن يسب أو يشتم أو تصفعه سيدة، بل حتى إذا همه وأهانه فهي اهانة لا توجه

لشرفه. قد توجه إلى شخصه أومكانته، ولكنها أبداً لا تخدش شرفه ولا تجرحه هذا الجرح الغائر الدامي. ماذا تفعل وهي تحس بشرفها الأنثوي مهاناً ومجروحاً، وهي عاجزة حتى عن الرد كرجل أهانه رجل؟ عن السب حتى أو الصفع؟ أهناك ما يقتل من الغيظ أكثر من أن تجد نفسها في موقف المعتدى على شرفها، الحرة في رد الاعتداء والعاجزة في نفس الوقت عن رده؟ بكاؤها الشيء الوحيد الذي أفلت منها يكاد يعميها غيظاً وسخطاً! فرد الإهانة التي تلحق بالشرف، ردها بمجرد البكاء اهانة في حد ذاته اهانة صادرة منها هي، وأي مأساة أن ترد عدوان غيرك واهانته لك بأن تتولى أنت الآخر اهانة نفسك أمامه. أي عار!

أخيراً جداً استطاعت سناء أن توقف سيال الدموع، أوقفته بيدها وأصابعها وقد أعياها البحث عن منديلها الصغير، وكأنما تآمر هو الآخر ليزيد من سوء وضعها ومهانته، ولم تكن تتصور أن باستطاعة انسان أن يكون صفيقاً إلى حد أنه ـ بعد ما فعل ما فعل ـ يتقدم منها وقد أدرك حيرتها وبحثها اليائس مقدماً منديله، وربما كانت هذه الحركة منه هي القشة التي قصمت ظهر غصصها الحانقة المكتومة، وقد وجدت نفسها تقذفه بالمنديل وبما أمامها من دفاتر وأوراق وأقلام، هادرة متشنجة صارخة:

ـ لو كنت راجل ما كنتش عملت كده، إنما أنت حيوان.. كلب.. قذر.. يا حقير.. يا.. ورحمة بابا لاوديك في ستين داهية يا مجرم.

وحتى وهي تقولها منحورة مغيظة شبه مجنونة. لم تحس أنها تشتم أو ترد اهانة. كل ما في الأمر أنها نطقت وانحلت العقدة، منفعلة لا لسبب إلا أن البكاء حين هدرت بالكلمات توقف.

ثم وجدت نفسها منساقة باندفاع كلماتها، لا تقوى على البقاء في

الحجرة فغادرتها مسرعة هوجاء حتى بدا وكأن خروجها ذاك أكبر وأعمق وأحط كلمة أطلقتها جعبتها.

وبخطوات عمياء متعثرة انطلقت في الصالة، غير حافلة بالأصوات التي كانت تصدر طول الوقت عن الجندي ومحاولاته للاقتراب منها واللحاق بها، ولا بالنداء المستغيث الذي كان آخر ما سمعته منه..

وبقلب واجف مخلوع، ووجه فاقد العينين هارب الدماء كأنه في طريقه إلى الموت. أسرع الجندي خلفها.

ولم تعد عيناه إلى محجريهما والدماء إلى وجناته، ولا نبتت تحت إبطيه قطرات عرق السلامة، إلا حين تأكد تماماً أنها لم تذهب بعيداً، وبعيني رأسه شاهدها وهي تتجه إلى ذلك الجزء من دورة المياه الذي خصص للموظفات، وتدخله وتغلق وراءها الباب.

١١

وبينما كلف خفاجة بمراقبة الـدورة، كان اجتماع صاخب عاجل ينعقد في الحجرة وينهي فيه الجندي لزملائه ـ مستسلماً ـ قصة فشلـه الذريع مع سناء، والكارثة التي تنتظرهم فيما لو نفذت وعيدها والدلائل كلها تشير إلى أنها حتماً ستنفذ ذلك الوعيد.

وما كاد ينتهي حتى تطايرت الاقتراحات من كل صوب. . اقتراحات بالمبادرة بالتبليغ عنها قبل أن تبلغ عنهم والباسها التهمة. . اقتراح بكتابة شكـوى تمس أخلاقها. . اقتراح بتهديـدها والضغط عليها. . وعشرات أخرى من الاقتراحات لم تتوقف إلا حين انفتح الباب فجأة وأطل منه رأس خفاجة ليهمس لهم أنها قادمة.

وعلـى عجل هيـىء المسرح لاستقبالها واتخذ كل موظف مكـانه ودوره. وبينما تصنع البعض الانهماك جلس آخر يعبث بمفاتيـح الآلـة الكاتبة، بينما الباشكاتب لم يطاوعه سنه على التمثيل فوقف مكـانه كما كان. كل ما استطاعه أن أمسك بمظروف راح يستخرج محتويـاته ببطء ويفحصها بعيداً عن أعين الزملاء. . بعيداً عن الركن الخامس.

ودخلت سناء وقد أصلحت ما أفسدته الدموع من وجهها وعينيها وإن

بقيتا منتفختين قليلاً يلونهما الاحمرار. ودون أن تنطق بكلمة توجهت إلى مكتبها وراحت تجمع الأوراق وتضعها في الأدراج وتغلقها علامة الاستعداد لمغادرة العمل، والساعة لم تكن تجاوزت الثانية عشرة إلا بقليل. وسألها الباشكاتب بطريقة عادية جداً إلى أين هي ذاهبة؟ وأجابت بطريقة حاولت هي الأخرى أن تجعلها عادية قائلة إنها متعبة طالبة منه الإذن بالمرواح. ورغم دهشة الموظفين المكتومة أذن لها الباشكاتب متمنياً لها بلهجة أبوية سرعة الشفاء.. فقط طلب منها أن تكتب ورقة صغيرة إذ هكذا ينص الروتين. وبينما مضت سناء بيد مضطربة وأفكار مشتته تحاول كتابة الورقة وتمزق المحاولة، غادر الباشكاتب مكتبه وذهب إلى مكتبها، وبروح الأب أيضاً أعفاها من التفكير وأملى عليها الصيغة. وحين وصمت أخذ منها الورقة وأعاد قراءتها، ولاحظ أنها نسيت كتابة التاريخ فكتبه، وبينما هي تتلفت في حركة غريزية قبل مغادرة الحجرة سألها الباشكاتب:

ـ انتي صحيح تعبانة يا سناء؟

وحين هزت رأسها مجيبة وقد عاودتها الرغبة السخيفة في البكاء، قال الباشكاتب:

ـ لا يا سناء، انتي مش تعبانة.. انتي زعلانة. فيه ايه؟

وبينما مضت تصر على أنها متعبة فقط ومضى هو يصر وبروح الأب أيضاً على أن هناك مشكلة، وعلى أننا كلنا زملاؤه، وكلنا لا بد أن نحمل هم بعضنا إذا ألم بالبعض منا هم. ظلت المحاورة دائرة وقتاً غير قليل حتى بدا على سناء الإعياء، وحتى بدا أنها في المرة القادمة لن تحفل بالإجابة وستترك الحجرة، حينئذ قال لها الباشكاتب:

العبر

ـ انتي زعلانة م اللي عمله الجندي أفندي. شوفي يا بنتي . .

وكان قرار سناء بينها وبين نفسها أنها لن تسمع ولن تسمح لنفسها أن يثار الموضوع أو تكون طرفاً في اثارته، ولكنها لا تعرف بالضبط ماذا أبقاها، وماذا في لهجة الباشكاتب رد لها بعض الاعتبار، ربما وضعه لها في موضع القاضي في الوقت الذي وضع نفسه وزملاءها فيه موضع المتهمين، ومنصب القضاء لا يرفض مهما بلغت وضاعة التهمة.

وحين بدأت سناء تقبل الدور وتستمع وتعي ما يقول، أحست مرة أخرى بتلك الدوامة تجتاح عقلها ووعيها وكل كيانها . . ذلك الكيان الذي صنعته حياة قوامها اثنان وعشرون عاماً من الخبرة والتعليم والمعاناة. ما إن بدأت تنصت إليه لم تكن أشياء غريبة على أذنيها فقط، ولكنها معان عاصفة مهولة كانت تهب من فم الرجل الطيب وتكاد تقتلع كل ما صنعته لنفسها من كيان، وكأنها كانت طوال حياتها لا تعيش ولا ترى الدنيا أو تحيا فيها. لكأن حياتها بكل ما كان فيها من صعوبات وقلاقل كانت لا حياة بجوار ما راحت تسمعه وتعيه، أو لكأن حياتها هي الحياة وما يقال لها إن هو إلا وصف لا يعقل لحياة شاذة منحرفة لا تمت بصلة إلى عالم الأحياء.

سألها صفوت أفندي الباشكاتب أول ما سألها عن رأيها فيه، أهو سيء؟ أفي ملامحه أو تصرفاته معها ما يوحي بالجريمة والإجرام؟ أجابت سناء بالنفي، فالباشكاتب قد بدا لها طوال عملها معه وخوفه من الله والحساب والميزان لا يقل عن خوف عالم متبحر في الدين. ما الذي يدفع رجلاً هذا شأنه إذن إلى أن يكون شريكاً في عمل قذر تأباه النفوس؟

ـ الدنيا يا سناء يا بنتي، العيشة . . أنا ماهيتي كلها بعد الخصومات ١٩ جنيهاً و ٢٣٠ مليماً ومصاريف بيتي في الشهر ما تقلش عن ٥٠ أو

ستين. عندي ولدان في الجامعة، وبنتان وولد في الثانويـة، وبنت في المعهد، وعيلين صغيرين في ابتدائي، ولي أخت مطلقة وقاعدة معايا هي وولادها ثلاثة، منهم واحد طلعناه من المدارس وبيشتغل في مصنع. ساكن في بيت الناس بيحسدونا عليه ومع كده ايجاره ثمانية جنيه ونص. بند الأدوية بس بياخذ منا بالميت خمسة جنيه في الشهر غير الدكاترة. لو في مكاني تعملي ايه يا بنتي؟

ـ أعمل أي حاجة إلا كده. أعلم ولادي بفلوس حرام؟ أطلعهم من المدارس أحسن واشغلهم.

قهقه الباشكاتب بسخرية مريرة ربما لسذاجة الاقتراح:

ـ لو رضيت أنا أمهم ح ترضى؟ ولو رضيت أنا وأمهم ح يرضوا هم؟ ولو اشتغلوا حتى ح يشتغلوا ايه؟ ح يكسبوا ايه؟

ـ بس دي جريمة يا عم شكري. . سرقة. دانت راجل طيب. دا كأنك بتمد ايدك في جيب واحد لا مؤاخذة يعني. . وبتنشل منه فلوس. إزاي ترضى تعمل كده؟

ـ يا بنتي الأخلاق الكويسة حاجة، وأكل العيش حاجة تانية.

ـ أكل العيش حتى بالسرقة؟

ـ يا بنتي انتي لسة صغيرة ع البرما شيلتيش هم المسئولية. لما تكوني مسئولة عن جيش زي اللي أنا مسئول عنه، وكل يوم لازم تسدي ٢٠ بق مفتوحين لك، مش ح تسميها سرقة أبداً. أنا باسرق مين؟

ـ المواطنين.

ـ دول أغنيا. . وأنا ما باخدش غصب عنهم هم اللي بيدفعوا من نفسهم.

ـ يبقى الحكومة.

ـ الحكومة خسرانة ايه؟ هو أنا بختلس من أموالها؟ حق الحكومة محفوظ ما حدش بيقدر يمد ايده عليه.

ـ يعني رأيك ما فيهاش حاجة أبداً انك تعمل كده؟

ـ معاك إن فيها حاجات كتير. . فيها وفيها وفيها. انما حطي نفسك في موقفي تعملي ايه؟

ـ أنا شخصياً لا يمكن. . لما أموت أنا وأهلي م الجوع ما اقدرش أمد ايدي على حاجة حرام.

ـ انت ما تقدريش. . أحنا غصب عنا لازم نقدر ولازم نمد أيدينا فإيه رأيك فينا؟ ح تتصرفي معانا زي ما قلتي للجندي؟

ـ أنا قلت له كده عشان هو. . هو مش محتاج زيك وأخلاقه وحشه و. .

وهم الجندي أن يعترض وقد احتقن وجهه بالغضب، ولكن الباشكاتب أشار إليه أن يسكت ومضى يقول:

ـ بس احنا معاه.

ـ يبقى انتو أحرار.

ـ احرار ازاي؟ مش فاهم.

ـ يعني انتو في سكتكم وأنا في سكتي. . أنا ماليش دعوة بيكم. انتم كبار ومسئولين عن نفسكم قدام ربنا وقدام الناس.

ـ وليه ما تكونيش ويانا؟

ـ أنا؟ والله لما يتقطع دراعي.

ـ وليه يا بنتي التزمت ده؟ احنا عارفين برضه وعارفين أزمتك وعارفين أخوكي عايز على الأقل عشرة جنيه عشان يمتحن. وادي انت شايفه أهه.. يعني مش ح تكوني متمسكة بالأخلاق الكريمة والدين والذمة أكتر من واحد زيي. ما تخلينا سوى سوى تفكي أزمتك ونفك أزمتنا وأهي ماشية.

ـ يا عم شكري أفندي.. أرجوك.. أي كلام بالشكل ده بينرفزني وح يخليني أتهور. انتو في طريقكم وأنا في طريقي.

ـ وهو كذلك. بس على شرط.. ما حدش منا يتدخل في طريق التاني.

ـ عني أنا.. خدها مني كلمة شرف.

ـ وعننا إحنا.. أعدك بشرفي. الفاتحة على كده.

ورد الجميع قائلين: الفاتحة.

وتململت سناء قليلاً، واستغربت، ماذا حدث للدنيا؟ أيقرءون الفاتحة لتكريس اتفاق شائن كهذا؟ماذا حدث للناس؟

ولكنها، تحت إلحاح العيون المنتظرة، هزت كتفيها ومضت تتمتم بالفاتحة، وحين وصلت إلى منتصفها تقريباً خيل إليها أنها أخطأت في التلاوة، فأعادت القراءة من جديد، وكالخاطر الغابر تذكرت أنها لم تقرأ الفاتحة من زمن بعيد منذ أن كانت طفلة تصلي، وتذكرت أيضاً إلحاح أمها عليها بالصلاة وتأجيلها التنفيذ دائماً. ماذا تقول أمها اذن وهي تسمع هؤلاء يقرءون الفاتحة صحيحة سليمة، ويقرءونها في اليوم مرات ويصلون ويحجون ويسمون الرشوة أكل عيش، ترى ماذا تقول؟

ولكن الحادث على أية حال لم يمر ببساطة ولا مرّ الاتفاق، فلقد ظلت سناء محط الشكوك لفترة، وكلماتها وكل حركة من حركاتها ظلت

محل دراسة وافية ونقاش، والجميع يميلون إلى افتراض أنها تخدعهم أو في الطريق إلى خداعهم، والباشكاتب وحده يقف في صفها ويؤكد أنها لن تفعل، وأن عهد البنت وكلمتها على عكس ما يقال كلمة واحدة متى قالتها لا تتراجع عنها. ومن ناحية أخرى لم يعد الأمر يزاول بالبساطة الأولى.. مجرد علمهم أن سناء زميلتهم الموجودة معهم في مكتب واحد تعرف وتسكت ولكنها لا تشاركهم «اللعبة»، مجرد علمهم هذا أحاطهم بجو من عدم ارتياح غامض. كانت مزاولتهم لأعمال المكتب الثاني كجماعة قد أضفت على العمل نوعاً من القانونية، ومحا عنهم كل أثر للاحساس بالذنب. سناء بوجودها واشمئزازها ونظراتها جعلت احساساً جديداً يبدأ يزحف.. احساساً بخرق القانون، بارتكاب معصية! وقد تجسد هذا على هيئة ضيق شديد بسناء ووجودها ورغبة ملحة في التخلص منها، حتى الجندي دفعته تلك الأحاسيس المتضاربة إلى الكف عن الاحساس بها كفتاة، فلم يعد أبداً يختلس النظر إلى شفتيها ويزدرد ريقه كلما توقف بصره عند شفتها السفلى، وهو الذي كان لا يتصور أو يقبل أن يحاول أحد ابعاد سناء عن المكتب وحرمانهم منها بدأ يتمنى في أحيان لو ذهبت.. وبدأت رغبته في وجودها تتعادل ككفة الميزان مع رغبته في ذهابها.

إن المذنب لا يحسد البريء، أنه يكرهه، ويحس به كأنه ضميره. وكأن الضمير هو الجزء البريء في قلب المذنب، وسناء ذلك الجزء ذلك الركن الخامس البريء في المكتب كانت قد أصبحت كالضمير المقيم الذي لا يتحرك، والذي لا تخفى عليه خافية، والذي يقابل كل ما يدور أمامه بالصمت والسكون. ليتها كانت تتكلم أو تنصح أو حتى تشتم. ليتها تفعل أي شيء إلا أن تسكت. والكارثة أنها ضمير مؤنث، إن الرجل لا يخجله كثيراً أن يرتكب الخطأ أو الحماقة أمام زميله الرجل، أي

رجل.. ولكنه يخجل ببشاعة أمام الأنثى، أي أنثى.

وكان طبيعياً جداً في مثل ذلك الجو أن تحدث ارتباكات في مزاولة العملية. فمحاولات كل منهم للتخفي واستدراج الزبون بأقل ما يمكن من الضجة وبسرعة لا تثير الانتباه، وبالذات انتباه سناء، هذه المحاولات كانت غالباً ما تفشل، وكثيراً ما تصدر عن الزبون كلمة أو اشارة تفضح فيفقد الموظف أعصابه ويعدل عن الصفقة نهائياً بين عجب الزبون ودهشته، ويصر على أن يأخذ القانون مجراه، وفي اصراره ذاك يرفع صوته ويعظ ويحاضر، ويكاد يشهد الجدران والمكاتب والأثاث على ما يقول. ثم بدأت تحدث منافسات، وبدا كأن كلا منهم يريد أن يبدو أكثر من الآخر غيرة على القانون، وفي مقابل هذا بدأت تحدث اتفاقات خاصة وبينما الواحد منهم يرفض في العلن ويصر على الرفض إذا به يتفق سراً مع الزبون ويتقاضى الثمن وحده، بعيداً عن أعين الزملاء، بعيداً عن الركن الخامس.

١٢

ـ خفاجة! انت يا هباب انت ياللي اسمك خفاجة.

ـ يا فتاح يا عليم.. نعم يا محمد أفندي؟

ـ شيل القهوة دي.

ـ ليه؟ مالها يا محمد أفندي؟

ـ زفت.. قطران.. قرف شيلهالحسن وديني أرميها في وشك.

هكذا انفجر محمد الجندي في الرجل، وبعد أن وجه إليه الأوصاف الثلاثة الأول مضى يدور بأبصاره ماسحاً الحجرة بناظريه، هادراً في كل وجه من أوجه الزملاء يواجهه:

ـ دا لا قهوة نافعة ولا طيب نافع، والناس بقت عايزة الضرب بالجزم. عايزين كرباج من بتوع زمان يسوقهم. أصل احنا كده ولاد (...) مانجيش بالذوق أبداً. إن ما كانش الواحد ياخد على دماغه ما ينفعش. شيل القهوة يا حلوف.. شيلها بقولك.

ويبدو أن صوته الصارخ الزاعق وصل إلى الحجرات الأخرى، إذ ما لبثت رءوس ما أن بدت تطل، ولا تستغرق وقتاً كبيراً لتكشف أنها نوبة أخرى من نوبات محمد الجندي، فتتراجع منسحبة خائفة أن يصيبها من شتائمه رذاذ.

ولم يكن أحد يجهل السر، فايراد المكتب الثاني كان قد بدأ ينخفض انخفاضاً ملحوظاً، وعيون الرجال الكبار في المصلحة والوزارة قد بدأت تحمر وتتلمظ وتلمح، وأحياناً تجهر بالاتهامات والشكوك، غير مستعدة أن تصدق أن السبب ممكن أن يرجع أبداً إلى وجود الموظفة الجديدة كما يدعي الجندي، غير ملقية بالاً أو اهتماماً إلى محاولة الجندي «سبك» الدور ومطالباته المستمرة بنقلها أو التخلص منها، منهية مقابلاتها معه بهزات رءوس مهددة تهديداً يعلم الجندي خطورته، بحيث تلقي كل اهتزازة رأس الرعب في أعماقه.

غير أنها نوبات مهما طالت لا بد أن تنتهي، ويعود الجندي يجلس إلى مكتبه، ويعود الهدوء يسود الحجرة. ولكن أي هدوء؟ والعمل بشقيه تقريباً توقف، وخلف الهدوء الظاهري يكمن تحفز، وتحت جلود الوجوه الطبيعية جلد أصفر شاحب شحوب الخطر وترقبه.. شحوب الحالة «ج». حتى سناء مصدر الخطر كانت هي الأخرى قد بدأت تستشعر أن ثمة أمراً محيراً غريباً يحدث، لا من وراء ظهرها ولكن أمام عينيها وإن كانت لا تراه ولا تستطيع تحديده. ها هم جالسون مثلاً يرفرف عليهم سقف واحد وتضمهم جدران أربعة، ولكن أية حواجز هائلة قائمة تحول بينهم، أو بالتحديد بينها هي وبينهم! لأول مرة تحس بعمق أنها لا تفهم هؤلاء الرجال وأنها بينهم كالطفل الغريب اليتيم التائه في مدينة لا يعرفها. لأول مرة تحس أنهم يكونون عالماً ثانياً تجهله، وتخافه، وتحس به معقداً تعقيداً بالغ الوعورة مجرد تأمله يخيف. نفس خوفها الذي لا تجد له تفسيراً كلما اعترت محمد الجندي احدى نوبات زعيقه وهياجه وشتائمه.. محمد الجندي الذي طالما استثار اشمئزازها الصارخ، والذي طالما ألقت عليه نظرات احتقار لو أحسها لصعقه الاحساس. ما لها حين يبدأ يشخط ويهدر

حتى لو كان يخاطب خفاجة أو الحظ أو الصباح المقيت، تتوالى دقات قلبها وتخاف خوفاً يدفعها لتأمل محمد الجندي تأمل المذعور؟ تأملاً لا يحمل كرهاً أو اشمئزازاً. تأملاً لا ترى معه ملامحه سائلةصفراوية لزجة، وإنما تراهاغاضبة،وكأنما قد تجمدت سيولتها فجأة وتحولت صفرتها حمرة ـ حمرة الغضب ـ ولزاجتها صلابة، وعيونه الخضراء الشاحبة توقد فيها نار جهنمية وكأنما يوقدها الشيطان، حتى إذا ما استدار ومستها لمحة من وجهه الغاضب خافت واقشعرت وأصبحت كل أمانيها أن يهدأ ويذهب عنه الغضب ليعود ذلك الكائن الذي لا يخيف.

وأيضاً لم يكن خوفها مجرد خوف بسيط. على الأقل ليس مجرد الخوف من زميلها الغاضب، فقد كانت تحس بغضب الجندي يكشف لها ويحمل معه علامات من ذلك العالم الآخر، عالم الرجال الذين تحس بهم أكثر جرأة وأعنف انفعالاً ولغضبهم قدرة كبيرة على التحطيم والتخريب. لكأنما كلب رجالي خشن الصوت حاد الناب سيخي النظرات قد انطلق من مربطه في أعماق الرجل فجأة إلى كلماته وتصرفاته وملامحه ومضى ينبح ويهدر ويهدد. ينشب أنيابه المسنونة في كل ما يعترض طريقه.

خوف مركب أبشع ما فيه أن سناء في الحقيقة، في ذلك الجزء الخفي من الحقيقة الذي لا يطلع عليه أحد سواها وأحياناً تخجل حتى أن تطلع نفسها عليه، لم يكن خوفها الأكبر بسبب احتمال أن يفقد الجندي وهو غاضب صوابه وينشب فيها أظافره وأنيابه، وإنما لاحتمال أغرب لا يكاد العقل يصدقه، أن يفقد صوابه ويتعرى أمامها كرجل مثلاً، أو أن ينقض عليها وقد انطلق فيه الرجل الكلب من عقاله ويغتصبها هكذا فجأة، وقبل أن يتمكن أحد من الدفاع عنها،بل حتى قبل أن تتمكن هي من الدفاع عن نفسها.

أيام لا تستطيع حصرها، لا لكثرتها أو لقلتها، ولكن لأنها كانت مجرد يوم واحد متصل طويل، تذهب فيه إلى العمل متمنية أن يكون كل شيء قد تغير، والوضع كالكابوس مر وانتهى. وبهذه الروح تدخل المصلحة في خفة وتحيي خفاجة بابتسامة واسعة وتعرف أنها مبكرة أكثر من اللازم وأن أحداً من زملائها لم يحضر بعد، فتجلس تنتظر التغير الذي تتمناه وتترقبه، محاولة أن تستشفه من طريقتهم في قول: صباح الخير. ومن الثامنة والنصف يبدءون في الحضور، ومن أول الباشكاتب إلى محمد الجندي آخر القادمين تخرج التحية فاترة لا روح فيها ولا طعم، هذا إذا لم يتشاغل بعضهم عن قولها أصلاً. لا تغيير! وكأنها هي التي أذنبت وكأنهم ليسوا هم المخطئين. وتمضي الساعات بطيئة ساكنة تكاد تكون كالقوارب في بحر لا هواء فيه. . لا تتحرك، وهي تعاني من شعور غير المرغوب فيه الحساس للكلمة، أي كلمة حين تقال وأي كلام لا يقال، قلقة تغادر مكتبها كل خمس دقائق مرة تجوب المصلحة وتزور الزميلات، وتدهش حين يحادثها الموظفون الآخرون حديث الند للند البريء إلى البريء ولكنها تعلم أنه حديث إلى حين. .ففي الحجرة مشكلتها، وعبث ذلك الحل الذي تحاول العثور عليه لدى الآخرين. كانت قد اشتهرت في المصلحة بـ «البنت القنزوحة بتاعت التراخيص» صفة كانت تحنق عليها علناً وتعجب بها سراً، وتعمل على أن تظل محتفظة بها. ورغم احساسها أن كثرة التجوال في الحجرات والمكاتب والحديث إلى من هب ودب يذهب عنها المكانة الخاصة التي تحتلها، إلا أنها كانت لا تملك منع نفسها من الحديث والتجوال لتعود منهكة بعد رحلاتها المتعاقبة إلى الحجرة، وكأنما بارادتها تعود تسجن نفسها بين الوجوه الأربعة التي تبدو لها أسمك من الجدران. سجن وإن كان يضايقها إلا أنها تأبى في أعماقها أن تتخلص منه. . فبمثل رعبها من غضب الجندي وزهقها من الزمن

الساكن المتوقف ورغبتها المتأججة أن تعرف ما يدور في أعماق سجانيها الأربعة. . بمثل هذا وأكثر منه كانت مستعدة لأن تحتمل الضيق الخانق إلى أقصى مدى، فقط لكي تعرف ماذا سيحدث بعد هذا أو ماذا يمكن أن يحدث؟ شغف كالشغف العارم لمعرفة نهاية قصة بدأت فجأة وسرعان ما ركدت أحداثها وتوقفت، ولكن لا بد أن هناك نهاية لها. لا بد.

١٣

وربما لهذا السبب تضخم احساسها بيوم الأحد وتضاعف ترقبها لـه هي التي لم تعره أول الأمر عناية ما. وحين ذكر الخبر أمامها ودعيت لم تحفل لا بالخبر ولا بالدعوة، ولا خطر لها احتمال أن تفكر في الذهاب. فما أهمية أن يكون ليسرية زميلتهن المعينة مساعدة لأمين المحفوظات عيد ميلاد يحل يوم الأحد، وتهتم به اهتماماً يدفعها إلى التفكير في حفلة وإلى دعوتهن؟ ما أهمية شيء كهذا؟

اليومان التاليان كشفا عن أهمية غير عادية للحفلة كانت ستضمهن جميعاً هن الخمس، ولأول مرة سيجمعهن مكان مغلق خارج العمل وبعيداً عن أسماع المصلحة والموظفين. وسناء كانت قد بدأت تؤمن أنها وحدها ليست ندا للموقف، وصحيح أنها كما وعدت لن تتحدث في موضوعها بالذات، ولكن ربما تحدثت أخرى، وربما تناقشن جميعاً ربما صدرت عن احداهن كلمة قد تضيء كفنار النجاة لها الطريق.

وكادت تندم على حضورها وعلى كل الآمال التي علقتها، فبعدما انقضت ساعة في بهجة مصطنعة، وكأنها تقليد غير متقن لماركة بهجة حقيقية لا بد موجودة في مكان ما على سطح الأرض، وضحك في فشله التام للتعبير عن المرح تكاد تضحك عليه، آن لهن أن ينفردن بأنفسهن وقد

ذهبت القريبات والصديقات اللدودات كلهن ما عدا واحدة داعرة القهقهة والنظرات أصرت على البقاء. وحين بدأن يتحدثن عن المصلحة والعمل حديثاً تافهاً أول الأمر يتناول وجهة نظر كل منهن في هدوء هذا الموظف أو ذاك، وفلان ده يا ختي عليه. عليه حتة طابع حسن يجنن.

بدأت الصديقة أو القريبة ـ لا أحد يعرف ـ تعلق من عندها هي الأخرى تعليقات داعرة كأنها صادرة عن امرأة كشفت عن نفسها كل حجاب، متسائلة بشغف المحرومة عن احساسهن «الجسدي» بزملائهن الموظفين، مبدية اشمئزازها من خيبتهن وكسوفهن الذي لا يليق بموظفات مثلهن يقبضن كالرجال الماهية في «آخر الشهر»، وكأنها لا ترى في العمل سوى طريق مختصر إلى الرجل أو «الذكر» في الرجل. منطق بدا لهن، حتى لبهيجة صاحبة «القصة» والضحكة واللبانة مثيراً للغثيان. والغريب أن تشترك بهيجة بالذات معهن في الشعور، فقبل بضعة أسابيع كانت يكاد يكون لها في العمل نفس الرأي، بل لم لا نقول إنه السبب الحقيقي لبحثها عن العمل وتفتيشها عن الوظيفة.. كأنما كانت تفتش عن حظيرة للرجال هم موجودون فيها بمختلف الأنواع والأشكال والأحجام بحيث تصبح كل مشكلتها أن تختار؟ ماذا حدث حتى أصبحت مشكلتها بعد بضعة أسابيع من الوجود بالحظيرة، ومن الاحتكاك بالرجل في مجال الوظيفة، وبعد موعد أو اثنين خرجت فيهما بلا حماس كبير مع زميلين لها.. ماذا حدث وأنساها هدفها الأساسي، وفقد الرجل طعمه القارص الأول وبدأت تجد له في نفسها مذاقاً جديداً لا يلدغ، ولا يجعل جسدها يقشعر، ولا يصيبها بأي إحساس يمت إلى الجنس أو الجسد بصلة؟ وأصبح كل ما يعنيها في الحظيرة أن تعرف من هو الرئيس من المرءوس ومن صاحب المستقبل، إذ هناك في مؤخرة عقلها المغامرات

قد تغيرت بقدرة قادر إلى مشاريع - كانت مشاريع - لدهشتها - زواج. . زوج تختاره بعقلها المجرد عن الهوى وبوعيها المجرد عن الشعور. بل في أقل من شهر تطورت مشاريعها تطوراً آخر وأصبح همها لا أن تسعى «للترقى» عن طريق اختيار الزوج الأرقى في الوظيفة والمستقبل، وإنما للترقي عن طريق أن تترقى هي وتحتل الوظيفة التي يتنافس على خطبة صاحبتها المتنافسون. ولا بأس هنا من استعمال كل الطرق وأي الطرق على الوظيفة الأحسن، بالعمل المتواصل لكسب رضاء الرؤساء، بالشكولاتة أو البونبون أو بأنوثتها حتى. أي تطور أصابها هي التي ذهبت تفتش عن الرجال في العمل «لاشباع» أنوثتها، فانتهت في أقل من شهرين إلى التفتيش عن العمل ونتائج العمل في الرجال، حتى لو اضطرها الأمر «لاستعمال» أنوثتها وجعلها وسيلة للوصول، في ذلك الميدان الجديد الذي اكتشفت في حظيرة الرجال وجوده؟

وحتى فيما وصلت إليه كانت تعليقات السيدة الجالسة واضعة فخذاً فوق فخذ تتحدث عن كل ما هو «عيب» بانطلاق زائد، وكأنما هي العالم المتبحر يطرق موضوعه المفضل. . السيدة الغريبة التي استنكرت حين سألتها إن كانت تشتغل - مجرد السؤال - باعتبار أن العمل «عيب» لا يليق بالسيدة الفاضلة أن تترك بيتها لأجل أن تزاوله. . السيدة التي تفخر بأنها «ربة بيت» وتلتقط مواقف العيب لتخوض فيها وتتوسع، معتقدة أنهن ما دمن يرتكبن العيب الأكبر ويعملن فلن يمانعن قطعاً في مزاولة العيوب الصغرى مثل الحديث عن العيب والنكات والقفشات العيب.

كلمات كانت وجوه البنات تخضر لها كاشارات المرور وتصفر وتحمر، ويشعرن لدى سماعها أن مسافات شاسعة الطول قد حملتهن بعيداً عن عالم «حريمي» آخر قائم وعتيد، وكن إلى أسابيع قليلة مضت

من رعاياه وعبيده . . عالم المرأة فيه في نظر الرجل، وبصراحة قد تجرح في نظر نفس المرأة أيضاً عيب متجسد يرتدي الفساتين ويتجمل بالمساحيق، وكل رغبة لها أو مطلب تحمل في ثناياها وصمة عيب أبدية . . خلقت عيباً وستظل إلى يوم مماتها عيباً. تلك هي الحقيقة الوحيدة الراسخة في عالم الحريم والرجال الذي كن يحيين فيه، وكل ما عداها من حقائق لا يفعل أكثر من أن يؤكد تلك الحقيقة الكبرى ويعمقها. من أسابيع قليلة مضت خرجن من عالم العيب هذا إلى عالم اللا عيب اللا خطأ، عالم اللا رذيلة، عالم الرجال. خرجن من عالم كل ما فيه ومن فيه حرام إلى عالم كل من فيه تطل، ولا تستغرق وقتاً كبيراً لتكتشف أنها نوبة في الأرض المحايدة، في العمل، حيث لا تسري قوانين البيت والمجتمع، حيث لا تسري قوانين الأخلاق، حيث القانون الوحيد المطاع هو قانون العمل، حيث الخطيئة الكبرى لمن لا يعمل. بضعة أسابيع أتاحت لهن أن يرين الرجال ويرين أنفسهن ـ لأول مرة ـ متجردين ومتجردات عن العيب واللاعيب، عن الحرام والحلال، بدأن بعدها يقتنعن أن للحياة قوانين أخرى وأحكاماً تختلف عن الأحكام الأزلية اختلافاً شاسعاً كبيراً، كبر المسافة الكائنة بينهن وبين السيدة الجالسة واضعة فخذاً فوق فخذ تتحدث بفخر الأسيرة بآسرها، والعبدة بسيدها ومحور حياتها، عن العيب.

ويبدو أن السيدة قد أخذت وقتاً طويلاً تضحك فيه ببحبحة وتسخسخ فيه بارادتها لدى ذكر الرجال وعالم الرجال، قبل أن تدرك أن الأخريات لا يشاركنها، وبمعنى أصح يتفرجن عليها تفرج المشمئز.

ودون أن تخجل أو تؤنب نفسها قالت:

ـ ده انتو الظاهر جد أوي. دانا مش بتاعت كلام من ده، أنا ست

بتاعت حظ وفرفشة وانتو باينكم خام أوي أوي. لا، اسمحيلي يا ختي يا يسرية أصلي أنا ما استحملش الجد أبداً. بيعمل لي ارتكاريا يا حبيبتي وأنا مش ناقصة هرش . عن أذنكم.

وكأنما انزاح عن صدورهن هم ثقيل أو كانت السيدة رجلاً يخجلن من الحديث أمامه. والتشبيه ليس من عندي، لقد جاء على لسان سناء وهي تشيع المرأة وتكاد تسمعها الكلمات. . تشبيه ضحكن له، وما لبثت «نور» خريجة التجارة أيضاً وكاتبة الآلة في السكرتارية أن علقت عليه قائلة:

ـ أهو احنا دلوقتي لا احنا ستات على ناحية ولا رجاله على ناحية، زي ما نكون عملنا جنس تالت.

فقالت سناء:

ـ ما هو لازم يحصل كده! ما احنا ستات انما بنقوم بعمل رجاله، زي الرجاله لما بيقوموا بشغل الستات. . زي الترزي اللي بنفصل عنده وزي الأسطى ابراهيم الكوافير. . مش تلاقوهم برضه ستاتي شوية. . نواعمي كده؟

ثم أضافت ضاحكة:

ـ زي احنا ما ابتدينا نخشن شوية.

ولكن مجرى الحديث تغير فجأة. مالت نور على يسرية وقالت لها شيئاً، رفعت يسرية بعده صوتها في شبه صرخة:

ـ يا نهار أبيض. وعندنا كمان!

ـ ايه هو اللي عندكم؟

ورسمت نور بابهامها وسبابتها مصطلح «الفلوس» وقالت سناء:

ـ في السكرتارية كمان؟ أنا كنت فاكرة عندنا بس.

وهكذا، وبانزلاقة فجائية وجدت سناء أنها وزميلاتها قد أصبحن فجأة في قلب المشكلة.

ولا تدري لماذا أحست بكل تلك الفرحة الطاغية التي اجتاحتها لمجرد علمها أن قسم التراخيص ليس هو الوحيد الذي يقوم بالعمل الآخر الثاني.

وشهدت الغرفة الصغيرة التي كانت مسرحاً للاحتفال المتواضع أكثر من خبطة على كف، وارتعاشات يد علامة البراءة والاستنكار، بينما الصدور تتهيأ وكأنها مقبلة على سباق لتقص كل منهن على الأخريات أغرب وأعجب واقعة رأتها في حياتها.

وبعد قصة من نور وأخرى من نجاة بدأن يدركن أن قصصهن متشابهة إلى حد بعيد، وإن لا غرابة إلا في أنها حدثت لكل منهن على انفراد، وإلا في أنها صادرة عن جنس غريم آخر.

هنا كففن عن الحكي واصدار آهات الدهشة والاستنكار، وبدأت تظهر على الواحدة منهن إذا تحدثت علامات دالة على تفكير. فالحديث كان قد اتخذ وجهة نادراً ما يتخذها حديث النساء عن الرجال، إذ هو لم يكن يدور عنهم كرجال، وإنما عنهم كأكلة عيش، وعن الوجه الآخر لعالمهم، عالم المسئولية وأكل العيش.. العالم الذي أقاموه واحتكروه واحتفظوا بمفاتيح أسراره، العالم الذي تكفل بصبهم في قوالبهم وتكوين أمزجتهم وصنع هياكل شخصياتهم وقيمهم. قالت نجاة:

ـ عندنا محمد أفندي راجل زي أولية الله تمام، حاجج مرتين وطول النهار السبحة في ايده وطول النهار يكلمنا عن اللي يصح واللي ما يصحش. والمصيبة أنه مش بيدعي، ده جد تلقيه كريم وعنده نخوة

وشرف ونبل، آخر شرف ونبل! وأعرف لك بعد كل ده قال أنه بياخد على كل استمارة جنيه. معتبرها عيب وكل حاجة، إنما يقول لك على رأيه: هادي نقره يا ولد عمي وهادي نقره.

ـ ونروح بعيد ليه؟ رئيس الادارة بتاعتكم يا سناء راجل بيلعب بوكر بدينه، وقال ايه قبل ما يلمس الورق لازم يقرأ الفاتحة.

وتدخلت نور صاحبة الحفلة:

ـ طيب أنا بعيني بقى شفت الحكاية دي. الراجل اللي ساكن تحتنا ده موظف في شركة، لو كنتم هنا امبارح كنتو سمعتوا الصراخ جايب من آخر الشارع وكل يوم والتاني مولد بالشكل ده، وعلشان ايه ده كله؟ حضرته بينزل ضرب في ابنه لما بيجي متأخر من بره، ومتأخر دي عنده يعني بعد الساعة عشرة. كويس كده؟ ايه رأيكم لينا واحد قريبنا بيشتغل معاه لما سمع الحكاية دي مات م الضحك وقال مش معقول ده، أي حد تاني معقول، إنما الراجل ده بالذات.. ده معروف عنه زي الشمس انه بيورد الستات لكل الموظفين الكبار في الشركة.

ومستغربة ليه؟ هادي نقره يا ولد عمي وهادي نقره.

وارتفعت ضحكاتهن عالية، وما لبثت سناء أن قالت مواصلة نغمة السخرية:

ـ الظاهر الرجاله دول عندهم لكل مبدأ دوسيه.. الشرف في بيته غير الشرف في عمله، والحرام في الليل غير الحرام في النهار، والفضيلة ما تمنعش الرذيلة. كله موجود مع بعض في حالة تعايش سلمي.

ثم اعتدلت جادة لتكمل آراءها «الفلسفية» بقصة حقيقية عن رئيسها عم صفوت أفندي، الرجل الذي هدهد عليها كالأب وحاول أن يقنعها

باقتسام الرشوة، والذي لا تخلو جملة من جمله من حديث شريف أو آية قرآنية. من يومين كان صفوت أفندي يحكي لي كيف اكتشف مرة أن مع ابنه الصغير أصبع طباشير ملون، سأله عن مصدره فتلجلج، وحقق معه فعرف أنه أخذه من صندوق الطباشير في حجرة الرسم دون علم المدرس.. وكيف ظل ساعة يشرح له خطأه ويوضح له الجريمة التي ارتكبها، وكيف أمره في النهاية أن يذهب في الغد إلى المدرس ويعترف له بما حدث، ويرد الأصبع. وكيف لم يفعل الولد، وكيف ضربه وأخذه من يده في الصباح وذهب معه إلى المدرسة، وجعله يعترف للمدرس أمامه بما فعله ويطلب الصفح والمغفرة. قصة من فم عم صفوت أفندي حكاها عرضاً ودون أن يكون له من وراء حكايتها هدف، وعم صفوت أفندي هذا لا يجد عيباً أبداً في الحصول بطريقة غير شريفة بالمرة على نقود تشتري آلاف أصابع الطباشير؟ وأنهت سناء قصتها قائلة أنها لا تزال إلى الآن حائرة مع صفوت أفندي لا تعرف كيف تحكم عليه.. إذ ما الحكم على نفس الشخصية والمنطق والعقل حين تنهي عن الشيء بحرارة وصدق حقيقيين في نطاق، وبحرارة وصدق ترتكبه في نطاق آخر؟ كيف تحكم عليه؟

وبدأ الحديث يتعثر وقد استغرقتهن جميعاً تأملات، وبدأ الحديث يأخذ شكل الأحكام.. أحكام تدين الرجال وتشمئز من عالمهم المنقسم على نفسه، وذواتهم التي تحيا بمائة وجه ومنطق، وأحكام أخرى تصدر وتحاول أن تجد العذر وتغلفها صاحبتها بكلمة عطف، والجميع يسيطر عليهن الشعور بأن هؤلاء الرجال وإن كانوا أكثر منهن خبرة وقدرة، إلا أنهن ها هن يكتشفن أنهم أكثر منهن قذارة أيضاً، وأنهن بعالمهن قد يكن أكثر تخلفاً وضيق أفق، إلا أنهن أيضاً أكثر نظافة.

ـ المسألة مش مسألة قذاره ونظافة يا جماعة.

ـ أمال المسألة ايه يا نجاة؟

استدرن إليها متسائلات، إذ كن بدأن يعين أن نجاة دأبت منذ بدء الجلسة على الدفاع بعطف ولباقة عن عالم الرجال المزعوم ذاك.

ورمقتها نور بنظرة ماكرة مستكشفة قائلة:

ـ سيبيكي انتي تلقيهم غمزوكي بحاجة.

قالتها نور شبه هازلة، وبهزل أيضاً ضحكن عليها. نجاة وحدها هي التي أخذتها ـ لدهشتهن ـ جداً، وما أن راحت تدافع عن نفسها وتستنكر وتبالغ في ابداء علامات النفي والاستنكار حتى بدأن يخمن شبه مروعات أنها تكذب، وأن عالم الرجال والأخلاق وأكل العيش من الواضح أنه قد نجح في ابتلاع واحدة منهن، على الأقل واحدة.

خسارة يا نجاة.

١٤

كان المفروض أن نتتبع سناء بعد خروجها من الحفلة وهي محملة بمزيج متباين من الانفعالات، إذ كانت رغم كل شيء قد سعدت بالحفلة واجتماعها بزميلاتها وكسر الروتين الذي يخطط حياتها تخطيطاً صارماً غير مسموح لها أن تخرج عليه فتاة من المدرسة للبيت، ومن البيت للمدرسة. وحين انتهت أيام الدراسة وجاءت أيام الوظيفة استمرت الحلقة المفرغة أيضاً مع استبدال المدرسة بالمصلحة، وكل ما تسمح به ظروفها من ترفيه أن تدخل السينما مرة كل أسبوع أو أسبوعين مستصحبة أخاها الصغير أو إحدى قريباتها. وحياتها العاطفية لم تزد كالعادة عن غرام صامت مع ابن الجيران أيام أن كانوا يسكنون شبرا. ثم تلك المغامرة الفاشلة الأخرى أيام المعهد.. أيام أن كانت صديقتها الصدوقة كوثر تحب، وكانت تستصحبها معها للقاء حبيبها الطالب في كلية الطب البيطري، حين وجد الحبيب أن خير حل للانفراد بكوثر أن يأتي معه بصديقه عمر الطالب بكلية دار العلوم، الذي يشبه رغم أنه من ميت غمر مشهور السينما مارلون براندو، أو على الأقل هكذا كانت تصر العزيزة كوثر. ويشبهه أو لا يشبهه فقد أحبت فيه خجله الشديد إلى درجة أنهما قضيا ثلاثة أشهر يلتقيان ويقطعان شوارع القاهرة الجانبية سيراً دون أن يلمس يدها، بل حتى دون أن يذكر كلمة واحدة تدل على شعوره ناحيتها. ورغم هذا فالصخرة التي تحطم عليها حبهما كانت الحب، ليس

ممارسة ولكن كنقاش، إذ ظل هذا الخجول الطالب بدار العلوم شبيه مارلون براندو الذي لم يجد في نفسه الشجاعة يوماً لأن يزحزح حدود النصف متر الذي كان قائماً كحد أدنى لأي مسافة بينهما، ظل يناقشها ليقنعها «بحب الجسد» باعتباره النوع المثالي للحب، بينما ظلت تصر هي علىٰ «حب الروح» وتتمسك به، وانتهى النقاش وقد انقطع كل ما بينهما من علاقات كانت بينهما.

وهناك تلك الحادثة الغريبة التي جرت لها مع زوج خالتها الشاب حين جاء لزيارتهم فوجدها وحيدة في البيت، ودون أن تدري وجدت القرصات والضغطات والكلمات الهامسة التي كان يخصها بها كلما أتيحت له الفرصة في أثناء زيارة عائلية أو من تحت طرابيزة سفرة.. وتأخذها هي على محمل يمكن التغاضي عن براءته لزوج الخالة، حين وجدت هذه فجأة تتحول من علامات مبهمة قابلة للشك وغفران الشك إلى واقع فاجر سافر، وهي فيه بين ذراعيه القويتين اللتين أطبقتا عليها غدراً، ولكن لا المفاجأة ولا الاطباقة ولا السرعة التي حدثت بها الحادثة كانت السبب في رعبها. الرعب الذي اجتاحها وشل إرادتها وجعلها تناضله مناضلة النائم في كابوس لا يخرج عن حلقه صوت ولا يملك رفع أصبع.. هذا الرعب كان لسبب أكبر وأخطر، إنه زوج خالتها المحرم عليها، والمحرمة هي كأمه كأخته كخالته. الرعب أن يسجل رجل لنفسه ـ أي رجل ـ مهما كان سيىء السمعة والأخلاق مثله، أن يفكر مجرد تفكير في الشيء الذي لم يفكر فيه لحظتها، وإنما كان يفعله.

وصحيح أن ما حدث، وبالطريقة المجنونة الشاذة التي حدث بها لم يكن قد أفقدها ـ عدا الإهانة ـ شيئاً يذكر، إلا أن الحادث كان أبشع وأضخم حدث مر بها إلى تلك السن في حياتها. لقد ظنت أنها أبداً لن

تعود سناء التي كانتها، وان تلك العاصفة الآثمة الهوجاء سوف تجعلها تكفن نفسها إلى آخر الزمن في ثياب حداد تام.

ولكن، وهذا هو الغريب، لم تتوقف الحياة بسناء كما كانت تظن عند هذا الحدث، ولا تكونت لها مثلما يحلو لبعض الكتاب والخبراء المزعومين في النفس البشرية عقدة، فلا هي خافت من الرجال ودفعها الخوف إلى الانطواء ونبذ الدنيا ومتعها والتقوقع، ولا هي أصيبت بالعقدة الأخرى واندفعت تحت تأثير هذا الاتصال العيب المحرم في طريق الانحلال ونبذ القيم. لا شيء من هذا قد حدث، فهناك عامل نسيته سناء يومها وينساه بعض الكتاب وخبراء علم النفس في معظم الأحيان. . الزمن! ليس الزمن المجرد ولكن الزمن والانسان، والأيام وهي تقبل بيضاء وتغادرنا ماضياً ممتلئاً بالأحداث والذكريات، ونستقبلها في مرحلة ونغادرها وقد أضيف إلينا الزمن وتكون من خليطنا ـ منا ومنه ـ مزيج حي كائن جديد آخر غير الذي خاض التجربة.

الحدث الهائل كان حدثاً هائلاً بالأمس لأننا كنا نحياه ونواجهه، أما وقد مر بنا فقد أصبحنا جزءاً من تاريخه كما أصبح هو جزءاً منا، نتوءاً هنا أو أثراً لجرح هناك. . أثراً لا يختلف عن بقية كياننا وجسدنا إلا في اختلاف لونه وبروز سطحه، والألم الذي يصدر عنه إذا نحن بوعي لمسناه.

أو قد يحول إلى شيء آخر بوظيفة أخرى، مثلما حدث لسناء. فرغم نوبات الضيق الشديد والاستنكار والتقزز التي كانت تنتابها كلما رأت زوج خالتها أو جاءت سيرته ـ وأحياناً بغير أن تراه أو تأتي سيرته ـ رغم هذا فلن تستطيع أن تنكر على نفسها أن شيئاً فيها قد استجاب ووافق وارتعش لتلك التجربة الأولى التي صممت أن تكون الأخيرة، والتي في أحيان

قليلة جداً، خاصة في ليالي الصيف، كانت تجد نفسها رغماً عنها تفكر فيها وبطريقة تزعجها للغاية، إذ تفكر وكأنها تتمنى أن تعود التجربة بشرط أن يتغير البطل، وبشرط أساسي ثان. . أن يحدث كل شيء كما حدث في المرة الأولى، بغير ارادة منها. . هكذا. . عنوة واغتصاباً.

وكذلك لم تكن تجارب سناء قد توقفت عند هذه التجربة الغريبة اليتيمة، ولا ظلت طويلاً مثلها مثل يوم عرض الرشوة من محمد الجندي «أبشع وأضخم» حدث في حياتها. تلك الفتاة السمراء المسمسمة التقاطيع الجذابة المؤدبة، ظلت تجرب باستخفاء كثير ومن بعيد لبعيد وبتورط أحياناً وبفضائح محدودة الانتشار في أحيان، ولكنها دائماً في وسط الحياة ـ ودائماً داخلها يحفل بالنوازع والعواطف والأحياء ـ دائماً هناك مرشح للزواج من قبل الأهل ومرشح للحب من قبلها، فإذا فشل المرشح والمشروع بعد أيام تبدو في الأفق رائحة آخر وآخرين، ونيران تنهش صدرها للعريس اللقطة إذا طار، والعشق الصامت طالما أرق لياليها، وأقربها ذلك الإعجاب الخفي الذي تكنه لزميلها في المكتب أحمد الطويل. . الإعجاب الذي لا يفصح عن نفسه إلا بأمنية أن تحدث معجزة لتنقل مكتبه مكان محمد الجندي في مواجهتها.

ورأسها الصغير رغم شعرها الناعم الغزير مليء بالأحلام أيضاً باقتناء الملابس الفاخرة الأنيقة، بحياة الثروة والغنى، بالطموح. أحلام تتغير هي الأخرى وتتجدد. . إذ بينما كانت تحلم في العام الماضي بجوانتي من الجلد الفاخر المبطن بالفرو، في هذا العام هي تحلم بأن تبلغ في وظيفتها شأوا ومرتباً تستطيع أن تدفع منه أقساط عربة نصر ١١٠٠ وتسوقها وحدها وتفسح أمها وتذهلها بها. وكل هذا رائع وجميل وليس أسهل من ملء الصفحات به، فسناء وحياتها ونقاط حياتها إذا تقاس

بالحياة، تكون إذا أردنا ذكرها بالتفصيل ملايين الأشياء وملايينها، حتى لو نحن فقط تتبعنا سناء من لحظة أن غادرت حفلة بهيجة زميلتها، عن عمد سنغفل أشياء كثيرة، حتى لا نفقد في غمارها ذلك الخط الواهي الدقيق الذي يحدد لنا مجال حركتنا خلال القطعة الصغيرة من بحر الحياة الزاخر التي اخترناها.

وآجلاً أم عاجلاً كنا سنصل إلى يوم الأحد التالي الذي ذهبت فيه سناء إلى المكتب وقد قضت ليلة من أتعس لياليها. يوم لن ننساه أبداً، فقد كان الأحد وغده الإثنين يوم امتحان أخيها، ذلك الذي عليه فيه قبل أن يدخل الامتحان أن يدفع المصاريف ويأخذ الإيصال، وبدون هذا الإيصال لا دخول ولا امتحان.

لم تكن أول الحاضرين كعادتها في الفترة الأخيرة.. وصلت فوجدتهم جميعاً جالسين إلى مكاتبهم بنفس أنهكها التفكير ودبل خضرتها. حيتهم وجلست وقد عقدت العزم على أن تنتهز أي فرصة تلوح لتروي لهم كل شيء، ولتطلب منهم ـ هكذا ودون خجل أو تردد ـ أن يجدوا لها حلاً. يومها كانت مستعدة أن تقتل أو تسرق أو تصنع أي شيء في سبيل أن تحصل لأخيها على قيمة القسط، فليلة الأمس بكى.. لأول مرة تراه منذ أن كبر يبكي كما كان يفعل وهو طفل، كانت تتناقش مع أمها في كيفية الحصول على النقود، وطرقا بنقاشهما كل الأبواب والاحتمالات دون جدوى، حتى بات واضحاً أن النقود لن تأتيهم إلا إذا فتح الله سبحانه سقف حجرتهم وأسقط لهم من خلاله قيمة القسط. وكان النقاش قد استغرقهما الى درجة نسيا معها أن أسامة موجودة بجوارهما، ولم يفطنا لوجوده الا حين سمعتا بكاءه والتفتتا لتجدا دموعه تلمع بكثرة فوق وجهه وخيبة الأمل مرتسمة بصورة واضحة تنطقها رغم طفولتها الخرساء

ملامحه. مس مرآه هكذا شعور سناء مساً سريعاً حاسماً دامياً كقطع المشرط، ولحظتها صدر عن كل ذرة من كيانها قسم تلقائي مفاجىء غير منطوق ودون ان تعي أو تريد، قسم أنها لا بد واجدة حلاً . . لا بد صانعة المستحيل وما هو أكثر منه كي لا يذرف أسامة دمعة أخرى، أو ترتسم على وجهه هذه الصورة الخرساء لخيبة الأمل.

وأصبحت الساعة العاشرة دون أن تحين الفرصة ، ودون أمل حتى أن تحين فرصة، وأمل سناء قد أصبح مركزاً كله في هذه الساعات القليلة التي ستقضيها بالمصلحة، إذ ما لم تنجح في الوصول الى حل قبل الساعة الثانية فقد انتهى كل شيء. حقيقة لمحت من كثرة المرات التي ضبطت فيها عيون زملائها وهي تحدق ناحيتها، أنهم لا بد أدركوا أنها في حالة غير عادية، ولكن أحداً منهم لم يتعد في اهتمامه بحالتها أكثر من مجرد النظر. أليس فيهم رجل أوتي ذرة من نخوة يستطيع أن يلقى اليها سؤالاً . . مجرد سؤال ؟ هل أصابهم العمى والعته؟

كان الزمن على على عكس عادته يمضي بسرعة خارقة ، فما أسرع ما أصبحت الساعة العاشرة والنصف، مضت ألف وثمانمائة ثانية دون أن يجد جديد.

ولكن في تلك اللحظة بالذات جد جديد. . فتح الباب ودخلت نور. بنت حلال حقيقة يا نور، جئتني في وقتك! حيتهم نور واتجهت الى سناء تحييها التحية الخاصة، وتنتظر سناء أن يتحرك محمد الجندي الكلب ويصنع مظاهرته المعتادة، أو حتى حين تريثت وردت تحية نور بطريقة مهمومة مكروبة أن تسألها نور عما بها بلا جدوى . لكأنما هناك مؤامرة أو لكأن الجميع يعرفون المأزق ويتركونها عن عمد تختنق وحدهابه.

العبء

انتظرت سناء السؤال المعتاد من نور عما فعلوه لحل مشكلة مصاريف أخيها؟ ولم يأت السؤال. كل حديث نور انصب على مباراة الأمس بين الزمالك والأهلي ، وكيف أنها لو كانت رجلاً لنزلت الى الملعب وضربت الجناح الأيمن للزمالك ـ ذلك الذي ضيع المباراة على فريقه ـ علقة ساخنة . ومن المباراة استطردت تتحدث بلا مناسبة عن تليفزيونهم الجديد الذي حل موعد تسلمه اليوم ، وكيف أنها ستخرج مبكرة،وقد عهدت اليها الأسرة بمهمة احضاره و. . وبدأت نور في تشطيب الحديث والتحرك حركات القلق فوق مقعدها علامة التهيؤ للرحيل، دون أن يبدو عليها أنها تذكرت أو في سبيلها لتذكر السؤال. أكثر من هذا غادرت المقعد فعلاً وقالت: أسيبك بقى. . باي !

وكاد الأمل الذي علقته سناء على مقدمها أن يخبو تماماً وينطفىء، بل خبا فعلاً وانطفأ. حينئذ لم تستطع الصبر، وانطلقت الكلمات مستغيثة من فمها : اسمعي يا نور.

والتفتت نور، وأشارت لها سناء ان تعاود الجلوس وقد بدا واضحاً أن ثمة شيئاً هاماً تريد اخبارها به . وحتى حين فعلت ذلك كادت نور تعتذر محتجة بأوراق عاجلة عليها أن تعرضها حالاً ، غير أن سناء كانت قد قررت ألا تتراجع ، وهكذا ظلت تلح حتى عادت نور تجلس جلوساً على مضض . وكانت سناء تتوقع من كثرة ما دأبت نور على سؤالها واهتمامها بالمشكلة أن تفزع ، أو على الأقل تدهش، حين تندفع تروي لها الموقف الفاصل الرهيب الذي صار إليه الوضع . ثم أنها حرصت على أن تروي الموقف بكل تفاصيله بصوت عال كأصوات الخطباء لا يصل فقطإلى آذان زملائها، ولكن يخترقها اختراقاً وينتزعها من أي عمل. ولقد روعت سناء

للنتيجة، فقد استمعت نور باهتمام مصطنع. . . حتى وسناء تتوقف عند دموع أسامة وتسهب في وصف وقعها على نفسها لاحظت ان نور رغم اهتمامها الظاهر سرحانة، بل حتى حين جابت الحجرة وأركانها الأربعة بطرف خفي من عينيها لم تر واحداً ترك عمله واعتدل، أو ترك اعتداله وانتبه، أو حاول بسؤال أو استفسار أن يصبح طرفاً ثالثاً في الحديث.

ـ والنبي زعلتيني يا سنسن. . وانتي عارفه وحياة ماما أنا لو كان معايا القسط ما كنت اتأخرت، انما ضروري حتلاقي حل ان شاء الله. عن اذنك بقى لحسن المفتش زمانه مشي وتبقى وقعتي سوده.

وقبل ان تنطق سناء كانت نور قد اخترقت الحجرة جرياً وخرجت من الباب.

والتفتت سناء الى الزملاء فوجدتهم ولا كأنهم هنا، ولا كأن أحداً سمع أو رأى.

وتسمرت في كرسيها وقد دهمها الشعور الضاغط القاهر الذي لا بد ساور كلا منا في لحظة من حياته. . الشعور بأنها وهي وسط الدنيا المزدحمة بالناس والأصدقاء والأقارب والمعارف وحيدة منبوذة كأنها مريض مصاب بالجذام أو خاطئة يتبرأ الكل منها. . الشعور الذي يجعلنا نرثي لأنفسنا رثاء يدفعنا، حتى أقوى الأقوياء منا للبكاء.

ولكن شعور سناء كان واضحاً مكشوف الوجه صاعقاً الى درجة حرمتها حتى من نعمة البكاء، بل دفعها الى القيام بعمل لم تكن تتصور ولو في الأحلام ان تقوم به، اذ وجدت نفسها بعد قليل تذهب الى صفوت افندي وتلح عليه أن يفرغ لها قليلاً، ثم تحكي له المشكلة وتسأله إن كان

لديهحل ،وكالقاضي الذي لا أثر للعواطف في كلماته يفهمها الرجل انه لا يملك لها أي حل، وحتى السلفة على ماهيتها يلزمها اجراءات تستغرق يومين على الأقل. وسكت بينهما الحديث باستغراق متعمد آخر من جانبه في العمل تاركاً اياها واقفة غير قادرة حتى أن تقرر ما اذا كان باستطاعتها أن تعود الى مكتبها وتجلس .

كل ما استطاعت أن تفعله أخيراً وهي في وقفتها تلك، هو أن تجوب الحجرة بنظرات مستغيثة مسلوبة الروح كانت تدرك أنها الأخيرة، وأنها للتأكد ليس إلا. نظرات مضت تصوبها الى الجدران والدواليب والمكاتب والوجوه المتعمدة الانكباب على الأوراق، وهي تدق بإلحاح هستيري مجنون. . النجدة! النجدة!

ومن كل اتجاه كانت نظراتها تعود بغير أن تعلق بها بادرة استجابة واحدة. وكان رد الوجوه على استغاثتها تماماً مثل رد الجدران. . الصمت المطبق التام.

١٥

ولأن المعجزة الالهية لم تحدث ولا فتح السقف في الليل وتساقطت منه نقود، فقد جاء الصباح التالي ،وليس في البيت سوى الجنيه الذي كان موجوداً ليلة الأمس.

وجاءت الساعة السابعة لتجد سناء قد استصحبت أسامة الى المدرسة حاملة كل مالية الأسرة، ذلك الجنيه، مؤملة أملاً سخيفاً أن تتنازل المدرسة مثلاً في آخر لحظة عن شرط دفع المصاريف، أو أن تستكتبها تعهداً أو أي احتمال آخر يعادل في غرابته وبعده عن الواقع حكاية السقف الذي يفتح وتسقط منه النقود.

وأتعس ساعة قضتها سناء وهي ترى التلاميذ جميعاً يتهيئون لدخول الامتحان، ويحيون أسامة، وأسامة يخجل من رد التحية. ثم وهي ترى بضعة تلاميذ آخرين قد استصحبوا كأسامة أولياء أمورهم، الذين تجمعوا حول الصراف الذي كان قد وضع لنفسه تختة وكرسياً كالمحصل قريباً من مكان اللجنة. ثم وهي تكتشف أنهم جميعاً سددوا وأخذوا الايصالات وقبلوا آباءهم علامة الفرحة، وأن أسامة هو الوحيد الذي لن يدفع، وهو الوحيد الذي حين دق الجرس بقي واقفاً بجوارها يراقب زملاءه الداخلين الى العنابر والفصول ويبكي، ويمنعها بكاؤه من البكاء. ثم تفاجأ به

ينطلق من جوارها راكضاً بأقصى قوته مخترقاً باب المدرسة الى الشارع الى حيث لم تعد تعلم.

وبقيت هي وأمها على نار حامية حتى عاد لهما مطأطىء الرأس ذليلاً قرب الظهر. . ودون أن ينطق حرفاً خلع ملابسه وارتدى البيجاما ونام.

وبالضبط بعد ثلاثة أيام كان الجرح قد التأم، وأصبح يؤلم فقط حين تتحسسه سناء أو يتعرض رغماً عنها للمس. ونحن في الحياة لا ننسى ولا تلتئم جروحنا بالاستشفاء أو تغيير الجو أو بالمفاجأة السارة حين تقبل. . نحن ننسى الجرح بجروح أخرى طازجة نصاب بها وتستحوذ على اهتمامنا. وسناء في اليوم التالي وجدت مشكلة تنتظرها وتهددها في وظيفتها وعملها، مشكلة اليوم الذي تغيبته دون اذن ودون حق في اجازة عرضية أو اعتيادية. والحق الوحيد الباقي. . الحق في اجازة مرضية كان يلزم للتمتع به شهادة من طبيب تكلفها على الأقل خمسين قرشاً، أو بالدقة سبعة وثلاثين قرشاً ونصفا، فقد اقتضى الأمر نزهة لأسامة وأكلاً لحلويات وسهرة في سينما،وتصوروا أن هذه الشهادة ذات الخمسين قرشاً كادت تكلف سناء وظيفتها، لولا ما طلت به وجهها من وقاحة وجرأة وألحت على زميلاتها في المصلحة رغم اعتذارهن وتحججهن بآخر الشهر، حتى جمعت منهن ثمن الشهادة خلال يومين من السؤال الدائب المتصل!

وهكذا ما كادت تنجح في دفع هذا البلاء ويحتسب اليوم من اجازتها المرضية وتتنفس الصعداء، حتى أدركت أنها في خضم ما حدث نسيت اليوم المؤلم تماماً وأصبحت أقل حساسية لذكره، بل الحق أفاقت لتجد نوعاً من عدم المبالاة قد أصبح يصبغ تفكيرها وآراءها وتصرفاتها. وكانت اللحظة الصاعقة التي عانت فيها من الشعور بأنها مبعدة منبوذة قد جعلتها

هي الأخرى تبدأ تنبذ الناس في تفكيرها وتصرفاتها. . لم يعد مهماً أن تحظى برضائهم عنها. وبين يوم وليلة ملأها الشعور بأنها لا تملك في هذه الدنيا، ولا يجب عليها أن تراعي سوى نفسها. شعور لم يك عميقاً خافياً. . لقد ظهر حتى لزميلاتها وزملائها ولاحظوه واتخذوه مادة لتعليقاتهم.

وكل هذا شيء قد يستطيع العقل هضمه وقبوله، أما الذي لا يمكن أن يستوعب العقل وقوعه فهو ما حدث في ذلك اليوم الثالث حين فوجئت سناء بمحمد الجندي ـ وقد خفت في الآونة الأخيرة نوبات هياجه وثوراته ـ ينظر لها نظرات باسمة لا تصدر على هيئة شعاعات مبتسمة وإنما كأنها تسيل من عينيه لتختلط صفراويتها ولزاجتها بملامحه الشاحبة المفرطحة التكوين. نظرات ذكرتها بأيام العمل الأولى وبمحمد الجندي حين كان يتراءى لها أثقل دم خلق الله أجمعين، وأكثرهم استثارة للاشمئزاز والغثيان. ولكنها، وهذا هو الغريب، لم تجدها هذه المرة كذلك، لا لأن محمد الجندي كان قد تغير في نظرها أو تبدل، ولكن لأنها هي نفسها كانت قد تغيرت. الى أين وكيف؟ لم تكن تدري. كل ما تعرفه أنها لم تشمئز من نظرات محمد الجندي لها، وربما هذا ما شجعه الى أن يرفع الدوسيه بعد قليل ويبدأ يهمس لها من خلفه: ازيك يا حلو. . والنبي شفايفك دول مجنني ووحشيني. . وحشيني موت حتى وأنا جنبهم طول النهار وحشيني.

لا بد أن هذا الرجل مصاب بخلل في قواه العقلية، ذلك ما فكرت فيه سناء. لكنه لم يكن حكمها النهائي، فلسبب ما حين اختلطت صورته الحاضرة مع صورته وهو ثائر غاضب يهدر الرجل الكلب الذي فيه وينبح

ويرعبها ، ما لبث حكمها الأول أن أصيب بهزة تبعثرت على أثرها كلماته وحروفه وتطايرت ، وبقى الأمر في حاجة الى رأي جديد وحكم جديد، لا تعرف بعد كيف تصوغه أو حتى تحدد قبل صياغتها معالمه . لقد أخذ هذا الرجل من تفكيرها ما لم يأخذه أي إنسان عرفته . . تفكير حقيقة كان معظمه اشمئزازاً واجتراراً للاشمئزاز ، ولكنه تفكير فيه والسلام . ورغم كل هذا لم تستطع إلى الآن أن تخرج من تفكيرها بنتيجة .

كل الفرق أن سناء لم تجزع ولم تجفل هذه المرة من كلماته، ولم ترغم أذنيها وعينيها على صمم وعمى اجباريين حتى تنفي لنفسها نفياً باتاً أنها سمعت أصلاً أو رأت . هذه المرة لم تطرف عيناها ومضت تحدق فيه غير هيابة أو خجلة . وأغرب ما لاحظته ـ الشيء الذي كاد يفقدها الوعي ـ أنه كان لا يكذب ، وأن في نظراته ونبراته صدقاً قد يستبشعه العقل ويأبى رصده . ولكنه موجود . وقد تخطىء سناء في حكمها على عشرات الأشياء، ولكنها أبداً لا يمكن أن تخطىء رنة الصدق وهو يقول: حتى وأنا قاعد جنبك ودين النبي وحشاني .

ولنفرض جدلاً أنها أخطأت الحكم، فأي تفسير آخر تستطيع أن تفسر به آخر شيء كان باستطاعة محمد الجندي أن يفعله حين واجهته بنظرتها المحدقة الفاحصة، فإذا به حين أكمل الجملة وحاول أن يبدأ غيرها يتلجلج وتفشل محاولته ؟ ثم لا يلبث تحت وقع نظراتها أن يرتبك ولا يقوى على مواجهتها ويخفض عينيه ، ثم بحركة غريزية ، وزيادة في حجب نظراتها عنه يلصق الدوسية بوجهه ويخفيه .

كادت سناء من أعماقها تنفجر ضاحكة . محمد الجندي يخجل ؟ وممن ؟ منها ؟ بل فقطمن نظراتها ؟ لا بد أن شيئاً خطيراً مهولاً قد حدث للدنيا .

ولكنها كتمت الرغبة في الضحك وان كانت قد حلت محلها رغبة في الكلام . . . في كلام تقوله لمحمد الجندي ، وأيضاً لم تتكلم مؤثرة ان تفعل حين تلوح الفرصة .

ولاحت الفرصة قرب الظهر حين خلا المكتب إلا منه ومنها . فجأة وجدت نفسها تقول للجندي :

ـ انت إيه حكايتك بقى يا سي محمد يا جندي ؟

حملق فيها بعينين اتسعتا فجأة، فلم يكن يتوقع أبداً أن تحادثه وأن تكون البادئة ، وبالكاد استطاع عقله ان يستوعب السؤال ، وحين بدأ يجيب كان عليه أن ينظر اليها ـ ولأنه كان لا بد له حينئذ ألا يظهر ارتباكه وخجله ـ فقد استمر يواجهها بعينيه ،ولكنه في الحقيقة لم يكن يراها . . كان فقط يواجهها بعينين عطل الخجل وظيفتهما، قال :

ـ حكايتي إيه ؟ مش عارفة حكايتي ؟ طبعاً إيه يهمك انت مني ومن حكايتي ؟

ـ لا . . أنا عارفاها كويس واشتكيتك مرة واتنين عشانها ، وعملت البدع عشان تبطلها وكنت بطلتها وخلاص . إيه اللي رجعك تاني تبص وتقول الكلام السخيف بتاعك ده ؟

ـ إذا كان ع التبطيل أنا من ناحيتي ما بطلتش ولا يوم ولا ساعة ولا ثانية ، أما سكوتي المدة اللي فاتت فده كان عشان حضرتك أهنتي كرامتي، وأنا قولي فيّ اللي قاله مالك في الخمر ، إنما كرامتي دي أهم حاجة في الدنيا . !

وضمت سناء نفسها وتماسكت بقوة ، فضحكة واحدة كانت كفيلة بأن يفلت منها الموقف الى الأبد .

واستمر الجندي يقول :

ـ أنا يمكن تشوفيني كده ، انما أنا والله إنسان حساس ، الشعرة إذا مست كرامتي أتكهرب . وأنتي يا آنسة سناء أهنتيني أكثر من مرة . إنما كله كوم ويوم ما شتمتيني كوم ، يومها قررت اني ألغيكي من حياتي ولو انتحر وفضلت كابت نفسي وساكت ، لغاية النهاردة بقى ماقدرتش، أنا . . أنا . .

ـ وانت فاكر انك كنت يومها تستاهل الشتيمة وبس ؟ انت فاكر انت أهنتني يومها أزاي ؟

ـ أنا ! لا حول ولا قوة إلا بالله . أنا كان قصدي مصلحتك، كان قصدي أخدمك. ولولا كده عمري ما كنت فتحت الموضوع ده قدامك .

ـ بقى رأيك أنها خدمة ؟

ـ أكبر خدمة . . ونروح بعيد ليه؟ لو وافقت كانت حصلت حكاية أخوكي دي؟

ـ معنى كده إنك كنت سامع .

ـ أيوه كنت سامع وعارف .

ـ طيب يا أخي بدل كلامك السخيف اللي بتقوله من وراء الدوسيه كنت سلفني القسط.

ـ آه . . جينا للكلام المهم . عندك حق. إنما تعرفي أنا بشرفي ما كان يومها معايا إلا يبجي خمسين قرش . . إنما ده مش السبب، كنت أقدر أستلفهملك حالاً ، كنت أقدر على الأقل أقول لك كلمتين حلوين يواسوكي، إنما تعرفي عملت كأني مش سامع ولا داري ليه ؟

سكتت سناء ولم تشأ أن تسأل ليه . غير أن الجندي عاد يلح ويقول:

ـ قوليلي ليه ؟

وتشبثت بسكوتها أيضاً وإن كان حب استطلاع كبير كان ينهش قلبها وأصر الجندي على سؤاله :

ـ ما تقوليلي ليه . . مش عايزه تعرفي سبب ما يخطرلكيش على بال ؟

هنا تغلب حب الاستطلاع ووجدت سناء نفسها تقول :

ـ أيوه يا سيدي . . ليه؟

وطفح البشر من ملامح الجندي وكأن مجرد موافقتها على سؤاله كانت أضخم نصر سجله خلال حياته ، ومضى يقول :

ـ قولتيلي ليه . . السبب يا ستي انك بصراحة كنتي عايشة في أوهام لسه خارجة م المدرسة ولا تفهمي حاجة من الدنيا بتاعتنا دي اللي مطلعة عنينا واللي مطلعين عنيها . كنتي ح تعرفيها إزاي إلا بكده ؟ إلا أنك تتزنقي زي ما انزنقنا وما لقيناش اللي يسمي علينا، قلت: سيبها يا واد عشان تعرف ان الفلوس هي الـ master key واللا أنا غلطان ؟

اندفعت سناء تقول:

ـ انت مش غلطان ، انت فسدان. كلكم كنتم في يوم من الأيام بني آدمين، وبعدين لقيتم حد علمكم الكلام ده وفسدكم، وخلاص دلوقتي كل همكم انكم تفسدوا الناس وتحللوا الفساد في نظركم، عشان يغلطوا ويتورطوا ويبقوا زيكم وما يصبحش فيه حد أحسن من حد. انت لازم تعرف نفسك كويس. انت صحيح لابس بدلة واسمك السيد محمد أفندي الجندي وليك مكتب ومحترم، انما إنت زيك زي أي نشال في

الشارع أو أي حرامي غسيل . سبتني عشان أتزنق ، ولو كل واحد اتزنق فك زنقته بالسرقة أو بالقتل كان زمان الدنيا بقت كلها حرامية وقتالين . إنما ده ما بيحصلش لأن الناس دايماً بتساعد المزنوق ، عمرهم ما يسيبوه يقف لوحده ، ولما يسيبوه عشان يدوق الزنقة يبقوا هم الغلطانين ، هم المجرمين ، بالضبط حكمهم حكم اللي بيحرض على الفساد. انت كنت مش عايزني أدوق الزنقة . انت بتكذب على نفسك ، انت كنت عايز تحرضني عشان أمشي في الطريق الغلط ، إنما ده بعدك ! أنا نضيفة وح أفضل طول عمري إن شا الله الدنيا كلها تتوسخ ، نضيفة .

وأول ما اندهش لهذا « الخطاب» الحار المتدفق كانت سناء نفسها فكأنما هو درس وعته وحفظته عن ظهر قلب. أما ما ظل يحيرها فهو تساؤلها عن كنه هذه الخطبة . . ترى هل هي تعبر عن رأيها الحقيقي، أم مبعثها أنها تريد أن تحقر الجندي لموقفه منها ، أم هو كلام تتمنى أن يكون رأيها الحقيقي ؟

أما الجندي فقد ذهل! طوال عمره ومنذ أن كف أبوه عن ضربه وعقابه وصب الأوامر والنصائح كالزيت المغلي فوق رأسه ، منذ أن مات كأنما عاهد نفسه بعدها ألا يستمع لنصيحة أحد سواء أكان مخطئاً أم مصيباً وسواء أكانت النصيحة من عاقل أم أحمق . بل لقد جعل شعاره بوعي منه وبغير وعي أن يخالف كل ما يقال له من نصائح ، وهوايته الكبرى أن يعصي القوانين . إن القانون يظل عدوه اللدود الى أن ينجح في خرقه. والتعليمات تظل شيئاً لا يطاق الى أن ينجح في العثور على وسيلة يستطيع أن يتحايل بها عليها . وليست فقط القوانين واللوائح المكتوبة ، أكثر من هذا وأبعد كل ما يأخذ شكل القانون . إذا تصادف ووجد الرخام القيشاني في أي دورة مياه يدخلها لامعاً نظيفاً أنيقاً لا يستريح إلا إذا أخرج

قلمه الكوبيا وخطط وشخبط حتى يشوه من المنظر. إذا جلس على مقعد عربة الأتوبيس سرعان ما يخرج سلسلة مفاتيحه وبها المطواة الصغيرة ذات السلاح الحاد الذي يفتحه ويعمله في جلد الكرسي وفي تخف شديد يقطعه حتى يطل القطن ، ويعمله في بوية الجوانب حتى يظهر معدنها . وإذا أردته أن يكرهك كره العمى فانصحه نصيحة أو انقده نقداً .

وحين بدأت سناء تتكلم ، ولم تكن أولى كلماتها توحي أنها ستمضي هكذا ترص ذلك الخطاب الطويل. . حين بدأت بدأ معها ضيقه الشديد وتذمره، ولكنه ربما لأنه وجد نفسه للمرة الأولى في حياته في موقف لا يستطيع فيه أن يرفض الاستماع ، فالمتحدثة كانت سناء والحديث كله أول حديث جاد يدور بينهما ويتطور الى أن يصبح نقاشاً عليه فيه أن ينصت جيداً ويعي ليمكنه أن يرد ، ربما لهذا وحين طال أمد انصاته واصغائه ، بلا عداء يكنه للمتكلمة ، أكثر من هذا بحب أو بعاطفة قريبة جداً من الحب.

حين حدث هذا كله وجد الجندي نفسه في محنة لم يستعد لها فحقيقة وللمرة الأولى يجعله كلام شخص آخر يبدأ يشك في صحة رأيه وطريقته وموقفه من الحياة تلك التي لم يتطرق اليه الشك فيها يوماً . على الدوام اذا كان هناك خطأ فهو حتماً وقطعاً وبلا جدال خطأ الآخرين .

حادث لا يمكن أن يقع أو يحدث ، مستحيل! شيء مفروغ منه لا يحتمل جدلاً أو نقاشاً.

ولكنه مجرد شك انتابه. للانصاف أشباح شك أجل الحكم لها أو عليها الى ساعة يخلو فيها لنفسه ويفكر بعمق فيها . أما في تلك اللحظة فالحديث لا يزال متصلاً، وسناء انتهت من كلماتها وتنتظر اجابته ، فقد وجد نفسه بابتسامة غير محدودة المعنى أو الهدف يقول :

ـ كلامك كله جايز يا ست سناء، وكل اللي يهمنا انك تبقي انتي وتفضلي حلوة ونضيفة وفوق الناس كلها، ويمكن عندك حق. ايش جاب لجاب؟ انتي في السما فوق واحنا في الأرض، يمكن تحت الأرض كمان . احنا ناس حرامية حلل . . مين عارف، ما يمكن إحنا كده صحيح وما حناش عارفين ؟

كان يريد إجابة يمجد فيها من سناء ويتملقها ، ولكنه لا يدري كيف انقلبت الى كلمات ذليلة . . ذليلة وبلهجة ذليلة مست وتراً في قلب سناء كاد يطفر الدمع من عينيها . وبنفس القوة التي خافته بها حين كان يثور وجدت نفسها ، وكأن الآية انقلبت وكأنها العملاقة الضخمة وهو الدودة الزاحفة ، وجدت نفسها ترثي له دون ارادتها . وعملت الكلمات واللهجة التي كان واضحاً أنها صادقة وان قائلها يعنيها حقيقة ، عملها في الحال واحمر وجه سناء تأثراً وحرجاً ولم تدر ماذا تفعل ولا ماذا تقول ؟ حرجاً وارتباكاً لا يدانيهما إلا حرجها وارتباكها يوم أحست أن محمد الجندي أهانها أكبر وأخطر وأول اهانة من نوعها وجهت لها في حياتها.

كل ما استطاعت ان تفعله أنها غمغمت معتذرة ، ثم غادرت الحجرة بسرعة قاصدة التواليت لتنهي الموقف . . بالضبط نفس ما فعلته يومها .

وبينما كانت تصلح « فورمة » شعرها بيدها ، بينما عقلها تائه تتجاذبه انفعالات متضاربة خفية ، كان مركز الخطر الغريزي في نفسها يتخذ قراراً بلا حيثيات أو أسباب أو دوافع ، ولكنها كانت مصممة عليه بقوة : أن تنهي كل انشغال في نفسها بالجندي سواء أكان ثقل دمه أو قبح ملامحه أو فساد أخلاقه أو ذلته، وفي الحال.

وحين عادت الى البيت لتجد المناقشة التي تكررت كثيراً في الأيام

الأخيرة، بين أمها وهي تحاول أن تغري أسامة بتناول الطعام وأسامة وهو يرفض ويلح في الرفض . . المناقشات التي لم تكن تنتهـي الا بتدخـل سناء واحتضانها لأسامة وعبثها بشعره وتغيير المنطق الذي تحثه به ، حتى يرضى أسامة في النهاية ان يبتلع بضع لقم أخرى اكراماً لخاطر أختـه . حدث نفس الشيء في ذلك اليوم ، ولكنها وذراعها تضم أسامة ويدهـا تعبث بشعره فطنت الى خاطر لم يطرق عقلها قبلاً . . إن ما يحدث لأسامة والاضطراب الخطير الذي اجتاح حياته بعد حرمانه من الامتحان ان هو إلا ثمن «لنظافتها» ، ثمن لم تدفعههي ،ولكن تحمله وسحق به هذا الصبي الذي لا ذنب له. إنه كالنبات النامي لا بد له من الحصول علـى المـاء والغذاء وإلا هلك، ولا بد لأهله أن يوفروا له هذا وبأي ثمن وبأي وسيلة فهو كالنبات لا يهمه سوى مطلبه من الغذاء، لا يهمه أبداً نوع المصدر. ترى هل يغفر لها الآن أو حين يكبر- وهي المسئولة عنه وعـن عائلتهـا الصغيرة- انها جعلته يقاسي من ضربة معطلة قاصمة فقط لتظل في نظـر نفسها وفي نظر الناس محترمة نظيفة ؟ انها تعرف آباء وأمهات يحللـون الحرام ليوفروا لأولادهم الغذاء والكساء. وربما محمد الجندي في كل قذارته لا يفعل أكثر من أن يوفر للجيش الجرار الذي أوجده على سطـح الأرض حاجته، بمعنى آخر هو يضحي بذاته ويلوثها لينقذ أولاده، أيهما اذن أكثر نظافة؟

لقد أمضـت ساعـات الصبـاح تعطي الجنـدي دروسـاً في النظافـة والصواب والخطأ، لماذا لا تواجه نفسها الان كما واجهته وتعترف بالمعنى الحقيقي لما فعلته ؟ أليس معناه الحقيقي أنها كانت أنانية الى درجة دفعتها للتمسك بذاتها وقيمها حتى ولو أدى الأمر الى تشريد أخيها الصغير وابنها وحبيبها الوحيد؟ وأليس معناه الحقيقي أيضاً أن محمد الجندي أقل منها

العيب

أنانية ، بل هو ملاك إذا قيس بها ، مسيح ضحى بذاته ولوثها ومرمطها من أجل أن ينشأ أبناؤه الذين يحبهم نظافاً صالحين ؟

أفكار تطرق عقلها لأول مرة وتقلب تفكيرها رأساً على عقب . وتجعلها تغوص وتغوص في التأمل على هدى هذه الخواطر . اننا حلقة واحدة من سلسلة طويلة نصل فيها بين آبائنا وجدودنا وبين أبنائنا وأحفادنا، ونفعل هذا برغمنا لأنه وضع لم نستشر فيه، فقد خلقنا بما ورثناه عن آبائنا وأجدادنا من علامات ، وبما سنورثه لأبنائنا وأحفادنا. من أجل هذا نحن لا نملك ان نفكر في أنفسنا كأنفسنا فقط، وإنما علينا أن نفكر فيها باعتبارها جزءاً من سلسلة ، وهمزة الوصل بين جيل مضى وجيل مقبل بحيث نعي أن القرار الذي نتخذه لا يخصنا وحدنا ولكن سيؤثر أعمق التأثير في حلقات السلسلة من بعدنا. وأولئك الذين يفكرون في أنفسهم « كأحرار» « كأنا موجود » « كأنا الكون » « كأنا البداية والنهاية » أناس مخرفون يتجاهلون ألف باء الوجود الإنساني ، بمعنى أدق يقطعون بهذا النوع من التفكير أنفسهم من سلسلة البشر، يصبحون كالسيقان والأذرع المبتورة عمرها محدد بعمر خلاياها، في حين أنهم وهم أعضاء ومكونات في السلسلة البشرية عمرهم يبدأ قبل مولدهم بملايين السنين هي عمر البشرية قبل وجودهم ، وعمرهم يظل ممتداً بعد موتهم بملايين السنين هي عمر البشرية من بعدهم. من المهم جداً إذن حين نتحدث عن أنفسنا وقيمنا والحرام والحلال والعيب واللاعيب بالنسبة الينا ان نضع في اعتبارنا أنها ستكون كذلك أيضاً بالنسبة لأبنائنا ومن بعدهم بالنسبة لأحفادنا.

١٦

لكي أكون صادقاً أحب أن أقول هنا أن أفكاراً كهذه وبمثل هذا الوضوح والتجريد لم تخطر لسناء . هي فقط أحست رغم طول جلوسها للتفكير أنها كان يجب عليها أن تراعي أخاها أسامة وتضعه في اعتبارها وهي تحدد ما يجب عليها سلوكه. وربما الفارق بينها وبين محمد الجندي أن الأخير وضع أولاده وزوجاته في اعتباره، وربما لهذا تلوث هو بينما بقيت هي في نظافة الصيني والكريستال.

أردت فقد بإيراد تلك الأفكار أن أتعمق قليلاً في الحيرة التي تملكتها وفي الاحساس العام الذي سيطر عليها وخلخل من ايمانها الراسخ في الصباح . آنذاك كانت تؤمن أنها على حق لا شك فيه ، ومحمد الجندي على باطل لا شك فيه أيضاً . الآن وفي المساء وبعد أن احتضنت أسامة وشعرت بجسده الصغير الدافيء كتلة حية مجسدة وملموسة، بدأ الشك يتسرب الى إيمانها ذاك، ولم تعد واثقة كل الثقة انها الأحسن والأنظف والأكثر شرفاً وسمواً.

والشك، هذا الشعاع الخفي الذي لا يمكن إذا تسلط أن تصمد له أقوى الحقائق وأكثرها صلابة ورسوخاً، ذلك الشك الذي بدأ على هيئة تساؤل خطر لسناء بعد ظهر ذلك اليوم ، لم يلبث بمضي بضعة أيام أن

اجتاح كل آراء سناء ومعتقداتها وحقائقها الصلبة الراسخة، الى درجة أنها في ساعات كانت تفقد القدرة تماماً على التمييز بين الخطأ والصواب. ففي كل صواب أكيد تفكر فيه كانت تجد خطأ واحتمالات خطأ، وفي كل خطأ كانت لا تعدم ان تجد صواباً. تبلبلت تماماً، وكأنما بفعل فاعل انفكت كل مكونات حياتها وشخصيتها الى الآف الأشياء الصغيرة والمواقف الصغيرة والقضايا الصغيرة، والعيب أصبح بقدرتها أن تحلله الى عشرات الأشياء التي تجد فيها العيب، وعشرات الأشياء التي تجد فيها اللاعيب، وفي الحرام أجزاء كثيرة من الحلال، وفي الحلال مناطق بأسرها حرام.

وضع ما كان باستطاعتها أن تواجهه لفترة طويلة، فالعقل فيه لا يحتمل وقد ينقصم في أية لحظة لثقل ما يحمله. وهي مثلها مثل كل الناس تواجه في كل لحظة ودقيقة بموقف يتطلب منها أن تختار فيه جانباً، فأي جانب تختار وميزانها نفسه مفكك تماماً، الكفة في ناحية والأوزان متناثرة هنا وهناك، والمؤشر يعطي القراءات على مزاجه؟

في تلك اللحظة كانت تلجأ مستنجدة الى أمها لا لتسألها النصح والمشورة. وإنما وهي الخبيرة العليمة بها كانت كلما ووجهت بموقف سألت نفسها ترى ماذا كانت تفعله أمي لو وجدت في مكاني؟ وقياساً على تصرفها تتصرف تصرفات كانت أشياء في نفسها تضيق بها، ولكنها لم تملك سواها.

في تلك الأيام أيضاً كان واضحاً أن الحظ خدمها حين جعل محمد الجندي يتصرف كما لو كان يحافظ بدقة على الوعد الذي قطعه على نفسه. كانت تحس أنها فرصة من السماء أتيحت لها كي تستطيع أن تجمع شتات نفسها المبعثرة وتعود كاملة متكاملة كالعهد بها مرة أخرى.

حادثة أخيرة وقعت ، ولكنها حمدت الله أيضاً على أنها مرت بها بسرعة خاطفة ودون أن توقعها في مأزق يحتاج الى إعمال فكر وقيم . كانت قد خرجت الى التواليت لاصلاح ما أفسده اليوم والعمل من زينتها استعداداً لمغادرة المصلحة والسير في الطريق ، وحين عادت وهمت أن تغلق الدوسيه وجدت ورقة صغيرة استرعت انتباهها بلونها الوردي . . ورقة صغيرة في حجم علبة السجائر وعليها هذه الكلمات : أنا متأكد أن حبي لك حب يائس من طرف واحد لا أمل عندي فيه ، ولا أطمع ولا أطلب من الله أي شيء منك ، ولكنك تسببت لي من أول لحظة رأيتك فيها في ارتباك شديد حدث لي في حياتي وقاربت ان أنتحر لأجله . صدقيني قبل ان تضيع الفرصة وتتحملي الذنب . . لهذا كل ما أرجوه منك ان تقبلي ان أقابلك بالخارج في أحد الكازينوهات المطلة على النيل لأفضفض لك عن نفسي ، فأنا أشعر بالراحة التامة حين أتكلم معك حتى وان لم تتكلمي أنت . أرجوك وحياة أخوكي العزيز ألا ترفضي رجائي الأول والأخير . ولن أضايقك أبداً بعد هذا ، وأتسبب لك في شيء. عبدك . . محمد الجندي .

قرأت الورقة بلا اضطراب أو تردد ، وقبل أن تنتهي منها كانت وكأن شيئاً لم يحدث لها أو تفككت للحظة أجزاء عقلها وموازينه ، إذ قررت القرار في الحال ، وغادرت مكتبها في حضور الجميع وذهبت الى مكتب الجندي ومالت عليه وقالت بهمس حاسم لا راد له :

ـ اسمع يا محمد افندي! إنت يا إما عاوز تودي نفسك في داهية . . وأنا بانذرك أهه ، دي آخر مرة أسمح لك فيها انك تفكر فيّ بالشكل ده ، واعمل حسابك المسألة دي مش بالعافية . دانت لما تتسخط قدامي قرد والا تموت نفسك مليون مرة ولاح يهمني . أنا لا حبيتك ولا بحبك ولا

العبر

باقبلك ، وإذا كنت جدع صحيح نفذ كلامك وانتحر. وده آخر كلام لك .

وبمنتهى الهدوء عادت الى مكتبها ـ وكأن شيئاً لم يحدث ـ وأدخلت الأوراق المهمة في الدرج وأغلقت عليها . وعلقت حقيبتها في كتفها وغادرت الحجرة.

ولم تراجع نفسها لما قالته أبداً ولا صدرت من ضميرها كلمة تأنيب فإذا كان ثمة شخص في العالم كله هي متأكدة من رأيها فيه وموقفها منه فهو الجندي، وهو الكلام الذي قالته له والذي عبرت فيه بصراحة كاملة عن رأيها فيه وفي «عواطفه» .

يومان مضيا على هذه الحادثة أو ثلاثة ، لا تذكر، ولكن المؤكد انها أيام قليلة جداً مضت. وكاد اليوم نفسه يمضي . . يوم كانت سعيدة فيه بلا شك . . إذ كان الزملاء الأربعة غائبين ، سليمان لمرضه ، وأحمد الطويل لانتدابه للعمل لمدة يومين خارج المصلحة وصفوت افندي منذ العاشرة ذهب الى مراقبة المستخدمين في لجنة لم تحفل سناء بمعرفة اسمها ونوع عملها، وخرج معه محمد الجندي الذي لم تلتق عيناه بعينيها منذ الورقة الوردية على أن ينجز شيئاً ما ويعود . وقد خرج وهي منقبضة النفس لفكرة عودته وقضائهما بقية اليوم وحيدين في مكتب خال، غير أنه لفرحتها لم يلبث أن أرسل خفاجة الساعي ليدخل أوراقه في أدراجه ويحمل له علبة سجائره ومفاتيحه وولاعته ، علامة أكيدة أنه قرر «التزويغ» .

جلست سناء تنعم بوقت تمنته كثيراً ، إذ طالما حلمت بأن تحدث معجزة تضعها في صفوف كبار الموظفين الذين لهم الحق في حجرات خاصة وتليفونات خاصة . ولم يك لديها عمل عاجل يذكر، ولولا خجلها

من فكرة ان تنتهز الفرصة وتزوغ هي الأخرى ما ترددت في تنفيذها. وبينما هي تفكر في طريقة توفق بين خوفها من الموقف المخجل امام صفوت افندي في الغد، وبين رغبتها في مغادرة العمل ودخول احدى حفلات الصباح السينمائية. . بينما هي في هذا وجدت الباب يدق والداخل عبادة «بك» . صبح وسلم وسأل عن الجندي فأخبرته بما حدث وعن صفوت افندي وأحمد الطويل وسليمان ، وبالتفصيل أجابته عن سبب غيبة كل منهم على حدة . بدا عليه الهم والقلق حينئذ وبرطم بما معناه أن اليوم الخميس والغد أجازة والتصريح إذا لم يستخرج اليوم كلفه مبالغ طائلة. أخيراً واجهها بالسؤال الذي كان بادياً أنه يفكر فيه مذ دخل الحجرة ووجدها خالية إلا منها ، فسألها إن كان باستطاعتها أن تستخرج له التصريح ؟ ودون تفكير أجابته بأنها لا تستطيع ، فليس لديها تصاريح فاضية، وحتى لو كان لديها فهي لم تزاول العملية الا بحضور زملائها والباشكاتب، ثم إن الأختام مقفول عليها في درج الأخير.

وكانت تعتقد أنها سدت كل الأبواب بطريقة لن يملك معها الرجل إلا الاستئذان منها ومغادرة الحجرة . ولكن بدا أن هذا آخر شيء ممكن أن يفكر فيه، وأنه من الصنف المثابر العنيد الذي لا ييأس أبداً. قال لها :

ـ أما عن التصاريح الفاضية فأمرها بسيط.

بكل بساطة صفق، ودخل خفاجة فطلب منه تصريحين أو ثلاثة فاضية . وتلكأ خفاجة فأشار له عبادة بك إشارة ذات معنى طالباً منه أن يذهب ويشتريها حتى إن كانت تباع فهو مستعد أن يدفع في كل منها جنيهاً.

وفي أقل من دقيقة عاد خفاجة بالتصاريح ، فأخذها الرجل وتأملها ثم بسطها على المكتب أمام سناء ، واستدار الى خفاجة قائلاً :

ـ فيه حاجة تانية يا خفاجة عشان تاخد الورقة بخمسة حتة واحدة.

تحت أمرك يا عبادة بك من غير أي حاجة ، والله يكفينا ظرف سعادتك .

ـ الأختام يا خفاجة وامضاء الباشكاتب.

ـ أجيب لسعادتك الباشكاتب بنفسه هوا .

وهذه المرة استغرق احضار الباشكاتب « بنفسه » خمس دقائق كاملة.

جاء الرجل وقد قطع اجتماع اللجنة لاهثاً، وبسرعة أنهى مهمته فقد وقع التصاريح على بياض وختمها، وطلب من سناء أن تملأها وبعد ان تنتهي تذهب الى مدير الإدارة وتحصل على توقيعه الكريم ، كذلك أخرج لها دفتر القيد لتقييدها .

أما بالنسبة لعبادة بك فقد طلب منه أن يمر يوم السبت « ليسلم» على محمد الجندي، مؤكداً أنه يجازف باعطائه التصريح قبل السلام على الجندي، ولكنه يفعل هذا اعتماداً على ثقته الكبيرة فيه . وأكد له عبادة أنه حتماً سيفعل ، وطمأنه بقوله إنه رجل رقبته في أيديهم ومن العبث أن يحاول اللعب بذيله معهم.

وعلى عجل أيضاً غادر الباشكاتب الحجرة، وظل خفاجة واقفاً بضع لحظات وكأنما يؤكد دوره ووجوده، ثم حين أحس أن وجوده نفسه غير مرغوب فيه من الزبون استأذن خارجاً طالباً من سناء أن تدق الجرس فقط إذا لزمها شيء .

وهكذا وجدت سناء نفسها وقد فتحت على مصاريعها جميع الأبواب

التي سدتها ، ولم يعد أمامها إلا أن تملأ خانات التصريح أو تفتعل حجة ما وترفض .

وطاوعها عقلها أخيراً على افتعال حجة ، وقالت انها غير خبيرة في ملء التصاريح ، وإن من المحتمل جداً أن تخطىء فيبطل مفعول التصريح ، وانه لهذا السبب يستحسن أن ينتظر « الأستاذ» عبادة ليوم السبت ليملأها الجندي الخبير بها.

هنا تغيرت لهجة عبادة تماماً ، وبعد مقدمات طويلة دقت قرون الاستشعار في نفسها معلنة أنه اقترب جداً من المنطقة الخطيرة التي كانت تحدثها نفسها منذ اللحظة التي رأته فيها أنه سيتقرب منها ويحاول . وبالتحديد لم تصغ بوعي إلا حين بدأ يقول:

ـ أنا فاهم إزاي واحدة ذكية مدردحة زي حضرتك قاعدة ساكتة وهي شايفه ناس أغبى منها كتير ، وأقل منها كتير ، وهم عمالين يبلعوا في بطونهم اللي ما بتتمليش ؟ دلوقتي حدش شايفنا ؟ حدش سامعنا ؟ انتي عندك أمر من رئيسك انك تملي التصاريح . هو المسئول وهو اللي قالك وما عليكي إلا التنفيذ، فيها حاجة دي ؟ ما فيهاش حاجة أبداً . أنا ليكي على أسكت خفاجة والباشكاتب سكوت أبدي، ولا هم ح يعرفوا انك خدتي ولا الجندي ولا حد ح يعرف. ودي فيها مصلحة متبادلة ، بدل أنا ما أدفع ١٠٠ جنيه تتوزع على سبعة والا عشره ، ح ادفع سبعين . . الباشكاتب وخفاجة عشرين ، وانتي لوحدك خمسين ، ودول تصريحين يعني انتي لوحدك ح تطلعي بميه ، ميت جنيه قد ماهيتك سبع تشهر ح تاخديهم من غير ما تتحملي أي مسئولية، لمجرد انك تكتبيهم ، وكل المطلوب منك انك تكتمي على الحكاية وماتقوليش للجندي ولا لحد .

العيب

أظن اللي يرفض حاجة زي كده اسمحيلي بقى يبقى ما يستاهلش المكتب اللي قاعد عليه .

وكأنما استمراراً للحديث مد عباده بك يده وفتح درج مكتبها فتحة ضيقة وأخرج من جيبه رزمة أوراق من ذات الخمسة جنيهات مثبتة معاً « بأستك» البنك ، رزمة منتفخة مغرية كالصفحات المتراصة لكتاب ثمين ، وقد يكون ألف خاطر وخاطر قد دار في عقل سناء ، وقد يكون الأمر وكأن خاطراً واحداً لم يدر فالدوران السريع يبدو كالثبات المقيم . . والألف خاطر حين تدور في جزء من الثانية لا تترك في العقل أو التصرف أثراً وتبدو وكأن خاطراً لم يدر.

كل ما حدث أن القلم في يدها كف عن الكتابة وألقت نظرة عابرة سريعة على الرزمة في قاع الدرج ، ثم عادت تحدق في خانات التصريح وقد شل عقلها تماماً ، ولم يبق متحركاً فيها وفيه غير تساؤل واحد ظل يدق باستمرار في الحاح عنيد ، كجرس الباب حين يدقه صاحب دين لحوح .

كان التساؤل هو . . ماذا يحدث لو أخذتها ؟ تساؤل هكذا يلقى ويعود يلقى دون أن تنتظر إجابة عليه . ماذا يحدث لو أخذتها؟ ماذا يحدث ؟ ماذا يحدث؟ .

كل ما كانت تريده هو مهلة خاطفة تستطيع بطريقة ما أن توقف هذا التساؤل المتواصل المزعج وتفكر فيها ، ولكن بدا وكأن عقلها نفسه لا يريد هذه المهلة ولا يريد أن يفكر، ويريدها أن تتصرف بوحي من غرائزها البدائية الأولى . . . الغرائز التي تنجذب الى الدفء والنور وتهرب من الظلام والبرد ، التي تطمع وتستنكر على الآخرين الطمع . . الغرائز التي تنجذب الى الأشياء وتنفر من الأشياء لا بحسب قيمها العليا ومعانيها

العميقة وإنما بحسب قيمها الظاهرة المحسوسة ومعانيها التي تتلخص في معنيين اثنين . . أهذا الشيء يضر جسدي حتى أهرب منه أم يفيده حتى أحصل عليه ؟

وبحكم هذه الغرائز لو كان لص قد دخل الحجرة في ذلك الوقت لاستماتت سناء دفاعاً عن الرزمة ، بحكمها كانت قد أصبحت ملكها وبحكمها أيضاً قد أصبحت المشكلة لا أن تأخذها أو لا تأخذها وإنما هي كيف تدافع عنها وتمنعها من التسرب من حوزتها .

وحتى حين كف التساؤل الملح عن التردد وأصبح بامكانها أن تستعمل عقلها، لم تشأ باراداتها هذه المرة أن تستعمله، وبسرعة كانت قد كونت لنفسها رأياً يخرج بها من اللحظة المتوقعة ، إذ قالت آخذها أولاً وبعد هذا أمامي المتسع من الوقت للتفكير، بحيث اذا وصلت في تفكيري الى أن من الخطأ أخذها فمن الممكن حينئذ أن أردها لصاحبها مهما رفض وأبى.

وهكذا لم يطل توقف القلم، وسرعان ما استأنف تسديد الخانات وهي مصرة ومقتنعة ومتصرفة على أساس أن شيئاً ما لم يحدث. وانها لم تر أو تسمع أو تلاحظ أمراً غير عادي.

ولعل عبادة بك بحكم خبرته الطويلة كان يقرأ تفكيرها كالكتاب المفتوح. فلم تكن هذه أول مرة يتولى فيها إفساد ذمة موظف، ولن تكون الأخيرة، إذ بصرف النظر عن أنها بعض عمله فقد تربت لديه هواية قوامها ذلك الجزء من العمل ، هواية ككل الهوايات الشاذة كانت مزاولتها تشيع في جسده العريض القصير المترهل نوعاً من اللذة الشيطانية الوحشية دونها بكثير لذة افساد الفتاة البكر ، أو الكسب الضخم الحرام في البوكر والباكاراه . وكان يفخر أن موظفاً كبيراً أو صغيراً، مديراً أو وزيراً لم

يصمد أمامه أبداً ، وأنه يتحدى أن يصمد أحد أمامه ، ولذته الكبرى كانت تبدأ تلوح إذا آنس من هذا الموظف أو ذاك مقاومة ، أو وجده عنيداً مصراً ، أو لاح وكأنه من أصحاب المبادىء. حينئذ تنشط كل مراكز الابداع والتفكير في عقل عباده بك ، وكلما زادت الصعوبات في وجهه استبشر بها ووطن نفسه على النشوة العظمى يوم النصر . . إذ هو متأكد دائماً من النصر . والفرق في نظره هو فارق زمني محض ، وحتى كلما طال الزمن طال استعذابه للتجربة والهواية . . وكانت طريقته أن يتفحص في اللقاء الأول الشخص ليصدر حكمه المبدئي عليه ، وهو فخور بأحكامه تلك يتباهى بأن واحداً منها لم يخب ، وبهذا الحكم يخمن نقطة الضعف في الموظف أهو المال أم النساء أم الترقية أم التهديد ؟ ثم يجمع بنفسه وبالاستعانة باثنين من موظفي مكتبه ما يمكنه جمعه من معلومات ليستطيع على هداها أن يحدد «الكم» بعد أن حدد الكيف. والكم هنا لا يقل أهمية عن الكيف . إذ هو لا يعتمد أبداً على مركز الموظف أو أصله أو منصبه . كم من وزراء بكل هيلمانهم اشتراهم بعشوة أو بباقة زهور معينة استوردها من هولندا، وكم من موظفين صغار كلفه شراؤهم آلافاً .والنساء رتب، ولبابهم طلبات خاصة وتوصيات. والتهديد سلاح نادراً ما يلجأ اليه فهو يجب أن يكون أولاً محل ثقة الموظف. . ثقة مطلقة لا تشوبها شائبة. فهو الذي سيودع عنده ذمته ولا بد أن تكون ثقة الناس فيه تصل الى حد يستخدمونه كبنك مضمون لايداع الذمم . وكذلك عاين سناء في أول لقاء ، ومن معاينته استنكف طريقة محمد الجندي المكشوفة الخشنة التي لا ذوق فيها ولا فن ، ومع هذا تظاهر باندماجه فيها فقط ليسبر غور هذه الإنسانة الجديدة التي لا يعلم عنها شيئاً . وقد علمته الأيام والتجارب أن النساء أصعب في بيع ذممهن بعشرات ومئات المرات من الرجال ، بل المرة الوحيدة التي فشل فيها وخاب كانت أمام إحدى الموظفات الكبيرات . كثيراً ما استعمل سلاح الحب إذ هو

يعرف أن نقطة الضعف الوحيدة الخطيرة في أية امرأة هي الحب . ولديه لهذا عشرات من الشبان المدربين القادرين على ايقاع أشرف نساء الدنيا ، تماماً مثلما لديه عدد من الجميلات من كل جنس وملة قادرات على إيقاع أشرف رجال الأرض، والغريب أن معظم هؤلاء وأولئك هواة لا يتقاضون إذا تقاضوا إلا ما تكلف المغامرة من مصاريف.

ومما حدث يومها حيره أمر سناء ورأى أنه مقبل على مغامرة صعبة مثيرة . وغادر المصلحة يومها وهو يحاول أن يصدر حكمه المبدئي مفاضلاً بين طريق الحب وطريق المال ، وثمة شيء يؤكد له أن الطريقين لا يصلحان وأنه لا بد أن يبتكر طريقاً جديداً لهذا الجيل الجديد الذي دخل الحكومة حاملاً معه قيماً جديدة وعقليات وأفكاراً ليس من السهل التغلب عليها .

وكان بعد تفكير طويل ودراسة قد انتهى الى حل سببه استحالة مواجهة ذلك النوع الجديد بالمساومة على الشراء سافرة ، ووجوب اللجوء الى أسلوب غير مباشر ينتهي الى توريط . وأحد الاقتراحات التي فكر فيها أن يفتتح نادياً ثقافياً يضم اليه سناء ومثيلاتها وعضوات من صديقاته يستطعن بالاحتكاك والدعوات وغسل المخ والتلقين أن يفككن شخصيات هؤلاء الفتيات المتماسكة المترابطة ككتلة واحدة تضم قيمهن جميعاً. . وكلها قيم متحدة واحدة ، الحرام فيها حرام تحت مختلف الظروف والأحوال والحلال أيضاً واحد ، والعيب في العمل مثله مثل العيب في الشرف ، وما يعيب في البيت يعيب أيضاً في المصلحة . كتلة مترابطة واحدة فرق كبير بينها وبين قيم الرجال الموزعة على أدراج ودوسيهات . بحيث يحيا الرجل صادقاً بأكثر من مقياس وأكثر من شرف وأكثر من حلال أو حرام ، ويستدعي ـ اذا اضطرته الحاجة ـ المقياس الذي يناسبها . . إذا اكتشف أن ابنه يدس لأخيه عند أمه عاقبه

العبر

بشدة، وإذا ضبط نفسه وهو يدس لزميله عند الرئيس برر وشرح وأفاض في الشرح ليخرج نفسه منها كالشعرة من العجين . أبداً ليس مثل الرجل الذي باستطاعته أن يفقد إحدى قيمه دون أن يؤثر هذا على غيرها من القيم . . باستطاعته أن يكون زئر نساء لكنه في نفس الوقت تجده صادقاً وشجاعاً وأميناً . بل ربما تجده أيضاً شاعراً . ومن هنا تنشأ الصعوبة ، ومن هنا تعلم عباده بك ألا يطبق على النساء ـ على عكس ما يفعله بالرجال ـ قاعدة واحدة ، إذ قد ثبت له أن كل فتاة أو سيدة حالمة بمفردها لا تنجح معها القواعد . وحتى وهو يفكر في مشروع النادي كان غير واثق أبداً أن سناء بالذات ممكن أن يدب الى نفسها من هذا الطريق.

كانت المسألة في رأسه مجرد مشاريع ودراسات لمشاريع ، وكان مقدراً أن الأمر سيستغرق وقتاً وأنه وطن نفسه على هذا . ومع أن مجيئه اليوم كان بمشورة الجندي ونصيحته كما سنعرف، إلا أنه جاء ولا فكرة لديه عن خطوة ما يمكن أن يخطوها تجاه سناء . ماذا حدث إذن حتى جعله يقدم على هذا التصرف الذي كان كفيلاً لو لم يكن متأكداً تماماً من نجاحه ، بايداعه السجن بلا ابطاء ؟ الحقيقة أنه هو نفسه لم يكن حتى تلك اللحظة يملك إجابة شافية ، ولكنه مجرد شبح عن له وصوب تجاهه ، وكان هو أول من فوجىء بالاصابة المباشرة . أما الشبح فقد كان في كلمات سناء الأولى تلك التي أخبرته بها عن سبب تغيب الآخرين ، وليس في الكلمات الأولى بالضبط ربما قبلها بقليل ، إذ كان يتوقع بعد الذي حدث في آخر مرة كان بها في المكتب أن تلقاه سناء مواصلة نفس الموقف منه ، تلقاه باشمئزاز واضح أو خفي، ولكنه كان لا بد أن يكون موجوداً. غياب هذا العنصر دفعه للتساؤل والشك، وجاءت الكلمات الأولى لاتحمل ضغينة واضحة أو خفية. احساسه صحيح إذن! وحتى اعتراضاتها والعقبات التي أقامتها أحس أنها لم تقمها في وجهه هو بقدر ما أقامتها لنفسها . . لتمنع نفسها.

كانت اذن تريد أن تتكفل ظروف خارجة عن ارادتها بالرفض. طيب! وحين نرفع هذه الظروف الخارجة ونترك ارادتها عارية بلا دروع هي والموقف وحدهما، ماذا يحدث؟ حدث الشيء الذي توقع بالضبط أن يحدث، وقفت ارادتها لا تملك الحركة الى الأمام أو الخلف عاجزة عن التقدم وعاجزة في الوقت نفسه عن التراجع. واحتاج الوضع حينئذ لدفعة تحركها الى الأمام قبل ان يفيق الوعي، قبل ان تستجمع نفسها المشتتة وتتخذ قراراً لا بد كان سيؤدي الى التقهقر الحاسم المفاجىء. وجاءت هذه الدفعة حين أمرها صفوت افندي رئيسها بكتابة التصاريح. حينئذ وبخطى وئيدة بدأت تتحرك الى الأمام، ولكنها تتحرك في اتجاه أداء الواجب فقط وملء الخانات. ولكن من قال ان هذا الاتجاه ليس هو نفسه اتجاه بيع الذمة؟ وهل حدث لعبادة بك في كل تاريخه الحافل وثرائه، هل حدث أن تحرك موظف أو موظفة وتقدم واضعاً بيع ذمته كهدف؟ على الاطلاق لم يحدث شيء من هذا. إنه دائماً يتحرك موهماً نفسه مؤكداً ومقسماً ومؤمناً إيماناً لا يتزعزع أنه إذ يتحرك فإنما ليؤدي واجبه فقط.. لينجز عمله. عسكري المرور الذي يقبل القروش العشرة حتى لا يحرر لك محضراً يوهم نفسه، بأدلة يصنعها أو يصطنعها، إنك فعلاً لا تستحق المحضر. وإنه بالغاته انما يؤدي واجبه الذي يمليه عليه ضميره. وما العشرة القروش سوى مبلغ تطوعت أنت بدفعه سذاجة منك وعبطاً، إذ كان هو على أي الحالات لا ينوي تحرير محضر. كذلك الوزير الذي يقبل دعوتك وهو عالم انك في حاجة غداً لتوقيعه، يقبلها وهو قد انتوى نية خالصة مخلصة أنه وإن كان قد قبل إلا أنه لن يوافق غداً ويوقع إلا إذا كنت فعلاً قد استوفيت شروط الموافقة. وحين يأتي الغد وتعرض أوراقك مع أوراق الآخرين ويجد أنك مثلهم مستوفياً للشروط أو معظمها، يؤكد لنفسه أن اختياره لك دوناً عن الباقين لن يخلو

من حكمة ، إذ هو يعرفك حق المعرفة ويعرف أنك لن تخدع الحكومة ولن تسف أموالها ، بينما هو لا يعرف الآخرين ولا يضمنهم . حينئذ ولأجل مصلحة الدولة والحكومة ، بدافع هذه المصلحة العليا وحدها يؤشر على ورقك بالموافقة وعلى الآخرين بالحفظ ، مؤمناً أشد الايمان أنه بهذا العمل قد أدى أكبر الخدمات وأجلها للبلاد وللوطن .

لمح الرجل سناء اذن وهي تشرع في الكتابة وعلى سيمائها ما يؤكد لنفسها أنها تؤدي الواجب الحلال الزلال الذي لا غبار عليه. علامة يعرفها جيداً إذ الخبرة قد علمته أن الشخص حين يبدأ في إقناع نفسه أن ما يفعله أمر لا غبار عليه يكون فعلاً وحقيقة قد بدأ يدافع عن الشيء الذي عليه غبار. . مؤكداً لنفسه أن لا غبار عليه البتة، حينئذ عليك أن تضرب بسرعة ضربتك القاضية التي تطبب كفة الميزان إلى الأبد، فليس من المصلحة بقاء الشخص طويلاً من في تلك المرحلة الحرجة التي «يحاول» «إقناع» نفسه فيها . إذ قد يحدث حينئذ والأمر لا يزال نظرياً محضاً وهو لا يزال على البر، أن يتملكه خوف مفاجىء أو يتذكر حادثاً أو موقفاً أو شخصاً كان يعتبره المثل الأعلى ويغير رأيه . وصعب بل أحياناً من المستحيل إذا « حرن» الشخص في تلك المنطقة ان تستخرجه منها أو تستطيع جره . لا بد حينئذ أن تشل حرجه بوضعه أمام الأمر الواقع و«تلبيسه » التهمة. ولكنها أيضاً عملية في حاجة لحذق كبير. إذا زاولها الغشيم فمن المحتمل ان يفعلها بطريقة تفزع الشخص وتجعله يفر بجلده هارباً . أما في يد الخبير فلا خوف عليه، إذ كل المطلوب منه هنا أن يثمن الشخص بسرعة وحسم ، يضاعف الثمن أو يجعله ثلاثة أضعاف بحيث « يغرق» الشخص فيه ، بحيث ينتفي من عقله كل تفكير آخر ولا تبقى سوى الرزمة المهولة التي لم يتوقع أبداً أنها

بهذه الكثرة والضخامة، والتثمين هنا لا يعني قيمة ما يستحقه الشخص ولكنه يعني على وجه الدقة قيمة ما يطمع هو في الحصول عليه ، أي بمعنى آخر قيمة ثمنه في نظر نفسه . وعليك انت ان تثمنه بأغلى . . . أغلى بكثير مما توقع أو يستحق. ولا تخش الخسارة أو بعثرة نقودك فأنت لا تشتري امضاء لمرة . . أنت تشتري شخصاً بأكمله ووظيفة ونفوذاً الى زمن لا نهاية له . ولهذا فأي ثمن تحدده مهما بدا لك غالياً ومبالغاً فيه ، فهو لو كنت من العارفين العالمين كعبادة بك ، رخيص جد رخيص ، سوف يرتد اليك أضعافاً وأضعافاً مضاعفة .

بحكم الخبرة عرف أن خير ما يفعله أن يسكت هو الآخر ويدعي مثلها أن شيئاً لم يحدث ، وحين انتهت وتهيأت لمغادرة الحجرة للحصول على توقيع مدير الادارة كفاها هو مئونة التعب، ونادى على خفاجة يكلفه بالمهمة، ولم ينتظر أن يعود، آثر أن يتابعه. بل الحقيقة أثر ان يغادر الحجرة وقد أدرك ان خير ما يفعله هو أن يتركها فوراً ليقطع عليها آخر مراحل التردد من ناحية، ومن ناحية أخرى لتنفرد بنفسها اذ هي لا بد في شوق شديد لهذا الانفراد.

وبحرارة واحترام كبيرين سلم عليها وخرج . وحين عاد خفاجة بعد قليل وحاول أن ينتهز فرصة وحدتها ليفتح أبواباً للحديث ولم يجد منها تشجيعاً يذكر، سألها إن كانت في حاجة لشيء من البوفيه تشربه؟ وحين أجابت بالنفي وهي تتفرس في ملامحه علها تلمح بارقة تدل على أنه أدرك أو يدرك شيئاً يتعلق بالرزمة الضخمة التي لا تزال في درج المكتب . . ولم تلمح بارقة تدل على شيء . كان واضحاً فقط أنه قبض هو الآخر، والنقود التي قبضها تعميه عن رؤية أي شيء آخر، وأدركت سر تلكئه حين قال لها في النهاية :

ـ أظن عبادة بك وصى حضرتك إنك ما تجيبيش سيرة لحد.

وابتسمت بافتعال، وأجابت بما يؤكد انه وصاها وأنها ستعمل بالوصية. كل ما هنالك انها تساءلت ببراءة عن السبب الذي يدفعه لهذا التكتم وأجابها خفاجة بأنها لاتزال حسنة النية لا تعرف بعد أحوال المصلحة الخفية، وأن عبادة بك انما يفعل هذا ليخفف عن كاهله ولو لمرة «الضرائب» الباهظة التي يدفعها للكل اذا عرف الكل.

وطمأنت هذه المحاورة سناء. وطمأنت كذلك خفاجة حتى أصبح وجوده في الحجرة غير ذي موضوع.

غادرها حينذاك وهو يدعو ـ بلا مناسبة ـ لسناء بأن يصلح الله أحوالها ويرزقها بعريس ابن حلال. وأغلق الباب وراءه.

أخيراً، ها هي ذي وحدها كما تمنت. ها هو الوقت أمامها ممتد متسع باستطاعتها أن تناقش فيه كل المشاكل والقضايا.

واستعجبت حين حاولت أن تجد شيئاً يتعلق بالنقود، أي شيء يمكنها أن تفكر فيه بدون جدوى، بقي عقلها بلا تفكير، وبلا قلق أو ارهاق، بلا سعادة أو اكتئاب، بلا شيء على الاطلاق. بقي هكذا وقتاً ما لا تدري كم طوله، وحين بدأ يعمل بدأ يفكر بطريقة لم تخطر لها على بال. من أدراها أن النقود ليست فخاً نصب لها.. نصبه الجندي وزملاؤه من أجل الايقاع بها وفصلها وسجنها كي يخلو لهم الجو؟

الحقيقة كان الخاطر مفاجئاً ولاسعاً الى درجة قفزت معها سناء واقفة ودون أن تتردد لثانية واحدة أمسكت النقود كما قرأت في الروايات بمنديلها ثم وكأنها فكرت طويلاً في المخبأ السري، إذ في لمح البصر كانت قد مدت يدها أسفل الدرج الأوسط لمكتب محمد الجندي، وهناك وجدت قطعة خشب بارزة كالرف وضعت فوقها النقود، وعادت الى مكانها لاهثة.

حتى أن ضبطوها فسيحمل هو التهمة ويقع في الحفرة التي أراد لها ان تقع فيها.

وانتظرت ساعة وساعتين أن تأتي النيابة والبوليس دون أن يأتي أحد أو تبدو بادرة خطر . والى أن وصلت الى البيت في ذلك اليوم كانت قد ضبطت أكثر من عشرين مرة . وراحت في داهية أكثر من مائة مرة، وأمسكها سائق التاكس المتخفي عشرات المرات .

ووصلت الى البيت برغبة واحدة . . أن تنام . ودون ان تلحظ أمها استخرجت الرزمة من الحقيبة ووضعتها تحت المخدة ونامت .

وأيقظتها الأم ساعة العشاء حاسبة أنها مريضة ! وبالكاد ازدردت بعض اللقم ، وهي في أثناء الطعام وقبله وبعده تحاول أن تعثر على هاتف واحد من آلاف الهواتف التي اعتقدت انها لا بد مستيقظة لديها ذات ساعة . صارخة فيها أن تعيد الرزمة الحرام الى صاحبها دون جدوى .

بدلاً من الهواتف كان ثمة احساس طاغ أن المسألة قد حدثت وانتهت وان المهم ليس النقود. . المهم هو الخطوات التي سبقت وأعقبت النقود خطوات مهما فعلت وارتفعت ودقت رأسها بالسقف وهبطت لا يمكنها التراجع عنها .

حسن جداً! فليكن ما حدث قد حدث ولتكف نفسها مئونة التفكير.

ومر صباح الجمعة وظهرها وعصرها وهي لا تريد لليوم أن ينتهي ولا تريد العودة للمصلحة أبداً . ولكن الليل ما كاد يجيء حتى بدأ حب استطلاع غير حب استطلاعها العادي. . رغبة خبيثة ماكرة في الاستطلاع تطغى عليها وتتمنى معها أن ينقضي الليل بسرعة لترى ما حدث أو ما يمكن أن يحدث في المصلحة.

ورغم انها لم تتوقع أبداً أن تجد ما وجدته، إلا أنها لدهشتها لم تستغرب حدوثه. في الواقع منذ يوم الامتحان وهي لم تعد تستغرب حدوث شيء.. أي شيء.

وجدت سر صفقة الخميس قد تسربت الى الزملاء الأعزاء... من الباشكاتب، من خفاجة. أو من عبادة نفسه.. تفصيل لا يهمها في قليل أو كثير. والغريب انها بعد برهة وجدت نفسها غير ساخطة، أكثر من هذا سعيدة بهذا التسرب. لكأن حائطاً سميكاً كان يفصلها عن سليمان وأحمد والباشكاتب والجندي قد تهدم من أساسه، ولم يسخر منها أحد ولم يحاول أحد أن يعايرها، بالعكس أقبل الجميع عليها وكأنها نجحت في امتحان وانتقلت الى خانتهم، أو لكأنها الأخت المريضة التي عوفيت وشفيت وانضمت الى العائلة. التحفظ زال والحرص في المعاملة اختفى والحجرة تحولت الى مكان عذب خفيف الروح يغري بالاقامة ويمحو الأشجان.

الشيء الغريب الذي لحظته بعد قليل أن الجندي رغم اشتراكه في موجة المرح العامة، في أعماق نفسه كان يبدو مكتئباً حزيناً. وقد احست ان الحالة سببها هو حرمانه من نصيبه في صفقة الخميس، ولكنها حين علمت أن أنصبتهم جميعاً وصلتهم وكأنهم كانوا حاضرين. خبر في حد ذاته أخذ سناء على غرة وجعلها تفطن الى أن الهدف من حكاية اخفاء الأمر عن محمد الجندي والآخرين هو مجرد خدعة من عبادة بك قصد بها أن يبث الطمأنينة في نفسها حتى تلتف حولها «الخية». اذن دبر الرجل كل ذلك بهدف ايقاعها، ومن المحتمل انه أشرك معه الجندي والباشكاتب في التدبير. وحتى اذا كان هذا هو ما حدث فأية أهمية الآن وهي لم تأخذ النقود لبراعة التدبير؟ لقد اخذتها لأسباب لا تدريها.. وحتى قبل ان تأخذها بزمن طويل، من لحظة دق عبادة الباب ودخل وربما قبلها بكثير. فما علينا من

هذا كله ، المهم لماذا هذا الاكتئاب الذي يطفو من أعماق الجندي ويطغي على ملامحه ؟

سألته وألحت ولم يستطع الصمود، أخبرها أنها كادت منذ ذلك اليوم الذي ألقت عليه فيه خطابها الطويل أن تنجح في تغيير مجرى حياته كله وفي انقاذه، هو الجندي الذي قضى أكثر من ثلاثين عاماً يعيث في الدنيا فساداً ويؤذي نفسه ولا يستريح حتى يتأذى الآخرون، وأنه من يومها أصبحت له المثل والبطلة ، ومن شدة ثقته بها تحدى عبادة أن يوقعها. وما كان غيابه بالأمس إلا لاعطائه الفرصة كاملة. . وكان واثقاً تماماً من فشل عبادة ونجاحها، أما وقد نجح الرجل، أما وقد حدث ما حدث فهو لا يدري لماذا أحس ولا يزال يحس بالحزن والاكتئاب؟

ـ ولا يهمك .

قالتها له سناء ككلمة عابرة اختارتها بنت لحظتها لتعبر بها عن حقيقة رأيها في تلك الساعة ، ولم تكن تدري أنها ستصبح بعد هذا كلمتها المفضلة، وانها ستظل ترددها مئات المرات وآلافها كلما حاول أحد لومها أو لمحت بوادر تدل على أنها في الطريق الى لوم نفسها.

وكأن محمد الجندي كان ينتظر هذه الكلمة ليذهب عنه اكتئاب ضاق به. . اكتئاب حديث العهد بنفسه غير أصيل، اقتلعته الكلمة وأعادته في لمحة الى الجندي كما كان وكما هو كائن وكما من المحتمل ان يظل يكون.

وساد الانسجام التام الحجرة، وأرسل خفاجة في طلب مشروبات وعلب سجائر فاخرة، وعزم أحدهم على سناء بسيجارة فرفضت بغير شدة وحين أعاد العزومة قبلتها وأشعلتها ومضت تجرب باضطراب المبتدئة كيف تمسكها وتجذب أنفاسها وتتفادى الكحة .

وبلا ورقة أو مقدمات، وقبيل انتهاء اليوم بدقائق ذهب الجندي لمكتبها وانحنى بجذعه كله حتى أصبح وجهه يكاد يلمس وجهها. ولو كان يعلم أن سناء حين ستراه عن قرب هكذا ستتمسك برأيها الأزلي فيه لما اقترب منها كل هذا الاقتراب. المهم أنه بكلمات متلجلجة متقطعة لم تحتمل سناء أن تظل تنتظره وهو يلوكها ويتلكأ في نطقها أكثر من هذا فسألته :

ـ ولا يهمك . . بس قول في أي كازينو عايز ؟

ـ ايه رأيك في . . والله بيتهيألي أحسن من التاني ده .

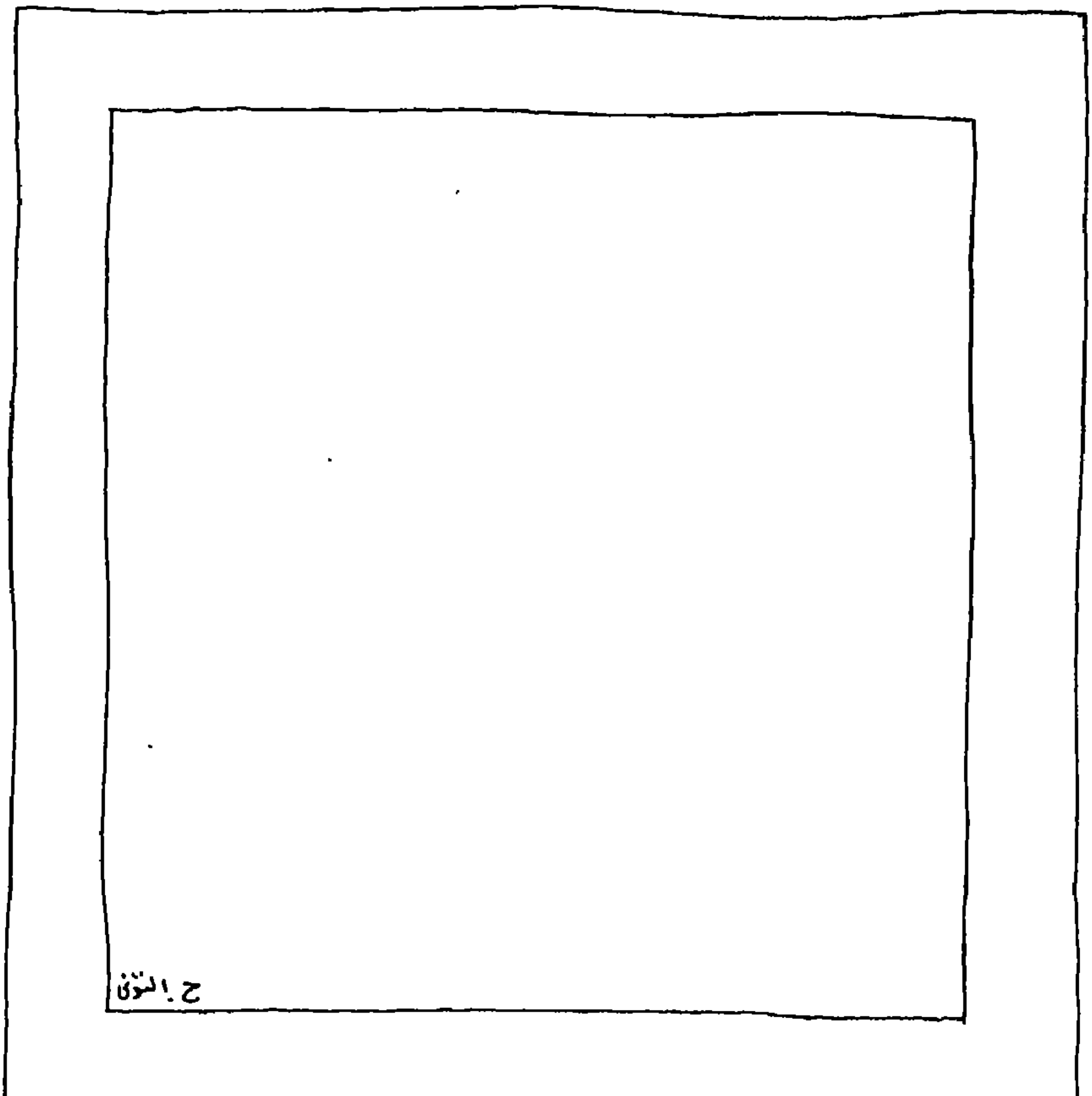
ـ يا أخي فلقتني . . كازينو الحمام . . ح تلاقيني بكره الساعة ستة هناك .

نطقت الجملة وسكتت هنيهة، وفي أثنائها اقشعر جسدها لدى صورته حين مرت بخيالها وهو يهدر هدير الكلب «الرجل» ووجدت نفسها تقول:

ـ واللا ايه رأيك؟ ما بلاش الكازينوهات لحسن حد يشوفنا .

وفتح محمد الجندي فاه مدهوشاً مروعاً مذهولاً، معتقداً لا بد أنها أصيبت بمرض أو مستها لوثة، اذ لم يكن باستطاعته أن يتخيل او يصدق أنها حقيقة تعني ما تقول.

«تمت»



الحرام

الحرام

١

في تلك البقعة من شمال الدلتا. . حيث يمتد التفتيش واسعاً عريضاً لا يكاد البصر يصل إلى مداه، كانت الدنيا تمر بلحظة السكون التام حين يكون الليل وما فيه من نقيق وصرير قد ولى، وحين لا يكون النهار الكامل بأصواته وضجيجه قد أقبل بعد. سكون تام مطبق وكأنما ستقوم القيامة بعده. سكون جليل مهيب تتردد حتى أدق الكائنات في خدشه. . لم يكن يجرؤ على خدشه إلا نصف كرة أبيض كان يغوص في ماء الترعة ثم يطفو ليعود يغوص، محدثا خرخشة تتعالى وتدوي في رحابة السكون. ظل هذا يحدث عدداً غير قليل من المرات، ثم حدث أن غاص نصف الكرة مرة وغاب اكثر من المعتاد، غير أنه لم يلبث أن طفا فجأة مخترقا الماء في ضجة عظمى. وهذه المرة وضح أن لنصف الكرة جبهة ما لبث أن وضح أن لها عينين ثم فماً، ثم لم يلبث الوجه أن تكامل واستدار الرأس آخذا طريقه إلى الحافة. وكلما تقدم ينحسر الماء عن رقبة، ثم جسد أبيض من الخلف كثيف السواد من الأمام، وقرب الحافة ظهرت الذراعان هزيلتين بالقياس إلى الجسد الضخم، ولكن على بطن الذراع اليمنى وشم فتاة ممسكة سيفا وكتابة لو دققنا النظر فيها لوجدنا أنها لاسم، والاسم هو عبد المطلب محمد البحراوي.

خرج عبد المطلب من الماء، ومع أن المنطقة بأسرهـا كانـت خالية من الأحياء إلا أنه حين أصبح في العراء انثنى على نفسه وضم يديه يخفي بهما عورته، وبسرعة كان قد ارتدى ملابسه. .ملابس كثيرة مهرأة يضمها جميعاً «بالطو» سميك مهيب أصفر اللون ذو تاريخ حافل، إذ اشترك في الحرب العالمية الأخيرة مع الحلفاء على هيئة خيمة، ثم انتهى كما ينتهي المحاربون القدماء إلى تلك النهاية.

وأخيرا صلى عبد المطلب ركعتي الصبح الحاضر والسنَّة، ولفع البندقية ذات الروحين على كتفه ومضى على جسر الترعة يخب في نعليه المصنوعين من كاوتش العربات.

وبينما كان ماضياً في طريقه إلى العزبة الكبيرة، فوجيء عبـد المطلـب بجسم أبيض غريب يرقد على جانب من الجسر. وفرح عبد المطلب فهـو ككل الناس ما يكاد يرى على الأرض شيئاً يختلف لونه عن لون الأرض إلا ويعتقد أنه عثر على «لقية»، ويدق قلبه بالفرح.

غير أنه حين بربش بعينيه. . وعبد المطلب مع أنه خفير إلا أن نظره على قده خاصة في الضوء. . ما كاد يرى الشيء حتى تسمر في مكانه مذعوراً ومضى يصرخ: الله حي، الله حي، الله حي.

ذلك أن الشيء لم يكن إلا جنيناً حديث الولادة.

دق قلب عبد المطلب دقة عالية واحدة كالطفلة، ثم انزوى يلهث في صدره ويرتجف. فهو «صحيح»خفير، ولكن ما يراه أمامه الآن شيء مختلف تماماً عن اللصوص وقطَّاع الطرق، ولهذا فقد كان أول ما فكر فيه أن يطلق ساقية للريح ويجـري، إذ للوهلة الأولى اعتقد ان ما أمامه عفريت ابـن جنيَّة ما في ذلك شك.

غير أن عبد المطلب لم يجر، بل وجد نفسه بعد ثوان يقهقه قهقهة عالية

أعلى من أي قهقهة اخرى أطلقها في حياته إذ كان يضحك على نفسه، فقد أدرك بطريقة ما أن ما أمامه ليس عفرياً أو شيئاً من هذا القبيل، ولكنه رضيع ابن حرام على وجه الدقة، وما كاد يتبين هذا حتى قهقـه، فقد تصوّر لأمر ما أيضاً أن الجنين الـذي يراه الآن هو ثمرة لليلـة الماضية التـي قضاهـا مع زوجته، ولدته بعد أن غادرها ليستحم في الترعة ويتطهّر، ثم ألقت به في الطريق.

كان الخاطر لا معنى له إذ من غير المعقول أن تحمل زوجته وتلد جنيناً كاملاً في نفس الليلة، ولكنه فكر فيه. فالإنسان وهو مرعوب قد يقف عقله ويهرب بجسنده، أو قد يحدث العكس فيتسمر بجسمه في مكانه ويهرب بعقله، والعقل في جريانه المفزوع لا يتقيد بأي معقول.

وعلى أية حال لم تطل قهقهة عبـد المطلـب إذ قطعهـا عليه إحساسـه المفاجيء بالمسئولية، ومع أن البقعة التي وجـد فيهـا الـرضيع ليسـت من اختصاصه إذ هي من اختصاص خفير الجرن، إلا أن بعض الناس أحياناً لا يكادون يجدون ثمة خطأ حتى يلصقوه بأنفسهم ويحس الواحد منهم أنه هو المسئول عنه، ويبدأ يدافع عن نفسه ليتهرب من المسئولية. وهكذا ظل عبد المطلب واقفاً أمام اللقيط يدير في رأسه خطط الدفاع عن نفسه أمام الناس وأمام مأمور التفتيش و ـ لا قدّر الله ـ أمام النيابـة والمحـاكم، وبينما عبـد المطلب يفعل هذا كان قوس الشمس الأعلى قد بدأ يصفر ويبيض ويجوب الأفق مستكشفاً، وحين اطمأن إلى أن كل شيء على ما يرام برزت من ورائه الشمس بحجمها الأحمر الهائل، ومع بروزها بدأت الدنيا تزهـزه وتدعـو الكائنات إلى اليقظة والعمل، وبدأ أبو قردان يصرخ ويرفرف، وبدأ الناس يظهرون.. أفراداً متناثرين أول الأمر قادمين من الجامع بعد الصلاة، أو آخذين طريقهم إلى الترعة يغسلون وجوههم ويستحمون.

ومع زهزهة الدنيا كان عقل عبد المطلب هو الآخر قد بدأت تعود إليه رباطة جأشه وبدأ يتفتح ، وكانت فكرة ما قد واتته بعد أن فشل في تخليص نفسه من المسئولية:

لم لا يلقى باللفافة في الترعة ولا من شاف ولا من دري؟ وتردد برهة بعد آه، ولاه، ثم لم يلبث أن تقدم من اللفافة باحتراس زائد.

في تلك اللحظة فوجيء بصوت خشن كفرع السنط يقول:

ـ اصباح الخير يا عبده.

وحلق فيه عبد المطلب بعينيه العمشاوين، فقد كان عبد المطلب أبيض أعمش ذا عيون صغيرة ضيقة لا ترى إلا في الليل، حلق فيه وقال جملته المشهورة عنه:

ـ أخص ع الناس، الله يكسفم!

كانت كلماته تخرج ملفوفة في سحابات صغيرة من بخار الصبح، وكان القادم «عطية» الذي لا يدري أحد متى جاء إلى التفتيش ولا من أين جاء ولم يكن له عمل معروف حتى في أثناء إقامته في التفتيش، لا ولم يكن له محل إقامة فهو ينام حيثما اتفق، تراه على الدوام ممسكاً ذيل قميصه من الخلف، مظهراً سيقانه الخالية من الشعر، فاتحاً عيناً مغلقاً الاخرى محدقاً في محدثه بوجهه النحيف الرفيع الذي لا يطمئن إليه أحد.

ظلت ذرات البخار تخرج من فم عطية لترد عليها ذرات بخار خارجة من فم عبد المطلب، وأيديهما تشير مرة الى اللفافة ومرات الى الترعة والناس والعزبة والسموات العلا إلى أن انضم إليهما الأسطى محمد. والاسطى محمد رجل الحادثات بلا منازع، ما من واقعة مهمة تحدث في التفتيش إلا ويكون هو أول من يحضرها، ولا يدري أحد كيف تصل إليه أخبارها ولكنك حتماً سوف تجده. هو عجوز تعدى السبعين ذو لحية نابتة بيضاء

الحرام

وشعر اشيب وعين يسرى لا يرتفع عنها جفنه المغلق على الدوام. كان أسطى ماكينات في التفتيش، وحين كبر على العمل فصلوه، ومع هذا فأحياناً يعهدون إليه بمهام مثل إيقاد الوابور الذي يدير ماكينة الدراس أو السهر بجوار طلمبة مياه. ولكنه على أية حال لا يزال يلقب بالأسطى، ولا يزال رجل الحادثات، ورأيه فيها لا يزال هو الرأي السديد، وهذه المرة ما أن عرف ما حدث، ورنا إلى الجنين بعينه اليمنى حتى قال:

ـ ده مش ميت يا عبده.. ده مخنوق.

واستنكر عبد المطلب هذا، ولكن الاسطى محمد ما لبث أن أقنعه وهو يشير إلى زرقة الجسد واحمرار ما حول الأنف والفم، طالباً منه أن يخلص نفسه من المسئولية ويبلغ مأمور الزراعة إذ هو الوحيد الذي يمكنه التصرف في أمثال هذه الامور.

ويبدو أن عبد المطلب اقتنع، فما لبث أن مصمص بشفتيه وقال:

ـ أيوه: أحسن طريقة نبلغ المأمور.

قال هذا دون أن تصدر سحاب بخار عن كلماته، فالشمس كانت قد بدأت تبيض، والأجساد قد بدأت تسخن والندى أخذ يزول.

٢

ولا أحـد يدري كيف تسرب الخبـر إلى العزبـة، فالثلاثـة الواقفـون أصبحوا ستة، وما أسرع ما تجمهر حولهم الشغيلة السارحون إلى الغيطان وفئوسهم على أكتافهم وغداؤهم في مناديلهم، وما لبث أن انضـم اليهـم عمال ماكينة الدراس والمزارعون وبعض الأطفال الذين أيقظهـم آباؤهـم مجبرين ليزيلوا وخم النوم ويغسلوا وجوههم في الترعة.

حتى النساء كن يتركن ما في أيديهن من عجين أو خبيز أو طين ويسرعن ملهوفات إلى الخليج، ويلوثن الرجال وهن يدفعنهم ويفرقنهـم لـيرين ما هناك.

كل قادم كان يريد رؤية ابن الحرام هذا الذي مات لتوه، فإذا ما زاحم وزاحم حتى وصل إليه وحدق فيه ومـلأ عينيه من البشرة البيضـاء التـي ازرقت وكادت تسود، والرأس الصغير وما حوله من مشيمة ودماء. . ما إن يرى كل ذلك حتى يدير ظهره ويقفل راجعاً، وقد امتلأت نفسـه وملامحـه بمزيج قابض من الرهبة والغثيان.

وجاء مأمور الزراعة في النهاية، وسبقته الأيدي تدفع الواقفين وتفسح له الطريق. وكان فكري أفندي المأمور لا يقل رغبة في رؤية هذا الحادث الجديد عليه وعلى العزبة عن أي من الواقفين، ولكن كان حريصاً في الوقت

ذاته على ألا يفقده ذلك الشغف هيبته. فما إن قارب المتزاحمين حتى مد يده وأحكم اعوجاج طربوشه فوق رأسه، ثم اكتست ملامحه السمراء طابع الجد وعقص رقبته في صلف كما يجب أن تكون عليه حين يراه الفلاحون، ثم وقعت عيناه على المشهد، ولم يفلح هذه المرة في إخفاء ما اعتراه هو الآخر من رهبة وغثيان. بل بدت واضحة تمام الوضوح على وجهه وتقلبات شفتيه ثم استدارته على الفور إلى حيث يستطيع مغادرة المكان والابتعاد عنه.

وتبع المأمور في ذهابه الخولي وخفير الري وطنطاوي والاسطى محمد ونفر قليل من «التملية» والشغيلة. ساروا صامتين واجمين، والمأمور يبصق تارة في منديله الأبيض المكور وتارة على قش الطريق المبتل.

٣

وكان من الممكن أن تنتهي مهمة فكري أفندي المأمور عند هذا الحد فهو «صحيح» مسئول عن كل كبيرة وصغيرة تحدث في التفتيش، إلا أن العثور على لقيط ميت أو مقتول ومحاولة العثور على قاتله مسألة لا تدخل في اختصاصه بالمرة.

وذلك فعلاً ما كان يدور في رأسه، وهو يمشي الهوينى في الطريق إلى مباني إدارة التفتيش، وخلفه ذلك الجمع الصغير غير أن حب استطلاع ما بدأ يراوده.. ترى ابن من هذا؟

التفتيش مكون من عزب كل عزبة لا تتعدى بيوتها الثلاثين بيتاً. وهذا اللقيطوجد على خليج العزبة الكبيرة المقامة بجوار سراية اصحاب الأرض والادارة، حيث الاصطبلات والجرن والمخازن وجراجات مكن الحرث. لابد إذن أن اللَّقيط ابن لواحدة من أبناء هذه العزبة الكبيرة أو بناتها والعزبة يكاد يعرف نساءها وبناتها بالواحدة، ترى أيهن هي التي فعلت هذه الفعلة؟ وترى كيف فعلتها؟. فكري أفندي طالما سمع في القصص والحواديت عن أولاد الحرام، وأحياناً كانت تبلغه فضائح مثل هذه كأخبار ليس إلا عن أناس لا يعرفهم ولا يدري أشكالهم ولا ماذا يكونون. وفي أعمق أغواره ـ وحتى لو كان قد قرأ الخبر في جريدة المقطم نفسها التي يؤمن

بكل كلمة تقولها ـ فإنه كان يجد نفسه لا يكاد يصدق الخبر. . لا يكاد يصدق أن أحداثاً كبيرة شنعاء حراماً مثل هتك العرض أو الحمل سفاحاً ممكن أن تحدث فعلا. ولكنه رأى اليوم بعينه جسم جريمة كاملاً ميتاً يكاد يمد أصبعه ويضعه في عين كل من لا يصدق. كانت أحاسيس غريبة تلك التي تملكته وهو واقف يحدق في اللقيط وكأنه يرى الشيء الحرام الذي كان يأبى أن يصدق وجوده أو استحالة إقدام الناس على فعله، يراه أمامه مجسداً راقداً على حافة الخليج. أحاسيس كثيرة عصفت به. . الحرام إذن موجود لدى الناس، أحياناً لا يستطيعون إخفاءه، ولكنه أحياناً يهزمهم وينتصر على رغبتهم في إخفائه، ويظهر متبلوراً في لقيطمسجى أو في بطن منفوخ. الحرام الذي كنت تسمع عنه يا فكري أفندي ولا تصدقه موجود، وأمامك الفرصة مواتية لترى فاعلته كما رأيته.

تلك في الواقع هي الفكرة التي كانت تلح على خاطره في أثناء رجوعه إلى مبنى الإدارة. ترى كيف تكون فاعلة ذلك الحرام؟ أو على وجه الدقة كيف تكون الزانية؟ ما من مرة ذكرت أمامه الكلمة إلا واقشعرّ بدنه، مع أنه كان له مثلما لمعظم الناس علاقات قبل أن يتزوج وحتى بعد أن تزوج. ولكن كأنما كان يستبعد أن توجد نساء في العالم يخطئن مثلما تخطيء النساء معه، وكأنما من أخطأن معه لسن زانيات. . الزانيات هن من يخطئن مع غيره.

ترى كيف تكون تلك المرأة، وهل تكون جميلة، وهل تشبه الغوازي وهل هي مثل سائر النساء أو لا ريب تنفرد بألاعيب وحركات وتأودات هي التي جعلت ذئبا من الرجال يستفرد بها ويفعل معها الحرام؟

وقف فكري أفندي في منتصف المسافة بين الخليج وبين الإدارة واستدار، واستدار الجمع الذي خلفه لاستدارته، وراح يستعرض العزبة

الكبيرةأمامه :بيوتها الداكنة والدخان الذي كان قد بدأ يتصاعد من الخروق الكثيرة في سقوفها. على رأس العزبة يقع بيت مسيحة أفندي الباشكاتب وبجواره بيت احمد سلطان الكاتب. . الشاب الأشقر ذي الطربوش الغامق المعوج والبالطو الأسود النظيف، الولد الشباب الحلو الذي طالما ضبطوهو يغمز بنتاً من البنات الفائرات الكبيرات اللاتي كن احياناً يغدون للعمل في التفتيش، وغمزته دائما ما كانت تكهرب البنت منهم حتى لتجعل ثدييها تقفزان في الهواء،ولكنه لا يبحث عمن قد يصلح ليكون الأب. .هو يبحث عن الأم. فهو مستعد أن يصدق الحرام في الرجال، ولكنه لامر ما يصعب عليه ان يصدق الحرام في النساء. الرجل دوره في الحرام طياري أما المرأة فدورها أساسي. هو يبحث عن الأم. وفي بحثه هذا لم يترك احداً. حتى امرأة الباشكاتب الست أم لنده تناولها بحثه، ولكنها كانت في زيارة لزوجته في الاسبوع الماضي، ولم تكن ابداً حاملاً. ومن بيت إلى بيت تنتقل عيناه. . بيوت المزارعين الكبار الذين لدى الواحد منهم اكثر من ثلاثة ازواج من البهائم، وبيوت التملية الذين لا يملك الواحد منهم إلا فأسه. ونساء العزبة جميعاً يمررن أمام عينيه: التي يعرفها تماماً والتي لا يكاد يعرفها، التي لها ضحكة وابتسامة والتي لها قمطة حمراء أو جلابية فاقعة الألوان، البنت والعانس والعازبة والمطلقة والمشكوك في أمرها التي استجابت لهزاره مرة والتي خجلت ولم تستجب. ولم تتوقف أنظار فكري أفندي عند بيت من البيوت ولا عند واحدة بعينها من النساء. فلا أحد في العزبة يستخبي. النساء كلهن يخرجن حتى من غير أن يرتدين «الملس» الأسود فوق ثيابهن الملونة. وكلهن معروفات. . لم يلاحظ أحد على واحدة غير متزوجة حملاً أو انتفاخ بطن. لا يمكن أن تكون إحداهن هي أم ذلك اللقيط، مستحيل.

وأفاق المأمور من تأمله الطويل للعزبة ومن فيها ودار بعينيه على وجوه

الحرام

الرجال القليلين الملتفين حوله، وكان يتوقف هنيهة عند كل وجه ويحملق وعند كل توقف كان يصفر وجه، إذ يكاد صاحبه يشك في براءة نفسه ويكاد يصعقه أن تطول تحديقه المأمور فيه مرة ثم يشير إليه قائلاً:

ـ أنت.

ولكن إدارة المأمور لوجهه وعينيه كانت إمعاناً في التفكير ليس إلا وتثبتاً من وجاهة الرأي الذي استقر عليه.

وأشار فكري أفندي فجأة بالخيزرانة التي كانت معه، أشار إلى الفضاء الكائن خلف الاصطبلات وقال:

ـ لازم واحدة من دول.

وتطلعت العيون والقلوب إلى حيث يشير، وجاءه الجواب من أكثر الواقفين وكأنه فرحة البراءة:

ـ همّ، ما فيش غيرهم، ودي عايزة كلام؟ دول غرابوة ولاد كلب.

قالوا هذا وتحفَّزوا جميعاً لأي إشارة تصدر عن المأمور.

غير أن المأمور لم يشر بشيء فقد عاد إلى حذائه الكالح يحدق فيه وعادت عصاه الخيزران تعبث برباط حذائه أحياناً وبالقش أحياناً اخرى.

ثم قال:

ـ واللا يمكن البت نبوية.

فقال صالح الخولى وقد غير رأيه على الفور:

ـ وما يمكنشي ليه؟ . . دي تاجرة بيض ولعبية.

وقال الاسطى محمد:

ـ دي بقالها عازبة زمان. . حد عارف يمكن أستغفر الله العظيم.

وقال عبد المطلب الخفير:

ـ والله ما في غيرها.

غير أن المأمور لم يمهلهم، ما لبث أن استدار ومضت عيناه تتأرجحان حتى استقرتا عند الفضاء الكائن خلف الاصطبلات وقال:

ـ أبداً! هم دول ما فيش غيرهم.

وغمغم الواقفون حوله يلعنون الغرابوة ويؤيدون.

الحرام

٤

والغرابوة ليسوا من قاطني التفتيش، ولا يمكن لأحد أن يتصور أنهم من قاطني التفتيش، إذ أليسوا هم أكثر الناس فقراً في بلادهم الذين يدفعهم الفقر إلى اللجوء إلى العمل في التفاتيش البعيدة، وترك دورهم وقراهم سعياً وراء يومية لا تتعدى القروش القليلة؟ أليسوا هم ذوي الأسمال البالية والرائحة الغريبة، والخلقة الكريهة؟ لا يمكن لأحد أن يتصور أناساً كهؤلاء من قاطني التفتيش، فقاطنو التفتيش كلهم مزارعون محترمون، لكل منهم بيته وأولاده وبهائمه وجلبابه النظيف الجديد الذي يرتديه بعد انتهاء العمل ليسهر به في القهوة ويروح به في المآتم والأفراح، وليس بين قاطني التفتيش عاطل، فالعزب مبنية بحيث تستوعب المزارعين كلهم، وكأنما هي مصنع كبير خصص جزء منه لسكن عماله.. وعلى هذا فهم جميعاً يعملون، وهم جميعاً معهم نقود، والزوجة تدخل على زوجها بسرير ودولاب وأطباق صيني وأحياناً بماكينة خياطة. والعمل ليس مرهقاً إلى الدرجة التي لا يتصورها العقل، فالري بماكينات والحرث بأتومبيلات، والدراس بماكينة كبيرة جداً تحتل وحدها نصف الجرن. وصحيح أن التفتيش يأخذ معظم ما تنتجه الأرض، ولكن يبقى للفلاح ما يستره، ويكسوه، ويطعمه، ويجعله حتماً ينظر إلى الغرابوة

هؤلاء نظره إلى نفاية بشرية جائعة، مضطرة إلى الهجرة كي تعمل وتأكل وتنال حظاً من الحياة. حتى اسمهم لم يتفق عليه أحد، رجال الإدارة يسمونهم «الترحيلة»، والفلاحون يسمونهم «الغرابوة». أما هؤلاء الذين تعودوا «المقلتة» والتريقة فيسمونهم «الجلب حل الجشج عنه ما جلو يا سيد عنجلو» ومعناها «الكلب كل الكشك عنه ما كلو يا سيد (السيد البدوي) عنقلو»، إذ هكذا ينطقون الكاف، وهكذا يحتقر فلاحو التفتيش كافهم ولهجتهم وحتى مجرد وجودهم على أرض تفتيشهم.

أما الغرابوة أنفسهم فقد كانوا لا يقيمون وزناً كبيراً لتريقة الفلاحين أو نظرتهم، وكأنما هم معترفون أنهم غرابوة وأنهم ترحيلة وأنهم أي شيء قد يخطر على بال إنسان. فما دام الواحد منهم قد حظي بمكان في الترحيلة وضمن أن يعمل أكثر من ثلاثة شهور كل يوم وبأجر، فليقل عنه القائلون ما شاءوا.

والقطن يزرع في أواخر الشتاء، وما أن تولى طوبة حتى تكون بذوره قد تشققت واخترقت الأرض السمراء ونبت لكل بذرة جذر ونما لها ساق. وحين تكبر العيدان فتغطي المساحات الواسعة السوداء بطبقة خضراء جميلة ريانة، ويحل أوان الدودة ولطعها، حينئذ يدور الجدل حول الترحيلة.. يكتب فكري أفندي خطاباً للإدارة في مصر والإدارة ترد بخطاب، ثم يأتي الإذن، ويأتي المبلغ، ويستيقظ فكري أفندي ذات يوم مبكراً، ويأخذ أول قطار ويغير في طنطا، ثم تحمله عربة أومنيبوس «لا ينسى أن يقيدها في كشف الحساب عربة أجرة» إلى قرية من قرى المنوفية أو الغربية، غير مهم ففكري أفندي يعرف قرى كثيرة ومقاولين كثيرين.. قرى يسميها هو عش النمل، فالناس فيها كثيرون أكثر من اللازم، أكثر من العمل المطلوب والطعام الموجود، وكلهم ولله الحمد فقراء.. فقراء إلى الدرجة التي كان

الحرام

فكري أفندي نفسه يهز رأسه حسرة حين يراهم في بلادهم. وكيف يعيشون. المهم حالما يضع قدميه في بلدهم ينتشر خبر وصوله بطريقة سريعة غامضة خفية، فيتجمع منهم مئات ويكونون موكبه، يسيرون أمامه وخلفه وعلى جانبيه ويرمقونه في تدله وأمل وكأن لديه أجولة أعمار سيفرقها عليهم بعد حين. يحيونه ويتهافتون على لمسه ولفت نظره، والشاطر من يسلم عليه ويقبل، ويدله ألف على بيت المقاول مع أنه لا يكون في حاجة إلى دليل.. فمن أعوام وهو يهبط القرية، والطريق إلى بيت المقاول في قرية صغيرة كتلك لا يمكن أن يضل فيه إنسان كفكري أفندي حباه الله عقلاً ومعرفة وطربوشاً وناباً أزرق. هناك يجد المقاول واقفاً على عتبة البيت، إن لم تكن ضجة قدومه قد وصلت إليه وأوقفته على عتبة الشارع. وسلامات تدور من النوع الثقيل، ولا بأس من دمعة تفر من عين المقاول حسرة على الأيام الحلوة التي مضت، ويصر الرجل على أن ينادي فكري أفندي بحضرة المفتش، ويخجل فكري أفندي ويتواضع ويقول: يا سي الحج. وتطير رقاب الكثير من الحمام والبط. ويأكل المأمور ويحلي ويضطجع، ويحتسي القهوة وينفث في تلذذ دخان السيجارة التي عزم عليه بها المقاول وأقسم بالطلاق أن يدخنها، بينما الضجَّة خارج بيته تزداد، والنمل الكثير يخرج من حجوره إذ قد جاء الأمل في العمل. يخرجون من حجورهم ويتعانقون أمام البيت ويتصايحون:

ـ جاء الفرج يا أولاد والأشياح تبقى معدن.

ويتناقش الضيف والمضيف قليلاً أو كثيراً حول «الفيَّة» أو الجعل. المأمور يقول النفر بسبعة قروش، وقرش «فيه» يبقى بواقع ثمانية. ويصر المقاول على عشرة، ويقول المأمور:

ـ تبقى مكشوفة قدام أصحاب الأطيان.

وينتهي الأمر ربما إلى تسعة، ويخرج المأمور حافظته، ويشعر بالدفء

والفجيعة والأوراق الكبيرة الخضراء ذات المادنة تلمس يده بالكاد ليعدها ثم تختفي في كيس المقاول المصنوع من الكتان والمرسوم عليه هلال وثلاثة نجوم مكتوب تحتها ولا أحد يدري لم؟: الحكومة المصرية. وما يكاد هذا يحدث حتى يتفرق المنادون المتطوعون في البلدة:

ـ النفر بستة يا أهالي، والقبض على خمستاشر يوم، والغايب يعلم الحاضر.

مع أنه لا تكون هناك حاجة إلى منادين أو نداء، فجميع «الأهالي» موجودون متزاحمون عند بيت المقاول في الحارة وعلى الأسطح المجاورة وأمام الأبواب.

ويصبح الصباح وتأتي خمس من عربات النقل الكبيرة ذات التصاريح الخاصة بنقل الأنفار «مثلها مثل التصاريح بنقل أجولة الأرز أو المواشي» تحمل كل منها أكثر من مائة نفر من الرجال والبنات والنساء والأطفال وتحمل ايضاً صررهم وقففهم وقد ملئوها لآخرها بزوادة العيش وزلع المش والجبنة، تحملهم في كتلة ضخمة متزاحمة لا تكاد تميز فيها الرجل من المرأة ولا الولد من البلاصى. ومع انطلاق العربات تنطلق الحناجر المتلاصقة المحشورة تغني وتضحك ويصل زعيقها الفرحان إلى عنان السماء.. بينما العيون.. عيون المرضى والعجزة وكل من لا يستطيع حمل الفأس أو حتى الظهر، عيون المتخلفين الزائدين عن المطلوب، ترقب الموكب المنتصر الموكب الدالف إلى العمل والأجر ولقمة العيش، وملأ الصدر أنفاس، ترقبه في عجز باك وحسرة، وربما كلمة ذليلة يتصدق بها الجار على جاره: الصبر.

وتعلن العربات قدومها إلى التفتيش بسحابات غبار ضخمة تثيرها وتملأ بها الأفق، ومع هذا فقليلاً ما يسترعي ذلك القدوم انتباه من في التفتيش إلا

أن يقف أحدهم ويراقب العربات القادمة ويقول لمن يتصادف وجوده وهو يضحك ساخراً:

ـ الجلب جل الجشـج عنه ما جلو.

وهناك خلف الاصطبل يرص الغرابوة مقاطفهم صفوفاً وراء صفوف. وينطلقون إلى الجرن والأرض المجاورة يجمعون قش الأرز والأحجار ويصنعون منها مواقد وأفرشة.

وقبل شروق شمس اليوم التالي تطفح في الجو رائحة المش وقد فتحت أوانيه، وبين الحين والحين تسمع خشخشة بصلة تتكسر وهمهمات وصرخات بنت لم تجد زوادتها، وأصوات خيزرانة الريس. وهي تدق على قفة احدهم دقاً ملحاً متواصلاً يستعجل به إنهاء الطعام والمسير. . ولا يلبث الدق أن ينتقل من القفف إلى الأقفية والأجساد، ولكنه أيضاً لا يتعدى الدق، ثم يصرخ الريس، وحينئذ تقوم الترحيلة في كتلة ضخمة غامقة اللون، لا تلبث أن تتبعها مفردات متناثرة، ويكون موكبهم أول من يضع أقدامه فوق المشاية التي ختمها الندى، وتشرق الشمس وكل منهم قد تسلم خطاً، ولابد ظهر كل منهم محني وعيناه على اللطعة.

وقبل كل غروب يزدحم دكان جنيدي «أبو» خلف وهو الدكان الوحيد في العزبة الكبيرة، يزدحم بالأطباق الفخار والأيدي الجافة الممدودة والأصوات التي جرحتها عيدان القطن، وهي تطلب في إلحاح وبلهجتها الغرباوية المعووجة. . بتلاته ميلم زيت. . بميلم ملح. . بربع قرش عسل. . بتعريفة دفتر بافره. . ويسب جنيدي الغرابوة واليوم الذي جاءوا فيه ولكنه يبيع، ويلعن آباءهم ويبيع، وتتكوم في درجه المزيت ملاليمهم الصدئة ونكلهم، كلها ملاليم ونكل، وأكبر قطعة فئة عشرة مليمات. وفي الغروب تماماً وقبل أن تظلم الدنيا، تختلط خلف الاصطبل رائحة الزيت

المقدوح برائحة السمك الصغير المشوي برائحة الجبنة القديمة والعدس والبصل والصابون الفنيك، تختلط الروائح في مزيج نافذ غريب مكونة رائحة خاصة، من شدة دلالتها ونفاذها يسميها الفلاحون رائحة الترحيلة. تتصاعد الروائح وتتفتح البلاليص، ويوضع كل ما استطاعت اليد انتزاعه من الغيط، فجل أو سريس أو جلاوين أو خنشير، وتحشى البطون بكل هذا كما تحشى الأجولة بالقش، بينما الصمت يسود المكان. . صمت لا يسمع خلاله إلا أصوات التشدق بلقم العيش، وأصوات بعيدة لملاعق قليلة تصطدم بالأواني النحاسية وتقتلع منها ما التصق بقاعها من حبات أرز.

وتحمل الريح الضجة والرائحة الى العزبة الكبيرة وقاطنيها، فتنطلق النكات وتتصاعد القهقهات ويزداد الناس إيماناً بأنهم حقاً وصدقاً نفاية بشرية منحطة. . أولئك الناس الذين يدعونهم الترحيلة.

الحرام

٥

طمس فكري أفندي الدائرة التي كان قد رسمها بعصاه على تراب الأرض، ووضع في وسطها نقطة وأخرج منها خطوطاً إلى محيط الدائرة، بل دار بقدميه عليها حتى لم يبق منها سوى النقطة وقد خرجت منها خطوط مبتورة.. لم تكن لديه خطة واضحة، فحتى مع افتراض أنه قد حدد أن الفاعلة من الغرابوة، فماذا يمكنه أن يفعل ليعثر عليها؟ مضى يعتصر عقله ويده تدق بالخيزرانة على رجل سرواله الأصفر.وعيناه تائهتان في ملل المفكر. إذا كانت ثمة امرأة من الغرابوة قد فعلت هذا فلابد أنها راقدة الآن عند مكان الترحيلة. لابد هذا فمن غير المعقول أن تضع الواحدة مولوداً كهذا وتقتله أو يموت منها وتذهب في الصباح التالي لتعمل وتمسك خطاً. والمسألة في يده وليس عليه إلا أن يتأكد.

تجهم وجه فكري أفندي علامة على أنه وصل إلى قرار، وتحرك ومعه الجمع الصغير إلى مكان الترحيلة. كان المكان خاوياً ليس فيه سوى القفف والمواقد وبقايا الخشب المحترق وروائح الغروب، فالأنفار كانوا قد ذهبوا قبل الشروق كالعادة إلى الغيط. أدرك فكري أفندي ومن معه هذا بنظرة واحدة عريضة ألقوها على المكان، ولكنه آثر أن يبحث بنفسه لعل وعسى. وراح يتجول مطأطيء الرأس وقد وضع يديه وإحداهما ممسكة بالخيزرانة

وراء ظهره. راح يتجول ويشمشم ويخبط القفف وأجولة الزواد بين آن وآخر من قبيل الاحتياط. ظل سائراً هكذا ووراءه الجمع حتى وصلوا في النهاية إلى «أم الترحيلة» كما كان يدعوها أطفال العزبة. والمرأة عجوز من كثرة كبرها لا تستطيع أن تحدد لها سناً، ومع هذا فهي تحرس صرر الترحيلة وحاجياتهم وترعى الأطفال حتى تعود أمهاتهم في آخر النهار. توقف المأمور أمامها وغالب ابتسامته وهو يرى العجوز وحولها عشرات الأطفال بعضهم في حضنها وبعضهم قد سبح وحبا بين الصرر، بعضهم يصيح والبعض الآخر هادىء ساكن عاقل يعبث بثوب المرأة وقدميها. . غالب الابتسامة فالمرأة كانت حائرة ملتاعة لا تعرف كيف تتصرف، ولا ماذا تقول للأطفال أو كيف تحنو عليهم، وبينها وبين خصال الأمومة ورعاية الأطفال أزمان وأحقاب.

وعبثاً حاول أن يظفر منها بجواب على كل ما وجهه إليها من اسئلة،فهي في غيبوبة السن والعجز لا تعي إلا حين يقترب بشر ما من المكان فتصرخ فيه أن يبتعد، وإلا حين تحضر الأمهات قبل الغروب وتقوم الجلبة التي تنتهي بانسلال كل أم ومعها طفلها، أو التي لا تنتهي حين تروح تتعثر في البحث مع أم عن ابنها وقد تاه بين الصرر.

ولم يكن فكري أفندي حتى في حاجة لسؤال المرأة، فلم يكن هناك أحد. ومعنى هذا شيء من اثنين: إما أن تكون الفاعلة المجرمة قد تحاملت على نفسها وذهبت مع الأنفار لتعمل حتى لا تكتشف، وإما أنها ليست من الغرابوة وقد تكون من أهل العزبة.

عند هذا الاحتمال الأخير توقف المأمور وراح مرة اخرى يحدق في الفضاء ويجوبه بعين نصف مغمضة وعين مفتوحة، وفكر قلق مخلخل. هو على يقين قاطع أن الفاعلة منهم كيقينه بيوم القيامة والنفس اللوامة، ولكن

هناك احتمالاً واهياً بسيطاً أن تكون الفاعلة من العزبة، خاصة ومكان الغرابوة نظيف. . احتمال تافه قد لا يتعدى واحداً في الألف، ولكنه احتمال والسلام عليه أن يناقشه. لقد استعرض العزبة من هنيهة وكانت النتيجة براءة نسائها جميعاً، ولكن من الجائز أنه سها أو نسى، أو فاتته واحدة تكون هي الجانية من الجائز جداً.

لم يفطن المأمور وهو يفكر إلى اقتراب صالح خولى الزراعة منه. . لم يفطن إلا حين أصبحت طاقية صالح الصوف التي يتعمم عليها تحت أنفه تماماً، والا حين رفع صالح ذيل بصره في نظرة ماكرة مقترحة وقال في همس مبتسم:

ـ ما تكونش نبوية هي اللي عملتها ليه؟

خرجت كلماته هامسة ،ولكن همساته سمعها كل المرافقين. وعلت الأصوات تحتج وتؤكد انهم الغرابوة وتكاد تحلف على المصحف والربعة وتندد بالاتهام والباعث عليه، وتشرح في كلمة من هنا واخرى من هناك قصة نبوية التي كانت زوجة لعربجي من عربجية التفتيش ومات، وترك لها العربة والحصان وبنتاً وولداً. فباعت العربة والحصان وتاجرت بثمنهما في «القوطة» وأفلست، وعملت مقاولة أنفار وخبازة، وخدامة في بيت المأمور السابق، واشتغلت. اخيراً تاجرة بيض، وربت البنت والولد، بل حتى أرسلت الولد ليتعلم في الكتاب، ولم تفرط في اي منهما. ولكن مسألة تفريطها في نفسها كانت موضع أخذ ورد ومساجلات وتكهنات. ارتفعت الأصوات تندد وتحتج وتراقب أثر الكلام على وجه المأمور، ويبدو أن الواقفين حين لم تبد على ملامحه دلائل الاقتناع بدءوا يتراجعون، وبدأ واحد يقول:

ـ لا يعلم الغيب سوى الله يا جماعة.

ورد عليه آخر:

ـ الشيطان شاطر.

غير ان نبوية التي تتميز عن نساء العزبة بأرداف وارفة وخلخال فضة سميك يكاد يطبق على نهاية ساقيها المكتنزتين، نبوية هذه لم تلبث أن أخرست كل الألسن حين شاهدها المأمور ومن حوله وقد علقت «السبت» في يدها وراحت تطرق الأبواب وهي في أتم صحة وتسأل عن البيض. استدارت الأنظار حينئذ شامتة الى صالح تكاد من حدتها أن تخرق طاقيته الصوف وعمامته البيضاء وجلبابه الأسود الثقيل الذي لا يغيره أبداً. وتشاغل صالح عن الأنظار المصوبة إليه بأن مد يده في جيبه وأخرج صندوق سجائره وانتحى مكاناً بعيداً ـ من قبيل التأدب ـ ومضى يلف سيجارة. .

أما المأمور فقد غامت ملامحه لدى رؤية نبوية وأسرع بمغادرة المكان وقد بدأ صدره يضيق، وزعق بصوت مرتفع:

ـ الركوبة يا عبد المطلب.

لم يعد ثمة أمل إلا أن يجد الفاعلة بين أنفار الترحيلة الذين يعملون في الغيط.

وجاءت الركوبة بعد قليل. . حمار ناعم ممتليء لا يظهر منه عرقوب، ولا تبدو في بياضه الناصع سوادة واحدة، يرن لجامه إذا ما خطا، وخطوه خطو حصاوي أصيل.

استند المأمور إلى كتف عبد المطلب، وبدفعة قوية من جسده كاد ينخ لها الخفير ارتقى السرج المكسو الأنيق.

وما كاد الحمار يحس باستواء راكبه فوقه حتى نهق نهيقاً طويلا فيه كبرياء، ثم اندفع إلى الأمام وانطلق وراءه كل الخولة وبعض التملية وعبد المطلب الخفير والاسطى محمد العجوز.

٦

كانت الشمس إذ ذاك قد غادرت قمم أشجار الكافور العالية المزروعة كالسور المهيب حول أرض التفتيش، وبدأت تحث الخطا إلى قلب السماء. وكان الطريق الذي سلكه المأمور قفراً ليس على جانبيه شجرة، ولا حتى تنبت فوقه حشيشة، بل مجرد خط ثخين من التراب على يمينه مئات الأفدنة وعلى يساره مئات. وكان الغيط أيضاً ساكناً ذلك السكون الأبدي الذي يذكرك دائماً بوجوده فيئز ذلك الأزيز المتواصل العنيد. ولم يكن يخدش ذلك السكون سوى دقات أرجل الركوبة الأربع. وهي تدق الأرض واحدة وراء الاخرى، فتكاد تغوص في التراب تثير سحاب الغبار، والغبار ينهال على وجوه اللاهثين خلف المأمور وركوبته، غبار كالذباب لاسع وعنيد وشمس لا ترحم بدأت تشوي رءوسهم وظهورهم، حتى ذيول أثوابهم لم تفلح في منع نارها. أما فكري أفندي فقد وضع منديله أسفل الطربوش محاولاً أن يجعل منه قبعة، وكال للركوبة ضربتين بكعب حذائه وأعقبهما بنخرة من طرف خيزرانته المدببة التي وضع في آخرها مسمار صغير معد لهذا الغرض بالذات، نخزة جاءت بين الأكتاف، ولم تكن الركوبة في حاجة إلى ضرب أو نخز فقد كانت منطلقة بكل ما تملك من قوة.

ظل الركب الصغير ينهب أرض المشاية، وهو ومأموره وتابعوه وحتى

سحب الغبار التي يثيرها لا يتعدى مجرد نقطة صغيرة متحركة في ذلك المسطح الشمسي الواسع الذي لا تدرك العين مداه. ظل الركب ماضياً في صمت. . الركوبة تلهث والرجال يلهثون والعرق يسيل، حتى عرق فكري أفندي الوحيد الجالس كان هو الآخر يسيل. ظل الركب ماضياً هكذا مدة أدرك بعدها الأسطى محمد العجوز ـ وكأنما فجأة ـ أن لا ناقة له ولا جمل في الأمر، فكف عن الجري ونفض يده من حكاية اللقيط وجلس على حافة الطريق يكمل لهثه ويستريح. جلس على الحشيش القصير النابت على شاطىء الخليج، وكأنه شجيرة عجوز نبتت بينه فجأة، بل ما لبث أن فعل مثل شجيرات الحشيش الجالس عليه، فكما مدت هي جذورها إلى الماء الجاري في الخليج، مدّ هو الآخر قدميه وساقيه يبللها بالماء، وكأنما يسقي بهذا روحه التي كاد يقضي عليها لظى الشمس.

أما بقية القافلة فقد مضت في طريقها وكأنما لم تحس بتخلف العجوز وكل منهم مشغول بعرقه وشقاه وحاله.

وما من مرة امتطى فيها فكري أفندي الركوبة وسرح الغيط ـ وهو كل يوم يمتطي الركوبة ويسرح الغيط ـ إلا وأحس بمتعة، فالحمار لا يمشي ولكنه يرقص، وكل حركة منه فيها رشاقة الأصيل وكبرياؤه، ولكنه هذه المرة كان في شغل شاغل عن متعة الركوب، وحتى عن العرق والحر والرجال الذين يلهثون خلفه بتلك المشكلة التي ولدت له ذلك الصباح. كان عليه لأول مرة أن يفكر في شيء بعيد كل البعد عن مهنته كمأمور زراعة تلك التي كان لا يفكر في غيرها، كان عليه أن يفكر في شيء بعيد كل البعد عن التقاوي والسماد والأرض العطشى والأرض التي حان وقت تسميدها ووجب. أما هذا الشيء الذي كان عليه أن يفكر فيه فهو الترحيلة، لا كما اعتاد أن يفكر فيهم فالواقع أنه ما تعود أن يفكر فيهم إلا كأنفار. . أنفار يلتقطون الدودة

ويجمعون القطن ويطهرون المصارف. الشايب فيهم نفر والصغير نفر كلهم أرجل شققها الجوع والحفاء وخشنتها الأرض الصلبة، وأيد معروقة حرقتها الشمس، ووجوه متجهمة لا تعرف حزنها من فرحها ولا رجلها من امرأتها، حتى الملابس لا فرق بين ملابس الكبير أو الصغير، ولا بين جلباب الرجل وقد حال لونه وتناثرت فيه الخروق وثوب المرأة الأسود الباهت الذي تنسل الخيوط من كل مكان فيه؛ بل كثيراً ما يحدث أن يستعير الرجل منهم جلباب امرأته، وتستعير المرأة جلباب زوجها دون أن يلاحظ أحد أي فارق أو مميز.

تعود فكري أفندي أن يراهم هكذا، بل الواقع أنه بينه وبين نفسه لم يكن ليتصور أن بين هذا القطيع البشري كله امرأة واحدة! كلهم ترحيلة وغرابوة وأنفار. بل أكثر من هذا لقد افترض أن الفاعلة منهم، قال هذا للناس وذهب بنفسه وبحث خلف الاصطبل، ولكنه كان يفعل هذا وكأنه يفعله من وراء عقله. كان متأكداً أن الفاعلة منهم ومع هذا لم يكن ليصدق أن من الممكن أن توجد بين هذه المجموعة امرأة أو بنت تحمل وتلد حلالاً كان أو لقيطاً، لم يكن ليصدق وكأن التي ولدت اللقيطلم تكن امرأة بل كانت رجلاً.

هو مضطر إذن والشمس تلهب رأسه رغم المنديل والطربوش أن يصدق هذا، وأن يبدأ ينظر إلى الترحيلة من زاوية أخرى. فهم «صحيح» أنفار وغرابوة ولكن بينهم أيضاً نساء يحملن ويلدن. . بل أكثر من هذا يحملن ويلدن في الحرام.

الحقيقة لم يسترح عقل فكري أفندي أبداً لهذا التصور، فقد كان من العسير عليه أن يغير نظرته إلى الترحيلة في لحظة، وكان من

الصعب أن يستحيل النفر منهم في خاطره إلى امرأة أو بنت تنام مع الرجل وتحمل وتنجب أطفالاً. ولكن فكري أفندي كان من الصنف الذي لم يتعود قلقلة الحقائق في رأسه كثيراً قبل أن يصدقها فليكن هذا، فلتكن الفاعلة منهم، فعليه أن يعثر عليها ويراها رأي العين ويرى كيف استطاعت أن تفعل هذا. بل لم ينتظر فكري أفندي أن يصل إلى الأنفار. . بدأ خياله يسرح ويسبقه، بل ويسبق حادثة اليوم، ويتصور ـ وثمة لذة خفية تصاحب تصوره ـ القصة التي انتهت بمشهد ذلك الصباح : راح يتحسس بخياله على القصة في غير قليل من الخجل، وهو مستعد أن يكف عن تصوره في أية لحظة. راح يسبح مع قصة الحب التي لا ريب أنها نشأت بين البنت وأحد فتيان الترحيلة المفتولي العضلات المكشوفي الصدر الملوحي الوجوه وكيف تسرب إليها ذات ليلة وكان ما كان.

وتعثر الحمار وكاد يقع، ولكنه تمالك نفسه في قوة. وفي نفس الوقت تعثر خيال فكري أفندي السارح في شيء خطر له حالاً، فقد أحس باستنكار غاضب يجتاحه، معنى هذا أن الخطيئة ارتكبت فوق أرض التفتيش، وصحيح أنه ليس مالك التفتيش وليس أبداً حامي حمى الفضيلة فيه، ولكن مجرد شعوره بهذا جعله يغضب وينهال على الحمار بالعصا الخيزران ضرباً جزاء له على تعثره. ولكنه وهو في قمة انفعاله لم يفته أن يلاحظ أن اللقيط الذي عثروا عليه اليوم كامل النمو، والترحيلة لها في التفتيش ما لا يزيد على الشهرين. هنا فقط كف فكري أفندي عن ضرب الحمار ونخزه وأحس براحة داخلية تهب

عليه من صدره. الجريمة إذن لم تحدث على أرض التفتيش، فالبنت قد جاءت وهي ليست بخير، ثم لما تكامل الشر في بطنها وضعته هكذا بلا ضوضاء في سكون الليل ودون أن يشعر بها أحد، ثم خنقته حتى دون أن يكون هناك داع لخنقه.

يا لها من عاهرة!

ثم لم تكتف بهذا وإنما تحاملت على نفسها وسرحت مع الأنفار على خيوط الفجر حتى لا يتسرب إنسان إلى سرها.

يا لها من جبارة!

ولكز فكري أفندي الحمار لكزة قوية وهو يمر بيده ليمسح العرق الذي تكاثر حول فمه وتساقط من طرف أنفه، ويقول في زئير خافت:

ـ أعوذ بالله!

٧

ارتفع نهيق الركوبة ولم يكن نهيقها كأي نهيق. كان كل من بالتفتيش يعرفه وتستطيع أذنه أن تميزه من بين أصوات آلاف الحمير فكلهم يخاف ذلك النهيق ويعمل له ألف حساب.

وهذه المرة ايضاً تضايق فكري أفندي واغتاظ، فذلك النهيق كان عيب الركوبة الوحيد في نظره وكأن بينه وبين المقاولين والأنفار والخولة اتفاقاً. ما يكاد يخرجْ للمرور ليفاجئهم وهم عنه في غفلة حتى تفاجئه الركوبة وتنهق ذلك النهيق العالي الذي يصل إلى آخر الدنيا ويوقظ النومى في مضاجعهم، ويجعل كل شيء في الغيط على أتم ما يرام وعلى استعداد مجهز لاستقباله.

حين ارتفع النهيق كان الركب قد بدأ يدخل في الأرض المزروعة قطناً وقد غادر لتوه غيط القمح. كان الغيط لا آخر له بحيث يبهرك أن تعرف أن شخصاً واحداً فقط هو الذي يملكه، وبحيث تود في الحال لو كنت أنت ذلك الشخص. وشكل الغيط المزروع يذكرك حتماً بالجنة، فوأنت سائر على المشاية ترى القناة التي بجوارها صحيحاً، وترى عيدان القطن بكامل هيئتها ولوزها وأوراقها، ولكن شجيرات القطن لا تلبث كلما بعدت أن تتداخل وتتداخل وإذا بالتربيعة تبدو أمامك مجرد مستطيل أخضر. والأرض مقسمة إلى ترابيع، والترابيع

الحرام

القرية محدودة المعالم وبين كل تربيعة واخرى مصرف صغير، ولكن الترابيع كلما بعدت تختفي المصارف والفواصل حتى لا يعود الإنسان يرى سوى مسطح واسع غير محدود من الظلام الأخضر الذي يضيئه عدد لا نهاية له من فوانيس أزهار القطن الصفراء.

ومن بعيد لاح خط الأنفار لا تكاد تميزه عن الخضرة المتكاثفة التي يغمق لونها كلما بعدت حتى يستحيل إلى ظلام تام.. لا تكاد تميزه إلا بأعمدة الدخان المتصاعدة من الحفر التي يحرقون فيها أوراق القطن المصابة باللطع.

وأرهق الحمار نفسه كثيراً وهو يضم رئتيه لينهق بآخر ما يستطيع ومع أن فكري أفندي لا يقرأ كثيراً لأن القراءة تتعب عينيه، وعيناه لا تستطيعان تمييز الحروف جيداً مهما قربهما من الأوراق، إلا أنه في الغيط ثاقب النظر كالصقر. وهكذا ورغم نهيق حماره استطاع أن يلحظ أن الخولة يقومون فجأة من جلستهم في الظل وراء الأنفار وترتفع خيزراناتهم في الهواء وتهوي على ظهور الأنفار أو عيدان القطن ضرباً وطرقعة، وأصواتهم تأتي صارخة من بعيد:

ـ وطي يا وله.. وطي يا بنت.

تلك تمثيلية يعرفها فكري أفندي تماماً ومل من تكرارها، وما كاد موكبه يهل على «العمل» حتى اندفع أكثر من سائق من سائقي الأنفار يجري «وتلك في رأي فكري أفندي تمثيلية قديمة اخرى» يجري ليفوز بشرف إمساك الركوبة لحضرة المأمور وهو يهبط عنها.

قال فكري أفندي وهو يسحب منديله من تحت الطربوش ويجفف به عرقه وظهره:

ـ واد يا عرفه.

وعرفة ريس سواقي الأنفار، أي ريس الترحيلة، وهو الذي فاز بإمساك لجام الحمار هذه المرة، وهو الذي يفوز كل مرة، قال:

ـ العواف يا حضرة المأمور.

واحتار المأمور أيرد التحية فيبدو وكأن «البلفة» قد دخلت عليه أم يتجاهلها فيبدو قليل الذوق. وأيضاً لم يفعل هذه أو تلك فهو قد جاء لمهمة عليه إنجازها. . ولكي تبدو المسألة طبيعية كان عليه أن يسأل عرفة كما يسأله كل مرة.

ـ النضافة ازيُّها؟

ـ ع السنجة عشرة يا سعادة البيه.

وتجاهل فكري أفندي سروره باللقب وزغر له قائلا:

ـ وإن لقيت لطعة؟

فأمال عرفة رأسه ووضع كفه على عنقه وقال:

ـ برقبتي

وقال فكري أفندي بصوت لا يعرف سامعه إن كان جاداً أم هازلاً:

ـ يلعن أبوك على أبو رقبتك.

ولأمر ما كان يخيل لفكري أفندي أن هؤلاء الناس يفرحون حقيقة حين يلعن آباءهم ويشتمهم، بل لابد أنهم يحسون بنوع من الهيبة والفخر وكأنه يمنحهم رتباً وألقاباً، إذ هي في عرفهم لابد آيات ود

وصداقة وتنازل ـ تنازل منه ـ هو مـالك هـذا الملك كله والآمر النـاهي فيه. تلك «الأبعادية» أو «التفتيش» أو كما تسمى أحياناً «الدايرة»، أكثر من ألفي فدان من أجـود الأطيان بمـا عليهـا من ناس وبيوت وماكينات وبهائم ومحاصيل تحت تصرفه.. هو السيد الأعلى لهـذا كلـه سيد العشرة الخولة والبـاشكاتب والخمسـة الكتبة والأسـطوات والخفراء والأجـراء والفلاحين والمزارعين. هـو الذي يمكنـه أن يعز من يشـاء ويرفت من يشاء ويحكم بالغرامة على من يشاء. في استطاعته أن ينقل الفلاح من عزبة لعزبة، ويعطيه أو لا يعطيه أرضاً يزرعها، بل يستطيع لـو شاء أن يـطرده نهائيـاً من التفتيش دون أن يـراجعـه أحـد أو يجـرؤ أحـد على معارضته، في استطاعته حتى أن يضرب من يشاء بالقلم أو باللكمية أو بالشلوت، بل أحياناً يحبس ويرسل المتهم مخفراً إلى المركز، ولا راد لقضـائه. ومـا يـرده الخـوف.. وهـو لا يخـاف إلا من اثنين: رئيسـه المفتش، وصاحب الأبعادية. والمفتش يأتي للمرور كل شهر والمالك يـأتي كل شهـرين أو ثـلاثـة، وبـاستثنـاء تلك السـاعـات القليلة التي يقضيانها في التفتيش فهو دائماً مالك هذا الملك كله. ألا تبدو شتيمته حينئذ لنفر من الأنفار أو سائق من السائقين منحة وتنازلاً؟

الواقع أن مجرد مرور كـل تلك الخواطـر في رأس فكري أفنـدي كاد يثنيه عن عزمه، إذ أيصح من رجل هذا شأنه الكبير أن يضيـع وقته ويشغل نفسه بمهمة غريبة سخيفة ليست من قيمتـه كتلك المهمة التي جاء بشأنها؟ ولكنه جاء فعلا، ولن يخسر شيئاً فإن أحداً من الأنفـار أو السـائقين لا يعلم بالسبب الحقيقي لمجيئـه. تردد بـرهة ولكنـه وجـد نفسه يقول:

ـ الأنفار كلهم موجودين يا عرفة؟

قال عرفة في حماس:

ـ بالنفر.

ـ انت متأكد؟

عليَّ الحرام بالتلاتة من بيتي كلهم موجودين.

ومع هذا لم يصدق فكري أفندي، فهؤلاء الناس من رأيه يتمتعون بحظ وافر من قلة الدين والواحد منهم مستعد أن يقسم بالطلاق من اجل أن يكسب تعريفة، وعلى هذا قال:

ـ طب عدُّهم.

وقال عرفه:

ـ حاضر.. أنا خدام.

ومضى يعدُّهم بصوت عال مرتفع، وفي أثناء العد لا يفوته أن يرى همته وحرصه على مصلحة العمل فينهال على أي ظهر محني أمامه بخيزرانته الرفيعة في ضربة تمثيلية.

عدَّ الريس عرفه الأنفار مرتين، وفي كل مرة يؤكد للناظر بلهجة بدأ الشك والخوف يتسربان إليها أن العدد مضبوط وأن الأنفار كلهم يمسكون خطوطاً ويعملون.

واستغرب فكري أفندي واندهش. كلام الريس صحيح، ولكنه متأكد أن واحدة من هؤلاء الأنفار هي التي ولدت ذلك اللقيط فكيف يتفق هذا مع وجودهم جميعاً في ذلك الطابور المنحني الطويل. لابد

الحرام

إذن أن الفاجرة غصبت على نفسها واشتغلت، ولكنها لن تفلت منه فمهما بالغت في حرصها فستبدو آثار الولادة حتماً عليها. كل ما عليه هو أن يمر عليهم أجمعين ويحاول أن يلتقط الدودة من بينهم . . المجرمة التي ولدت في الليل وقضت على ابنها وجاءت هنا تحني ظهرها وتعمل وتتلقى الضربات، وكأنها ليست بشراً وكأنها جنيّة من الجنيات أو شيخة من المشايخ.

دخل فكري أفندي في التربيعة أمام صف الأنفار ومضى يقاوم الشمس بعينيه ويتوقف قليلا لدى كل امرأة أو بنت يتأملها. العجوز يتركها والنصف يتوقف لديها، والبنت يطيل في ركنته عندها. ولأول مرة يدقق فكري أفندي في زي الغرابوة وملابسهم، ويعرف أن سراويل نسائهم طويلة جداً تصل إلى الكعبين وتنتهي بذيل مكشكش ودائماً ألوانها فاقعة.

تعدى فكري أفندي منتصف خط الأنفار دون أن تستوقفه واحدة وكاد الخط ينتهي وهو لا يعثر على ضالته المنشودة. وفجأة لمح شيئاً يبعث على الأمل . . ظهراً أنثوياً منحنياً هو الوحيد البادي عليه أنه ظهر أنثى، رفيع من الوسط ينتهي بردفين عريضين بارزين، ورأس هو الوحيد البادي عليه أنه رأس أنثى، تتعصب بقمطة ملونة تظهر شعراً اسود لامعاً غزيراً كشعور النساء.

وقال لنفسه: لابد أنها هي . . وطي يا بنت.

قال الجملة الأخيرة وهو ينهال على الظهر المحنى فعلا ـ ولا حاجة به إلى انحناء آخر ـ بضربة من خيزرانته، ضربة قاسية قاصمة

تـأوهت لها المنحنيـة ولـم تتمالـك نفسها فاعتدلت لتضـع يـدهـا على ظهرها المضروب وقد أفلتت منها شهقة مستغيثـة. وحدق المـأمور في وجهها المتقبض في ألم..

كان وجهها معافى سليماً لا مـرض أو ولادة فيه، وعـلامات الألـم المرتسمة على ملامحها علامات ألم حـديث سببته ضـربة العصـا ولا يمكن أن تكـون علامـات ألم بايت سببتـه ولادة. وانتقل المـأمور إلى ظهر آخر، ومن ظهـر إلى ظهر مضى يتفقـد ويحملق ويتأكـد. وانتهى خط الأنفـار وغيظ فكـري افنـدي قـد بلغ مــداه فهـو قـد خـرج من استعراضه صفر اليدين وخابت فراسته.

وفجأة وجد فكري أفندي نفسه يهدر في الريس عرفة:

ـ طلع العمل من الأرض.. وخليهم كلهـم بمـروا واحـد واحـد قدامي.

وتجمد عرفة في بله مؤقت، ولـم ينطلق إلا على أثر شخطة اخرى من المأمور.

وبدا وكأن الأنفـار قد فـرحوا كثيـراً بقرار خـروجهم، إذ هم على الأقل سيستريحون ولو لحظات قليلة من انحناءة ظهـورهم العارمـة في قسـوتها وحـدتها. الانحنـاءة التي تستمر أكثـر من عشـر سـاعـات في اليوم.. فرحة كبرى أن يستريح منها الإنسان دقيقة.

اعتدل الأنفار ومدوا أيديهم جميعاً وبلا استثناء تضغط على أماكن الألـم في سلاسلهم الفقريـة. وحين أفاقـوا من غيبوبـة النشوة القصيـرة

التي اعترتهم وعرفوا بقرار المـأمور ابتهجت لـه النساء والبنـات كثيـراً وراحت كل واحدة تمني نفسهـا بألف ليلة وليلة من الأحـلام، معتقدة أن اختيار المأمور حتماً سيقـع عليها، وستقضي احلى السـاعات وهي تخطر بخفة كخادمة في بيته حاملة الأطباق او مناولة القلة، حيث الظل الوارف، والجلوس، والطعام الكثير، وحيث لا عصا ولا خيزرانات أو سـواقون، أما الرجال فإنهم مضوا غير مبالين كالمحكوم عليهـم بسجن طويل . .

ومـر الأنفـار أمــام المـأمــور، وراح فكـري أفنــدي يحملق في الـوجــوه . . . الكبيــرة والصغيـرة . . العجــوزة والصبيـة . . القبيحــة والمليحــة . . الغبية والمـريضة، ويتفـرس في الأجساد . . الممشـوقـة والمنحنيـة، الأجســاد التي تعـرج والتي تقفـز . . الجـافـة والنـضـرة. الأجساد التي تودع الحياة والتي تستقبلها. ولم يجد أبداً في جسد من الأجســاد ولا في وجه من الـوجوه واحـدة من المحتمل أن تكـون هي الآثمة الفاعلة .

وهدر فكري افندي يأمر عرفـة بإرجـاع الأنفار إلى الأرض ويلعن آباءهم وأباه، بجد وحقد هذه المرة .

وبينما كان يضـع قدميه في الركـاب ويستعد للقفـزة التي تصعده فوق ظهر الركوبة كان يعتصر عقله بين مستحيلين :

فمستحيل أن تكون أم اللقيط من غير الترحيلة .

ومستحيل أن تكون هذه الأم بين الأنفار الذين تفحصهم لتوه .

٨

وفي طريق عودته إلى العزبة من نفس المشاية التي جاء عليها كان الاسطى محمد لا يزال وقد استحلى القعدة يمد رجليه في الماء ويلعب فيه كالأطفال بقدميه. وحين رأى الموكب هالاً من بعيد هب واقفاً من جلسته كالملسوع وأسرع ينضم إليه.. ولم يكن في حاجة لسؤال ليدرك أن الفشل كان حليف المأمور، كل ما في الأمر أنه ظل ساكتاً برهة يلهث مع اللاهثين ويتحاشى سحب الغبار ثم قال بتهتهته العجوزة المتحمسة.

ـ اعمل بقى زي ما عمل سيدنا عمر يا حضرة المأمور.

والإنسان في لحظات يأسه يتعلق بالقشاية، وجذب فكري أفندي لجام الركوبة قليلاً ليبطيء من ركضها، وحين حاذاه الاسطى محمد سأله:

ـ سيدنا عمر عمل إيه يا بوعقل فارغ؟

وقصة طويلة هي التي حكاها الاسطى العجوز، قصة استغرقت كل الطريق الى العزبة الكبيرة. بدأت بأن سيدنا عمر رضي الله عنه

كان يتجول في انحاء المدينة متخفياً ليتفقـد شئون الـرعية، وفي أثنـاء تجواله عثر على جثة شـاب في ريعان الشبـاب مقتولاً بـطعنة خنجـر. وحاول سيدنـا عمر أن يعثـر على قاتله بلا جدوى، وأخيراً وحين يئس قال له شيخ حكيم: إذا أردت العثور على القـاتل فـانتظر تسعـة أشهر وسوف تجده بين يديك. ولم يأخذ سيدنا عمر كلام الشيخ علـى محمل جاد، ولكن بعد تسعة أشهر بالضبط سرت شائعة في المدينة تقـول إن بنت فلان قد وضعت طفلا دون أن تتزوج أو يقربها إنس. وحينئذ قال الشيخ العجوز لسيدنا عمر: هاك القاتلة.. التي ولدت حتما هي التي قتلت. قـال سيدنـا عمر: كيف؟ قـال الشيخ: لابـد أن الشاب اعتـدى عليها فقتلته.

ومع أن الحكاية أعجبت فكري أفندي وكادت تخفف من غلوائـه إلا أنهـا لم يكن لها دخـل فيمـا هـو فيـه. مجـرد حكـايـة اخـرى من حكـايات الاسـطى محمـد الكثيـر الحكـاوى الـذي يؤلف لكـل شيء حكاية، وكأن» مشاكل الدنيا تحلها الحواديت.

كل الذي حدث أنه كان قد يئس تماماً من إشباع حب استطلاعـه والعثور على أم اللقيط، وصمم أن يلقي الأمر من وراء اهتمـامه ويبلغ المركز والمركز يتصرف كما يحلو له. وزيادة في الاحتيـاط أملى على مسيحة أفندي الباشكاتب صيغـة البلاغ وراعى في اختيـار كلماتـه كل الدقة حتى يخلي طرفه وطرف التفتيش من أية مسئولية.

وجاء البوليس.

وجاءت النيابة.

وجاء مفتش الصحة.

وأخليت لهم مباني الإدارة، واحتل وكيل النيابة حجرة المأمور وتناثر عساكر البوليس يشربون الجوزة ويحتسون الشاي حول المبنى ووقف مخبر مكشوف يتلكأ عند دكان جنيدي، أما سكان العزبة فقد وقفوا من بعيد يرقبون ما يحدث، ويلقون الإشاعات ويتهامسون.

أما فكري أفندي المأمور فقد كان مشغولاً حقاً، ذلك أنه رأى أن ينتهز الفرصة ويعد لرجال الأمر والنهي في المركز وليمة حافلة فمصالحه عندهم كثيرة وما أقل ما يأتون إلى التفتيش، وعلى هذا قطع المسافة بين بيته عند رأس العزبة الكبيرة وبين مباني الإدارة عشرات المرات يشرف بنفسه على الديك الرومي ويتذوق الخبز الذي أعد في بيته خصيصاً للعزومة، وكان أهالي العزبة حين يرمقونه في انبهار وهو داخل أو خارج من مبنى الإدارة يشعر هو بسعادة لا حد لها إذ هو الوحيد بينهم جميعاً الذي له حق الكلام مع المأمور والبيه الوكيل والسلام على مفتش الصحة.

وابتدأ التحقيق..

وجيىء بكل امرأة وبنت من نساء الترحيلة بعد لكزها مرات لكي تخاف وتعترف، وجيىء كذلك بنبوية وهي متعلقة بسبت البيض لا تريد تركه وفيه كما تقول رسمالها، وسئل عبد المطلب الخفير والاسطى محمد.

وانتهى التحقيق وثبت ان اللقيط مخنوق، وقيدت الجريمة ضد

مجهول، وصرحت النيابة بدفن الجثة الصغيرة في جبانة التفتيش وتطوع عبد المطلب بتكفينه وتجهيزه ودفنه.

وأكل رجال الأمر والنهي الغداء وقالوا سلاما.

وانتهى اليوم.

٩

انتهى اليوم ليسلم التفتيش ـ إدارة وفلاحين وموظفين ـ إلى حيرة عظمى، فهم ما إن عرفوا حكاية اللقيط حتى أراحوا أنفسهم وقالوا: الترحيلة. ولكن ها هي ذي الحقائق تثبت لهم أن الترحيلة بريئة وأن الفاعلة ليست منهم. حتى فكري افندي المأمور الذي كان مصراً على أن الفاعلة واحدة من الترحيلة بدأ الشك يتسرب إلى إصراره، ومع هذا فكلما رأى أنفارهم سارحين إلى الغيط أو مروحين، رغماً عنه تروح عينه تبحث بلا وعي عن النساء في الأنفار عله يلمح على إحداهن فجأة علامات الفُجر والحرام. وكان أول الأمر يمتعض ويجفل ولكنه بمضي الأيام أصبحت نوازع غريبة تتحرك فيه كلما رأى بنتاً أو امرأة من بنات الترحيلة. بل وجد نفسه ذات مرة يمزح مع واحدة منهن، ومرة ادعى لنفسه وللناس أنه يزغد بنتاً في صدرها ليزجرها، وارتطمت يده طبعاً بثديها، وروع قليلاً حين وجده بكراً مكتنزاً جامداً كالكرة الشراب.

أما البنت فقد دهش حين رأى وجهها يبهت فجأة وكأنما سحبت منه كل دمائه، ثم يغمق لونه في التو وتحمر وجنتاها وتجفل وكأنها خجلت وغضبت. يا ألطاف الله! أممكن أن نساء الترحيلة تخجل

وتغضب هي الاخرى كبقية خلق الله؟

أما بقية الناس في التفتيش فالمسألة لم تمر هكذا بسهولة وكأنك ألقيت بحجر ضخم في ماء راكد آسن. بدأت الاتهامات والشكوك تنهال من كل صوب، حتى لم تسلم واحدة من نساء العزبة الكبيرة من الشك في أمرها مع علمهم التام أنهن جميعاً بريئات ولكن لابد لكل خطيئة من خاطئة، ولكل جريمة من فاعل، ولابد أن يكون لتلك الجريمة فاعلة، والجريمة عرفوها، ترى من تكون الفاعلة؟

بل أكثر من هذا بدأ الشك يزحف من بيوت الفلاحين المنخفضة إلى بيوت الموظفين العالية. فبدأ الفأر يلعب في عب مسيحة أفندي الباشكاتب، وبدأ يخاف أن يكون المحظور قد وقع. والحقيقة أنه كان خائفاً دائماً ان يقع المحظور، بل أكثر من هذا هو دائم الخوف من المحظور وغير المحظور.

مسيحة أفندي أرسخ الموظفين جميعاً أقداماً في التفتيش، إذ هو قد تربى فيه من أيام البرنسيسة، وتدرج من نفر بالأجرة يرسله أبوه ليتعلم مبادىء الحساب والقراءة والكتابة عند المعلم قيصر الباشكاتب القديم كاهن الحسابات الأكبر الذي يعرف أسرارها وعلمها. . يرسله أبوه حيث يجلس تحت قدمي المعلم قيصر في وجل وتقدير، منتظراً كالكلب الأمين أن يلقي إليه معلمه بين الحين والحين بحسبة من الحسب فيتلقفها مسيحة الفتى واجف القلب خائفاً خوف الموت أن

يخطيء في حلها فيغضب منه الباشكاتب ويضن عليه بأسرار الحرفة. ومن أجل هذا فهو الأطوع له من بنانه، يخدم في منزله ويذهب إلى البندر البعيد ويشتري حاجياته ويحافظ على زجاجة الزبيب أكثر من محافظته على عينه، وإذا ما همهم المعلم قيصر لينطق تفتحت أذناه كلاهما لكلامه، وإذا ما تكلم لا يصغي اليه وإنما الأدق أنه يمد أصابع نهمة من أذنيه ليلتقط كل كلمة تخرج من فمه ويدسها في رأسه بسرعة مخافة أن تضيع أو تتبدد؛ إذ من حساباته وكلماته سينتقل مسيحة من طبقة الى طبقة، ومن فتى مآله الزراعة والعمل بالفأس حتماً إلى أفندي يجلس على مكتب ويعمل بذلك الشيء الصغير الساحر: القلم.

كل كلمة يقولها المعلم قيصر كانت تثبت في عقله ويتشبع بها كالصبغة الأصلية التي لا تبهت. كل كلمة حتى النوادر التي يحكيها.. وأهم نادرة تلك التي حكاها له المرحوم ذات مساء فأصبحت بوصلة حياته.

قال المعلم قيصر: الاتنين في اتنين بكام يا بني يا مسيحة؟
فأجاب مسيحة كالتلميذ الشاطر: بأربعة يا معلمي.
ولدهشته أجابه المعلم: آه.. عمرك ما ح تبقى باشكاتب يا مسيحة.

فحزن مسيحة جداً، وسأل معلمه عن سبب هذا وهو مغموم فقال له المعلم تلك الحكاية: أراد أحد أصحاب الأرض أن يعين كاتباً عنده فأعلن هذا للناس، وصار يأتيه طلاب الوظيفة من مشارق الدنيا ومغاربها ويقابلهم واحداً واحداً. وكان لا يسألهم ابداً عن

مؤهلاتهم أو أسمائهم أو الأماكن التي عملوا فيها، كان فقط يسأل الواحد منهم ذلك السؤال الذي سأله إياه: الاتنين في اتنين بكام؟

وكلما سأل أحدهم ذلك السؤال وقال له على الفور: أربعة. كان يقول له: اتفضل من غير مطرود. ظل هذا يحدث إلى أن دخل عليه رجل كبير في السن يحمل تحت إبطة دفتراً وفي يده جراب فيه دواية حبر وريشة كما كانت العادة في الكتبة أيام زمان. وحين أصبح الرجل أمام صاحب الأرض سأله السؤال المعتاد: الاتنين في اتنين بكام؟

فقال له الرجل: الاتنين في اتنين؟

قال: نعم.

قال له: استنى يا سيدي عليّ. أيوه أقول لحضرتك.

وجلس، وفتح الدفتر الذي معه وأخرج الدواية والريشة وكتب على الورقة أمامه: اتنين في اتنين يساوي أربعة.

ثم قال لصاحب الأرض: أيوه يا سيدي. الاتنين في اتنين بأربعة ما عدا السهو والخطأ.

حينئذ قال صاحب الأرض: بس. انت اللي تاخد الوظيفة. مبروكة عليك..

الحرص والحذر وعدم ترك الشيء للصدف ذلك ما علمه إياه المعلم قيصر قدست روحه، وذلك ما جعله يخلفه في وظيفته حين مات، وما جعله يعمل في التفتيش أكثر من أربعين عاماً ماضياً على تلك القاعدة بلا سهو أو خطأ، يقبل عليه مآمير ومفتشون ويذهبون

وتباع الأرض وتشتري وهو وحدة الثابت الخالد، قابعاً وراء مكتبه الضخم وعلى يمينه أكوام الدفاتر أقل دفتر منها يزن عشرة كيلو جرامات، وعلى يساره أكوام. وهو العالم الخبير بكل أحوال التفتيش وتاريخه، يعرف كل فلاح بالاسم والأب والأم، ويتذكر السلفة التي أخذها فلان حتى قبل أن يفتح الدفتر، يعامل الفلاحين رغم عشرته الطويلة لهم بأبلغ الحذر ويختلط بهم ويضحك معهم ويستشيرونه في أحوالهم وأخص خصائصهم،ولكنه دائماً مسيحة أفندي الباشكاتب.

واللقيط جعل الفأر يلعب في عبِّه لأنه أدرى الناس بالإشاعات التي تروج في التفتيش وخاصة تلك التي تروج عنه وعن عائلته. ومسيحة أفندي كان له ثلاثة أولاد اثنان منهم في ثانوي والثالث الأكبر أخرجه من المدارس وسعى حتى جعله كاتباً في عزبة قريبة. وكانت له ابنة واحدة جعلها تأخذ الابتدائية ثم أقعدها في البيت تنتظر العريس، والعرسان قليلون إذ من من أين يعلم العرسان بهذه الغادة الجالسة تنتظرهم في ذلك المكان النائي الكائن على شمال الدنيا؟ وحتى كونها أجمل بنت في التفتيش لم يشفع لها. فبالمقارنة الى بنات الفلاحين كانت لنده بيضاء كالقطن المندوف. لونها وحده كان كافياً ليجعلها ملكة جمال، مع أنها كانت حين تسافر الى اقاربها في شبرا مصر مع أمها كانت الأم تسمع بأذنها همسات قريباتها والجارات بأن أنفها كبير وفمها أوسع قليلاً ممايجب،وقدها غير ممشوق وشعرها خشن أكرت.

ولكن هذا يحدث في شبرا مصر، أما في التفتيش فهي الجميلة

بلا منازع. الجميلة إلى الدرجة التي كان الشاب من شباب الفلاحين يدق قلبه بالانفعال حين يلمحها من بعيد تطل من شباك بيتهم، أو تتمشى مع عائلتها وعائلة المأمور على الترعة.

والمشكلة في عائلة المأمور هذه. فزوجته الست ام صفوت فلاحة او هكذا تبدو حين تتحدث مع الست عفيفة زوجة الباشكاتب التي تربت في مصر وتعلمت وتمدينت. ولأن الست أم صفوت كانت زوجة الرئيس فقد كانت الست عفيفة على الدوام تحرجها وتظهر لها مدى فلحها وجهلها، وتفعل هذا بلباقة شبرا وحذر زوجها مسيحة. وكانت أم صفوت تغضب وتركب حينئذ رأسها وتتحدى وتقضي الساعات الطوال تلعن عفيفة أمام نساء الفلاحين وتنال منها. والمشكلة ايضاً ليست في المأمور وعائلته.. المشكلة في ابنه الوحيد صفوت. كان في العشرين من عمره راسباً لثالث مرة في التوجيهية مدللاً من أبيه وأمه والفلاحين وكل قاطن في التفتيش. طوال النهار معلقاً البندقية الخرطوش في كتفه، مرتدياً جلباباً بلدياً أبيض مثل الجلاليب التي يرتديها الفلاحون كنوع من العياقة، وبرنيطة صفراء ومنظاراً أسود ومنقباً عن اليمام يصطاده، ولا يحلو له إلا صيد اليمام. وكان لا يحلو له الصيد إلا على الترعة المارة من أمام بيت الباشكاتب. والعلة يعرفها الجميع، فمن أعوام مضت والناس تتحدث عن الصائد واليمام، وعن سي صفوت والست لنده، والغرام المشبوب الذي تحده الترعة، ويحده عدم وجود الفرصة واختلاف الدين ويحتبس في صدر صفوت، وينغلق عليه صدر لنده بالذات، ولكنه

أحياناً يطل بذراعها حين ترتفع وكأنها تمسك حديد النافذة، ويعني ارتفاعها تحية مستخفية خجلة بصورة يقولون إن لنده تحتفظ بها في ذلك القلب الذهبي الذي يتدلى من عنقها المرمري الأبيض بخطابات يقولون إنها تتبادل عن طريق محبوب.. ومحبوب هو بوسطجي التفتيش إذ لم يكن للتفتيش مكتب بريد، محبوب هو الذي يذهب إلى محطة قطار الدلتا الكائن عند أول التفتيش، وحين يجييء القطار الصغير المتدحرج يتشعبط هو في النافذة المخصصة للبريد ويعطي للمستخدم ما معه من خطابات مصلحية وأهلية ويتسلم منه الوارد من الخطابات، وكان محبوب قصيراً جداً. لا يكاد يبلغ طوله طول الأطفال، ولعله لهذا كان يسبق الناس ولا يمل من التنكيت على نفسه. كان صغيراً وملامحه صغيرة وساقه كانت لا تتعدى الشبر، وفي نفس الوقت أغرب بوسطجي، إذ لم يكن يعرف القراءة أو الكتابة ومع هذا ومن قلة اولئك الذين يأتي لهم خطابات في التفتيش كان يعرف بطول المران الخطاب القادم من المنصورة للمأمور، من ذلك المكتوب بالقلم الكوبيا وبخط مائل القادم من الجعفرية من قريب الشيخ شعبان له.

وهكذا كان محبوب يوزع خطاباته، يعطي لمسيحة أفندي الخطابات المصلحية ويوزع البقية على أصحابها دون أن يخطيء في شخص أو عنوان.. حتى الحقيبة التي كان يحمل فيها الخطابات كانت صغيرة جلدها كالح مجعد. كجلد وجهه. ومحبوب كان متزوجاً من زكية، واحدة من أضخم وأطول نساء التفتيش، وكان الرجال حين

لا يجدون شيئاً يفعلونه يكتفون محبوباً ويحاولون إجباره على أن يعترف لهم كيف ينام معها. ومحبوب يستغيث والرجال يضحكون لاستغاثته واعترافاته. وأغرب شيء أن زكية كانت على عكس زوجها تجيد القراءة والكتابة، حتى أنها الوحيدة من بين نساء التفتيش التي كان تستطيع قراء الجرنال.. والجرنال الوحيد الذي كان يأتي إلى التفتيش كان هو المقطم. ولا يدري أحد لم المقطم بالذات؟ ربما لأن الإدارة في مصر هي المشتركة فيه وهي التي تختار، وربما لأن المقطم كان يهتم بنشر الأخبار الزراعية أكثر من غيره، وربما لأن أصحابه كانوا هم الآخرين خواجات.

وكانت زكية مدمنة قراءة الجرنال، حتى أنها كانت تعترض طريق زوجها وهو قادم من المحطة وتنزله من فوق الحمار بالقوة وتغتصب منه الجرنال، ولا تعطيه إياه إلا بعد فراغها تماماً منه. ومحبوب واقف عاجز يخاف منها أكثر مما يخاف لو تأخر عن المأمور، فهو يستطيع إلقاء عبء التأخير على قطار الدلتا الذي ليس له مواعيد، أما زكية فأنّى له أمامها بالقدرة على اختلاق المعاذير، والعزبة التي يسكن وإياها فيها تقع قبل العزبة الكبيرة حيث الإدارة، وهي على الدوام تنتظره وتقطع عليه الطريق؟

كانوا يقولون إن الخطابات يتبادلها صفوت ولنده عن طريق محبوب... تعطيه لنده الخطاب وبدلاً من أن يذهب به لقطار الدلتا يهرول به إلى حيث طلقات بندقية صفوت ولو كانت تدوي عند آخر التفتيش، وله الحلاوة واليمام والبقشيش.

كان خبر هذا كله عند مسيحة أفندي، وكم من مرة أوقف محبوباً وفتشه مدعياً أنه يبحث عن خطاب، وكل مرة لا يجد شيئاً في حقيبة محبوب، ولا حتى في جيوبه حين يصر على تفتيش الجيوب.

واليوم وبعد هذا الحادث الغريب لعب الفأر في عب مسيحة أفندي، ولم يكن وقت انصرافه من المكتب قد حان مع أنه ليست هناك ساعات عمل محدودة، إلا أنه تعود أن يبقى في المكتب إلى وقت الغداء، ولكنه يومها قام وغادر المكتب والإدارة وعبر القنطرة الحجرية وتوجه الى بيته القائم على رأس العزبة يتلقى تحيات الفلاحين بغمغمة لا يفتح فيها فمه. ومع هذا، وفيما هو فيه لا ينسى أن يضم ذيل جلبابه ويرفعه مخافة أن تعلق قذارات الطريق. كان في زيه الدائم: الجلباب الأفرنجي الأبيض الذي ليس له ياقة، والبالطو الأبيض والطربوش، جميعها بيضاء ولكنك لا تلمح فيها بقعة. كثيراً ما عيرت أم صفوت زوجها المأمور حين يأتي لها ببنطلونه الأصفر متسخاً حاملاً في ثنية ذيله الطين والحصى والتراب، تعيره وتقول له إنه لا يساوي قلامة ظفر مسيحة أفندي الذي ما رأته أبداً وعلى ملابسه ذرة تراب. بل تبلغ بمسيحة أفندي شدة حرصه على ملابسه أنه حين يسافر ويضطر اضطراراً إلى ارتداء البدلة الوحيدة التي يملكها والتي تبدو على الدوام جديدة وكأنها بنت العام مع أن عمرها لا يقل عن العشرة الأعوام بأي حال، يبلغ حرصه درجة أن يضع منديلين حول ياقتها مخافة أن يتسرب عرق قفاه إليها إذا اكتفى بوضع منديل واحد.

بقامه قصيرة منحنية، وبوجه شاحب (إذ هو الوحيد بين سكان

التفتيش الذي يعمل معظم نهاره في ظل المكتب)، وبذقن خضراء كثة، وبملابس ملمومة نظيفة ارتقى مسيحة أفندي الدرجات القلائل التي تؤدي الى باب بيته، والباب مفتوح فلا تغلق أبواب الدور في الأرياف إلا لماماً، ودخل. وكان لمسيحة أفندي ضجة دخول معتادة ما أن يطأ عتبة الباب حتى يبدأ أسئلته واستفساراته وتعليقاته. هيه.. انتو فين؟. بتعملوا ايه؟ بعت لكم الواد بالخضار.. واتأخرتم في الغدا ليه؟. اللحمة كانت عجوزة واللا إيه؟. دي كويسه.. وانتي مالك يا لنده.. ضرسك تاعبك واللا إيه؟.

يقول هذا وهو يهز رأسه هزات من يبحث بأنفه عن شيء، وينقب بعينيه الرمادتين عما خلف كل شيء. ولكنه هذه المرة دخل صامتاً واجماً. وفي الصالة المضيئة أكثر من اللازم كانت عفيفة زوجته جالسة أمام طبلية صغيرة ومعها أم إبراهيم زوجة فقي التفتيش، ودميان سلفها أخو مسيحة أفندي، وكان الثلاثة يصنعون (شعرية)، ودميان يمسك العجينة ويفتلها بيد وبيده الاخرى كان يقرأ الفنجال لأم ابراهيم ويقول لها: ح تشوفي خير بعد نقطتين قولي يا رب.

وكاد مسيحة أفندي ينهر اخاه. ولم تكن هذه أيضاً عادته فهو يعرف مثلما يعرف كل الناس أن أخاه معتوه، وأن عقله يبدو أنه قد كف عن النمو مذ كان طفلاً، فأصبح له جسد رجل قصير كأخيه في الخامسة والثلاثين، وعقل طفل في العاشرة، وذقن سوداء كثة كفرشة الملابس لا يحلقها إلا كل حين وحين. جلبابه الكزمير لم يتغير أبداً وطاقيته ذات الحائط والمصنوعة من نفس قماش الجلباب على رأسه عمره ما خلعها، وعمله الخدمة في بيت أخيه.. ينظف النحاس

ويقيس الـدجاج، ويعلم أرجـل الكتـاكيت حتى لا تتـوه مـع كتـاكيت الجيران، ويغسل الملابس ويحضر الطلبات من الدكان ويرعى الأولاد ويمسح أحذيتهم، ويفعـل هذا كله وهـو يحيا في ملكـوت طفولي من صنعه، يقابلك في منتصف الطريق فتقول له: إزيك يا خواجة دميان؟ فيوقفك قائلاً: الله يسلمك، ثم يرفع وجهه إلى السماء وكأنـه يقرأ مـا كتب لـك، ويبلل سبابتـه وإبهامـه بلعـابـه ويضعهمـا فـوق ظهـر يـده اليسـرى، ثم يرفعهمـا ويقول لـك: إن شـاء الله سعيـد. لعبـة كبيـرة للأطفال، ولعبة صغيرة للرجـال، ولعبة رجـالي للنساء، وكـل ما كـان يهم النساء، وأحياناً، هو هل دميان ينفع النساء أم لا ينفعهن؟ بعضهن يقلن إن الست عفيفة لا تستخبي عليه وتعامله كصبي حريم. وبعضهم يقول: لا، إن ذقنه الكثة السوداء خير دليل على رجولته. ويسـألونـه: لماذا لم تتزوج يـا دميان؟ فيضحـك ضحكته الغـريبة التي تبـدو وكأن رجـلاً يحاول أن يقلد ضحكـة الأطفال ويقـول: إلهي ربنـا يخليـك. حتى لقد بلغ العبث به إلى حد أن بعضهم كان يـطلب منه أن يسلم. فكان يقول لهم: أنا مسلم وموحد بالله، ويقرأ الفاتحة وآية الـكـرسي ورغم هذا فقد كـان هناك رأي يقـول إن دميان خبيث ولكنـه يستعبط. المحرج في الأمر أن دميان كان شقيق مسيحة أفندي الباشكاتب، وأن تسخر من شقيق الباشكـاتب أمر محـرج، أو أحيانـاً أمر مبهـج، وكأن الفلاحين يبهجهم أنهم يستطيعون أن يسخروا من الإدارة في مواجهتها حين يسخرون بدميان.

عسعس مسيحـة أفنـدي بعينيـه في الصـالـة والحجـرة القـريبـة

المفتوحة، ولكنه لم يلمح لنده. وأخيراً وحين لم يجد بدًّاً سأل عنها زوجته فقالت له: تعبانة شوية.. وهب فيها مسيحة أفندي وكأنه فوجيء: تعبانة ليه؟. ما لها؟. وما قولتليش ليه؟.. دي نسوان إيه دي!. وهي فين؟

قالت له عفيفة إنها راقدة على فراشهما. وبخطواته المتدحرجة وصل مسيحة أفندي إلى حجرة النوم. حجرة نوم عتيقة بالية بالغة القدم. نفس «جهاز» عفيفة الذي دخلت به من أعوام كثيرة مضت. الدولاب بلا ضلف، والسرير جددت ألواحه مرات، وعمدانه عليها بيض ذباب أسود متجمد، والناموسية معلقة من ثلاث نواح فقط والرابعة مقطوعة. كانت الناموسية مسدلة، وحتى قبل أن يرفعها قال والفأر قد بدأ يزداد لعباً في عبّه:

ـ ما لك يا لنده؟

ووجدها نائمة وحسب أنها تتناوم وازداد قلبه اضطراباً، ورفع الناموسية وواجهها. كان شعرها الأصفر المجعد الذي ما رآه أحد إلا مرتباً وأنيقاً ومعتني به، وكأنما تدرك صاحبته بغريزتها خشونته فتحاول باستمرار أن تجعله يبدو حريرياً ناعماً. كان شعرها منكوشاً وخصل منه تغطي جبهتها، وعيناها منتفختان قليلاً وكأنما انتهت صاحبتهما من نوبة بكاء.

سألها أبوها عما بها فقالت له: عندي مغص. ولأمر ما، ربما من

الطريقة التي قالتها بها، ربما من مرآها بشعرها هذا وعينيها المنتفختي الجفون، لأمر ما أحس مسيحة أفندي فجأة وبشكل قاطع أن بنته لنده هذه لابد أن تكون هي التي ارتكبت جريمة الصباح. إحساس دفعه لأن يتوقف عن استرساله في الكلام، ويحدق فيها وكأنما يراها وكأنها ليست ابنته، وكأنها أنثى داعرة، لأول مرة في حياته، وبين شكه في هذا ويقينه من أنها ابنته، راح مسيحة أفندي يمسحها بعينيه الضيقتين ويتحسس يدها وبطنها مدعياً أنه يسألها عما بها، وبطنها بالذات، لم تكن له ليونة بطون الوالدات ولكنه كان يوجعها.

الشك لم يكن مسيحة أفندي قد أحسه أبداً إلا تجاه الآخرين تجاه الفلاحين والمآمير والإدارة وكل الناس. لم يكن ابداً قد أحسه تجاه نفسه أو من هم في حكم نفسه.. تجاه عائلته.. تجاه ابنته لنده بالذات. حياتها علنية أمامه وأمام أمها وأمام الناس، وحتى إشاعة رسائل العيون والنظرات والإشارات بينها وبين صفوت تكاد تكون علنية هي الاخرى، وحياتها العلنية هذه هي كل حياتها، فهل من الممكن أن تكون لها حياة اخرى، حياة تزاولها مع صفوت ابن المأمور في الظلام؟ ليت الأمر جاء على شكل اسئلة حيرى تريد الإجابة. الأمر جاء على شكل حمى داخلية اجتاحت مسيحة أفندي دون أن يكون في استطاعته النطق أو التنفيس. لنده مغصها قد يكون حقيقياً وقد يكون حجة وستاراً، وزوجته عفيفة قد تكون على عهده بها كثيرة الرغي واللت والتعليق، ولكنها رفيقة عمره الوفية الأمينة وقد لا تكون

كذلك، قد تكون هي المتسترة على بنتها، بل وما أدراه أنهـا لا تتستر ايضاً على نفسها؟

لم يعد في وسع مسيحة أفندي أن يبقى بالحجرة، فقـد أحس أنه يختنق وأن ليس باستطاعته الكلام. غادرها إلى الصالة حيث الشعـرية والمجتمعون حولها، رأته عفيفة متغير السحنة فسألته عما بـه، وهمهم وغمغم ولم تفهم مما قالـه حرفـاً. نادى على دميـان أن يتبعـه وغـادر البيت وتلكـأ ليلحقه. وشهـد جسر الترعة الممتـد أمـام البيت أغـرب حوار يدور بين الأخوين. الدنيا حارة لافحة، والشمس في كبد السماء تتوهج ملايين أفرانها وترسل على الكون حممها، ومسيحة أفندي سائر وبجواره دميان يحاول لأول مرة في حياته أن يحـدثه حـديثاً جـدياً. . حديث الأخ لأخيه، يحاول أن يسألـه إن كان قـد لاحظ شيئاً أو فـطن إلى شيء. يسأله عن صفوت ولنده، والحرام والحلال، ودميـان سادر في رواية غريبة عن دجاجة كل يوم يقيسها فيجـد فيها بيضة، ولكنها لا تبيضها، مؤكداً أن البيضـة لابد فيهـا سر، وقـد تكون مفتـاح كنـز مـا خـائف إن هم ذبحـوا الدجـاجة أن يـذهب ما فيهـا من كنز وسـر، وإن هموا تركوها أن يسرقها الجيران.

وأخيراً لم يعد مسيحـة يحتمل، زجـره بعنـف وسبه وتـركه ومضى: ووقـف دميان حائراً لبعض الوقت وقد توقـف عن استرسـاله، ثـم ما لبث أن أدرك أن أخاه سبه وشتمه، ويبدو أن تلك أول مرة كان يحدث فيها هـذا، إذ ما لبث أن راح يبكي وقـد خلع طاقيتـه يجفف بها دمـوعـه، وبدت رأسه صلعاء تقدح شرراً تحت الشمس.

١٠

في نفس ذلـك الوقت كـان صفوت ابن المـأمـور متكئاً في شبـه غيبوبة على مسند الكنبة الوحيدة في بيت أحمـد سلطان كاتب الأنفـار في التفتيش، وتلك كـانت جلسـة صفـوت المختـارة، حين ينتهـي أحمـد من عمله ويئوب إلى بيتـه، فيضـطجـع الاثنـان احيـانـاً حـول «الجوزة»، وأحياناً حول امرأة وأحياناً حول فنجـال. أحمد سلطان هـو الأعزب الوحيد بين موظفي التفتيش، وهـو ايضاً الـوحيد الـذي يقطن بمفـرده في بيته المـلاصق لبيت مسيحـة أفنـدي. ومن بين المـوظفين جميعاً فإن أحمد سلطان هو الـوحيد القـريب إلى قلب صفوت. كـان شـاباً مثله وأهم من هـذا كان أكبـر منه في السن والتجـربة والمعـرفـة الأكيدة. لم تكن صداقة بالمعنى المفهـوم هي التي تجمعهما فـأحمد سلطان في معاملته لصفوت لا ينسى ابداً انه ابن المأمور رئيسه ورئيس التفتيش، وفي معاملة صفوت لأحمـد حد معين من التحفظ. فـأحمد هذا لا يجيد سوى القراءة والكتـابة والله أعلم كيف وصـل الى وظيفته تلك، شتان بينه وبين صفوت الذي يستعـد لدخـول الجامعـة وإكمال تعليمه في القاهرة. ولكن ـ مع كل هذه الاعتبارات ـ فتآلفهمـا مضرب

الأمثال، وأيضاً مبعث شقاء فكري أفندي المأمور الذي كان لا يطمئن أبداً إلى أحمد سلطان، ولم يفلح زجره ولا حتى الشجار العنيف في فصم هذه العلاقة.

كان صفوت متكئاً على مسند الكنبة يتبادل هو وأحمد سلطان سيجارة ملغمة، يتناوبان أخذ أنفاسها وهما حريصان في نفس الوقت على إبقاء طفيتها عالقة بالسيجارة، وكأنما لو وقعت الطفية ذهب المزاج. وكان ثمة حديث يدور.. وأهم خبر في ذلك اليوم كان هو حادث اللقيط. وطبعاً كان الحديث يدور حوله.

والواقع أن ما كان يدور لم يكن حديثاً بالمعنى المفهوم. كان صفوت في قمة انفعاله لمعرفة علاقة احمد سلطان باللقيط، وكأن قد ثبت لديه بطريقة قاطعة أن بينهما علاقة ولم يبق إلا أن يعرف كنهها. ولكنه كان لا يريد أن يبدو في عين أحمد سلطان كالطفل المحب للاستطلاع.. كان يريد أن يجعله يعتقد أن أسئلته إنما هي أسئلة رجل مجرب لرجل مجرب. ولعل هذا هو السبب في طريقة جلوسه على الكنبة حيث كعى كعية رجل مجرب ذكي خبير، ولعله أيضاً السبب في تلك الابتسامة التي قصد منها أن يقول لمحدثه: أنا كاشفك قوي! بل حتى مداعبة شاربه.. الشارب الباهت الذي لم يتعد عمره العام الواحد والذي تعمد صاحبه أن يحيطه بالرعاية وينميه لكي يبدو ابن اعوام. حتى مداعبة الشارب كانت تتم بروية وكأنها مداعبة كبير لشاربه الكبير.

وكـان أحمد سلطان ينصت وابتسـامـة كبيـرة لا تغـادر مـلامحـه. ابتسـامة كـان صفوت يحس أمـامها دائمـاً أنه مهمـا قال وتحـدث عن مغـامراتـه فهو صغيـر، مجرد تلميـذ خائب في مـدرسة احمـد سلطان ناظرها. ابتسامة يظن صفوت انها ابتسامة تهكم وسخرية، مع أنها قـد لا تكون كذلك.

ظـل صفـوت يتحـدث وأحمـد سلطان ينصت، وأخيـراً بـدأ أن صفوت قد كف عن إخراج كل ما في جرابه وأفلس، فقال لأحمد:

ـ أبو حميد.. بذمتك ابن مين ده؟

هنا قهقه احمد سلطان، واحدة من قهقهاته العـاليات التي كـانت تسمع في بيت مسيحة أفندي، وكلما سمعها مسيحة تختـرق الجدران وتصـل إلى آذانه وتكـاد تخرقهـا اشمأنط ولـوى بوزه وأفلتت من فمـه كلمة سباب. ولأمر ما لم يطمئن صفوت لقهقهة سلطان، وحسبها أنها قهقهة تهكم هي الأخرى، ولعل هذا هو السبب في أنه استطرد قائلاً:

ـ تعرف انك غويط قوي. كده واللا لأ؟

وقال احمد وقد آبت قهقهته إلى ابتسام:

ـ ليه؟

ومضى صفوت يشرح له لماذا هو خبيث وغويط، وكيف يستحـل لنفسه أن يقوم بمغامرات اخرى لا يعرفها صفوت ولا تصل إلى علمـه مع أنهما في الخير والشر سواء.

وحاول احمد أن يغير الموضوع ويسأل صفوت عن آخر أخبـاره مع

لنده. والحقيقة أن ذلك الموضوع كان هو موضوع صفوت المفضل لا يمل الحديث عنه، ولا تخلو جلسة مع أحمد سلطان منه. فعلى الرغم من كل شيء.. على الرغم من بندقية الصيد المعلقة في كتفه ومغامراته في القاهرة وعاصمة المديرية، وعلاقاته الطياري مع بعض نساء التفتيش وبناته، فقد كانت لنده تحتل من قلبه مكاناً خاصاً تحيا فيه باستمرار لم يكن قد قابلها كثيراً، وكل ما دار بينهما من حديث لم يتعد جملا تعد على الأصابع، تبادلاها خلال علاقة استمرت سنين طويلة بين عائلتيهما ولكن كان هناك شيء يحسه في نفسه تجاهها ويحسه في نظراتها تجاهه شيء غير منطوق أو مرئي ،ولكنه موجود وقائم ،يغذيه بشجن خفي يدغدغ أحاسيسه الداخلية ويجعله كلما شعر به يريد أن يبكي فعلا أو أن يضحك أو يهدم سراية التفتيش وكل مبانيه. وأحياناً حيث يتمشى على الترعة تجاه بيت مسيحة أفندي، ويجد لنده واقفة في الشباك بعيدة، يبدو وجهها ناصعاً تحوطه هالة النافذة المظلمة.. حين يراها هكذا يحس بتيار غريب قد سرى فيه وجعله يريد أن يطير ويغني، أو يقف في مكانه لا يفعل شيئاً بقية حياته إلا أن يمد بصره خلسة بين الحين الحين ليجدها تنظر ناحيته أو على الأقل ناحية الترعة. وآه لو رفع البندقية في الهواء ونقلها من كتف إلى كتف محاولاً أن يجعل من النقلة إشارة تحية، ورفعت هي يدها اليمنى وصعدتها لتمسك بها حديد الشباك من اعلى وكأنها ترد التحية.. حينئذ تميد به الأرض ويظل طوال يومه وكل ليله يتذكر اللحظة، ويعيد الحركة ببطء أمام عينيه وهو سادر بعيداً عن الدنيا وأهله والتفتيش، في غيبوبة منتشية لا يريد أن يصحو منها.

وأحمد سلطان هو مكمن سره. في حجرة نومه الخالية تقريباً من الأثاث يترك صفوت نفسه على سجيتها، ويقص على أحمد سلطان دقائق

ما حدث كلما حدث شيء، ودائماً تختتم الجلسة بذلك السؤال الحائر: ترى هل تحبه لنده؟

كلما سأل هذا لأحمد أكد له أنها تحبه، ولكن تأكيده ليس مهماً. المهم هو ابتسامته التي ينطق بها تأكيده! لو فقط يؤكد له مرة بلا ابتسامة لآمن حقيقة بصدق ما يقول.

وكان حرياً بصفوت أن يستجيب للباب الذي فتحه أحمد ويخوض معه في سيرة لنده، غير أن هذا لم يكن هدف صفوت في ذلك اليوم. كان يريد أن يعرف هو عن مغامرات صديقه، أو على الأقل تلك المغامرة التي من المحتمل أن تكون قد أدت إلى هذا اللقيط الميت.

ويبدو ان إصرار صفوت قد فعل فعله، فبعد سيجارتين انفكت العقدة عن لسان احمد سلطان ومضى يحدثه، أو بالأحرى يعترف له. وراح يقول له:

ـ وعارف مرات الحج بدوي وبنتها؟
فيقول صفوت: هيه؟
فيعود احمد سلطان يقول:

ـ وحياتك كانت واحدة منهم في الأودة هنا معايا على السرير اللي ما غيروش الزمان، والثانية مستخبية فوق السطح. وعارف البت دي اللي كانت بتشتغل مع الأنفار اللي بيفرزوا القطن. البت الهايشة دي.

فيقول صفوت:
ـ أنهي واحدة؟
ـ البت الطويلة الهايشة دي.

ـ آه. . .

ـ وحياة شرفك هي اللي قالت لي بعضمة لسانها: خدني.

ـ وعملتها؟

ـ يعني أكسفها يعني يا سي صفوت؟

وشهدت حجرة احمد سلطان في تلك الليلة روايات كاد يقف لها شعر صفوت. . روايات جعلته يعتقد انه بكل مغامراته وما فعله ليس سوى قطرة من بحر أحمد سلطان. بل الأمر لم يقتصر على هذا، ولم تقتصر اعترافات احمد سلطان على نفسه. تعدتها الاعترافات ومضت بكلمة وراءها كلمة وحقيقة إثر حقيقة، تكشف عن الوجه الآخر لحياة التفتيش، الوجه المستتر دائماً الذي لا يظهر ابداً ولا يطلع عليه احد، الوجه المعقد المتشابك الحافل بكل ما هو أغرب من الخيال، علاقات بين أبناء ونساء آبائهم، وبين فاضلات وفاسقين، وفاسقات وفاضلين، وحجاج و«تملية»، وحتى الموتى وردت في الحجرة سيرتهم.

وأخيراً وبعد مقدمة طويلة ساقها صفوت للتدليل على حياده، وعلى انه فقط يريد ان يعرف ـ بصرف النظر عن علاقته الشخصية بالمسألة ـ طرق صفوت الموضوع الذي من أجله جلس تلك الجلسة واستغرق كل تلك المدة الطويلة في جس النبض، سأل احمد سلطان وهو يستحلفه بكل مقدس وشريف أن يقول الحقيقة، سأله عما يعرفه عن الوجه الآخر للنده.

وهذه المرة وبوجه جاد وملامح لا تحتمل الشك نفى احمد سلطان أنه يعرف عنها أي شيء يدعو للخجل. وعاد صفوت يلح في سؤاله، وعاد احمد يلح في نفيه وتأكيده.

ومع هذا، وحين قام صفوت وقد بدأت الشمس تستعد للمغيب، حين

قام ليستعد هو الآخر للرجوع إلى بيتهم، كان لا يزال غير مطمئن تمام الاطمئنان إلى ما قاله أحمد سلطان عن لنده.

* * *

أما أحمد سلطان فقد ظل برهة طويلة جالساً على نفس المقعد «الجريد» ذي المساند الذي كان يجلس عليه، يحدق في سقف الحجرة ومن خلال نافذتها الوحيدة، ويتأمل. ثم بدأ لمعان غريب يتسرب إلى عينيه، لمعان كومض الجنون أو برق النشوة. ثم بدأ يتململ في كرسيه وكأن مشكلة كبرى تحيره. ولكن تململه لم يدم طويلا فما لبث أن قام من مكانه وغادر البيت. وظل وقتاً يحوم في شارع العزبة الرئيسي بحذر ـ مع أنه الوحيد بين رجال الإدارة الذي كان قد كسر قانون عدم اختلاط الموظفين بالفلاحين ـ حتى أصبح وجوده في قلب شارع العزبة أو في أحد بيوتها أمراً لا يثير اندهاشاً أو تساؤلاً. وعند باب بيت مفتوح توقف قليلاً، وبهفة من ثوبه وإشارة من يده كانت الجالسة في الداخل قد أدركت هدفه وفهمت أنه يريد لقاءها عند الجامع.

والجامع كان يقع في زاوية العزبة الغريبة، جامع مبني بناء رخيصاً من الطوب النيء، ومئذنته قصيرة تبدو كالأصبع المرفوعة المبتورة، والطريق إلى الجامع خال في أغلب الأحيان إذ نادراً ما يستعمل للصلاة إلا في يوم الجمعة، أما بقية الفروض فيؤديها الفلاحون في «المصلّي» المقام على الترعة والذي كان مقامه في أول الأمر على الخليج في مواجهة المنزل الذي يقطن فيه المأمور، ولكنه أمر بهدمه وعدم استعماله، وأقام ذلك المصلىّ الآخر، إذ كان يضايقه إلى درجة الغضب مرأى الفلاحين وهم جلوس في المصلى أمام بيته «يجرحون» البيت وسكانه على حد تعبيره، والأدهى من هذا حين يقبلون في الصباح الباكر ويخلعون ملابسهم ليغطسوا في الترعة ويتطهروا.

لم يمض وقت طويل على أحمد سلطان في ذهابه ومجيئه وراء الجـامع حتى بدا له من خلال ظليمات المغرب ذلك الثوب الأسود الفضفاض الذي يعرف صاحبته. كانت أم ابراهيم زوجة فقي الجامع وخطيبه ومؤذنه، امرأة فارعة الطول قمحية ذات قدرة خارقة على وضع الكحل في عينيها وحبك المنديل على جبينها وإمساك طرف ثوبها بيدها، وهفها باليد الاخرى حين تمشي وتتمخطر.

وكانت معرفتها بأحمد سلطان وطيدة، إذ كانت من أوائل من عرف من النساء حين جاء أول ما جاء الى التفتيش، ثم تطورت تلك «المعرفة» إلى نوع من الصداقة، تطبخ له احياناً، وتهاديه بطبق قشطة أحياناً اخرى، مع انها كانت قد فقدت الأمل فيه وفي تجدد علاقتهما.

سلم عليها احمد سلطان بحرارة، وقرصها في بطنهـا كعادتـه في الأيام الغابرة، وبعد عتاب طويل منها وحجج منه قال لها:

ـ عايزك في حاجة.

ـ أؤمر. .

ـ لينده.

قال الكلمة وسكت، ولم تسأله هي أيضاً منتظرة أن يكمل، وخائفة في الوقت نفسه ألا يكمل، هي فاهمة وهو فاهم ولا داعي للتغابي.

قالت بعد وقت وبعد أن تأملت بسمته وملامحه الحلوة:

ـ بس دي صعبة ما اقدرش عليها. .

ـ إيبه. .

قال أحمد هذا وهو يقرصها مرة أخرى في بطنها، وقوست هي نفسهـا لتبعد بطنها عنه ولتقرب وجهها منه وتحاول أن تثنيه، ولكنها كانت تعرف أن

محاولتها فاشلة، فما صمم على أن ينال شيئاً إلا ناله، وما يقوله إن هو إلا أمر عليها أن تطيعه.

صمتت برهة ثم انفرجت ملامحها قليلاً وابتسمت ورفعت سبابتها وأشارت إلى عينها اليمنى ثم إلى عينها اليسرى وكأنها تقول: من عيني دي ومن عيني دي.

وفي ذلك الوقت جاءهما من بعيد صوت خشن مبحوح يؤذن لصلاة العشاء، صوت «أبو» إبراهيم. ومع أن صاحبه كان بعيداً عن المصلِّى حيث الأذان والصلاة، إلا أن الصوت هبط عليهما فأنهى المقابلة في الحال. واستدارت أم ابراهيم تطقطق بشبشبها عائدة وكأن صوت أبي ابراهيم قد فاجأها متلبسة، أما أحمد سلطان فقد مضى على مهله، ينظر إلى العزبة والأضواء القليلة المبعثرة فيها ويشم رائحة الأرز والسمك والبصل وهي تختلط بروائح الدخان القابضة، ويتأمل الليل المحيط الكبير، ويحلم بلبينده حين تأتي ذات مساء إلى بيته، إلى حجرته العتيدة، خجلى خائفة، وكيف سيؤنس وحشتها، وسيحيل خجلها بقدرته الخارقة إلى جرأة ودلال وإقدام.

الحرام

١١

طال العشاء على غير العادة، واستمرت السهرة القصيرة التي تعقبه جزءاً أطول من الليل، وظل جنيدي فاتحاً دكانه مشعلاً «كلوبه» إلى ما بعد العاشرة، وعلى حائط القنطرة الحجرية امتدت جلسة الرجال، وكان لا حديث إلا عن اللقيط.

ولم تكن العزبة الكبيرة وحدها هي التي شغلت بالحديث، فقد انتقل الخبر إلى العزب المجاورة، بل والقرى المجاورة أيضاً، حمله إليها «الشغيلة» الذين يعملون في التفتيش ويقطنون في تلك القرى. فالحادث جلل والحياة في التفتيش تمضي سهلة لينة لا يعكر صفوها إلا خناقة تنشب بين اثنين أو سرقة صغيرة ترتكب. أما أن يعثروا ذات صباح على لقيط مقتول، فذلك أمر تنعقد له المجالس ولا تنفض، ويختلف الناس حوله ولا يتفقون، والناس في التفتيش يجيدون الكلام، تلك طبيعة جبلوا عليها واشتهروا بها، بل يقولون أن سببها هو السمك الذي يكاد يكون الطعام الرئيسي لأهل التفتيش وأهل المنطقة بأسرها. يجيد الواحد منهم حكى الحكاية وإبراز تفاصيلها، ويجيد إيراد الحجج وتفنيدها، حتى نطقهم للحروف، تجده ـ من كثرة استعمالهم للكلام ـ واضحاً لا لبس فيه. الحديث لديهم هواية، بل يكاد يكون هوايتهم الوحيدة ولهم فيه نوابغ أولئك الذين إذا حضروا مجلساً كان لسانهم أذلق لسان وتصدروه. نوابغ

كثيرون، الأسطى محمد أحدهم ومحمد أبو طلبة، وسيدهم جميعاً الشيخ عبد الوارث الكبير. والشيخ عبد الوارث لا يجيد الحديث فقط، ولكنه أيضاً يجيد الفلاحة، والفلاحة حرفة فيهاالمهرةوالكسالى، والأغبياء والأذكياء فيها الذي يحدد بنفسه ميعاد ري الأرض، وفيها من يروي أرضه فقط لأن جاره أروى. والشيخ عبد الوارث يكاد يكون أكثر أهل التفتيش حذقاً للفلاحة، بل يكاد يكون المستشار الدائم للفلاحين إذا أعيت أحدهم الحيل في أرضه. وهو بشاربه الذي ليس بالكث أو الرفيع، وعمامته النظيفة دائماً وبشرته السمراء وعينيه البنيتين الواثقتين، كانت كلماته المطمئنة البطيئة فيها القول الفصل في كل خلاف ينشأ، بل كان المأمور لا يبت في أمر من الامور الكبرى في التفتيش مثل ميعاد زرع الأرز، أو حرث أرض القمح وتسويتها لاستقبال حبات الأذرة، إلا بعد أخذ رأي الشيخ عبد الوارث، إذ رأيه دائماً فوق رأي مستشاريه من الخولة وكبار الفلاحين.

وكان الشيخ عبدالوارث يتصدر الجالسين أمام دكان جنيدي، ولأول مرة كان يبدو عليه أنه بلا رأي. كانت الأراء كلها تلاطمت واختلفت ونظر الجالسون إليه يستطلعون ملامحه وينتظرون قوله، كان لا يفعل شيئاً أكثر من أن يتنحنح كالمحرج ويقول: الله أعلم يا جماعة.

وحتى لم يطل بقاؤه معهم.. لم يلبث أن استأذن وقام مدعياً أنه لم يصل العشاء، وعليه أن يصليها قبل أن يدهمه النوم.

وبقي الجالسون مثلهم مثل الساهرين عند القنطرة أو في البيوت حائرين. والغرابوة بدا أنهم بريئون من التهمة، والعزبة لم تترك امرأة فيها أو بنتاً إلا ونوقشت سيرتها وتأكد الناس من أنها ليست الفاعلة. لم يبق إلا أن اللقيطمن عزبة مجاورة أو من قرية أخرى. ولكن السؤال كان: لماذا يكبد أحدهم أو إحداهن نفسه أو نفسها مشقة السير الطويل لإلقاء اللقيط وكان بوسعه أو بوسعها أن يتركه في قلب الغيطان؟

الحرام

بيتـان فقـط من بيوت التفتيش لم ينـاقش فيهما أمـر اللقيط أو جاءت سيرته. بيت فكري أفندي المأمور الذي سألته زوجته على الغداء عن قصة الجنين، فاكتفى بأن غمغم بضع غمغمات تعرفها أم صفوت جيداً، وتعرف أنـه لا يقولها إلا حين يود إقفال باب الحديث. وحين يريد فكري أفندي إقفال باب الحديث فمعنى هذا أن باب الحديث يجب أن يقفل، فهو رجل لم يتزوج امرأة تشاركه حياته، تزوج واحدة تخدمه، واختارها حلوة تجيد الطبيخ ولا تعرف شيئاً عن ذلك العالم الغريب الكائن بعـد باب المنـزل والحافل بالشرور والآثام.

ولهذا فقد كان يجد الحرج البالغ كلما دعيت زوجته لزيارة بيت مسيحة أفندي، أو جاءت عفيفة وأولادها لزيارتهم. في عرفه أن تلك الزيارات هي الأخرى بدعة لا تجوز، والزوجة شيء خاص به لا يجـب أن يطلـع عليه احد، ولا حتى نساء غيره. الحديث عن اللقيط حينئذ مع زوجته أمر خبيث لا يجوز الخوض فيه، إذ هو شيء يمت إلى العالم البغيض الفاجر. عالم ما وراء الباب.

أما في بيت مسيحة أفندي فلم يجسر أحـد على فتـح باب المـوضـوع فالأب كان مغموماً لا يدري أحد لم؟ ولنده راقدة لا يزال المغص رابضاً في بطنها. في المساء فقط وحين أوى مسيحـة أفـندي وعفيفـة إلى فـراشهـما وراحت هي في النوم العميق ظل هو بعده يتأملها في رقدتها، برقبتها الرفيعة الطويلة التي كثيراً ما تلف حولها منديلاً، وشعرها الأكرت الأسود القصير الذي أورثته لأولادها. ظل مسيحـة يتأملهـا برهـة يكاد يلكزهـا بكوعـه لتستيقظ وتشاركه حيرته، غير أنه لم يفعل فالموضوع الذي يشغل باله لـم يكن يستطيع أن يصرح به لأحد، حتى لو كان هذا الأحد زوجته عفيفة. وكيف يصرح لها بالهواجس الغريبة التي تطوف في باله وتلح عليه؟

كان شكه في مرض لنده قد ازداد إلى درجة بدأ يفكر فيها أن يأخذها إلى الطبيب في المركز في اليوم التالي ليكشف عليها، لا ليرى إن كانت مريضة حقيقة ،ولكن ليرى أيضاً كنه ما حل بها. البنت تعدت سن الزواج، وهي حلوة وموفورة الصحة وتحيا في فراغ كبير، ومن الجائز جداً أن يكون الشيطان قد أغواها.

كان قلب مسيحة يهبط كلما وصل الى هذا الحد من تفكيره. . كان يحس به حقيقة يهبط، وكأنه يسقط من عل. ولكن الهواجس لا ترحمه، تمضي تصور له ما يمكن أن يحدث لا قدر الله. . الفضيحة وخيبة الأمل والحيرة العظمى. فمن المحال حينئذ أن يتزوجها ابن المأمور لألف سبب وسبب تراه ماذا يصنع حينئذ، وبأي وجه يحيا في التفتيش، وبأي صورة يواجه الناس؟

وتستبد به الخواطر عنيدة فارضة نفسها عليه، تلهب عقله وتجعله يتقلب في الفراش ناظراً بحقد إلى عفيفة المستغرقة في سابع نوم، مخنوقاً بالدموع المحتبسة في حلقه التي لا تريد أن ترحمه هي الاخرى وتسيل من عينيه.

وبينما هو في خضم ذلك الكابوس الرهيب عنّ له سؤال: أليس من الجائز أن يكون مخطئاً؟ ماذا لو ثبت أن اللقيط مثلا ابن واحدة من الغرابوة ألا يعد تفكيره على هذا النحو واتهامه لابنته وطعنه شرفها ضرباً من الجنون والعته؟

تشبث مسيحة أفندي بالخاطر وكأن فيه أكسير نجاته، واندفع يبحثه على وجوهه ويقلبه، وكلما فعل هذا بدأ قلبه يعود إلى مكانه من صدره وبدأت حركته تقل وبدأ يتنفس براحة وحرية، وبدأت تثاؤبات النوم تأخذ طريقها إلى نفسه.

الحرام

وفي الصباح كان أول ما فعله حين أصبح في حجرة مكتبه أن سأل عن المأمور. فلما قيل له إنه في مكتبه دق الباب بحرصه المعتاد ودخل. وبعد تبادل التحية تفرس فيه فكري أفندي المأمور طويلا ليدرك هدفه الخبيث من تلك الزيارة الصباحية، فزيارات الباشكاتب لمكتبه قليلة ونادرة، ودائماً وراء كل زيارة هدف، والهدف على الدوام خبيث. غير أن الذي حير فكري أفندي أن مسيحة لم يقل في زيارته الشيء الكثير، ظل جالساً مدة يتحدث في الامور المعتادة، ثم سأله سؤالا عابراً عما تم في حكاية اللقيط. أجابه فكري أفندي عليه بحسن نية، ولكن ما أدهشه أن مسيحة بدأ يطعن في الغرابوة فجأة وبشدة، ويصر ويكاد يقسم على أن الفاعلة لابد واحدة منهن. ثم ما لبث أن استأذن محتجاً بالعمل، وترك فكري أفندي حائراً في تفسير هذا التحيز المفاجيء منه ضد الترحيلة. . ولم يتح لفكري أفندي أن يحتار طويلا، إذ دق بابه بعد قليل، وبشخطته المعهودة قال: ادخل. وإذا بالقادم محبوب بوسطجي التفتيش، وإذابرنيطته المصنوعة من قماش أزرق مائلة على جبهته والدموع تملأ عينيه، والشهقة ترفعه ولا تتركه إلا لشهقة أخرى تهوى به، وإذا بالمشكلة التي جاء لأجلها أغرب مشكلة:

ـ ما لك يا محبوب؟

قالها فكري أفندي وهو يغالب الضحك. .

ولم يرد محبوب. . مد يده القصيرة إلى الحافظة المتدلية بجواره والتي قصر «أبزيمها» إلى آخره ليمنعها من أن تلامس الأرض، مد يده وأخرج منها خطاباً مفتوحاً ظرفه بعناية وبلا تمزق، ولم يقل حرفاً.

تناول فكري أفندي الخطاب، وقلب الظرف فوجد مكتوباً عليه بالقلم الكوبيا: يصل ويسلم ليد أخينا المحترم عبد المنعم أفندي عواد بطنطا شارع الجامع الأحمدي نمرة ٣٤ خصوصي لحضرته.

لم يكن في العنوان ما يثير وما يمكن أن يصلح سبباً لدموع محبوب وشهقاته، حتى كاد المأمور يعيد الخطاب إليه لولا أن «محبوب» تمالك نفسه وجفف دموعه ومضى يحكي كيف بدأ يشك في الخطاب.

قال محبوب: إن سعادات زوجة الاسطى عبده سائق اللوري.. والتي تقطن في نفس العزبة الذي يقطن فيها محبوب، استوقفته وهو راكب الحمار في طريقه من العزبة الكبيرة إلى محطة الدلتا، استوقفته عند عزبتهم وطلبت منه أن يأخذ هذا الخطاب معه. ولما سألها عن صاحبه ـ إذ من غير المعقول أن تكون هي صاحبته ـ قالت له إنه من زوجها لقريب له في طنطا. لم يأخذ محبوب ويعطي معها، فهو يعرف «صحيح» أن لزوجها قريباً في طنطا وأحياناً تأتيه خطابات من هناك. صدقها ومضى في طريقه إلى القطار، ولكنه بعد أن تجاوز العزبة بقليل بدأ يحس وكأن الخطاب ـ دون بقية الخطابات التي معه ـ يشكه في جنبه ويقلقه. وعلى هذا وجد يده تمتد إلى الحقيبة ويخرج منها الخطاب ويتأمله. تأمله لثوان قليلة، ومع أنه أمي لا يعرف القراءة أو الكتابة ولا يستطيع أن يفرق بين خطوخط إلا أن «شيء إلهي قال لي إن الخطده خط مراتك يا واد يا محبوب». وفجأة بدأت تتكشف أمامه أمور لم تخطر له على بال. زكية امرأته لها قريب في طنطا كان قد أتى لزيارتهم منذ بضعة أسابيع ومكث لديهم أياماً ثلاثة ثم غادرهم. وقريبها هذا أفندي قالت له زكية إنه تلميذ في مدرسة الصنايع، ورغم أنه كان يبدو كبيراً جداً عن تلميذ بشاربه الكامل وذقنه وهيئته، إلا أنه صدق زكية وأخذ قولها بحسن نية، ولكنه الآن والخطاب في يده يحس بحروفه وكأنها ملامح زكية وتقاطيعها ورائحتها، لم يعد ثمة مجال لحسن النية. والذي حدث أن «محبوب» غير من اتجاهه، وبدلا من أن يذهب للمحطة جاء للشيخ علي أبو ابراهيم فقي التفتيش، وكان قد فتح الظرف باحتراس واخرج الخطاب الذي فيه

وطلب من الشيخ علي أن يقرأه.

أخذه الشيخ علي وأخرج منظاره السلك وأمعن فيه بصًّا وتفلية وقرأة في سره، وما أن انتهى حتى هب في محبوب:

ـ الله يقل مقامك يا بن زبيدة. إيه يا واد الكلام الفارغ ده؟

وكاد محبوب يتهاوى من طوله المتواضع القصير، فقد أيقن أنه كان في شكوكه على حق، ومال على الشيخ علي وبل يده وبللها بدموعه طالباً منه أن يصنع فيه معروفاً ويقرأ له الخطاب. وقرأه عليه الشيخ، فإذا به من زوجته زكية، وإذا به خطاب غرام منها، وإذا بها لم تكتف بهذا بل أرادت أيضاً استغفاله وأن يحمل لها هو خطابها إلى عشيقها فيما يحمل من بريد مستغلة ـ الفاجرة ـ جهله بالقراءة والكتابة.

طوال الفترة التي استغرقها محبوب في سرد حكايته كان فكري أفندي يكاد يموت من الضحك، ولم يكن حتى يبذل أي مجهود لإخفاء ضحكه بل أكثر من هذا كلما رأى «محبوب» منفعلاً ومتأثراً داهمته الرغبة في الضحك.

وحين انتهى محبوب وعاد ينخرط في بكائه وشهقاته لم يعد فكري أفندي يتمالك نفسه. انفجر في نوبة ضحك عالية، ودق جرسه واستدعى مسيحة أفندي وأحمد سلطان وكبير الخولة الذي تصادف وجوده في المكتب، وتولى نيابة عن محبوب قص الحكاية وتولوا هم نيابة عنه الضحك، ومحبوب سادر في انفعاله وبكائه.

وقال له فكري أفندي وهو يمسح الدموع عن عينيه الضاحكتين:

ـ ومارحتش ضربتها ليه يا محبوب؟

ـ اضرب مين يا حضرة المأمور؟ . . أنا قدها؟

قال محبوب هذا وانخرط في البكاء. وانخرط المتجمهرون حوله في الضحك، فهم يعرفون زكية بطولها وضخامتها وجبروتها، وأمامهم محبوب بقصره ونحافته وصوته القصير النحيف.

وحين شبعوا ضحكاً، هدهد المأمور على محبوب واعداً إياه بأنه سيؤدبها له، بل أرسل في طلبها فعلا وقال لمحبوب وكأنه يستدرك: ـ واللا تحب تطلقها يا محبوب؟

ففرت من عينيه دمعتان أخيرتان وقال:

ـ اللي تشوفه حضرتك. دي ديني وما أعبد فاجرة، وعليّ يمين الطلاق إن ما كان اللي لقيوه الصبح ده ابنها، أصلها عايزة تخلف وفاكراني مبخلفش. وديني فاجرة.

ووجد المأمور في إجابته نخنخة معناها عدم الرغبة، فعاد يؤكد له سيخصص المغربية كلها لزكية، وسيريها فيها نجوم الظهر.

* * *

ويبدو أن نجوم الظهر في ذلك الوقت كانت هي ما يشغل بال دميان. كان حاملاً سبت الطلبات في طريقه للبحث عن أكلة سمك لبيت أخيه ولكنه حين وصل إلى القنطرة الحجرية توقف في وسطها تماماً، وتطلع إلى الشمس التي تتوسط السماء. والناس في العادة إذا تطلعوا للشمس لا يحتملون ضوءها الباهر فيغلقون عيونهم، أما دميان فقد كانت لديه تلك القدرة الخارقة. . القدرة على التطلع إلى الشمس والنظر فيها دون أن يغمض عينيه.

ولم تكن تلك القدرة هي السبب في أن بعض أطفال الفلاحين التفوا يتفرجون على دميان في وقفته تلك. السبب هو أنه كان يتطلع إلى السماء

ثم يفرد كم جلبابه الأيسر ويحسب عليه بأصابع يده اليمنى ويقول لنفسه: منصورة. . ان شاء الله منصورة. .

أما من هي المنصورة، ولماذا وكيف تنتصر، فذلك أمر لم يكن دميان يقوله حتى لو كان الناس قد سألوه عنه.

وبيت المأمور يقع تماماً عبر الترعة، والواقف في نافذة بلكونته الصغيرة المطلة على العزبة كان يستطيع أن يشهد ما يدور فوق القنطرة الحجرية بوضوح، ويشهد دميان في موقفه المضحك ذاك. ولكن الواقف لم يكن واقفاً، كان واقفة! كانت الست أم صفوت زوجة المأمور ـ سيدة في الأربعين من عمرها بيضاء ممتلئة الساقين والردفين، ترتدي رغم مكانة زوجها نفس المنديل بأوية الذي ترتديه العائقات من نساء الفلاحين ونفس الثوب المشجر الواسع التفصيل. كان أمر دميان يحيرها من زمن حتى أنها سألت الست عفيفة زوجة أخيه عنه مرة، وزاغت هذه من الإجابة. واليوم، لأمر ما، ربما لهذا اللغط الكثير الذي دار حول اللقيط والحرام وما يصح وما لا يصح، فقد بلغ حب استطلاعها أشده، هي حبيسة بيتها الكبير ليل نهار، لا تزور ولا تزار إلا في النادر. . زيارات تنغص عليها عيشتها. . زيارات متكلفة عليها فيها أن تجامل زوجات الموظفين وتدعي أمامهن الرقي والتمدين، وأحياناً تتكشف ادعاءاتها فتخرج وتخجل وتنفرد بنفسها وتبكي، ويلها من فكري أفندي زوجها إذا أخطأت! فكري أفندي الذي على الرغم من مضي أكثر من عشرين عاماً على زواجهما لا تجرؤ على مناداته بغير يا فكري أفندي، أو بالكثير في لحظات التجلي لا تزيد عن قولها: يا أبو صفوت. أحياناً تحن إلى طفولتها الأولى في بيت أبيها الفلاح. أحياناً تتمنى لو كان في استطاعتها أن تفعل مثلما يفعل نساء الفلاحين وتستحم في الترعة مثلا، أو تخبز بنفسها

العيش وتخرج الرغيف مستديراً تام الاستدارة كما كانت تفعل في بيت أبيها.

فكري أفندي من بحري وهي صعيدية، رآها زوجها حين كان يزور قريبة ناظر محطتهم فأعجبته، وفي يوم وعدة ليال تزوجها. ومنذ أن تزوجها وصلتها تكاد تكون مقطوعة بأهلها، حتى أخوها حين يأتي لزيارتهم في التفتيش بلاسته الصعيدية وقفطانه وحذائه ذي الرقبة الطويلة والأستك، يخفي فكري أفندي أمر زيارته. وإذا سأله البعض عنه قال إنه من الرجال الذي يعملون عند والد الست، وأنه يأتي ليطمئن أباها عليها. وكل تلك النوازع والهواتف كانت أم صفوت لا تستطيع أبداً تحقيقها كان عليها أن تمثل دور زوجة المأمور المتكبرة المحترمة على الدوام. نزوة واحدة فقطهي التي كان يتاح لها أن تحققها دون أن يتهمها زوجها بالخطأ، ودون أن ينالها عقاب. دميان! كثيراً ما كان يأتي إلى البيت ليستعير حلة أو مصفاة أو «فروطة»، أو لينقل رسائل أم لينده إليها. وما من مرة جاءها فيها إلا وأبقته لتتحدث إليه. وتبلغ أقصى درجات السعادة وهي تتحدث إليه إذ تترك نفسها على سجينها تماماً معه. تطلب منه أن يقرأ لها الفنجال، ولا يكون طلبها إلا فاتحة للكلام والغريب أن دميان كان ينطلق لسانه معها فيحدثها مثلا عن مشاكله مع الفراخ، ومشاكله مع زوجة أخيه وأحياناً يبكي أمامها بكاء كبكاء الأطفال، ومع هذا تشاركه البكاء.

كان دميان لا يزال واقفاً في منتصف القنطرة وهي لا تزال واقفة في نافذة البلكونة، والشيء الخطير الذي يؤرقها في تلك الساعة لم يكن هو رغبتها في الحديث التافه الساذج الذي كانت تستعذبه مع دميان.. ما كان يؤرقها هو المشكلة التي طالما أرقت نساء العزبة: ترى أدميان فيه للنساء

الحرام

أم لا يصلح لهن؟ كانت هذه المشكلة كلما خطرت لها اعتبرتها عيباً وحراماً لا يصح أن تسمح لنفسها بالخوض فيها، ولكن في تلك الساعة لا تدري هي نفسها لماذا تعتبر أن التفكير فيها لم يعد حراماً أو عيباً. إنها لا تريد لا سمح الله أن تخطيء مع أحد بله دميان، كل ما في الأمر أنهـا تريد أن تعرف، فهل يعد هذا حراماً؟

كلما طالت وقفتها في النافذة وطالت وقفة دميان أمـام عينيهـا علـى القنطرة، كانت الرغبة تستبد بها. . حتى وصلت الى الدرجة التي لم تعد تستطيع معها صبراً.

وهكذا نادت على فاطمة وهي إحدى البنات الكثيرات اللائي يشتغلن في البيت ويحتسبن من ضمن الأنفار الذين يعملون في الغيط نادت على فاطمة وطلبت منها أن تذهـب وتأتـي بدميان. لم يكن في ذهنهـا خطة واضحة لما انتوته. ولا ماذا تفعل إذا هرب هو كالعادة من الإجابة علـى السؤال؟ هل تستدرجه؟ هل تخدعه؟ هل تغريه وتمضي في نهاية إغرائه إلى نهاية الشوط لترى إن كان سيستجيب؟ لم تكن في ذهنها خطة واحـدة ولكنها كانت قد صممت أن تعرف أمر دميان ولو أدى ذلك إلى أن تفعل معه المستحيل.

جاء دميان ضاحكاً مهمهماً كعادته، السبت معلق في ذراعه واللعاب يكاد يسيل من فمه كلما طوح برأسه أو شرع في الضحك. وقابلته الست أم صفوت بترحاب، وأجلسته على الكنبة في حجرة النوم رغماً عنه إذ كان ينفر من الجلوس في حضرة الناس أشد النفور. ولـم تكن هذه أول مرة يدخل فيها دميان حجرة النوم، فدخوله فيها أمر لم يكن فيه شبهة أو عيب. جلس دميان على مضض وجلست هي بجواره، وطلبت منه أن يحسب لها

نجمها في ذلك اليوم، وشرع دميان يقلب يده ويبلل أصبعيه ويرسم بهما على ظهر يده ويحسب.

ولم تكد تمضي بضع دقائق حتى شاهد الناس دميان يندفع جارياً من بيت المأمور والسبت لا يزال معلقاً في ذراعه، وعبثاً حاول البعض إيقافه لسؤاله عن سبب جريه.

ولم يمض جريان دميان من منزل المأمور بسلام، إذ هو شيء غير عادي.. سر.. وكأنما سر لا حل له فلابد من أقوال تتناثر عنه وتفسيرات وشائعات.

وعلى العموم لم يكن هذا هو السر الوحيد الذي بدأت الأقوال تتناثر عنه وتشيع. ما أكثر الأسرار التي ارتفعت عنها أغطيتها وفاحت رائحتها وبدأت تزكم الأنوف. أيام قليلة مضت منذ اليوم الذي اكتشف فيه عبد المطلب اللقيط ولكنها كانت كافية لأن تقلب الامور في التفتيش رأساً على عقب، فثمة أمٌ لابد أن توجد لهذا اللقيط وطالما هي مجهولة فأي اتهام صحيح، وأي إشاعة قد تكون هي الحقيقة.. والإشاعات كثيرة والألسنة في التفتيش لا تهدأ.

١٢

ولم تستدع المسألة أن ينتظر فكري أفندي المأمور تسعة شهور كما فعل سيدنا عمر، إذ بعد أقل من عشرة أيام قد عثر على الجانية. ولم يعثر عليها هكذا بطريق الصدفة، فلفطنته فضل كبير في اكتشافها. كانت لطع الدودة رغم كل مجهودات فكري أفندي قد ازدادت بشكل ينذر بالخطر وأصبحت تهدد بالفقس، ومن ثم باكتساح أرض القطن كلها، والواقع أنه من بين السبعة آلاف نسمة الذين يحيون على أرض التفتيش كان فكري أفندي هو الوحيد الذي يهمه أمر الدودة ونقاوتها. فالمزارعون الفلاحون لا يهمهم القطن في قليل أو كثير. القطن وإن كانوا يزرعونه ويحرثونه وتحتسب عليهم مصاريف جمعه ونقاوته وحتى تطهير المصارف حوله إلا أنه محصول صاحب الأرض ولا شيء غير هذا. فالفلاح يأخذ حقيقة الثلث من محصول الأرض التي يزرعها، ولكن الثلث يذهب هباء.. يذهب في تسديد مصاريف القطن ومصاريف المحاصيل الاخرى والسلفة التي اقترضها الفلاح في بحر العام ليشتري بها التقاوى ويكري الأنفار. وحتى إذا بقي للفلاح شيء بعد هذا يقيد لحسابه في العام القادم فكيف يهمه أمر القطن إذن؟ الإدارة هي التي تأخذه وهي التي عليها أن تتعهده.. والمسألة في رقبة المأمور. فالقطن غال وهو يعد المحصول

الرئيسي للأبعادية، وإذا أكلته الدودة ضاعت على الخواجة صاحب الأرض آلاف الجنيهات، بل ضاع فكري أفندي نفسه. والسبب الرئيسي لرفته من التفتيش الذي كان يعمل فيه قبل عمله هذا كان هو الدودة حين فقست منه والتهمت أوراق القطن وأضاعت المحصول. ولذا ففكري أفندي لا يخاف من شيء في الوجود قدر خوفه من اثنين: الدودة وصاحب الأرض. ولا يتبلور هذا الخوف ويصبح هلعاً إلا في موسم مقاومة الدودة وهي لا تزال لطعاً.. هو موسم الامتحان الرهيب لفكري أفندي وأعصابه وعضلاته ومستقبله وكل شيء فيه. وبين شماته الباشكاتب ومكائده وخطابات المفتش الذي يكتبها بنفسه وبخطه الماكر الحذر.. ويكتب أجزاء منها بالحبر الأحمر ويعلم تحتها بخط، وبين عدم مبالاة الفلاحين ولكاعة الأنفار والسواقين ولعبهم، يهلك فكري أفندي وهو يصحو من الفجر ويعود من الغيطبعد أذان العشاء، ويدعو الله دواماً أن يسترها معه. وأخوف ما يخافه أن تهبط المقاومة مرة فتفقس اللطع وتكون الكارثة ويرفت، ويعيش في ذلك الذل المقيت الذي يفضل الموت على تعاساته. ففكري أفندي كمعظم زملائه من مآمير التفاتيش ونظارها إذا رفتوا من التفاتيش لا يستطيعون مغادرته إلا إذا وجدوا عملاً في تفتيش آخر. وعلى هذا فحين يفصل الواحد منهم يظل يرجو صاحب الأرض حتى يبقي عائلته في بيت التفتيش الذي يسكن فيه، بينما يهيم هو على وجهه في القطر كله سائلا معارفه وأصحابه باحثاً عن عمل ولو لينقل إليه عائلته ويسكن. والمصيبة الكبرى حين تأتي عائلة الموظف الجديد بعفشها وصغارها قبل أن يجد الموظف المرفوت عملا ومن ثم محل إقامة..

من أجل هذا فرعب فكري أفندي من الدودة اشد ضراوة من رعبه من

الموت، وحرصه على أن يتحلى بالخلق الكريم راجع إلى اعتقاده بوجود رابطة قوية بين أي إثم قد يرتكبه وبين الشياطين السوداء الزاحفة التي يطلقها الله عليه في كل عام مرة، ليمتحن بها ويعاقب العقاب الأكبر إذا أخطأ، وتنسحب ملايين الملايين من الشياطين إلى أوكارها إذا ثبتت نظافته وبراءته.

كان لفرط حرصه يخرج قبل شروق الشمس ويجوب أرض القطن كلها مشمشماً بأنفه، خائفاً لا قدر الله أن تلتقط حواسه رائحة الدودة. فاللطع لا رائحة لها، أما الدودة فأعوذ بالله من رائحتها حين يطب قلبه إذا التقطها بأنفه. . رائحة غريبة على الغيط وعلى القطن وعلى الصبح المبكر. . ملايين الملايين من حيوانات صغيرة متوحشة تلتهم في طريقها كل أخضر ويابس. . كأنها رائحة القبر. . رائحة الموت حين يلتهم الأحياء ويتبرزهم. . رائحة الورق الأخضر الحي وهو يموت، والموت الأسود الزاحف وهو يعيش على الأخضر الحي. كان فكري أفندي يقشعر لمجرد السيرة ولمجرد ومضة الخاطر. وآه لو شمها الخواجة صاحب الأرض. . الخواجة زغيب الذي لا يضطرب فكري أفندي لشيء قدر اضطرابه حين يعلم أنه قادم. حتى وهو يصدر الأوامر للكلافة والتملية برش ما أمام السراية والطريق وكنسه تخرج أوامره راجفة تفضح اضطرابه. ويقولون أن التفتيش كان في أول أمره ملكاً لأحدى البرنسيسات ثم باعته الأميرة للخواجة زغيب الكبير، وصاحب الأرض الحالي ابنه الأكبر. ضخم فحل ذو شعر كثيف أصفر يظهر من صدره وسواعده حين يرتدي القميص والبنطلون والبرنيطة البيضاء المصنوعة من الفل، ويخرج للمرور. طوال المرور لا يبتسم، وإنما يرقد فوق الحصان الذي لا يركبه أحد سواه، يرقد فوقه كالتمثال الأصم. وفكري أفندي هو

الذي يبدو على الركوبة بجواره كالقرد العجوز، طوال الوقت عيناه معلقتان بملامح الخواجة، ولسانه رائح غاد يتحدث ويحاول إضحاكه، ويده تشير وتلفت النظر إلى مصرف تطهر حديثاً وتعمق، أو إلى مشاية أنشأها هو بحذق ومهارة.. يده تشير وتلفت وتداري العيب أيضاً إذا كان هناك عيب، ولا بد أن يكون هناك عيب، يدعو فكري أفندي الله وملائكته ورسله ألا تقع عليه عين الخواجة، ولكن عينه دائماً تقع عليه وكأنما خلقت لا ترى إلا العيب. والفاجعة أنه لا يتكلم حين يراه. ليته يتكلم ولكنه يسكت، وما أبشع سكوته في تلك اللحظات.

كان متزوجاً من فرنسية نادراً ما كانت تأتي معه، فيحاول فكري أفندي اتحافها بسبت صغير من التوت الأحمر الذي تحبه لعلها تدلي في حقه بشهادة تبيض وجهه، ولو بتلك اللغة التي لا يفهمها والتي لا تتحدث الى الخواجة الا بها. وكانوا يقولون إن الخواجة له عشيقة غيرها، وإنه لا يخلف، وإنه لولا دينه الكاثوليكي لكان قد طلقها.. ربما ليخلف ولداً يرث هذا الملك كله. ويقولون ـ وفكري أفندي هو القائل ـ أن له في سرايته المطلة على البحر في سيدي بشر بالإسكندرية حجرة سفرة من الذهب الخالص، كراسيها مطعمة بالذهب وأطباقها وملاعقها وشوكها وسكاكينها ذهب في ذهب. يقولون إن «زغيب» الكبير اشتراها حين عزم الملك لما كان سلطاناً على العشاء عنده ويقولون اكثر من هذا.. يقولون إن الخواجة الابن قد تدهورت أحواله بعد وفاة أبيه، وأنه باع التفتيش فعلا للشركة البلجيكية للأراضي وأنه أستأجره منها وهو الآن يديره لحسابها. تلك رواية، ورواية اخرى تقول إن الأحمدي باشا مليونير المديرية يفكر في شرائه، بل ويتفاوض فعلا مع الخواجة والشركة.. ويتصعب الناس،

الحرام

فالأحمدي باشا هذا كان قبل الحرب العالمية الأولى شيالاً في مضرب ارز، وتاجر فيه وكسب واغتنى واشترى المضرب، واصبح له شُوَن وعمارات وألوف مؤلفة من الجنيهات في البنوك، ويفكر الآن في شراء تفتيش البرنسيسة، والأدهى من هذا أنهم يقولون إنه على استعداد لدفع ثمنه بالكامل نقداً.

الأقوال عن التفتيش وصاحبه الخواجة زغيب كثيرة، ولكن المهم أنه لا يزال صاحب الأرض الذي ترتجف أوصال فكري أفندي لمجرد احتمال قدومه. الساكت الذي لا يخرجه عن سكوته إلا الخطأ إذا لمحه، حينئذ لا يعرف أباه. يفصل ويرفت ويخصم وأحياناً يضرب. وآه من هذا الساعد الضخم الذي تربى على الفراخ والحمام والديوك والخمرة حين يهبد به الواحد فيطبق به قفص صدره.

كان ازدياد لطع الدودة إذن خطراً ساحقاً يجب تداركه، وازدياد اللطع كان يعني لدى فكري أفندي شيئاً واحداً: أن مقاومتها ليست على ما يرام. ومعنى هذا أن الأنفار يتكاسلون، والمشرفين عليهم من الخولة والسائقين والملاحظين يلعبون. وقد تكون هناك أسباب كثيرة لهذا ولكن فكري أفندي كان يعزوه لسبب واحد ليس هناك من سبب سواه. نهيق ركوبته.. هو الذي يكشف قدومه من بعيد ويجعلهم يمثلون أمامه رواية «وطي يا ولد.. وطي يا بنت» التي يجيدون تمثيلها تمام الإجادة. وعلى هذا الغي فكري أفندي الركوبة من مروره، وأصبح يقطع عشرات الكليلومترات سيراً على الأقدام عله يفاجىء مرءوسيه ويضبطهم متلبسين بجريمة الإهمال.

وأكثر من مرة تم لفكري ما أراد وفاجأ صفوف الأنفار من الخلف، وفي

كل مرة كان يخيب أمله بعض الشيء إذ كان يجد العمل قائماً على قدم وساق ولا إهمال هناك أو تقصير. مرة ضبط عرفة ريس الترحيلة جالساً تحت الجميزة في الظل يلعب السيجة مع الاسطى محمد العجوز، ومرة ضبط «صالح» الخولي قد ارسل نفرة من الترحيلة لتحضر غداءه من العزبة ولكن فيما خلا هذا كان العمل جارياً وكأن عرفه ليس جالساً يلعب السيجة، أو «صالح» قد استحل لنفسه أن ينقص العمل مجهود نفرة!

ولكن فكري أفندي لم ييأس فلابد أن هناك إهمالاً ما، ولابد أن يضبط ذلك الإهمال. وفي ذلك اليوم حين عثر على تلك «الظُلّيلة» مقامة بين أعواد التيل المزروعة حول تربيعة القطن، دق قلبه بفرحة الاكتشاف واعتقد أنه أخيراً عثر على الإهمال! فلا بد أن تحت تلك الظليلة أنفاراً يستريحون أو يلعبون. لم يضع جهده إذن عبثاً، ولا راح هباء ذلك الإرهاق الطويل الذي لاقاه من المرور بلا ركوبة سيراً على الأقدام.

ودون أن يسأل عرفة أو يكلمه، ما كاد يرى الظليلة حتى أسرع تجاهها ليضبط المتظللين في حالة تلبس.

كانت الظليلة مصنوعة من جوال قديم مربوط من جهاته الأربع في اربعة اعواد من التيل، وحين فرق فكري أفندي الشجيرات وأطل، فوجيء حين لم يجد انفاراً كثيرين تحت الظليلة. في الحقيقة لم يجد إلا نفراً واحداً. أو على وجه أصح نفرة واحدة. امرأة كانت راقدة على جنبها كالنائمة.

وانقلبت خيبة أمل فكري أفندي الى شراسة، وقال لعرفة وعيونه تقدح بالشرر.

ـ إيه دي؟ نايمة هنا ليه؟ مش ماسكة خطليه؟

فقال عرفة وهو يبتسم ابتسامة ضايقت المأمور اكثر:

ـ دي عزيزة يا سعادة البيه.

وبنفس الشراسة قال فكر أفندي:

ـ عزيزة إيه؟ عزيزة مين؟

ومرة اخرى قال عرفة وهو يخفض ناحية من ابتسامته ويرفع الأخرى:

ـ عزيزة اسم الله على مقامك يا سعادة البيه.

١٣

وكأنما دق جرس صديء دقة واحدة باهتة في عقل فكري أفندي. أممكن أن تكون هي الآثمة التي بحث عنها حتى يئس ونفض يده من البحث؟ الخاطر ضعيف وواه، ولكن أوهى منه هو ذلك الخيط الممتد من ابتسامة الريس، فلو سأله مباشرة فمن المحتمل أن يخاف ويحرن كما تحرن الحمير إذا رأت حفرة في الطريق، وهو أعلم الناس بهؤلاء الناس حين يخفون الشيء ويخافون إظهاره. عليه أن يستعين بالمكر وطول البال وادعاء الجهل عساه يفلح في إخراج كل ما وراء فم الريس المضموم المبتسم هذا.

وقال فكري أفندي بنفس لهجة المأمور في حضرة الخطأ:

ـ محسوبة دي من ضمن الأنفار؟

وخاف الريس أن يكذب فيعاقب على كذبه أضعاف معاقبته على مغالطته فقال:

ـ محسوبة يا سعادة البيه.. وأنا محسوبك.

ـ وازاي تبقى محسوبة نفر وهي نايمة؟

قال الريس بمسكنة:

ـ غلبانة عيانة، مش قادرة تمسك الخطيا سعادة البيه المأمور.

ورد فكري أفندي بعنف:

ـ يبقى ما تتحسبش يوميتها.

قال الريس وأمره إلى الله:

ـ ما تتحسبش يا سعادة البيه، اللي تشوفه.. ما تتحسبش.

ـ لا يا شيخ.

قالها المأمور وقد استعد أن يوجه طعنته. فهو لا يعني ما يستجد، إنه يعني ما فات.. يعني الأيام التي قضتها تلك المرأة راقدة لا تعمل واحتسبت فيها يوميتها زوراً وبهتاناً. والريس كان ايضاً يعرف هذا ويدرك أن العقاب قد يكون فصله بل ومن المحتمل سجنه. ولم يصمد الرجل طويلا.. من تلقاء نفسه قالها. ولم يقلها مباشرة بدأ بمقدمة طويلة عن الفقر والناس الغلابة وعمل الطيب وإلقائه في البحر. ثم انتهى إلى أن عزيزة هي أم اللقيط المقتول، وأنهم حين عرفوا هذا تستروا عليها، فهي ولية وكلنا لنا ولايانا، وحين أصابتها الحمى رأوا أن يرقدوها في الغيط تحت ظليلة لكي يستمر أجرها سارياً، فهي غلبانة آخر غلب، وتنفق على زوجها المريض وأولادها الثلاثة منه.

كان المأمور يستمع إليه وعلى وجهه نفس صرامته الأولى، ولكنه قرب النهاية بدأ وجهه ينفرج قليلاً قليلاً، ثم بدأت الدهشة ترتسم عليه وتأخذ مكان الصرامة، المذهل في الموضوع أنها كانت متزوجة، فلماذا تقتل ابنها وهي متزوجة؟ قال فكري أفندي هذا للريس فأجابه الرجل:

ـ حد عارف يا سعادة البيه؟.. الدنيا مليانة بلاوي.

ـ حد عارف ازاي؟! انت اتجننت واللا جرى لعقلك حاجة؟ بقى واحدة مجوّزة تموّت ابنها خبطلزق كده ويبقى اسمه الدنيا مليانة بلاوي. جوزها عايش يا وله؟

ـ عايش يا سعادة البيه.

ـ ومخلفة منه؟

ـ ومخلفة منه.

ـ كانت بتقتل ولادها قبل كده؟

ـ ابداً يا سعادة البيه.

ـ اشمعنى المرة دي؟

ـ الله أعلم يا سعادة البيه.

الريس بدا وكأنه لم يفكر أبداً في غرابة المسألة، أو أنه كان قد فكر فيها فلم يأخذها أبداً على أنها مشكلة خطيرة تستوجب إعمال الفكر. كل ما في الأمر أن الأنفار حين رجوه أن يصنع معروفاً ويجعل عزيزة ترقد تحت الظليلة في أثناء العمل، فعل هذا عن طيب خاطر، فهو يعرفها ويعرف زوجها وأباها، وكل ما كان يقلقه أن يكشف المأمور أو أحد من رجال الإدارة ما يحدث. ذلك هو كل ما كان يشغله. أما الآن فمشغوليته الكبرى هو التحايل على المأمور حتى يتجاوز عن هذه الغلطة. وهكذا عاد يرجوه ويلح في الرجاء أن يمسحها المأمور في ذقنه وأنا وقعت من السما يا سعادة البيه وانت استلقيتني.. إلى آخر هذه الأقاويل التي يجيد الريس إخراجها ونطقها في كل مأزق.

ولكن المأمور كان في شغل شاغل عنه، فأمله وإن كان قد خاب قليلاً إذ تبين أن ليس في المسألة جريمة أو زانيةولا بنت بكر ضحك عليها شاب أرعن وأغواها، أمله وإن كان قد خاب إلا أن مشكلة المرأة بدأت تستحوذ عليه بطريقة اخرى، لماذا تقتل امرأة متزوجة مثل تلك الملتفة في خرقها السوداء ابنها؟

الريس لا يبدو عليه أنه يعرف شيئاً ويخفيه، والحقيقة لا يمكن أن يعرفها إلا الله سبحانه وتعالى وعزيزة.

قال فكري أفندي للريس:

ـ سألتوها عملت كده ليه؟

قال الريس:

ـ والله ما عرفنا نطلع منها حاجة، وأهي عند سعادتك كلمها. وبغير أن يقول الريس هذا كان في نية فكري أفندي الأكيدة أن يتحرك إلى الظليلة ويتفحص هذه المرأة الذائبة. كانت راقدة في بطن قناية صغيرة من القنوات التي نروي منها الترابيع.. راقدة على جنبها وقد ضمت ركبتيها الى بطنها وامسكت رأسها بكوعيها متكورة على نفسها كالجنين في بطن أمه. ولم يكن يبدو عليها أنها تختلف قليلاً أو كثيراً عن بقية النساء في جيش الترحيلة، إذ كان واضحاً أنها سمراء غامقة السمرة، أو بالأحرى محروقة الجلد.. حرقته الشمس الكاوية التي تنصب عليه أشعتها طوال اليوم بلا حجاب أو حاجز. غير أن فكري أفندي لم يفته أن يلاحظ أن ثنية ركبتها فاتحة. وأن ثوبها الأسود المشقوق في اكثر من موضع يظهر احياناً بقعاً بيضاء كدوائر النور حين ترتسم على الأرض من ثقوب السقف.

حدق فيها فكري أفندي طويلا معتقداً أنها لابد حين تشعر بوجوده فوق رأسها سوف تجلس مثلا أو تعتدل، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث بقيت نائمة لا يتحرك لها طرف أو جفن، وحينئذ قال لها فكري أفندي:

ـ اتعدلي يا بت.

قال لها هذا وهو يلكزها لكزة هينة ببوز حذائه.

ولم ترد أو تعتدل، فقد حولت إليه عينيها حتى واجهتاه. وليتها لم

تفعل. كان وجهها محتقناً شديد الاحتقان حتى استحال لونه الى سواد. وكان في عينيها كتل دم.. دم حقيقي لا يحول بينه وبين أن يسيل إلا ستار لامع رقيق. وكانت أسنانها تصطك وجسدها كلـه يرتعش ارتعاشـاً تكاد العين لا تلحظه.

وبحركة تلقائية غريزية وضع فكري أفندي ظهر يده المغطى بالشعـر والعرق على جبينها. وسحبها في الحال وكأنما أصيب بلسعة وهو يقول:

ـ دي عندها حمى يا وله.

فأجاب الريس:

ـ بقى لها يومين.. غلبانة.. زي ما سعادتك شايف.

ـ شايف إيه؟.. دي تموت كده.

ووجد الريس أن الوقت قد حان فما لبث أن أضاف:

ـ وعلى العموم إذا كنـت سعادتـك عايز تخصـم يوميتهـا والله إللـي تشوفه.

وكان التوقيت مضبوطاً فعلا، فقد هز فكري أفندي رأسه هزات كثيرة ذات اليمين وذات اليسار وهو يردد: لا حول ولا قوة إلا بالله. وكان معنى هذا أنه على الأقل قد قبل أن يتغاضى عن رقـدة عزيزة، وأن يحتسـب يوميتها.

ظل فكري أفندي واقفاً في مكانه طويلا كمن لا يدري ماذا يـفعـل ينظر إلى المرأة المتكورة في سوادها على الأرض الخشنة ذات الطوب والقلاقيل، ويعود ينظر إلى الأنفار، ثم يهيم في سكون الغيط المضيء المقيت..

وفجأة صرخت المرأة الراقدة كما يصفر القطار على حين بغته، ومدت

يدها في وحشية واقتلعت عودين من أعواد التيل ثم انهالت عليهما عضاً بأسنانها وقرضاً وهي تقول مولولة:

ـ جدر البطاط كان السبب يا ضنايا.

ـ وتراجع فكري أفندي إلى الوراء مذعوراً، وبعد ما التقط الريس أنفاسه قال للمأمور:

ـ أصلها لا مؤاخذة بتخرف يا سعادة البيه. الحمى ملهلبة نافوخها.. خد من ده كتير. طول الليل والنهار على كده.. دي بتقول كلام.. باينها شافت كتير الولية دي.. ربنا يكون في عونها.

١٤

حتى وهي في تمام صحتها لم تكن عزيزة بارعة الجمال، ولم تكن حتى جميلة. كانت طويلة رفيعة ذات أنف طويل رفيع ورقعة سوداء تعصب رأسها على الدوام، ووجه أصفر وعينين واسعتين على إحداهما نقطة بيضاء من رمد قديم. ولكنها لم تكن هكذا طيلة عمرها. كانت ذات يوم بنتا حلوة ذات أهداب وشعر ونهود، تضع الكحل وتطقطق بالشبشب إذا سارت وحاذت الشبان. كانت هكذا إلى أن زوجوها إلى عبدالله. وأيضاً كان لها ليلة حنة وفرح ودخلة ونقوط وماء ساخن حملته لها أم عبد الله في الصباحية، صباحية لم تستمر إلا صباحاً واحداً، والصباح الذي يليه كانت في الغيط. لم يكن لزوجها أرض يزرعها وحتى لم يكن له أرض يستأجرها. كان يعمل باليومية، يوم فيه وعشرة ما فيش، وعماده كله على مواسم الترحيلة حين يقبض من الحاج عبد الرحيم المقاول وتحمله عربات النقل إلى تفاتيش كثيرة من تفاتيش مصر في الدقهلية والشرقية وحتى إلى الفيوم وبني سويف كانت تحمله العربات. غير أنه من يوم أن تزوج عزيزة لم تعد العربات تحمله وحده، أصبحت تحمل معه عزيزة. وبدل اليومية الواحدة أصبح يقبض يوميتين. وسنين طوية حافلة قضاها هو وعزيزة في الغربة وبلاد الناس رأيا فيها الكثير وجمعا القليل. ولكنهما

عاشا وخلفا عبدالله الصغير وناهية وزبيدة، عاشا يقبضان القبضية من الحاج عبد الرحيم في موسم القطن ويعيشون جميعاً عليها بقية العام. يعيشون غصباً ومحايلة وبالجبنة احياناً وبالعيش الحاف والملح في أحيان، ولكنهم يعيشون والسلام. إلى أن حدث ما كان لابد أن يحدث. . مرض الزوج، بدأ الأمر بمغص في الجانب الشمال ثم انتقل إلى اليمين ثم سرى في البطن كله، ثم بدأ البطن نفسه ينتفخ بالماء. وقالوا لعبدالله اكو بالنار فكوى بالنار، وقالوا له بلهارسيا وطحال فانهدت البقية الباقية من حيله، وإبر المستشفى في المركز تندك في ذراعه وتفرغ سمها الهاري في جسده وتجعله يهوي، وتجعله يدوخ أحياناً ويرشون على وجهه الماء. ويوم فيه ويوم ما فيش! وكل يوم يذهب إلى المستشفى لابد أن يصحو من الفجر، ويكون هناك في السابعة وإلا ضاع دوره، ويعود في العصر أو في المغرب ماسكاً بردعة حمار من حمير بلدياته مستنداً إليها، أو ماشياً عشر خطوات ومستريحاً عشراً.

ومع هذا كله فقد ظل عبدالله يذبل ويذبل وكأن جسده يموت بالتدريج، ولا قوة في الأرض تستطيع أن تمنعه أو توقفه. . حتى أقعده داء المية. والواقع أن الداء لم يكن هو الذي أقعده، الحاج عبد الرحيم هو الذي هزمه حقاً وطرده من فوق عربة النقل. . ولم تفلح الوساطات أو الشفاعات لديه. إذ ماذا يفعل به والوسية بالتأكيد لن تقبل أن تحتسبه نفراً؟ وبكت عزيزة ونزلت هي الأخرى من العربة. وقال لها الناس: روحي انت فأبت وقالت: نفوتها السنة دي يمكن السنة الجاية نطلع سوا. وغضب عبد الله وقال لها: روحي انت. ولكنها أبت وقالت: وأسيبك على مين؟

وظلت عزيزة بجواره. تخبز للجيران أحياناً، وتلم روث البهائم

وتبيعه، وتسرح بالحطب الى المركز وتعود بقرش أو بقرشين، وفي كل اسبوع أو عشرة أيام تحظى بيومية. وعبدالله راقد في صحن دارهم الواطئة، بطنه عال، وصوته واهن، ويده المعروقة الصفراء تربت على عبدالله الصغير في ناحية وعلى ناهية وأختها في الناحية الاخرى، ويحس انه فعلاً مريض وأنه عاجز وأنه لولا عزيزة لماتوا جوعاً، ومع هذا لا يطاوعه ضميره فيئن وتتقبض يداه وينظر الى السقف المهبب المنهار بعينين قد كبرهما الداء ووسعهما وجعلهما تبرزان وتلمعان لمعاناً غريباً ويقول:

ـ كده يا رب! . . يرضيك مراتي توكلنا؟ . .

كان يستكثر هذا على نفسه، بل عزيزة هي الاخرى كانت تتألم، وهي تراه راقداً أصفر منفوخاً عاجزاً، ولكن الزمن. . الزمن القوي القادر ما لبث أن تكفل بكل شيء، فلم يعد عبدالله يستكثر هذا على نفسه ولا على عزيزة، ولم تعد عزيزة تنظر الى مرض عبدالله على أنه أمر غريب أو نشاز. أصبح كل شيء طبيعياً. هي تخرج في الصباح ولا تعود إلا بشيء، وهو يحرس الدار التي لا شيء فيها ويرعى الأولاد، ويتحين الفرصة ليجرع الماء الذي تحرمه عليه عزيزة حين تكون موجودة، فقد قالوا لها إن علاجه في منع الماء عنه.

أصبح الأمر طبيعياً إلى الدرجة التي قال لها عبدالله ذات يوم بدلع المريض حين يهده المرض ويجعله عصبياً كالأطفال، كثير المطالب كالولد المدلل. قال لها:

ـ نفسي في البطاطة يا عزيزة.

وطلبات المريض مجابة ومقدسة، وكأن أهله يرون فيها الشفاء، أو وداع الدنيا.

وقالت له عزيزة:

ـ يا حبيبي.. من عيني دي ومن عيني دي.

ولم تكن في البلد بطاطة. كانت هناك زرعة بطاطة في فدان قمرين ولكنها جمعت من زمن وبيعت وأرضها تهيأ للأذرة، ولكن طلب عبدالله عزيز وعليها أن تحاول، وهي تعرف أن أهل البلد ـ بعد ما جمعت البطاطة ـ قد أشبعوا أرضها حفراً وتنقيباً بحثاً عن جذر بطاطة يكون قد أخطأته فأس جامعها، وأن لم يعد في فدان قمرين أي أمل في العثور على عقلة أصبع، ولكن طلب عبدالله عزيز وغال وعليها أن تفعل المستحيل.

وحملت عزيزة فأس عبدالله التي صدئت من قلة ما تستعمل، وذهبت إلى فدان قمرين، وقصدت أقل الأمكنة حفراً وأخذت تعمل.. وحفرت إلى عمق متر ولم تجد، وانتقلت إلى مكان آخر أعملت فيه الفأس وأيضاً لم تجد. كانت تجد كل شيء.. جذور الزرع القديم وشقافة ورملا وأحياناً قطع حديد ولكنها لا تجد ابداً جذور بطاطة.

وبينما هي تعمل وتلهث وقد شمرت ثوبها الأسود وربطته حول وسطها كما يفعل الرجال، رأت خيالاً ثم سمعت صوتاً يقول:

ـ بتعملي إيه يا بت؟

وحتى قبل أن ترفع رأسها كانت قد عرفت أن صاحب الصوت هو محمد بن قمرين.

ورفعت عزيزة رأسها وعدلت ظهرها ومسحت عرقها وقالت له الحكاية، ورجته أن يسمح لها بمعاودة البحث، وقال محمد كلاماً كثيراً

عن الحفر وكيف يضعف الأرض ويخفي طميها ويبور المحصول. غير أنها عادت ترجوه وتلحف في الرجاء حتى بكت. ويبدو أنها صعبت على محمد، فلم يوافق على معاودة الحفر فقط، ولكنه كان شهماً فقال لها:

ـ طب عنك انتي.

وخلع جلبابه وأخذ منها الفأس، وتلفت حوله بعين خبيرة ثم انتقى مكاناً ما لبث أن راح ينهال بالفأس عليه، وعزيزة قد جلست غير بعيد ترقبه وتقارن بين حفرها وحفره، والفأس في يدها هي أقوى منها وأثقل والفأس في يده هو. هو القابض عليها.. هو المتحكم فيها.. هو الرجل.. هو الرجل الذي يذكرها بعبدالله حين كان يعمل، وتصبح له العضلات البارزة في بطن ساقه، وتتكور تلك العضلات الأخرى في بطن ذراعه، ويلهث. ليس لهث المتعب، ولكنه لهث الرجل حين يعمل لهث منتظم قوي وقور.

كان محمد بن قمرين في العشرين، وكانوا يتكلمون عن زواجه من ابنة قريبة لهم، وكان معروفاً بشراسته حتى أنه لم يكن يتورع عن سب النساء، ولكنه كان من الغيط إلى البيت ومن البيت إلى الغيط لا يعرف قهوة ولا غرزة ولا أي كلام فارغ مما يعرفه شبان القرية صياعها. حمداً لله إذن أنه عاملها برفق، حمداً لله أنه لم يشتمها، وكتر خيره أنه تطوع بأن يبحث لها عن جذر البطاطة.

خبط محمد خبطتين متواليتين ثم قال لها وهو يبتسم وصوته يضحك، وربما لأول مرة كانت تراه يبتسم أو يضحك:

ـ خدي يا ستي.

وناولها جذر بطاطة صغيراً فرحت به كاللقية، وكادت تهم بالوقوف

فضيحة ومضغة في الأفواه؟ تسكت؟ تعضه؟ حتى ملابسها التي لا تحتكم على غيرها مزقها. كل ما حدث انها ظلت تئن مذهولة مرعوبة حتى قام. وشتمته، ولكن ماذا تفيد الشتائم؟ لم يقل هو حرفاً، فقط ظل ينظر هنا وهناك. الغيط خال تماماً والبهائم والناس تروح من بعيد. وعاد إليها من جديد. وهذه المرة كان يمكن أن تقوم وتجري وتضربه بالفأس إن اضطرت، ولكنها لم تفعل. سكتت وظلت تئن أنين المظلوم الذي لا يخلي نفسه من مسئولية ظلمه.

وفرح عبدالله بالبطاطة وأكل منها الأولاد، وحتى هي نابتها قطعة، وفي الأيام القليلة التالية كانت تراودها ذكرى ما حدث، وتشيح بوجهها وتلعن نفسها وابن قمرين وجذر البطاطة وعبدالله. ولكنها تحمد الله في سرها أن أحداً لم يرها، وإن ابن قمرين تقوَّل عليها فلن يصدقه أحد، ولكنها بعد أيام كانت قد نسيت كل شيء عما حدث، وأي شيء ينسى قدر البحث الدائب عن لقمة العيش. الذين لا ينسون هم الذين لديهم الوقت لكي يتذكروا ويسرحوا مع الذكرى. وعزيزة تبدأ اليوم مسعورة تجري هنا وهناك لتحصل على خبز لذلك اليوم، وتعود منهوكة مهدودة ما تكاد تضع رأسها على المخدة القش حتى يدهمها تعب أشد في مفعوله من النوم. غيبوبة طويلة يوقظها منها ذلك الهاتف الخفي الذي يوقظها كل فجر، هاتف اللقمة والدار الفارغة والأفواه المفتوحة الجائعة.

حتى المرض الشهري حين انقطع عنها لم تعره اهتماماً يذكر، فكثيراً ما كان ينقطع وينتظم ويغيب شهراً ثم يعود. لم تفطن إلا حين بدأت تحس بالحمل. ورغم كل علاماته وإشاراته فلم تصدق أنه حقيقة حمل أمن مرة واحدة أو مرتين يحدث هذا، ومن أجل جذر بطاطة؟!.

أفظع ما في الأمر كان عبدالله . . عبدالله لم يقربهـا من عمر ابنتهـا زبيدة، والناس تعلم هذا. فماذا يقول، وماذا يقول الناس؟ هو لن يقتلها فهو عاجز عن قتلها، والناس لن يقتلوها فهم لن يستطيعوا قتلها، ولكن القتل عندها أهون من أن يعرف عبدالله ويعرف الناس.

كان لا بد إذن من التخلص من هذا الشر المستطير الذي يرقد في مكان ما من بطنها، ويكبر كل يوم ويملؤها ولن يهدأ حتى يخمد أنفاسها. وجربت عزيزة كل شيء. . أعواد الملوخية، وإدارة الرحى فوق بطنهـا والقفز من السطح جربته. ولكنه كان ابن حرام فعلاً فلم يزحزحه كل هذا ولميسقطه ،بل مضى يكبر كل يوم، بل بدأ يلعب، ولا يحول بينه وبين أن يفضحها على الملأ إلا هذا الحزام القوي السميك الذي تتحزم به في غل وجبروت، وكأنها تريد أن تخنقه في بطنها وتقتله قبل أن يقتلها.

كان الحزام يخفي بطنها إلـى حد كبير، وكانـت تتـرك عب جلبابهـا الأسود الواسع مهدلاً فوق الحزام الخارجي، وحين تمشـي وحين تقف وحين تنام وحين تتحدث كانت تراعي دائماً أن تفعل هذا بطريقة لا تدع مجالاً للشك فيها، وكان هذا يؤلمها أشد الألم، وكانـت تتحمـل أشـد الشدائد حتى دون أن يكون لها الحق في الشكوى، والشـكوى أحيانـاً تذهب بالألم. وكانت تحتمل وتكظم، ويفيض بها الحال في ليال وتتنفس بحرية وترفع يديها وأنظارهـا وروحهـا إلـى السمـاء وتطلـب من الله أن ينقذها، إن لم يكن لأجل خاطرها فلأجل خاطر عبدالله الراقد العاجز.

كل ليلة وكل دقيقة تدعو ولا دعاء من دعواتها يستجاب، بل حدث ما هو أمر. جاء الموسم ونادى المنادي في البلد. النفر بسبعـة يا أهالـي والقبض على خمستاشر يوم والغايب يعلم الحاضر.

لم ترض. ولكنها ترد وتقول: ولكني لم أرفض. تضرب رأسها في الحائط وتقول: كنت عارفة إنه حرام وعيب. لم تقاوميه كما يجب. لم تصرخي وقلت الفضيحة. وها قد أتتك الفضيحة الكبرى. انفضحي إذن يا عزيزة واشبعي فضيحة، فلولا أنك ضعفت لحظة لما حدث ما حدث. لحظة.. لحظة ضعف واحدة منها هي التي قاومت طبيعتها حين رقد عبدالله رقدته التي لم يقم منها. قاومت الليالي التي كانت تريده فيها ولا تستطيع أيكون هذا هو السبب في أنها ضعفت تلك اللحظة؟ اللحظة التي أخذها فيها محمد بن قمرين.

* * *

كان عليها أن تنتظر حتى تنام الترحيلة ثم تبتعد عنهم قدر ما تستطيع وتلد. ولكن الولادة ليست بالإرادة. بدأت العواصف المتلاحقة تجتاح بطنها ولم يلبث القرن أن طش، وجيرانها في الفراش والعزال، وجيران جيرانها ومعظم الناس لا يزالون مستيقظين. جارتها تسألها ما بها وملابسها غرقى مبتلة وفي بطنها نار فتقول: رأسي..

وكان لابد مما ليس منه بد. فما لم تلحق نفسها فستلد وهي في مكانها تحت سمع الترحيلة وبصرهم أجمعين.

وقامت منحنية، ولم يأبه أحد لقيامها فقد حسبها تريد أن تفعل مثلما يفعل الناس. وما كادت تبتعد عنهم بأمتار وتغيب قليلا في الظلام حتى بدأ الطلق يثنيها ويفردها. ومع هذا فلم تنس البيضة التي استلفتها ولا قطعة الصفصاف الجافة التي احترق نصفها كانت كل منهما في يد.

وظلت تمشي حتى وصلت إلى حافة الخليج، وظلت تمشي على

الحافة حتى لم تعد قادرة على المشي. وكل هذا ولم تكن قد ابتعدت عن الترحيلة كثيراً. كانوا على مرمى السمع منها تصلها أصواتهم، ولولا الظلام الرابض بينها وبينهم لعرفوها وعرفوا ما هي مقدمة عليه.

ووضعت قطعة الصفصاف الجافة بين أسنانها، وجلست القرفصاء وكلما عوى الطلق المتلاحق في جنباتها انغرست أسنانها لآخرها في الخشب الجاف وتقبضت يدها تعتصر طين الخليج حتى تقذف به وقد، فقد ماءه وجف وتجمد.

وأيضاً لم تنس ما يجب عليها عمله. فما كاد رأس الجنين يطل حتى كسرت البيضة ومضت توزع محتوياتها الزلقة علها تفلح في زفلطة الرأس وخروجه.

وانساب الجنين في النهاية..

انساب مرة واحدة وكأنما انسابت روحها معه، فقد داخت قليلاً ثم غابت عن الوعي برهة. برهة وجيزة فقط، ولكنها حين عادت الى وعيها سمعت، حقيقة سمعت زقزقة خافتة. زقزقة الجنين ما في ذلك شك. ومرة واحدة خرجت منه صرخة.. صرخة خيل إليها أنها ملأت الدنيا كلها وسمعها الناس أجمعون.

وهي لم تكن قد جهزت نفسها لهذا الوقت. كل ما كان يهمها أن تتخلص من هذا الورم الخبيث الذي أضناها طويلا.. ولتتركه بعد هذا أو ليحدث له ما يحدث. وها هو ذا الورم بعد ما تخلصت منه يصرخ ويهدد بالفضيحة الكبرى. ابن سبعة شهور، ولكنه حي ويصرخ. ومدت يداً مرتجفة غير مستقرة، وظلت تعبث بالكتلة البشرية الحية حتى وصلت إلى فمها، وانزلقت أصبعها الصغيرة رغماً عنها ووصل في الفم.. فم.. فم

كاد يوردها حتفها. بدا لها الصباح جميلاً جداً، وبدا لها أن كل شيء سوف يسير كما أرادت تماماً وكأن الله معها.

وفي طريقها إلى الغيط خرجت لأول مرة عن العزلة المقيتة التي كانت قد فرضتها على نفسها، وقد أصبحت منتشية بإحساسها أن لم يعد فيها شيء يمنعها من أن تكون مثل سائر الناس، تخالطهم ويخالطونها وتحادثهم ويضحكون معها. . .

لوية بوزها انفكت، ورأسها غسلته وسرحت شعرها ربما للمرة الاولى منذ شهور، وبدت عزيزة مرحة منطلقة على غير عادتها حتى أنها شاركت الأنفار في غنائهم في أثناء العمل، حين يشتركون في تزويج نفر منهم لبنت، وتناجيه ويناجيها ثم يزفهم الأنفار جميعاً بنشيد جماعي.

* * *

غير أن كل شيء لم يسر تماماً كما أرادت عزيزة.

فبعد يومين بدأت تسخن وتحس بدق متواصل يفتت مفاصلها.

وفي اليوم الثالث بدأت السخونة تتحول إلى نيران تتصاعد من جلدها وجوفها.

كانت قد أصيبت بحمى النفاس.

ولكنها لم تكن تعرف ماذا أصابها، ولا رأت أبداً أية علاقة ممكن أن تكون بين ولادتها في العراء على حافة الخليج وبين ما يحدث لها. كل ما أحسته أن جسدها بدأ يخونها، وأنه لم يعد يطاوعها في يقظتها أو في منامها، ولم تعد قادرة على صلب حيلها في الخط.

ولكن آلام الدنيا كلها وحرارتها كان لا يمكن أن تثنيها عن العمل

فاستمرت تسرح وتروح وتمسك الخط مثلها مثل بقية الأنفار، تدوخ وتزغلل الدنيا في ناظريها وتغم عليها نفسها، ولكنها تضغط على نفسها بجبروت وتقاوم وتنحني وتعمل.

وبالضبط لم تدرك ماذا حدث في اليوم الرابع أو الخامس. كانت في صف الأنفار يقولون لها: ما لك يا عزيزة؟ فلا ترد. وفجأة وقعت في الخط. وأفاقت لتجد نفسها تحت «الظليلة»، ولكنها ما كادت تفيق حتى بدأت تصرخ وتزعق وكأنهم يغدرون بها ويمنعونها من أن تعمل. بل قامت فعلا تريد مواصلة العمل، ولكنها داخت وارتعشت ساقاها تحتها ووقعت. وأفاقت لتجد نفسها مبلولة بالماء الذي رشوه عليها.

ورغم حلقها الجاف ورعشتها المستمرة وأزيز الحمى في جسدها فقد كانت لا تزال فرحة أن خطتها تمضي بنجاح، وأن أحداً لا يعرف ولن يعرف أنها الفاعلة.

* * *

ولكن خطتها قدر لها أن تفشل عن طريق لم تكن قد حسبت حسابه.

فالحمى باتت تشتد ..

وبدأت عزيزة تخرف.

أم الحسن جارتها في الرقاد بدأت تسمع كلاماً غير مفهوم عن جذر البطاطة وابن قمرين وعبدالله والجنين الذي لم يكن يريد أن يكف عن الصراخ.

ومن كلماتها المتناثرة وهمسات النساء واضافاتهن، تكاملت حكايتها وأصبحت خبراً.

وبدأ خبرها ينتقل من جار الى جار، ويتسلل حول القفف، ويخطي

هللت العزبة الكبيرة للخبر بفلاحيها وأسطواتها وكل موظفيها، وحتى بالسائرين في طرقاتها. وكلما التقى أحدهم بالآخر صرخ فيه: مش قلتلك؟ . . عليَّ الطلاق أنا م الأول قلت إنهم الترحيلة. جالك كلامي؟

ويؤمن الآخر على حديثه، بل ويكاد يقسم هو الآخر بيمين الطلاق وينتقل بهما الحديث من اللقيط إلى الترحيلة أنفسهم باعتبارهم أصحابه والمسئولين عنه.

ذلك هو ما حدث. فما كاد أهل العزبة يطمئنون على سلامة أنفسهم حتى بدءوا يستديرون للغرابوة الذين كانوا يتجاهلون وجودهم إلى تلك اللحظة، ويعيشون على أرض التفتيش يكاد لا يحس بهم إنسان. بدءوا كلما ذاع خبر عزيزة ولقيطها وحكايتها يصبحون محط أنظار الناس ومحل اهتمامهم، ولكن أي اهتمام؟!

الفلاحون الكبار والمزارعون لم يفعل الخبر أكثر من أن هيَّج كامن تقززهم من الغرابوة واشمئزازهم منهم، فأصبح الحديث عنهم يسبقه أو يتبعه سيل من الشتائم والبصقات. كأن الترحيلة في نظرهم حثالة آدمية تهبط على تفتيشهم مرة أو مرتين في العام كالوباء الذي لا مفر منه. فما بالك حين يكتشفون أن تلك الحثالة قد صدر عنها شيء حرام كهذا الذي حدث منذ أيام حاولت إخفاءه وإلصاقه بأهل العزبة؟ الترحيلة أنفسهم كانوا يكادون يصبحون شيئاً حراماً، وكأن الناس جميعاً مخلوقات حلال وهم وحدهم مخلوقات حرام، أية بشاعة يصبح عليها الحرام إذا ارتكب حراماً!

نساء الفلاحين هن الأخريات كان لهن آراء مثل أزواجهن وآبائهن. بل أغرب من هذا كن أكثر حماساً وأكثر تحاملاً، وكأنهن يستكثرن على

الترحيلة أن تحمل إحداهن مثلما يحملن، وأن تلد مثلما يلدن، حتى لو كان حملها وولادتها حراماً في حرام.

* * *

وفي عودة مسيحة أفندي إلى بيته في ذلك اليوم كان فرحاً على غير العادة، بل دفعه الفرح إلى التهور وآلى على زوجته أن تذبح لهم في ذلك اليوم وتوسع.

وزاط دميان للاقتراح، لا لأنه سيأكل الرءوس والجناحين كعادته كلما ذبحوا دجاجاً، ولكن لأن معنى هذا أن يتاح له أن ينظف الريش عن الطير المذبوح، وأهم من هذا سيتاح له أن يفتح «القوانص» بالسكين، وفرحته الكبرى كانت حين يخرج أحشاء الدجاجة أو البطة ويتناول منها «القونصة» ويجري عليها السكين فيقسمها نصفين، ويتحسس الحصا الأصفر الذي يعثر عليه داخلها ثم يزيل قشرتها الداخلية التي تطلع في اليد مرة واحدة دون تمزق وبلا مجهود، وتصبح القونصة بعدها نظيفة تكاد من نظافتها أن يلتهمها دميان التهاماً وهي نيئة.

وضحكت لنده لمداعبات أبيها، وقليلاً ما كان يداعبها، ووجدت الفرصة مناسبة فطلبت منه أن يسمح لها بزيارة أم ابراهيم زوجة «أبو» إبراهيم الفقي إذ مرضت المسكينة وأرسلت تطلبها. والعادة كانت قد جرت ألا تخرج لنده إلا لزيارة أسرة المأمور أو في أفراح كبار الفلاحين إذا دعيت إلى فرح، ولكن مسيحة أفندي كان في الحالة التي ممكن أن يسمح فيها بأي شيء ولو كان خارقاً للعادة. ألقى نظرة جانبية على أم لنده وكأنه يطلب رأيها، فرفعت حاجبيها حتى بدا أن رقبتها الرفيعة ترتفع هي الأخرى وتصبح أكثر طولاً وقالت:

وخلافاته ومشاحناته، ينسون حتى آباءهم وزجرهم، وينسون اليوم الشاق الآتي،وكأنهم لا يعودون يذكرون إلا أنهم أبناء لحظتهم، أبناء الليل والأرض، وإخوة الضفادع والنجوم، وأحباء ذلك القمر الحنون النظيف ويلعبون. يلعبون الاستغماية، وضربونا مونا لما عمونا، وعسكر وحرامية، والحجر دقدق، وسرح. يبدءون اللعبة وفي دورين يكونون قد زهدوا فيها، فينتقلون بخفة وبساطة إلى غيرها وغيرها، ضاحكين صاخبين لا يعكر صفوهم معكر.

في تلك الليلة اقترح واحد من الأولاد على زملائه أن يذهبوا ويتفرجوا على الترحيلة وأولادها وهم يلعبون. وفوجيء صاحب الاقتراح نفسه بالضجيج العظيم الموافق الذي لاقاه اقتراحه إذ هو قد اقترح هذا وهو خائف، ذلك أن من الامور المتعارف عليها بين الفلاحين أهل العزبة أن من المستحيل على اولادهم أن يلعبوا مع أولاد الترحيلة أو حتى يقتربوا منهم، وكأنهم سيصابون بالجذام لو فعلوا هذا. ولم يكن أحد يسأل عن سر ذلك التحريم أو يحاول مناقشته، وهل يستطيع أحد أن يناقش أباه حين يقول له هذا عيب، أو هذا حرام. حين تذكر كلمات كهذه فعلى الولد أن يطيع وليس عليه أن يقول ثلث الثلاثة كام.

هلل الأولاد لاقتراح زميلهم موافقين، مع علم كل منهم أنه شيء عيب لا تصح الموافقة عليه. وحين تبينوا أنهم جميعاً موافقون متحمسون ازدادوا خفة وحماساً لتنفيذ الاقتراح وكأنه لم يعد حراماً، وكأن الشيء الحرام إذا وافق عليه الجميع أصبح حلالاً زلالاً لا شك فيه.

وما أسرع ما أصبحوا يتسابقون ليروا أيهم يستطيع الوصول أولا إلى مكان الترحيلة وكأن معجزة تنتظرهم هناك، أو كأنهم على الأقل سيرون

تلك المرأة التي سمعوا آباءهم وأمهاتهم ينعتونها بأقبح الألفاظ ويصِمونها بأشنع التهم.

ولكن ما أن عبر المتسابقون القنطرة الحجرية التي تفصل العزبة الكبيرة عن مباني الإدارة والسراية والمخازن والجرن والاصطبلات ووصلوا إلى ما خلف الأخيرة، ورأوا في الظلام المقاطف والقفف والزلع مرصوصة متناثرة كشواهد وضعت خصيصاً لتدل على مكان الترحيلة. ما أن رأوا هذا حتى كفوا عن الجري ثم راحوا يتسللون الواحد وراء الآخر على أطراف أصابعهم ليصلوا الى حيث يلعب أولاد الترحيلة.. لابد في وسعاية الجرن. وكانوا خائفين جداً وهم يتسللون عبر مكان الترحيلة وكأنهم مارون على قبيلة من قبائل الجان حطت رحالها ونامت في ذلك المكان. ومع خوفهم الشديد فلم يستطيعوا كتم ضحكاتهم، فقد سمعوا أصوات شخير كثير متصاعد من الترحيلة.. شخير غير منتظم تماماً كنقيق الضفادع في الخليج الذي يجاورهم وأرض الأرز، والذي أضحكهم أن الضفادع كانت تنقنق فيبدو وكأن الترحيلة ترد عليها بشخيرها، وكلما شخرت الترحيلة ردت عليها الضفادع بالنقيق.

وفعلاً كان أولاد الترحيلة يلعبون في وسعاية الجرن بعيداً عن آبائهم الراقدين متعبين، وبعيداً في الوقت نفسه عن المكان الذي يلعب فيه أولاد العزبة. لم يحرم أحد عليهم الاقتراب من اولاد العزبة وهم يلعبون ولكن من مجرد معاملة الفلاحين لهم كانوا يدركون أن هذا بالتأكيد شيء محرم، وأن واجبهم أن يبتعدوا عن العزبة وأولادها قدر الطاقة.

وقف أولاد العزبة من بعيد يتفرجون.. وكانوا يتوقفون هنيهة وكأنهم يتوقعون معارضة أو زجراً، وحين لا يجدون يتقدمون. الجرن واسع كبير

عاد الأولاد يتسللون إلى مضاجعهم من سكات، وفي عزمهم الأكيد أن يذهبوا كل ليلة ويلعبوا مع أولاد الغرابوة، وفي عزمهم الأكيد ايضاً أن يخفوا هذا عن آبائهم حتى لو فتن عليهم عبد المطلب الخفير.

١٦

على ضوء لمبة نمرة خمسة نظّف زجاجها بعناية حتى لا يحجب أي قدر ولو ضئيلاً من النور، موضوعة على رف خشبي في أعلى الحائط. . كانت الحجرة تبدو أنيقة مرتبة على غير ما جرت به العادة في بيوت الفلاحين. فالسرير البوصة ونصف المرتفع الذي يكاد يحتاج الى سلم للصعود عليه نظيف ومعتنى به، و «دايره» الأسفل يحجب ما تحته من كراكيب وخزين، و «دايره» الأعلى يزين الناموسية. . وفي الواجهة دولاب وإن كانت مرآته مشروخة إلا أن الشرخ رسم عليه بالاسبيداج شجرة ذات أزهار وأثمار لتخفي الشرخ. وبجوار السرير مقعد بمسندين له كسوة من قماش أبيض بولغ في تزهيره في أثناء الغسيل. والأرض وإن كانت جرداء بلا خشب أو بلاط إلا أنها مكنوسة ومرشوشة ومغطاة بطبقة رقيقة من الرمل. والقلل موضوعة في الشباك عليها أغطيتها المعدنية وفوقها شاشة زيادة في الحرص على النظافة والأناقة، بالاختصار كل شيء في الحجرة يحاول أن يبدي أحسن ما فيه.

وكان بالحجرة شخصان لا ثالث لهما، أم ابراهيم نائمة على السرير في أتم صحة وأبهى منظر،وإن كان من يشاهدها ويرى كيف تتكلم وتتأوه يظن أنها مريضة في عنفوان المرض، ولنده جالسة على الكرسي الوحيد

عنه، وتضعه كأعتى مثل للرجل والفحل والذكر. هنا بدأت لنده تخجل وتكاد تغلق أذنيها عـن السمـاع، ولكن إلحاح أم ابـراهيم كان لابـد أن يتغلب على خجلها ويفتـح أذنيها البكر، إلحاح خبيرة يبدو وكأنه دلال وتقل، إلحاح من تعرف كيف تتكلم ثم تصمت حين يبلغ حب الاستطلاع بسامعتها اشده، وكيف تقطع الحديث فجأة إذا رأت الخـوف الحقيقـي الذي يعقبه الرفض يتسرب الى سامعتها من هول ما تقول، تاركة للأيام والساعات والتأمل المنفرد والتطلع الى الشيء المحرم الجديد أن تفعـل فعلها، وتلين الحديد، وتجعل من الممجوج مقبولاً ومعقولاً ومرغوباً.

وكان أن أصبحت لنده تؤمن بأشياء كثيـرة، تومن بأن البنات يمكنهن ان يستمتعن بما تستمتع به النساء ويبقين مع هذا بنات، تؤمن بأنها تعيسة ومحرومة من أكبر سعادة، وأنها ستظل هكذا إلـى أن تتـزوج. . ومتـى تتزوج؟ الله وحده يعلم. وتؤمن بأن هناك شيئاً لازماً لجسـد الأنثـى هو الرجل. وكانت أم ابراهيم قد تكفلت بجعلهـا كلمـا فكرت في الرجـال تقرنهم في خاطرها حتماً بأحمد سلطان.

عند هذا الحد بدأت ام ابراهيم تغير النغمة، وتحمـل سلامـات من احمد سلطان للست لنده. سلامات كانت تعجب لها لنده أول الأمر إذ أن أحمد سلطان هذا له في التفتيش سنوات دون أن يرسـل لهـا سلامـاً أو كلاماً. ثم إن السلام الوحيد الذي كانت تهتز له لنده هو السلام حين كان يجيئها من صفوت، ونادراً ما كان يجيئها من صفوت سلامات.

ولكن ام ابراهيم كانت بارعة، فكانت توصل إليها السلام وكأنه شيء من وحي الساعة بلا هدف وبلا تدبير. ثم بدأت السلامات تصبـح عن عمد، ثم فتحت أم ابراهيم للنده قلبها وأخبرتها أنها تريد أن تقول لها سراً

خفياً لا يعرفه إنس ولا جان. ولم تبدأ بإخبارها إلا بعد أن أقسمت لنده بالمسيح والإنجيل أنها لن تخبر أحداً. وأعادت القسم لكي يطمئن قلب ام ابراهيم. حينئذ قالت لها ام ابراهيم مبهورة الأنفاس وكأنها الرجل حين يعترف لفتاة، قالت لها إن أحمد سلطان يحبها حباً لا يتصوره العقل، وأنه لا مطمع له ولا هدف أبداً من وراء هذا الحب، كل ما في الأمر أنها زارته ذلك النهار حين تعبه جنبه فباح لها في نوبة ضعف بسرٍّه، وطلب منها أن تكتمه دوناً عن الناس جميعاً، ودوناً عن لنده بالذات. ولكن للصداقة قيوداً وواجبات، ولم تتصور ام ابراهيم نفسها أنها تعرف شيئاً خطيراً كهذا ولا تقوله لحبيبة روحها لنده. وفي اول مرة ضحكت لنده حتى كادت تموت من الضحك، ضحكاً جعل قلب ام ابراهيم يدق بالاضطراب إذ خوفها الأكبر كان أن تأخذ لنده الأمر على محمل الهزل فيفسد تدبيرها ويفسد كل شيء. ولنده فعلاً كانت قد أخذت الأمر دون أن تلقي إليه بالا كثيراً، إذ كان شغل أحلامها الشاغل أن تتصور صفوت ابن المأمور وهو يطالعها بوجهه الحبيب الى نفسها ويقول لها هذا الكلام. ولم تكن تتوقع ابداً أن يأتيها كلام كهذا من ناحية احمد سلطان، مرءوس أبيها الذي لا يمكن أن يكون فتى أحلام بنت في مثل هيئتها ومركزها.

حين احست ام ابراهيم بهذا غيرت موضوع الحديث في الحال ولم تحاول مجادلتها أو إقناعها، ولكنها عادت الى الحديث في اليوم التالي بطريق التلميح والإشارة العابرة. وفي المساء عادت تطرق الموضوع وفي كل مرة كانت تقابل فيها لنده كانت تصف لها فيها حالة احمد سلطان وما يعانيه من وجد وهيام حتى تأكدت لنده تماماً واقتنعت فعلاً أن احمد سلطان يحبها دون أدنى شك، ولكنها لم تكن تستطيع أن تفعل من أجله شيئاً. قالت هذا لأم ابراهيم، وام ابراهيم بدورها لم تعلق على قولها

وكان لابد لحديث ما أن يدور.

ودار الحديث حول اكتشاف ام اللقيط واكتشاف انها متزوجة، وأنها حملت من وراء زوجها دون علمه. وتناست ام ابراهيم انها مريضة واعتدلت تقص على لنده حكايات عن الترحيلة وبشاعة اخلاقهم، وكيف أنهم لا يتورعون عن ارتكاب اي جريمة أو خطيئة بلا خجل أو حياء وكأنهم ليسوا بشراً، وكأنهم قطيع من حيوانات أو اغنام. وكانت لنده توافقها موافقات قلقةمضطربة ،وتؤكد لها في نهاية كل موافقة أن الله حتماً سيغفر لهم إذ هم جهلة لا يدركون ماذا يفعلون. وتصر لنده على حكاية الغفران هذه بطريقة تبعث الريبة في صدر ام ابراهيم، فتجعلها تكف عن الحديث وتغير الموضوع:

وسألت لنده عن الشيخ «أبو» إبراهيم مشيرة الى قفطانه المعلق على شماعة عند رأس السرير، فقالت ام ابراهيم إنه ذهب إلى العزبة نمره ستة ليحيي مولداً هناك، وفعلا.. ولو كانت لنده قد صعدت إلى السطح وأصاخت السمع لرأت «كلوباً» موقداً بعيداً في الناحية القبلية، ولجاءها صوت الشيخ «أبو» إبراهيم وهو ممسك حلقة الذكر على الواحدة، منسجماً مع الإمام البرعي في بردته المشهورة.

وعاد الحديث الى سكون كاد يطول، وكاد يؤدي الى جو الترقب والانفعال الذي سيطر على الحجرة منذ دخلت لنده، غير أنه لم يطل. سمعتا دقة على الباب الخارجي المفتوح.. دقة من يعلم من في الداخل بقدومه.

وقالت ام ابراهيم بصوت متمارض ممدود، وهي متأكدة تماماً من شخصية القادم:

ـ مين؟

وشحب وجه لنده وبدأت مسامها تتحبب وشعرها يكاد يقف.

ودخل احمد سلطان، طربوشه الغامق مائل على جبهته يكاد يخفي شعيرات حاجبه الأيمن، وجلبابه الحرير البلدي مكوي، والبالطو الأسود فوقه، وذقنه حليق والنور يطل من وجهه، وشاربه مقصر ومزوق. وقال بابتسامة واسعة مدربة، وكأنه لم يلحظ وجود لنده:

ـ مساء الخير يا ام ابراهيم. ما لك؟

فأجابت ام ابراهيم بنفس تصنعها:

ـ يسعد مساك يا احمد افندي.. ما فيش! الظاهر إني باسقطواللا إيه ما اعرفش. مش تمسي يا احمد افندي.

وبلفتة تمثيلية مبالغ فيها انحرف احمد قليلا ورفع حاجبيه إلى أعلى وكأنه فوجيء وقال:

ـ الله! الست لنده هنا؟ مش تقولي يا ام ابراهيم.

وهمَّ ان يستدير على عقبيه ويغادر الحجرة تأدباً، ولكن صوت ام ابراهيم ارتفع ومضى يصر على بقائه قائلة:

ـ هو انت غريب يا خويا! ما غريب إلا الشيطان.

كل هذا ولنده جالسة في مكانها وكأنها في دوامة، لا تستطيع أن تنظر ناحية احمد سلطان، ولا ناحية ام ابراهيم، ولا في سقف الحجرة أو حتى في ارضها. وبدا أن احمد سلطان وكأنما استجاب لإلحاح أم ابراهيم فتنحنح وتقدم بضع خطوات وقال بتلعثم:

ـ اتبن بقول البيت منور ليه.. مساء الخير يا لنده هانم.

وساد وجوم قليل، وحركت لنده شفتيها بلا صوت مع أنها أرادت أن ترد، وتداركت ام ابراهيم الموقف قائلة:

مسيحة افندي من وقت قريب وهو يعجب لتلك الزيارة المفاجئة في ذلك الوقت من الليل.

ولكن عجبه الآن لابد أنه يزول، فها هي الهمهمة تصله فلا يسمع فيها إلا صوت مسيحة أفندي وهو يتحدث بلا انقطاع، وسعال أبيه وهو يستمع دون أن ينطق حرفاً. ها هي ذي فترة سكون تحل، لابد أنه يريد فيها الخطاب. ألا سحقاً له وللخطاب ولليوم الذي تحدث فيه عن لنده مع احمد سلطان يوم عثروا على اللقيط.

فبعد الحديث هاجت في قلبه الأحاسيس، وتملكه خاطرعات يهيب به أن الأوان قد آن ليبوح للنده بكل ما يكنه لها قلبه ويكشف عن أحاسيسه.

وفكر واستغرق يومين في التفكير، ثم كتب ذلك الخطاب الملعون.. كتبه بعد عشرات المسودات التي مزقها ولم تعجبه صيغتها. وظل الخطاب في جيبه يومين، يتردد أحياناً في إرساله ويحتار أحياناً اخرى في كيفية إرساله.

ثم فكر في محبوب هذا الذي أشاعوا أنه يرسل لها الخطابات عن طريقه، لماذا لا يستخدمه؟ واستعبطمحبوب أول الأمر، ثم لما عرف تردد وخاف، وقال إنه حلف من يوم أن اكتشف خطاب امرأته معه ألا يحمل خطابات من هذا النوع. ولكن صفوت ظل يهدده ويطمئنه ونفحه بالمرة ريالا. وبان على محبوب أنهقبل،ولكنه عاد وقال إنه يخاف أن يضبطمعه الخطاب فيروح في داهية، وأقسم له صفوت أنه سيكون مسئولا إذا حدث أي شيء. وإلى الآن لا يدري صفوت هل كان رضاء محبوب بتوصيل الخطاب رضاء نابعاً من قلبه،أم كان رضاءيخفي وراءه أخبث قصد، وإلى

الآن لا يدري هل هي فقط مجرد سذاجة من محبوب أن يذهب إلى بيت مسيحة أفندي ويسأل عن الست لنده من الباب للطاق، فيستوقف سؤاله انتباه مسيحة أفندي فيجذبه إلى الداخل ويضيق عليه الخناق ويفتشه فيعثر معه على الخطاب بكل بساطة. هل هي سذاجة من محبوب حين فعل ذلك، أم أنه الخبث.. خبث ذلك الرجل الأمرد القصير الذي أبى أن يمثل دور رسول الغرام لأمر في نفسه، فكشف عن قصده عن عمد لمسيحة أفندي، وأصبح ليس عليه بعد أن وجدوا معه الخطاب إلا أن يقول:

ـ وأنا مالي؟. سي صفوت بيه هو اللي أمرني، وأنا عبد المأمور. وليت الموضوع اقتصر على هذا، ليت المصيبة كانت في الخطاب وحده. المصيبة الكبرى أن صفوت لشدة ما كان يعتريه من قلق على خطته ظل يراقب بيت مسيحة أفندي من اللحظة التي سلم «محبوب» فيها الخطاب، ولم يتح له أن يرى«محبوب» وهو داخل الى البيت،فقد فوجيء بعد المغرب بقليل بلنده نفسها خارجة من البيت في أبهى حلة وأتم زينة. وأول الأمر اعتقد أنها ذاهبة الى بيتهم هم في أمر ما، ولكنها لم تعبر القنطرة الحجرية ولم تأخذ الطريق إلى بيتهم، ولكنها انحرفت ناحية العزبة وظل هو يتتبعها من بعيد ويخمن قصدها، ولم يتح له أنه يخمن طويلاً إذ ما لبث أن وجدها تطرق باب بيت الشيخ «أبو» إبراهيم الفقي وتدخل. ترى ماذا تراها ستفعل في بيت الشيخ «أبو» إبراهيم؟ سؤال ظل يلح عليه طويلاً دون أن يعثر له على إجابة ما. وأخيراً أقنع نفسه بأنها ذاهبة لا بد لزيارة أم إبراهيم.

وهنا بدأت ملامحه تبرق وبدأ خاطر جنوني يستبد به. الشيخ أبو ابراهيم في العزبة نمرة ستة يحيى المولد الذي هناك، ولنده الآن جالسة

وحدها مع امر ابراهيم. اليست هذه فرصة جاءته من السماء على غفلة؟ وما الذي يحدث لو دخل الآن بيت الشيخ «أبو»إبراهيم مدعياً أنه يسأل عنه مثلاً أو أنه يريد مناقشته في موضوع خاص والنقاش بينهما أمر معروف، إذ كثيراً ما قضيا جزءاً كبيراً ساهرين عند القنطرة أو أمام دكان جنيدي يناقشان المسألة الأزلية: الله ووجوده والخيار والإلزام. والشيخ ابو ابراهيم يستمع لشكوكه وحيرته بصدر رحب سمح، ويطول بينهما النقاش ولا يتفقان. لماذا لا يدعي السؤال عنه ويدخل، وإذا عزمت عليه ام ابراهيم يجلس

ولا بد أنه سيدور الحديث، ولا بد أنه سيجد فرصة ينفرد فيها بلندة ويخبرها بمكنون قلبه، وقد يوصلها إلى بيتها بعد انتهاء زيارتها. ورغم وجاهة السبب ووجاهة الفكرة فقد ظل صفوت متردداً، أحياناً يتحرك خطوات في اتجاه البيت فتخونه شجاعته ويتوقف وهو محرج أيما إحراج إذ المكان الواقف فيه مكان مكشوف تمر عليه الناس فيه وتحييه وتعجب والمسألة يلزمها بعض التروي والتفكير. فقدرته على مواجهة لنده قد انتابها ضعف كبير من اللحظة التي قرر فيها أن يصارحها بحبه. وهكذا انتحى صفوت ركنا من الشارع اختاره بجوار صومعة غلال قائمة تكاد تحجبه بحجمها الضخم عن الأنظار، ومضى يقضم أظافره ويعمل فكره واضطراب عظيم قد تملكه. وبينما هو كذلك رأى احمد افندي سلطان قادماً من أول الشارع بطربوشه ومعطفه اللذين لا تخطئهما العين. وازداد التصاقاً بالحائط واختفاء وراء الصومعة حتى لا يراه احمد سلطان فيعيره بموقفه ذاك عدة ليال وسهرات. ولكن أغرب شيء أن أحمد سلطان لم يمر عليه، إذ قبل أن يصل الى منتصف الشارع انحرف ودق باب الشيخ «أبو» ابراهيم المفتوح ودخل. قلب صفوت هو الآخر دق في عنف وتولته حيرة عظمى كادت تحجب الرؤية عن عينيه. ولكن عينيه ما لبثتا أن رأتا

الباب . . باب الشيخ تحركه يد نسائية من الداخل، ثم ما لبث ان انصفق وانغلق. وتصاعدت الدماء في نافورة حارة الى رأسه. وخرج من مخبئه واسرع يلهث حائراً في اتجاه الترعة كمن لدغته لتوه حية رقطاء.

والف شيء فكر فيه في تلك اللحظة.

فكر أن يذهب ويحضر البندقية ويقتحم البيت ويطلق عليهما ظرفين دفعة واحدة. فكر في أن يسكت وينتظر إذ ربما يكون الأمر قد حدث صدفة. فكر في أن يذهب ويطرق الباب بحجة أنه يسأل عن الشيخ «أبو» ابراهيم ويفاجئهما بظهوره. فكر في كل شيء ولكنه كان دائما يجد نفسه عاجزاً عن أن يفعل شيئاً وكأن إرادته قد أصيبت بشلل مفاجيء، ولم تعد تستطيع إلا البكاء. ولكنه رفض أن يخضع لإرادته ويبكي، وفجأة وجد أن همه كله أصبح في أن يعثر على محبوب قبل أن يذهب بالخطاب فيأخذه منه، إذ لم تعد له حاجة به، ولم تعد تنفع ال. . خطابات.

ولكنه لم يجد «محبوب» وعبثاً حاول العثور عليه وكأن اهدافه من الحياة قد تبلورت كلها في العثور على محبوب. وحين فشل في هذا ايضاً احس انه قد أصبح يريد البكاء. وهكذا عاد الى البيت وانهار فوق سريره يريد ان يبكي. ولكن البكاء استعصى عليه هذه المرة، وبقي راقداً مفتح العينين كالمجانين. إلى أن أحس ببابهم يدق وبمسيحة أفندي يطلب مقابلة أبيه لأمر عاجل، ويقوم أبوه من النوم ويفتح حجرة الجلوس. ويجلس ومسيحة أفندي، ويسمع بأذنه مسيحة وهو يروي لأبيه تفاصيل ما حدث حين جاءهم محبوب يسأل عن الست لندة، وعما قليل سيأتي أبوه ويحاسبه الحساب العسير.

ظل صفوت راقداً مفتح العينين ينتظر اقتراب الخطوات التي يعرفها

جيداً. . خطوات أبيه، وهو مستعد لمواجهته كل الاستعداد، وكأن لم يعد مهماً لديه بعد ما حدث أن يحاسب على أي شيء وأن يتهم بأية تهمة. ولكن خطوات أبيه حين اقتربت حقيقة وجد صفوت نفسه يغلق عينيه ويدعي النوم. ووقف أبوه بباب الحجرة والمصباح في يده طويلاً، وكأنما هو متردد بين أن يوقظه وبين أن يترك أمر محاسبته وعقابه للصباح.

ويبدو أنه آثر في النهاية أن يترك كل شيء للصباح فالصباح رباح.

* * *

ولكن فكري أفندي لم يستطع محاسبة صفوت في الصباح، إذ استيقظوا فلم يجدوه، ولكنهم وجدوا خطاباً منه يقول فيه إنه ذهب ليبحث عن عمل في الإجازة في مصر بعيداً عنهم وعن التفتيش، وأنه لم يجد فائدة في مجادلتهم فهم حتماً سيعترضون. ويقول في الخطاب أيضاً إنه آسف لأنه اضطر «لاقتراض» كل ما في كيس أمه من نقود ويعد بردّها جميعاً حين يقبض أول ماهية، والمضحك أن الورقة التي كتب عليها الخطاب يبدو أنها كانت إحدى مسوداته لخطاب لنده، إذ كان في ظهرها كلمة حبيبتي مشطوبة ومعاداً شطبها. ولم يفعل فكري أفندي شيئاً أكثر من أن قرأ الخطاب مرة اخرى ثم مزقه وهو يحاول إخفاء رضائه عن هروب صفوت، فالواقع أن صفوت أسدى إليه معروفاً، وأراحه من مهمة محاسبته ومواجهته، وتلك ـ بالنسبة إلى فكري أفندي ـ كانت دائماً مهمة عسيرة على نفسه وشاقة يتألم لها أضعاف ألم صفوت منها.

١٧

أقيمت «ظليلة» اخرى لعزيزة بجوار أم الترحيلة تماماً، إذ لم تعد ثمة حاجة لذهابها كل يوم مع الأنفار ما دام المأمور قد عرف ووافق على أن تحتسب يوميتها وهي راقدة.

وتكفلت الظليلة والمرأة الراقدة تحتها بلفت نظر الناس وتعريف من كان لا يزال لم يعرف بعد بحكاية عزيزة. والحقيقة أن سلوك أهل التفتيش تجاه حكاية عزيزة كان سلوكاً غريباً. فأول الأمر كان همهم أن يثبت أن الفاعلة واحدة من الترحيلة. وحين ثبت هذا واطمأنوا، دفعهم حب الاستطلاع لمعرفة قصة هذه الفاعلة. وحين عرفوا القصة وأشيع أن صاحبتها قد بلغت من المرض حد أن رقدت في مكان الترحيلة أصبح كل همهم أن يروا تلك المرأة ويتأملوا كيف تكون وماذا تشبه. ومن أجل هذا كانوا يقبلون جماعات وأفراداً، نساء ورجالا، وحتى صبية وأطفالا. كان القادم ليتفرج على عزيزة منهم يدعي أنه في طريقه إلى الجرن أو ماكينة الري أو سارح الى الغيط وحين يرى الظليلة يتلكأ، وكأنما قد استوقفه منظرها، ويروح يسأل وكأنما هو لا يعرف، ويحدق في المرأة الراقدة ويطيل التحديق.

كان هذا يحدث أول الأمر، ولكن بمضي الوقت لم تعد هناك حاجة

للادعاء، فقد كان من يريد التفرج على عزيزة يقف صراحة غير بعيد عن مكانها ويظل منتظراً أن تستدير أو يخرج منها صوت أو تبدو لها ملامح. وبعد أن كان الناس يعملون حساباً لوجود بلدياتها الغرابوة إذا وجـدوا أصبحوا يقفون للتفرج على عزيزة حتى في وجود الغرابوة. وكانوا يفعلون هذا دون أن يتبادلوا كلمة واحدة مع الغرابوة،وكأن ليس لهم بهم دعوة أو صلة، وكأن عزيزة لم تعدمنهم، وإنمـا أصبحـت ظاهـرة عامـة من حق الجميع أن يروها ويتفرجوا عليها. وكان الغرابوة يتقبلون هذا الوضع بكثير من الاحتمال وضبط النفس.

غير أن عزيزة بدأت تخرف وتصرخ صرخاتها المحمومة ويخف إليها بلدياتها يحادثونها ويصبرونها ويهدهدون عليها وكأنها واعية عاقلة مدركة لما تقـول، حين بدأت تفعـل هذا بدأ الجمـود يذوب، وبـدأت ألسنة المتفرجين من أهل العزبة تنطلق وتتحدث مع الغرابوة، وتشارك بكلمـة عطف أو بمصمصة شفة. ثم تجر الكلمـة كلمـات، ويبـدأ حديث بين الرجال والرجال والنساء والنساء.

ولكن عزيزة بعـد ثلاثـة أيام من رقادهـا بدأت تتشنـج . . يتخشـب جسدها حتى يصبح جامداً ناشفاً كالعصـا وتعض لسانهـا حتـى تدميه. وكان أهل العزبة حينئذ لا يستطيعون أن يتمالكوا أنفسهم أمـام منظرهـا فيسرعون،مثلهم في هذا مثل بلدياتها الترحيلة، ويتعاونون في فتح فمها وتدليك جسدها وتنشيقها بماء البصل.

وأسلم التشنج عزيزة إلى نوبات هلع مفاجىء، إذ بدأت تقوم بغتة من نومتها صارخة صاخبة، وتنطلق جارية الى الخليج القريب وتقذف بنفسها فيه بملابسها، وكأنها تريد إطفاء نار مشتعلة فيها. حينئذ كان يتعاون أهل

العزبة مع الترحيلة في اخراجها من الماء وحملها وإرقادها في مكانها تحت الظليلة. وفي تلك المرات كانوا يجلسون الى جوارها في جماعات مختلطة من الغرابوة وأهل العزبة، جماعات حين تهدأ عزيزة ويطمئنون عليها تمضي تتحدث، ويبدأ الحديث عن عزيزة وحالتها، وينتهي الى الحديث. . كل عن نفسه وأحواله.

وما أسرع ما انتقل التغير في لهجة الحديث عن عزيزة، فبعد أن كان الواحد من أهل العزبة يروي حكايتها للآخر وهو يكاد يتقزز منها ومن حكايتها ومن الغرابوة بشكل عام، أصبحت الحكاية تحكى باختصار وكأنها أصبحت عيباً، وكأن في الإفاضة فيها خدشاً لحرمة حرمة وشرف ناس. حتى اولئك الذين كانوا يذهبون بغية التفرج على عزيزة قل عددهم وكادوا ينعدمون.

وحين ازدادت شدة المرض تكاتفت الجهود تبحث لها عن البرشام الأصفر في كل بيت وعزبة، وأعطاها جنيدي قنينة خل بنصف الثمن، وذبحت لها نبوية ـ عن نفسها وعيالها كما قالت ـ أرنبة صغيرة وطبختها وحملتها في حلتها الى أم الترحيلة كي تطعمها إياها. وفعلت هذا بين دهشة أهل العزبة واستكثارهم أن تفعل نبوية الفقيرة المعدمة هذا، ولكنها فعلته بكل شهامة، ولم يقلل من شهامتها أنها حين استعادت الحلة غسلتها بالتراب والطين وشاهدتها سبع مرات قبل أن تعود وتستعملها.

وهكذا، وحول مرقد عزيزة وظليلتها بدأ اختلاط مًّا يحدث بين أهل العزبة والترحيلة. كان اختلاطاً متحفظاً أول الأمر وفي حدود، ولكن أهل العزبة اكتشفوا من خلاله أن الترحيلة لهم بلاد هم الآخرون، ويعرفون مثلهم في الفلاحة ويفلحون، ولهم ايضاً بيوت وقرايب وعمات وخالات

وبينهم مشاحنات وخلافات، ولهم من الريس شكاوى ومن المأمور والإدارة والتفتيش شكايات.

وهكذا أيضاً راح أولاد العزبة يلعبون مع أولاد الترحيلة عيني عينك أمام الآباء الذين كانوا لا يمنعونهم من اللعب معهم، ولكنهم فقط يوصونهم ألا يدعوا أولاد الترحيلة يتنفسون في وجوههم، إذ من الجائز أن يكون في أنفاسهم «مكروب».

ورغم أن فكري أفندي في تلك الأثناء كان مشغولاً مشغولية كبرى على ابنه، مع أنه لم تكن تلك أول مرة يتركهم فيها صفوت ويذهب الى مصر مدعياً البحث عن عمل في الإجازة، إلا أنه كان فقط يريد أن يطمئن على مكانه، إذ أن النقود التي أخذها كان لا يمكن أن تكفيه، وكان لابد أن يرسل له نقوداً اخرى تكفيه.

ولكن على الرغم من مشغوليته الكبرى هذه فقد كان مشغولاً أيضاً بعزيزة، وهو نفسه لا يدري لماذا منذ أن عثر عليها أصبح يحس وكأنه مسئول عنها، وكأنما كان يبحث ليعثر عليها ويصبح مسئولاً عنها، كان في ذهابه الى الغيط يمر على مكانها، ولا يفعل شيئاً اكثر من أن يقف على رأسها ويراها وهي تتمرغ في فراش القش وتغمغم بكلامها غير المفهوم. كان يقف قليلاً هكذا ثم يمضي عنها وهو يتصعب، فلم يكن يستطيع أكثر من هذا، إذ أن عرضها على طبيب المركز أو إرسالها لمستشفى الحميات مسألة محفوفة بالمخاطر، قد يكتشف أثناءها أنها الوالدة، وبالتالي القاتلة، وتكون الكارثة. كارثة لن تصيبهافقط،ولكنها ستصيبه هو الآخر باعتباره علم بالأمر وتستر عليه ولم يبلغ السلطات. كل ما استطاعه هو أن يأمر الأسطى زكي حلاق التفتيش الذي كان يشغل مركز حلاق الصحة

ويزاول الحلاقة وطهور الأطفال ووصف الأدوية لتقوية الباه وإعادة الشباب وعلاج الحمى، يأمره في السر وكأنما يخاف أن يضبطه الناس في لحظة ضعف وعطف أن يتولى علاج عزيزة ويحاسبه. ورغم أنه تولى علاجها فعلا، بعمامته البيضاء التي يرتديها فوق طاقيته البيضاء أيضاً وذقنه الحليق وشاربه الحليق والناب الذهبي الذي يتلألأ في فمه.. رغم أنه تولى علاجها إلا أن حالتها لم تزدد إلا سوءاً، حتى بدأت تتكرر نوبات إلقائها لنفسها في الخليج، وحينئذ أمر فكري أفندي الريس عرفه بأن تبقى أم الحسن جارتها معها لحراستها ولا تسرح الغيط وتحتسب يوميتها.

ومسألة اخرى ظلت سراً لم يعلم بأمره مخلوق. فالمودة بين مسيحة أفندي الباشكاتب وفكري أفندي المأمور كانت مفقودة بالمرة، ولم يفعل الخطاب الذي ضبطه مسيحة إلا أن زاد الطين بلة. ومن تلقاء نفسه كان مسيحة أفندي يتحين الفرصة ليمسك على المأمور خطأ ما، ويدبّه عريضة ينسخها الشيخ ابراهيم بخط يده ويرسلها باسم مستعار إلى الدائرة في مصر. وقد وجد مسيحة أفندي في احتساب يومية عزيزة وجارتها فرصة مواتية هبطت عليه من أبواب السماء الواسعة. وبعد أن تأكد من أحمد سلطان أنهما مقيدتان فعلا في دفتر اليومية، سهر ليلة بأكملها يدبج عريضة طويلة بهذا المعنى متهماً المأمور بأنه يزود في عدد الأنفار ويقتسم الفرق مع المقاول، ويزور في «شاليش» اليومية، وأن الشاهد على ذلك حي وموجود وما على جناب الخواجة إلا أن يرسل المفتش ليتحقق بنفسه مما ذكر.

وبعد أن اطمأن مسيحة أفندي إلى لهجة العريضة، وضعها في كيس المخدة تمهيداً لإعطائها في الصباح للشيخ «أبو» إبراهيم لينسخها ويرسلها.

وحين رقد مسيحة أفندي أخيراً والعـريضــة قد أصبحـت في كيس المخدة تحت رأسه، بدأ بعض التردد ينتابه، لماذا؟ لم يكن يدري. إنه لم يتردد أبداً في إرسال أية عريضة من قبل، فلماذا يتردد الآن؟ ولمـاذا يحس ببعض الخجل وصورة الظليلة الراقـدة تحتهـا عزيزة تراود خيالـه وصراخها وتخريفاتها تطن في رأسه وتشير اليه وتحاصره.

وحين استيقظ في الصباح تردد بين أن يأخذ العريضة وبين أن يتركهـا وأسلمه التردد إلى أن يسأل دميان قائلا دون أن يعرفه بشيء عن موضوع سؤاله:

ـ آخذها واللا اسيبها يا دميان؟

وبلل دميان أصبعيه وفرد كمه ورفع رأسه إلى السقف وقال:

ـ سيبها يا خويا ربنا يسهل لك.

وبقيت العريضة مطوية في كيس المخدة.

* * *

ظلت عزيزة راقدة في تلك البقعة المكشوفة التي تصليهـا الشـمس بنارها صباح مساء، لا يفلح سقف الظليلة الرقيق المملوء بالثقوب في دفع وهج الشمس عنها، ولا ينفع فيها صب الخل أو تدليك الجسد أو علاج الاسطى زكي الحلاق. ظلت عزيزة وأزيز الحمى في جسدها تكاد تسمعه جارتها أم الحسن وتحس به كلما أمسكت يدهـا. الذبـاب يعف عليهـا والعرق يكسوها وفترات غيبوبتها تطول وتعمق. بل انقلب تخريفها آخر الأمر إلى صراخ. إذا أفاقت من غيبوبتها لا تكاد تفتح عينيها وتقول لها أم الحسن: ازيك يا اختي دلوقتي؟ حتى تدب على صدرهـا بكلتـا يديهـا وتقول: يا لهوي! ثم تأخذ في لطـم خدودهـا وتمـزيق ثيابهـا ولحمهـا

بأظافرها رغم كل مجهودات جارتها ومن يتصادف مروره أو وجـوده في محاولة شل حركتها وتكتيف يديها، فلا تزيدها محاولات إيقافها إلا ثورة وهياجاً، ولا تكف عن تمزيق نفسها إلا حين تهوي مرة أخرى في سراديب الغيبوبة.

ولـم تعد الظليلة تلك السبة في جبين الغرابوة يحاولون إخفاءها وصرف الأنظار عنها. فحين عرفت الحكاية على أوسع نطاق وتمت إشاعتها بكل دقائقها وتفاصيلها لم يعد هناك ما يخجل له الغرابوة. . أصبحت شيئاً مثل لغتهم وفقرهم واحتياجهـم لا يحاولـون إخفـاءه أو التستـر عليه. وأهـل التفتيش أيضاً، اولئك الذين كانوا يتداولون حكايتها في السر وبإحساس من يتداول حراماً أو أمراً مخجلاً، أصبحوا يتحدثون عن الموضوع وكأن لم يعد فيه ما يدعو للخجل. تحول اهتمام الكل من حكاية عزيزة الـى عزيزة نفسها، عزيزة المريضة المسعورة التي تتعذب، حتى اصبحـت الظليلة التي ترقد تحتها وكأنها قبة شيخ، الفائت لا يمكن أن يمر دون أن يلقي نظرة. . ليسـت نظـرة حب استطـلاع أو تشف ولـكن نظـرة عطف ومشاركة، نظرة من يود لو كان باستطاعته أن يفعل شيئاً ليخفف عن تلك المسكينة المحمومة المعذبة.

تحول اهتمام الكل إلى عزيزة، وتحولت عزيزة الى ذئبة ضارية فاقدة العقل إذا أفاقت، جثة هامدة لا يربطها بالحياة إلا تلك الحرارة المريضة التي تتصاعد منها إذا غابت عن الوعي.

إلى أن جاء اليوم العاشر. .

ومن أوله استيقظت أم الحسـن فوجـدت بوادر التحسـن بادية علـى عزيزة. حرارتها قد انخفضت كثيراً عن ذي قبل، وعيناها مفتوحتـان بلا

غيبوبة ولا هذيان، وأنفاسها تتردد بطيئة في صدرها، ولكنها منتظمة وممتلئة. وفي الضحا انفرجت شفتا عزيزة، وأصاخت أم الحسن أسماعها ولكنها لم تستطع أن تلتقط شيئاً من بين الشفتين المنفرجتين، وأخيراً وبعد بذل الجهود استطاعت أن تتبين ان عزيزة تقول: أشرب! وقامت أم الحسن من فورها هالعة، وأحضرت لها كوز ماء من زلعتها وقربته من فمها، وشربته عزيزة على دفعات، ولكنها أتت عليه كله. وسألتها إن كانت تريد ماء آخر؟ وانفرجت شفتا عزيزة وقالت بكلمات واضحة هذه المرة: أشرب. وجرت أم الحسن وأحضرت كوزاً آخر شربته عزيزة، وما لبثت أن أغلقت عينيها وبدا أنها ستنام ذلك النوم الذي حرمت منه طويلاً.

وانبثقت فرحة غامرة في صدر ام الحسن وهي تتحسس جبهة عزيزة فتجدها وكأن حرارتها قد أصبحت طبيعية، وتجدها نائمة لا يكاد يفرقها عن الأصحاء إلا ذلك الشحوب الشديد الذي يصبغ وجهها.

وفي الظهر. في عز الظهر، تلك الفترة التي تقف فيها الحياة تماماً ويئوب الناس إلى غداء يسلمهم إلى غفوة لا يفيقون منها إلا في طراوة العصر. في الظهر فتحت عزيزة عينيهافجأة،وكأنها لم تكن نائمة، وانفرجت شفتاها وقالت شيئاً. وأدركت أم الحسن أنها تريد أن تشرب، وطلبت من ابن الريس عرفه الصغير أن يذهب ويملأ لها الكوز من زلعتهم فقد فرغت زلعتها، وذهب الولد بالكوز الفارغ. في تلك اللحظة فوجئت أم الحسن بعزيزة تعتدل وتقفز جالسة، ثم تطلق صرخة عالية مدوية ما لبثت أن اعقبتها بصرخات هائلات مدويات. وقبل أن تستطيع أم الحسن أن تدرك أو تعي ما يحدث، وقفت عزيزة وهدمت الظليلة، وما لبثت أن انطلقت تجري ناحية الخليج وهي تصرخ. وبلاوعي ،تبعتها أم الحسن

وهي تجري هي الاخرى وتصرخ وتستغيث بالناس، مخافة ان تكون عزيزة انتوت أن تلقي بنفسها في الخليج كما كانت تفعل. وعلى صرخاتها جاء الناس من كل مكان، من العزبة ومن الجرن ومن فوق ماكينة الدراس جاءوا هالعين يرون ما هنالك. وقالت لهم ام الحسن: الحقوها ح ترمي روحها في الخليج. وجرى الناس يحاولون منعها، ولكنها انهالت عليهم عضاً ورفساً ونشب أظافر بطريقة مجنونة متوحشة لم يملكوا معها إلا التراجع. ولكنها لم تلق نفسها في الخليج. انطلقت تجري حتى وصلت الى نفس المكان الذي وجدوا فيه اللقيط والذي كانت لا تزال فيه آثار الدماء سوداء جافة.

وبين دهشة الملتفين حولها وذهولهم جلست عزيزة القرفصاء على حافة الخليج ،وكأنها تتهيأ للولادة، وانطلقت من فمها صرخات متواليات وكأن الطلق اشتد عليها، ثم عسعست بيدها حتى عثرت على عود الصفصاف الذي احترق نصفه والذي كان لا يزال في مكانه من الحافة وأطبقت عليه أسنانها واتخذت هيئتها طابعاً جنونياً مذعوراً وهي تضغط على العود وتنشب أسنانها فيه. وظلت تضغطبتوحش وتضغطوهي تدمدم بأنين محتبس كاسر والدم يسيل من فمها وأسنانها فيلوث العود، وعيناها جمرتان متوهجتان، وشعرها منكوش كشعر الجان، ويداها تعتصران طين الخليج فتحيلانه الى تراب جاف. وفجأة. وكأن شيئاً طق في داخلها تهاوت ممدة على حافة الخليج لا حراك بها.

حدث هذا كله في دقائق قليلة، والناس مشدوهون مذهولون قد جمدهم ما يحدث في أماكنهم،ولم يبدءوا يتحركون إلا حينما انهارت عزيزة. وحين أسرعوا اليها يتحسسونها وجدوها قد ماتت.

وتصاعد من الرجال جئير عريض يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله . . لا حول ولا قوة إلا بالله ، ونهنهت النساء القليلات الحاضرات، وبكت أم الحسن بحرقة وهي تحاول مستعينة بالرجال أن تخلص عود الصفصاف من بين الفكين الميتتين عليه.

اما ابن الريس الصغير الذي كان قد جاء بالكوز ممتلئاً لتشرب منه عزيزة، فقد عاد به الى عشهم، ولكنه توقف بعد قليل واستدار ناحية الخليج والقى فيه بالكوز ولم يلبث أن تصاعد بكاؤه.

* * *

ولم يصل الخبر للترحيلة في الغيط إلا بعد الغداء، ولم تستطع جهود الريس أو خولة التفتيش أن توقف ما حدث لهم حين سمعوا الخبر. فقد دب الاضطراب في صفهم الطويل، وحين انهالت العصى الخيزران فوق ظهورهم تأمرهم بمواصلة العمل اعتدلت الظهور لأول مرة واستدار أصحابها يواجهون الخولة والسواقين بعيون مفتوحة لا تطرف، ونظرات تنذر بثورة لا يعلم سوى الله مداها، ثورة الصامتين الذين طال بهم الصمت والصبر. والغريب أن الخولة والسائقين حين رأوا تلك النظرات بدءوا يغيرون طريقتهم في الحال، فكفوا عن الإهانات والخيزرانات وبدءوا يتحايلون ويسوقون الرجاوات قائلين إن عيشهم معلق بما سوف يحدث، وأنهم غلابة وأصحاب عيال.

وانتهى العمل قبل موعد انتهائه المعتاد بأكثر من ساعة، وعاد أنفار الترحيلة يتسابقون على المشايات ويستعجلون إنهاء الطريق.

وفي الماء حفل مكان الترحيلة الكائن خلف الاصطبل بعدد كبير من الناس لم يشهد له مثيلاً. فقد جاء الفلاحون من العزبة الكبيرة والعزب

الأخرى، وجاءت معهم بعض نسائهم، جاءوا يعزون الترحيلة تعزية الرجل للرجل والند للند. وكانت عزيزة قد وضعت في المكان الذي رقدت فيه أثناء مرضها وغطيت بكيس من أكياس القطن التي كانت تستعمل لهز الدودة، والتف حولها نساء الترحيلة ومن جاء ليعزيهم من نساء العزبة، بعضهن يبكي في صمت، وبعضهن يعدد على عزيزة وميتتها في بلاد الغربة بعيدة عن دارها وزوجها وأولادها، وبعضهن يتحدث ذلك الحديث الذي لا يحلو للنساء إلا في المآتم والجنازات حديث تحكي فيه المرأة من العزبة للمرأة من الترحيلة أو المرأة من الترحيلة للمرأة من العزبة عن وكستها وميلة بختها مع زوجها المقصّر وثوبها الذي لا يصر حِفان ملح من كثرة ما به خروق وثقوب، وأولادها الأشقياء وبنتها التي يجري عليها عريس عنده فدانان.

أما رجال الترحيلة فقد جلسوا غير بعيد في مقدمة الجرن يتقبلون عزاء رجال التفتيش، وقد اختلطت العمم بالعمم والجلاليب بالجلاليب فلم تعد تستطيع ان تميز الفلاح من الترحيلة ولا صاحب المأتم من المعزِّي. بينما الشيخ أبو ابراهيم الفقي قد احتل دكة النوارج الواقفة على «رمية» قمح نصف مدروس، ومضى يتلو بصوته الأجش المبحوح بعض ما تيسر من سورة النساء، والشمس قرصها يحمر ويغيب خلف كومة التبن الهائلة المتخلفة عن دراس المكنة.

ودوناً عن الجميع كان دميان في ذلك الوقت يحوم حول بيت المأمور بلا سبت معلق في ذراعه منتظراً ربما أن تطل الست ام صفوت من البلكونة ليحادثها، ولكنها لم تطل، إذ كانت في ذلك الوقت جالسة على كنبة الصالة وأمامها جلست على الأرض بنت من الترحيلة تدلك لها قدميها وتحكي لها عن عزيزة وزوجها وكيف يعيشون في البلدة.

ظل دميان يحوم حول البيت ويتردد، إلى أن واتته الجرأة فدخل من الباب الخلفي الذي يؤدي الى الحوش والمطبخ، دخل وهو يزعق:

ـ يا ست ام صفوت.. يا ست ام صفـوت.. مش عايزة اقـرى لك الفنجال؟.

يزعق بنفس طريقته ونفس صوته الرفيع الذي يشبـه صوت الأطفـال ولكنه كان يشعر لحظتها برجفة غريبة عليه وعلى دميان.

وبعد دقائق كان دميان يغادر بيت المأمور من بابه الأمامي مطروداً هذه المرة ملعوناً أبوه، وظل يمشي على غير هدى إلى أن وصل إلى الجـرن حيث الجمع الكبير المحتشد، وتردد برهة بين أن يذهب إلى حيث الرجال في الجرن أو إلى حيث النساء حول عزيزة في مكان الترحيلة. ويبدو أنه خاف من جمع الرجال إذ ما لبث أن توجه إلى حيث النساء مجتمعات حول عزيزة. وبـكى دميان في ذلك اليوم بحرقـة حتـى كاد يضحـك بحرقتـه النساء.

وأمام مباني الإدارة، وعلى بضع كراسي قديمة متناثرة معظمها قد سقط خوص قاعدته كان فكري أفندي المأمور جالساً وحولـه مسيحـة أفنـدي وأحمد سلطان والأسطى محمد والشيخ عبد الوارث الكبير والمخزنجـي ورئيس الخولة، ومن بعيد كان يرقـب جلستهـم بعض الفـلاحين الذين يؤثرون التطفل وتسقُّط الأخبار والعلم بكل ما يدور في التفتيش من أمور. وكان المأمور يتدارس مع الرجال المجتمعين حوله الحل الذي انتهى إليه في أمر عزيزة. فقد خلقت له عزيزة بوفاتها مشكلة لم تكن تخطر له على بال.. إذ هو لا يستطيع الإبلاغ عن وفاتها أو دفنها في التفتيش فسـوف يتطلب الإبلاغ كشفاً يوقع على المتوفاة، ومن يدري ما يمكن أن يؤدي إليه الكشف من تستر على جانية وتحقيق وسين وجيم. ولم يكن هناك من حل

إلا أن ترسل ميتة إلى بلدها، وهناك يتكفل الحاج عبد الرحيم مقاول الترحيلة بأمرها فهو المسئول الأول والأخير عن أنفاره وحياتهم، ولا بد أن يكون أيضاً مسئولاً عن موتهم، فيمكنه أن يتفق مع عمدة بلده ـ وهو صاحبه وقريبه ـ على الإبلاغ عن وفاتها باعتبار أنها لم تكن في الترحيلة أو كانت هناك ثم لما عادت مرضت وماتت في بيتها. أو يمكنه أن يصنع أي شيء آخر يخلي التفتيش والمأمور من المسئولية. ممكن أي شيء ولكن الشيء المحتم الذي لابد منه هو أن تنقل جثة عزيزة الى بلدها.

ونقلها هو المشكلة التي ظلت تحير فكري أفندي طويلاً حتى عثر لها على حل. وكان الحل في عربة التفتيش اللوري التي تذهب كل خمسة عشر يوماً إلى بلد الترحيلة لتحضر لهم زوادتهم من عيش غرباوي وجبنة وبصل وعدس ومش. ولم يكن ميعاد ذهاب العربة قد حل، ولكن تقديم هذا الموعد ليس بالأمر الخطير غير المستطاع.

وكان المأمور قد أرسل في طلب الأسطى عبده سائق اللوري وأخذ يفهمه بلهجة جادة تعمد أن تكون لهجة أمر لا تسمح للأسطى عبده بالتحجج أو التهرب، يفهمه مهمته، وما يجب عليه عمله . وأبدى الأسطى عبده بعض التردد وأثار بعض الاعتراضات. . تكفل الأسطى محمد العجوز بالرد عليها جميعاً. ولم تبد على ملامح الاسطى عبده الموافقة النهائية إلا بعد أن تعهد له المأمور أنه سيكون مسئولاً مسئولية تامة لو حدث شيء لا قدر الله. وحينئذ فقط ارسل الاسطى عبده طاقيته الصوف الطويلة وجلبابه، اللذين يرتديهما في العادة، أرسلهما الى بيته طالباً من امرأته أن تبعث له بالبدلة الكاكي التي يرتديها حين يسافر. ثم مضى الى الجاراج يعد اللوري للرحلة الطويلة التي عليه أن يقطعها على

سكك متعبة غير ممهدة لكي يبعد قدر طاقته عن عساكر المرور وأكشاكهم.

وحين أعدت العربة وتم كل شيء كان الظلام قد خيم، وكان ميعاد ذهاب أنفار الترحيلة إلى الغيط قد حان.. إذ كانت اللطع قد فقست في العزبة نمرة عشرة وكان الأنفار يعملون بالنهار في التقاط اللطع ويسرحون بالليل ـ لقاء أجرة ثانية ـ لهزّ أشجار القطن وجمع الدودة من فوق أوراقها، الدودة التي تختفي في النهار في شقوق الأرض ولا تبدأ زحفها الفاتك إلا في الليل.

وكانت عملية الهز تتم في وسط أنوار الكلوبات الساطعة، والعمل فيها يبتهج له الأنفار اكثر، إذ هو عمل في الليل حيث الجو معتدل ولطيف وحيث الأغاني، والنور الساطع، والظلام الذي يتيح بعض اللعب، يتيح لليد الخشنة أن تمتد الى الجارة ويتيح للجارة أن تتغابى وتسكت.

كان الأنفار يسعدون بالعمل في الليل رغم كل شيء، ورغم أنهم كانوا يعملون أيضاً في النهار، ولا ينامون سوى تلك السويعات القليلة التي يختلسونها ساعة الفجر وساعة الغروب، ولكنه عمل بأجرين والجسد المرهق ليس مشكلة.. المشكلة في القرش والفرصة التي جاءت من السماء لاقتناصه واستخلاصه.

كان ميعاد ذهاب الأنفار للغيط قد حان، ومع هذا أبوا ورفضوا أن يتحركوا قيد أنملة إلا بعد أن يودعوا عزيزة الوداع الأخير.

وحانت اللحظة التي كان على عزيزة أن ترحل فيها، وجيء باللوري وهو يجأر ويتراجع به الأسطى عبده إلى الخلف، ويزجر الأطفال الذين يتعلقون بجوانبه ويلعن آباءهم ليستطيع أن يصل إلى أقرب نقطة من

المكان الذي ترقد فيه عزيزة، ووقف الرجال واجمين متزاحمين حول اللوري، وما كاد يرتفع صراخ النساء حتى هب فيهن المأمور طالباً السكوت التام مهدداً بكسر عنق الواحدة منهن لو فتحت فمها، فالعملية كان يجب أن تتم بهدوء وبلا إعلان أو فضيحة.

وعلى ضوء كلوب جنيدي الباهت الذي كثيراً ما كان يشحر ويختنق نوره، لفت عزيزة بالكيس الذي كانت تتغطى به، وتبرع الشيخ عبد الوارث بحصير بال من عنده لف فوق الكيس، ثم حملت الجثة ملفوفة بالحصير بين نهنهة النساء وصمت الرجال الواجم، ووضعت على أرض صندوق اللوري الخشبية. وجمعت كل القفف والزلع والبلاليص الفارغة من الترحيلة ـ وعلى كل منها علامة ليعرف صاحبها، جمعت ووضعت فوق الجثة لتداريها وتخفي معالمها، ثم صعد الريس عرفة الى العربة وصعد معه بعض أنفار الترحيلة من الرجال، وتصاعدت صرخة من أم الحسن طالبة أن تذهب معهم، فالمتوفاة حرمة وكلهم رجال، وليس أجدر منها بالمحافظة عليها، ولم تغلق فمها إلا حين حملت إلى اللوري ووضعت فيه. وعبد المطلب الخفير أصر على أن يرافقهم ليشيع عزيزة إلى مقرها الأخير. قائلاً إنه لا يمكن أن يترك الأسطى عبده يذهب وحده في تلك المهمة الخطرة.

وأخيراً قال فكري أفندي المأمور لعبده بأنفاس متهدجة:

ـ اتوكل على الله يا اسطى.

وقال الأسطى عبده وهو يجذب عصا «الفيتيس»:

ـ توكلنا على الله.. الفاتحة..

وانسل اللوري وقد تعالى صوت ماكينته من بين مئات الرجال والنساء

المتجمهرين، الذين لا يضيء وجوههم الشاحبة إلا كلوب جنيدي الشاحب، والذين لم يتمالك بعضهم نفسه فانفلت صوته رغماً عنه:

ـ مع السلامة يا عزيزة.. مع السلامة..

* * *

وبعد قليل كانت العربة قد استوت على الطريق الزراعي الكبير الذي يمر بحذاء شريط الدلتا، السائق صامت واجم يدخن السيجارة التي عزم عليه بها الريس عرفه، وعبد المطلب بجواره صامت هو الآخر وواجم. أما مَن في صندوق العربة فقد كانوا جالسين متشبثين بحافة الصندوق وكأنهم يتحاشون الجلوس فوق إبر حادة، كلما هزتهم العربة تشبثوا بالحافة أكثر محاولين قدر الطاقة أن يبتعدوا عن كومة القفف والبلاليص التي ترقد تحتها المرحومة.

وبينما العربة تئز وتتمايل بحمولتها، وأزيزها المكتوم تحمله الرياح وتتشربه على مهل كتل الظلام الهائلة الرابضة على صدر الكون، كان خط أنفار الهز قد انتظم تحت ضوء الكلوبات المعلقة على عروق طويلة والعصى الخيزران قد بدأت ترتفع وتهوي على الظهور المحنية، بينما أصوات الخولة والسواقين تصرخ بنبرات متقاربة متلاحقة:

ـ وطي يا ولد.. وطي يا بنت.

خاتمة

وانتهى العام ورغم كل شيء كللت جهود فكري أفندي بالنجاح وهزمت الدودة رغم فقسها، وسلم المحصول، وعاد الغرابوة إلى بلادهم.

وحين جاء العام التالي على التفتيش، وجاء الغرابوة كان الفلاحون لا يزالون يذكرون بعضاً مما حدث لعزيزة وحكايتها، ولكن الحاجز الذي كان قائماً بينهم وبين الترحيلة كان قد زال نهائياً وإلى الأبد، وأصبح من المعتاد أن يسهر رجال الترحيلة مع أهل العزبة في بيوتهم، وأن تختلط النساء بالنساء، بل حدث ما هو أكثر من هذا إذ تزوج سالم أبو زيد أحد «كلافة» التفتيش ببنت غرباوية راقت في عينه فخطبها، ثم ذهب إلى بلدها حين عادت في جمع من فلاحي التفتيش ليخطبها من أهلها وعادت عروسة.

ولم يشهد العام التالي فكري أفندي مأموراً للتفتيش، فالخواجة زغيب كان قد باعه حقيقة للشركة البلجيكية التي عينت له مأموراً كالخواجات من عندها، وإن كان قد عرف بعد هذا أنه تركي ومسلم، ولكن له شكل الخواجات وهيئتهم، ولكن الشركة والمأمور الجديد لم يدوما طويلاً أيضاً، إذ ما لبث الشركة أن باعت الأرض للأحمدي باشا حين عرض

عليها ثمناً مناسباً بلغ ربحها فيه آلاف الجنيهات، وقلب الباشا نظام المزارعة الذي كان سائداً في التفتيش إلى نظام الإيجار على بياض ووضع هو فيها ما شاء من شروط.

ولم يفاجأ الناس حين أصبحوا ذات يوم فوجدوا أحمد أفندي سلطان قد قدم استقالته من عمله وغادر التفتيش، وقيل إنه وجد وظيفة كاتب في مكتب أحد محامي المختلط في طنطا.. لم يفاجأ الناس لعلمهم أن أحمد سلطان كان على الدوام ضيقاً بالعمل في التفتيش معتبراً أنه يضيع عمره وشبابه فيه برخص التراب. الناس فوجئوا حقيقة حين اختفت الست لنده ذات يوم، وجن مسيحة أفندي وهو يطوف البلاد طولاً وعرضاً ويبحث عنها، وزالت المفاجأة وانكشف السر حين عرف أنها ذهبت لتتزوج من أحمد سلطان، وأن الزواج تم في مركز البوليس، وأن استقالته واختفاءها وكل شيء تم باتفاق بينه وبينها. وأضاف ما حدث إلى عمر مسيحة أفندي عشرات الأعوام، فشاب معظم شعره وأصبح لا يهتم بنظافة ثيابه أو وضع المناديل لتحمي ياقته من عرقه، وقاطع لنده وزوجها وآلى على نفسه وأولاده وزوجته ألا يعرفوها أو يروها أو تأتي سيرتها على ألسنتهم. ولكن الأيام ـ آه من الأيام ـ ما لبثت أن جعلته يغفر وينسى، ويرد على الخطابات الكثيرة التي ظلت لنده ترسلها إليه كل اسبوع بخطاب متزمت مقتضب ولكنه يبدأ بتلك العبارة:

ـ ابنتنا العزيزة لنده..

ومضت الأعوام تشهد خلافات من نوع جديد تنشب بين الفلاحين الذين اصبحوا مستأجرين وبين الأحمدي باشا.. محاكم ومحضرين وحجوزات، وحراس على البهائم والمنقولات، وبيوعات بالمزاد العلني، وحرائق كيدية في سواقي التفتيش ومكنه ومحاصيله.

وقامت الثورة، وصدر قانون الإصلاح الزراعي، وباع الأحمدي باشا الأرض للفلاحين، وباع كذلك كل معدات التفتيش من بهائم وركائب وماكينات حرث وري ودراس، حتى السراية والمخازن الضخمة هدمها وباعها أنقاضاً. وكذلك استغنى عن جميع الموظفين والخولة والأسطوات والأنفار. وغادر بعضهم التفتيش، وانقلب بعضهم الى فلاحين واشتروا ارضاً، والوحيد الذي بقي موظفاً هو مسيحة أفندي الذي عهدت إليه دائرة الأحمدي باشا بإمساك حسابات المائتي فدان التي بقيت على ذمة الباشا.

وتغيرت معالم التفتيش تماماً، فلا سراية، ولا اصطبلات، ولا إدارة ولا مأمور، ولا مفتش، ولا شغيلة أو خفراء أو تملية، ولكن مجتمع جديد أصبح هو الموجود، مئات الملاك الصغار يقطنون نفس البيوت التي كانوا يقطنونها وهم أجراء وفلاحون، مئات الصغار الذين بدأ بعضهم يكبر ويغتني ويؤجِّر، وبدأ بعضهم يصغر ويحتاج ويستأجر.

مضت الأعوام وتعاقبت التغيرات، وانقطع بطبيعة الحال مجيء الترحيلة، ونسيهم الناس تماماً ونسوا كل ما كان من أمرهم وأمر عزيزة. .

كل ما تبقى منهم ومنها شجرة صفصاف قائمة إلى الآن على جانب الخليج الذي لم يغيره الزمن، يقال إنها نمت من العود الذي استخلصوه من بين أسنان عزيزة بعد موتها فطمس في الطين ونبت، وكان أن أصبح تلك الشجرة. وأغرب شيء أن الناس لا يزالون يعتبرونها إلى الآن شجرة مبروكة، وأوراقها لا تزال مشهورة بين نساء تلك المنطقة كدواء أكيد مجرب لعلاج عدم الحمل.

«انتهت»

يوسف إدريس

ح. التونى

الروايات

المحتويات

تمت الروايات

الجزء التالي من الأعمال الكاملة للدكتور يوسف إدريس (القصص القصيرة) وتليها المسرحيات والانطباعات تباعاً.

مطابع الشروق

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقياً: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقياً: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN

يوسف إدريس

الروايات 1